حرب أمريكيّة

رواية

عمر العقّاد

ترجمة مجدي عبدالمجيد خاطر

عمر العقّاد

حرب أمريكيّة

رواية

روايات، مجموعة كلمات

جميع الحقوق محفوظة©

إلى أبي.

«جانيكَ مَن يجني عليك»

- كتاب الأغاني.

«جَارِحَةٌ ضَبُعٌ مِيرَاثِي لِي. اَلْجَوَارِحُ حَوَالَيهِ عَلَيهِ. هَلُمَّ اجْمَعُوا كُلَّ حَيَوَانِ الْحَقْلِ. إِيتُوا بِهَا لِلأَكْلِ»

- سفر إرميا، الإصحاح الثاني عشر: الآية التاسعة.

The United States, circa 2075

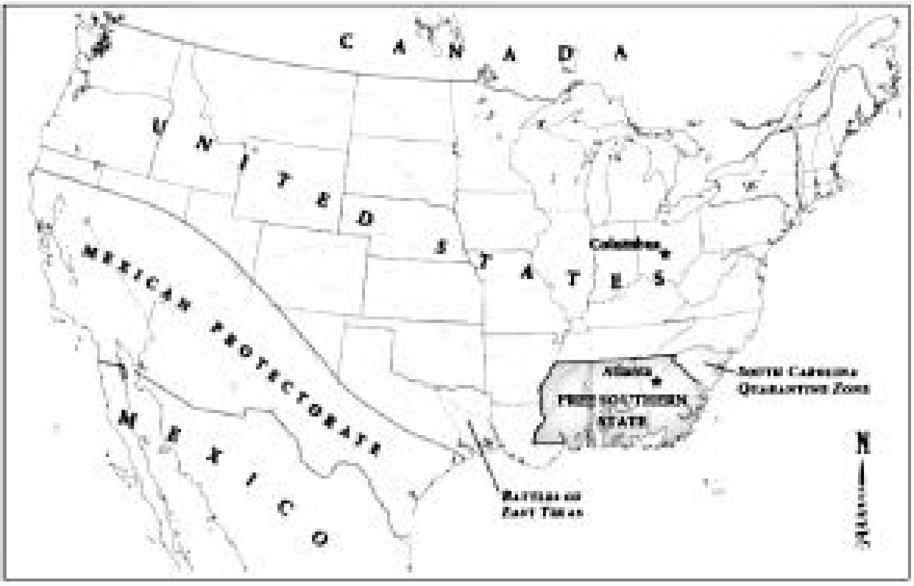

The Free Southern State, circa 2075

مقتطف مِنْ:

هذا ما تطالب به دماؤنا:

برقيّات من الجنوب المتمرّد

كانت ساعات الضحو هي الأشدّ قسوة. ترقد ساكنة في الفراش. العقل متّقد، والجسد مشلول، عاجزًا عن مواجهة النهار. أمسكت دبّوس أمّها المزخرف على هيئة فراشة بين يديها، تحسّ نعومة أحجاره الزمرديّة بين أصابعها. سمحت لها الممرّضة بالاحتفاظ به، بعد أن انتزعوا الدبّوس المعدنيّ من ظهره.

كان ذلك فيما مضى، قبل أن تصبح جوليا تمبلستون أوّل شهيدة من متمرّدي الجنوب، أوّل قاتلة جنوبيّة، شفيعة الحرب. دائمًا ما يُنسى أنّه كانت هناك أيام قبلها. لقد جنّدها المتمرّدون بينما الضمادات ما تزال دافئة حول معصميها. وجدوها داخل حانة في شارع فاريش في الجهة المقابلة من سينما آلامو المهجورة. سقطت من يافطة الحانة الرأسيّة حروفها الأولى والأخيرة. وكانت تلبس فستانًا باليًا غريبًا، أعطته لها إحدى الممرضات. كانت ثملة، ووحيدة مرّةً أخرى برفقة مرض دماغها المروّع.

كانوا يعرفون كيف يجدون أجدر المؤهّلين للمهمّة. نشروا عيونهم داخل المستشفيات حيث فتّشوا عمّن حاول الانتحار، وداخل المدارس بحثًا عن المنبوذين، وداخل الكنائس بحثًا عن المتطرّفين الجاهزين المحمومين بفتنة الرّبّ.

مِن هؤلاء، شكّلوا أسلحة.

في اليوم الّذي كان مقرزا فيه مجئ الرئيس إلى جاكسون، نقلوا جوليا إلى بيتٍ ريفيٍ مهجور يبعد عشرة أميال جنوب المدينة. وهناك زوّدوها بالمتفجرات. تقرّر أنْ تحضُر الجمع بهيئة امرأة حامل، وحشوا تجويف بطنها الزّائف بعجينة سميكة من السّماد ووقود الديزل، وزرعوا داخلها مسامير معدنية. أطلقوا على القنبلة اسمَ ثوب الفلّاح. وامتد سلك حول صدرها إلى أسفل ذراعها الأيسر، غطّاه كُمّ قميصها. انتهى بمفجّر مربوط حول رسغها.

سوف يتذكّرونك إلى الأبد. قالوا لها. وحين تنتهي الحرب سيشيّدون مُدنًا يُطلقون عليها اسمك.

استهلال

في صغري، كنتُ أجمع البطاقات البريديّة وأحتفظ بها داخل صندوق أحذية أسفل فِراشي في ملجأ للأيتام. فيما بعد حين انتقلت إلى أوّل بيتٍ لي في أنكوريج الجديدة، وضعت الصندوق في قعر برميل نفط قديم داخل سقيفة أدوات متداعية. كنتُ قد أمضيتُ أغلب حياتي في دراسة تاريخ الحرب، فوجدتُ بعضًا من الاتزان النفسي في جمع اللقطات الفوتوغرافيّة لعالم كان ذات يوم مثاليًا وهادئ البال.

كنتُ أفكّر أحيانًا في التخلّص من البرميل. لكنّ قلقًا كان يساورني من أنْ يراه أحد، زميلٌ لي في الجامعة مثلًا، فيظنّه بيانًا سياسيًا فظًا يُشبه الراية الانفصاليّة العابرة، أو أحشاء سيّارة رياضيّة كالتي أمام المنازل في الولايات الحمراء القديمة -خليّ التمرّدِ ضعيف الحيلة، ومكاييل ماضٍ خراب ومُخرّب. أنا، على أي حال، جنوبيّ المولد. ورغم أنّي أعيشُ في ولاية مُحايدة مُذ كنتُ في السادسة، ولم أتكلّم قط مع أي شخص عن حياتي التي مضت، غير أنني أعجز عن استبعاد احتمال أنْ يظن بعض زملائي فيّ، سرًا، أنّني لم أزل أحمل شيئًا من التمرّد الأحمر في عروقي.

ترجع بطاقاتي البريدية الأثيرة إلى ثلاثينيات وأربعينيات القرن الحادي والعشرين. العقدان الأخيران قبل أنْ يُجهز الكوكب على البلاد وتُجهز البلاد على نفسها. كانت تُبرز صورًا لشواطئ المحيط الشاسع قبل

أن تغمرها المياه، وللجنوب الغربيّ قبل أن يتحوّل إلى جفر. صور لسهول الغرب الأوسط الخالية المترامية الأطراف تحت سماء شديدة الزُرقة قبل أن تملأها الهجرة الدّاخليّة بالنازحين من سكّان السّاحل. تذكير بصَريّ بأمريكا كما كانت في النصف الأوّل من القرن الحادي والعشرين: مُحلّقة، هادرة، وغافلة.

أذكر أوّل بطاقة بريديّة اشتريتها. كانت صورة فوتوغرافيّة لمدينة أنكوريج القديمة، بينما ضفّتها المائيّة مرتفعة جرّاء ثلوج تساقطت عليها حديثًا، وقد تغطّى سطح الماء بألواح من الجليد وغطست الشّمس وراء الجبال.

كنتُ في السادسة حين شاهدت أوّل غروب ألاسكيّ حقيقيّ. آنذاك، وقفتُ على سطح زَورَق مُهرِّب بضائع، صبيٌ من جورجيا لَسعَتْه الشّمس، محضُ لاجئ.

أذكر ملمس النّدف الأبيض الغريب فوق أهدابي، واصطكاك أسناني اللاإرادي - إذ كنتُ أحسّ، لأوّل مرّة في حياتي، بالبرد. ولمّا رأيت بالقرب من قمم الجبال قرص الشّمس الأصفر يتدلّى من السّماء، فكّرت أنّني بلغت آخر تخوم العالم الحيّ. آخر تخوم الحياة.

* * *

أنتمي لِما يطلقون عليه الجيل الأعجوبة: هؤلاء الّذين وُلِدوا في الأعوام بين بداية الحرب الأهليّة الأمريكيّة الثانية عام 2074، ونهايتها عام 2093. البعض يوسّع التعريف أكثر ليشمل هؤلاء الّذين وُلِدوا خلال سنوات

الوباء العشر التي تلَت نهاية الحرب. لهذه البلاد تاريخ طويل في تعريف أجيالها وفق الصراعات التي لابد أزهقت أرواحهم، وجيلي ليس استثناءً من ذلك. نحنُ القِلّة التي هربت من حنق الانتحاريين والطائرات المقاتلة دون طيّارين؛ القِلّة التي حُشرت داخل الأقبية المزدحمة أو ملاجئ الأعاصير قبل انتشار وباء إعادة توحيد البلاد في كلّ أرجاء القارّة، القِلّة المحظوظة بكلّ بساطة.

لقد عكفتُ طوال حياتي المهنية على دراسة حرب هذه البلاد الضروس ضدّ نفسها. كتبت أوراقًا بحثيّة ومقالات في المجلّات، وترأست ما لا يُحصى من الندوات وورش العمل. درست كل ما نجا من الوثائق الأصلية؛ وتقارير الكونجرس؛ والتاريخ الشفهي؛ وشهادات الناجين من الوباء المروّعة. أعدت بناء أحداث يوم الوحدة الجديدة المُخزية، عندما نجحت إحدى اللائي تبقّين من متمردي الجنوب بالتسلّل داخل عاصمة الاتحاد، وأطلقت عنان مَرَض كلّف البلاد عشر سنوات كاملة من الموت. قُدِّرَ عدد من لقوا حتفهم أثناء الحرب بأحد عشر مليونًا، وضعفهم عشر مرّات تقريبًا أثناء الوباء.

تلقيت ما لا يُحصى من رسائل القرّاء والنقّاد الّذين يعارضون كافّة التفاصيل التاريخية التي أوردها. هل كان المتمرّدون مسؤولون حقًّا عن عمليّة انتحاريّة بعينها، أو هل كانت مذبحة كذا وكذا بالسّوء الّذي تصوّره دعاية الجنوبيين؟ تضمّ ملفاتي المئات من تلك

المراسلات، كلها تنويعات على الموضوع نفسه: أنني أنا، الشمالي المدلّل، ابن أنكوريج الجديدة، أحد الأفراد الصفوة من ولاية مُحايدة، لم أشهد قط يومًا من القتال الحقيقي، وأجهل جوهر الحرب.

لكن هناك أمورٌ أخرى لا يعرفها أحد غيري. أعرفها لأنّ تلك الفتاة أخبرتني بها. ومعرفتي هذه تجعلني متورطًا بها.

* * *

الآن، وأنا أقترب من نهاية حياتي، أقضي وقتي في استعراض ما مرّ بي أثناء شبابي. اكتشفت مؤخرًا أول بطاقة بريديّة اشتريتها. مضت أكثر من مائة سنة منذ التُقطت الصورة التي تزيّنها، فانمحى كل ما بها عدا البحر والجبال. أنكوريج الجديدة، امتدادٌ من المباني الخفيضة والضواحي المؤسسة عند سفوح التلال، ازداد زحفها إلى الأراضي الداخليّة بعيدًا عن السّاحل على مرّ السنين. فقد ارتفعت أحواضُ السّفن حيث وصلت أنا ذات يوم يتيمَ حربٍ مشوّش، وتحصّنت مرّة تلو الأخرى. أمّا أرصفة الميناء المصنوعة من الخشب المعقود التي كانت موجودة يومًا، فقد حلّت مكانها منصات منتظمة صُممت كي يتم فكّها ونقلها بسرعة. إذْ لا تستأذن العواصف الضارية عند المجيء.

أمشي بين الحين والآخر بمحاذاة ضفّة أنكوريج الجديدة، وأمرّ برصيف الميناء والمرفأ. هذه أقرب نقطة أستطيع الوصول إليها الآن، دون استئجار مركب صيد،

من مكان وصولي الأوّل إلى الولاية المُحايدة. ينصحني طبيبي بالمشي بانتظام، وأنه من الضروري بالنسبة لي الحفاظ على هذه العادة طالما لا تُسبّب لي ألمًا. أحسب أنّ هذه الوصفة هي القُوت غير المؤذِ الّذي يُطعمه لمَرْضاه في محطّاتهم الأخيرة، أعني هؤلاء الّذين انتقلوا منذ زمن بعيد من مرحلة «*سيفيدك هذا*،» إلى «*لن يضرّك ذلك*.»

الاحتضار حالة غريبة. فلقد ظننتُ لفترة طويلة أنّ نهاية حياتي ستأتي بغتة. سيعثُر الوباء على طريقه إلى الشمال في الولاية المُحايدة، أو ستتمرّد الولايات الحمراء من جديد لنسقط داخل موجة اقتتال أخرى. لكن، بدلًا من ذلك، حُكِمَ عليّ بخَوْض أكثر المِيتات عاديّة، من خلال تعرّضي لتلف الخلايا المُفرط. لقد قرأت ذات مرّة أنّ السرطان متوسّط الشّدة هو، من وجهة نظر براغماتيّة، أي أنه ليس سوى طريقةٍ لائقةٍ للموت - ذلك أنه لا يفرض على المريض سنوات طوال من المعاناة، بل يُتيح ما يكفي من الوقت كي تسنح له الفرصة لإجراء الترتيبات الضروريّة، وأن يقول ما ينبغي أن يُقال.

* * *

لم يسقط الثلج منذ سنوات، لكن تتسلّق نوافذنا، من حين لآخر في أواخر يناير، طبقة رقيقة من الجليد. في تلك الأيام يروق لي أن أخرج إلى الضفّة وأراقب أنفاسي عالقة في الهواء. أتخفف من العبء، ولا أعود

خائفًا.

أقف عند حافّة الممرّ وأراقب الماء. أفكّر في كلّ ما أخذته وكلّ ما أنتزع منّي. أحدّق تارة في البحر لساعات، إلى ما بعد حلول الظّلام، فأصير في زمنٍ ومكانٍ آخرَين: هناك في الولايات الحمراء المقصوفة حيثُ وُلدت.

وهناك أراها مرّة أخرى، تخرج من الماء. تمامًا كما أتذكّرها: جسد هائل برونزيّ اللون، وظَهرٌ مُغطّى بالندوب الشاحبة التي تشكّل كلّ واحدة منها بيانًا على التعذيب الّذي كابدَته، والجرائم السّريّة التي أرتكبَت في حقّها. تصعد كمِسَلّةٍ من لحم، وُلدت من جديد من رحم نهر السافانا المبتور. وأعود طفلًا مرّةً أخرى، كي أنتزع من أهلي ومن بيتي، وأتعرّض للخيانة. أعود إلى منزلي مُحاذيًا ضفّة النهر، أحسّ بالسعادة، وما أزال أحبّها. سرّي هو أنّني ما أزال أحبّها.

هذه ليست قصّةً عن الحرب. بل عن الخراب.

١

أبريل/نيسان ٢٠٧٥

سانت جيمس، لويزيانا

الفصل الأوّل

آنذاك، كنتُ سعيدة.

تخلّلت الشمس سربًا من الغيوم، وسكبت عينها التي لا ترفُّ فوق **بحر المسيسيبي**. كانت المياه الساحلية سمراء ساكنة، وقد انفرج ثغر البحر على مستنقع مُقفر يتسع نطاقه كلّ عام؛ إذ تقتطع المياه مزيدًا من الطمي والرّمال والطين. فأصاب عدم الاستقرار المزارع القديمة على جانبي النهر ومصانع البلاستيك وسكّك الحديد البحريّة. قام آخر سكّان الدّلتا الصامدون بتجريد المباني من كافّة الأجزاء الصالحة للاستعمال، قبل أن تنزلق إلى داخل الماء للأبد. ابتلع الماء اليابسة. وصارت نيوأورليانز، المدينة التي تألّقت ذات يوم في الجنوب الشرقي، مُجرّد بئر داخل جدران السّدود التي تُحيط بها. هكذا غُمِدَت أمريكا الجديدة!

جلست بنت صغيرة، بلغت السّادسة من عمرها، في شرفة منزل عائلتها أسفل مظلّة خشبيّة. كانت تمسك إناءً بلاستيكيًا على هيئة دبّ، يملؤه العسل الّذي انسكب سائله الذّهبي من فوّهة الإناء فوق الأرضيّة المصنوعة من خشب الصنوبر الرّخيص. أراقت البنت العسل فوق عُقَد الخشب الغائرة وراقبت الوتيرة الأفعوانية التي يعمّ السائل بها صوب مُحيطه الجديد. هذه هي أولى ذكرياتها، اللحظة التي تبدأ بها.

هكذا، في تلك اللحظات التي تهدأ فيها الأوجاع، أختار أنْ أتذكّرها. طفلة.

ليتني عرفتها آنذاك، خلال تلك السنوات التي شهدت عنفوانها.

«سارا شستنت، ما الذي تظنين أنك فاعلة؟» قالت أمها، وهي تقف خلفها بالقرب من بابِ حاويةٍ للشحن، اتخذها آل شستنت منزلًا لهم. «ماذا قلتُ لك عن إهدار ما ليس لك أن تهدريه؟»

«آسفة يا أمي.»

«هل عملت من أجل شراء ذاك العسل؟ كلا. لا أذكر أنك فعلتِ. هيّا أحضري شقيقتك وهلمّا إلى الفطور قبل أن يُغادر أبوكما.»

«حسنًا يا أمي.» قالت البنت وهي تحمل الإناء نصف الفارغ، وتمشيَ مطأطأة الرأس خلف أمها التي نفضت الغبار عن مؤخّرة فستانها المكسوّ بالزنابق.

كان اسمها سارا ت.شستنت، لكنها أطلقت على نفسها اسم *سارات*. وُلِدَ الاسم الأخير من رحم سوء فهم في مبنى المدرسة في وقتٍ سابق من ذلك العام، حين قرأت معلّمة روضة الأطفال غرَضًا الحرف الاستهلاليّ من اسم البنت الأوسط على أنه الحرف الأخير من اسمها الأول- *سارات*. كان وَقْع الاسم الجديد على أذنَي البنت الصغيرة يُشبه لدغة أفعى. لكنها أطلقت زفرة عاجزة، وتبخّرت آهة ذابلة في الهواء. أطبقت سارات فمها كأنها مصيدة دبّ. بعدها بشهور، أغلقت المدرسة أبوابها واضطرّ أغلب المدرسين والطلّاب إلى الرحيل شمالًا بسبب الحرب المشتعلة. لكن الاسم ظلّ ملتصقًا

بها.

سارات.

* * *

استوطن آل شستنت حاوية شحنٍ مصنوعة من الصّلب المموّج، كانوا قد انتشلوها من حوض بناء سفنٍ قريب، تبعُد عن ضفّة النّهر الغربيّة مسافة مائة قدم. ثُبّتَ المنزل في مكانه بواسطة أوتاد مُغطّاة بالصّلب غُرِسَت في كُتل إسمنتيّة تحت الأرض. صدأ بُنّيّ زحف ببطء إلى الأركان المغمورة دومًا بالرّطوبة.

اصطفّت ألواح شمسيّة عتيقة الطراز فوق السّطح كاملًا، عدا ركن واحد شغله صهريج لمياه الأمطار. واستقرّ نسيجٌ من قماش القنّب إلى جانب الألواح. كانوا يشدّون فوق السّطح، حين تدنو العاصفة، أطرافَ النسيج المربوط بحبال معقودة حول خُطّافات. هكذا كانت تستطيع الأسرَة، عبر توجيه ماء المطر ناحية الصهريج بعيدًا عن الألواح الشمسية، وناحية الأرض والنهر في الأسفل حين يفيض الخزّان، جمع ما يكفيها من الماء العذب، والذّود عن منزلهم ضد الصدأ والتفسّخ في الوقت نفسه.

كانت العائلة تأوي أحيانًا أثناء عواصف الشتاء إلى الشّرفة، حيث تراخى السّقف ونضخ بالرطوبة، لكنها كانت تقيهم الأصوات المرهقة التي يُصدرها المطر المنهمر فوق حاوية الشّحن، والتي كانت تبدو كأنّها تجويف طَبل كاليبسو[1]. أمّا أثناء الصيف، حين يُصبح

المنزل كأنه تنور من صفيح، فكانت العائلة تقضي أغلب الوقت في العَرَاء. خلال هذا الفصل الطويل الّذي يظلّ مثقدًا بدءًا من شهر مارس وحتى منتصف ديسمبر، ذاقت *سارات* وتوأمتها الشقيقة *دانا*، وشقيقهما الأكبر سيمون، أصفى حالات بهجة الطفولة. كانوا، غير بعيدين عن حراسة أبويهم، يملؤون الدّلاء بالماء، ويغمرون به جزءًا من الحاجز الترابيّ المائل الممتدّ طوال ضفّة النّهر، يبلّلونه حتى يوحل. قضوا آصالًا ومساءات بأكملها هكذا: ينزلقون على الحاجز الأملس صوب الماء، ثم يتسلّقون عائدين إلى الأعلى بمساعدة حبل معقود. تدوي صرخاتهم المبتهجة أثناء النزول، وتُخلِّف مؤخراتهم آثارًا غائرة في الطين.

احتفظت العائلة، داخل حظيرةٍ خلف المنزل، بدجاجاتٍ هزيلة المخالب، رغم أصواتها الصّاخبة وحركتها العصبيّة. كان ريشها متسخًا بُنّيَ اللون. وكانت تبيض متى أكلت ولم يكن الطقس شديد الحرارة. في أحيانٍ أخرى، كانت العائلة تُسرع بذبح تلك الدجاجات إذا كشفت عن بلوغها حدّ التمرّد، أو أوشكت على الموت، ثم يشبكون أعناقها بالمسامير في جذع شجرة قريب.

فضلت العائلة حاوية الشحن بقوائم خشبيّة. عاش بنيامين ومارتينا في الثلث الخلفي من المنزل. وتقاسم سيمون والتوأمتان الثلث الأوسط، يعيشون في سَكينة تتململ يومًا تلو الآخر مع اقتراب سيمون من عيد ميلاده التاسع، وبلوغ الفتاتين عامهما السابع. في الثلث

الأخير من المنزل ثمة طاولة مطبخ صغيرة من الخشب الرقائقي الرملي اللون، وهي مبقعة، غطتها الخدوش إثر سنوات من الاستخدام الدائم. وثمة حجرة مؤن من خشب الصنوبر، وخزانة هُلام تحتوي على بطاطا حلوة وأرز وأكياس رقائق وحبوب شكّر بالقرب من الطاولة، إلى جانب جوز أمريكي ودقيق وحبوب ذرة مطحونة من الحقول التي تفصل آل شستنت عن أقرب جيرانهم. كما احتفظت العائلة داخل ثلّاجة متينة -تُجهد الألواح الشمسية- بالحليب والزبدة وعُلَب من الكوكا القديمة.

هناك تمثالٌ من أيام طفولة بنيامين، يبقى ساهرًا إلى جانب الباب الأمامي. تمثال السيدة العذراء المصنوع من الخزف، وقد كانت تطبق كفيها معًا مُخفضةً رأسها للصلاة. عند قدميها باقة من زهور البقّ الصفراء وزنابق الماء البيضاء. وإلى جوارها شمعة ذائبة يفوح منها عطر الماغنوليا. كانت العائلة ترسل الأطفال إلى الحقول حين تذبل تلك الزهور وتجفّ ليعودوا بزهور جديدة.

وثبت سارات بجانب التمثال تبحث عن شقيقتها، وعثرت عليها في الجزء الخلفي من المنزل. كانت شقيقتها تقف فوق فراش أبويهما، تُدقّق بتركيز فولاذيّ في صورتها التي تنعكس على مرآة الزينة البيضاوية. كانت قد استعارت واحدًا من فساتين أمها المنزلية؛ شترة بسيطة دون أكمام ما تزال تحتفظ بلونها البنفسجي رغم الغسيل المتكرر، وبنطال. ارتدت البنت الصغيرة النصف العلويّ من الثوب الّذي غطاها بالكامل،

وتدلّى ما تبقّى منه فوق الفراش وبلغ الأرضيّة. ودهنت شفتيها بسخاء شديد بأحمر شفاه أمّها المصنوع من الكرز- دُرّة مستحضرات تجميل أمّها البسيطة التي نادرًا ما تستعملها. لكن، رغم دقّتها المتناهية، فإن دانا أخفقت في البقاء ضمن حدود شفتيها الصغيرتين الورديّتين، فتراءت الآن كأنّها التهمت فطيرة فراولة على عجل.

«تعالي العبي معي.» قالت سارات، وقد أربكها ما كانت تفعله شقيقتها. فالتفتت دانا إليها مستاءة، وقالت: «أنا مشغولة.»

«أحسّ بالملل.»

«إنّي أنضج، أصبح امرأة!» والتفتت دانا إلى المرآة، تحاول مسح قليلٍ من أحمر الشّفاه بظهر كفّها. «تقول أمّي إنّ علينا تناول الفطور مع أبينا الآن.»

«لا بأس. *لا//// بأس*.» قالت دانا، وأردفت بينما تُسيئ اقتباس عبارة سمعت أمّها تردّدها ذات مرّة: «أما من لحظة هدوء داخل هذا المنزل!»

* * *

كانت سارات التوأم التالي، إذ جاءت بعد خمس دقائق ونصف من مولد أختها. وعلى الرّغم من أنّ والديها قد أخبراها أنّها هي ودانا جاءتا من رحم واحد، غير أنّ دانا كانت شديدة الشّبه بأبيها، بخفّة ظلّه البسيطة وابتسامته الصّادقة. أمّا سارات فكانت كأمّها: عنيدة، صلبة، لا تثنيها الكوارث. كانتا توأمتين لكن لا تتشابهان في شيء. وغالبًا ما سمعت سارات أمّها تستخدم كلمة

غُلاميّة في وصفها. وهبني الله طفلتين دفعة واحدة، هكذا كانت تردّد، لكن بنتًا واحدة كانت تكفيني.

* * *

ظلّت سارات بضع دقائق أخرى في غرفة أبويها بعد أن غادرتها دانا. تأمّلت ببعض الحيرة الشئ الّذي لطخت شقيقتها شفتيها به. على خلاف النهر والأحراش والحيوانات المفترسة والطيور في العالم الطبيعي، لم يشدها أحمر الشفاه: لم يكن ينطوي على مغامرة. ولم ترَ فيه إلا متكأ وسط هوَس أختها المتجدّد بالبلوغ. كما لم تتمكّن سارات من استيعاب سبب اشتياق دانا البالغ إلى الانضمام لصفوف النساء الناضجات.

برزت دانا من المنزل، ولم تزل غارقة داخل سترة أمّها.

قالت مارتينا: «ألم أقل لك ألّا تفتحي خزانة ثيابي؟»

«آسفة يا ماما.»

«لا تعتذري لي- واخلعي هذا الثوب؛ فأنتِ تنشرين الغبار في كل مكان.» وخلعت مارتينا الثوب عن ابنتها. «أرسلت أختك للداخل كي تحضرك، وها أنتِ هنا مثل فوضى خالصة، وربّما كانت هي في الداخل تقوم بالشئ ذاته.»

«لا يُمكنها وضع الماكياج.» ثمّ أردفت: «فسارات قبيحة.»

جثت مارتينا على ركبتيها، وأمسكت بكتفي ابنتها، وقالت: «إياكِ وقول ذلك، هل تسمعيني؟ إياكِ أن تنعتي أختك بالقبح، إياكِ وقول كلمة سوء عنها. هي أختك.

وهي فتاة جميلة.» أخفضت دانا رأسها ومطّت شفتيها مستاءة؛ فرفعت مارتينا رأسها بكفّها. «اصغِ لي.» قالت مارتينا. «عودي للداخل وقولي لها أنك قلتِ لي إنها فتاة جميلة.»

دخلت دانا المنزل على مهل، ووجدت أختها تُعيد أحمر شفاه أمّها داخل صندوق الزينة. «أنتِ فتاة جميلة.» قالت دانا، ثمّ اندفعت خارج الغرفة. لوهلة، تسمّرت سارات ذاهلة. كانت ما تزال طفلة وغاب عن بالها مُراد الكذب. كانت تعجز عن فهم سبب أن يقول الشخص شيئًا لا يؤمن به. وابتسمت.

* * *

في الخارج، طبخت مارتينا الفطور فوق موقد حطب ضخم. وفوق الصحون وداخل الطاسات بسكويت جاف وحبوب ذرة وبيض مقلي ولحم خنزير صناعي مُقدّد طُهي إلى أن صار هشًّا داخل شحومه.

كانت سنوات مارتينا التسعة والثلاثين شديدة الوضوح في وجنتيها الغائرتين وعينيها المدوّرتين الداكنتين، خاصة حين نقارنها بزوجها؛ فرغم أنه يكبرها بخمس سنوات، وقضائهما أكثر من نصف حياتيهما معًا، فقد كانت ممتلئة قليلًا عند الوسط لكنها ليست بدينة. وكانت تتمتع بلياقة فلّاحة بِكْر، ما أعطاها القوّة إذا دعت الضرورة لرفع حمولات ثقيلة، والسّير مسافات طويلة. وعلى عكس زوجها الّذي تسلّل إلى البلاد عائدًا من المكسيك في طفولته، ولم تزل أفواج المهاجرين

تتدفّق صوب الشمال، فإنها لم تكن مُهاجرة. بل كانت تعيش حيث وُلِدَت.

«الفطور!» صاحت مارتينا، وهي تمسح العرق عن جبينها بمنشفة أطباق جافّة. «تعالوا فورًا، جميعًا. لن أكرّر كلامي مرّة أخرى.» برز بنيامين من وراء المنزل، وقد حلقَ ذقنه واغتسل داخل كشك العائلة الصغير في العراء. قالت مارتينا: «أسرعوا في تناول الفطور قبل أن يأتي.» فأجاب زوجها: «لا بأس. اهدائي.» وأردف: «هل جاء في موعده مرّةً من قبل؟»

«أين ربطة عنقك الأنيقة؟»

«ليست مقابلة عمل، بل تصريحًا بالعمل. سأتقدّم إلى مكتبٍ حكومي، لا يختلف كثيرًا عن مكتب البريد.»

«ألم يقتل الناس بعضهم بعضًا آخر مرّة من أجل الحصول على شئ من مكتب بريد؟»

جلس بنيامين إلى الطاولة في الباحة. كان رجلًا ضامر الجسد هزيل الوجه. يحمل حاجباه الطويلان جبهةً عريضة مصقولة، أضفى عليها صَلَعُه اتّساعًا أكبر عند فوديه. نظيف وحليق الذقن، باستثناء شارب أسود رفيع نبهته زوجته إلى أنه لا يُناسبه. قبّل سارات فوق جبينها، وحين لمح ابنته الأخرى، بوجهها الملطّخ بأحمر الشفاه، قبّلها هي الأخرى.

قالت مارتينا: «ابنتاك عادتا للصنيع ذاته. لن تتهذبا. ولن تمتثلا لِما يُقال لهما.» هزّ بنيامين رأسه باتجاه دانا، علامة استنكار زائف، ثمّ مال قريبًا من أذنها، وهمس:

«أظنّه جميلًا عليكِ.» فهمست دانا له: «شكرًا يا بابا». تحلّقت العائلة حول الطاولة. نادت مارتينا على سيمون الّذي جاء مسرعًا من الشرفة، يحملُ في يديه النصف السفلي من سلّم العائلة ذي الدرجات العشر، والّذي صنعه للتوّ. حين رأى النظرة المرتسمة على وجه أمّه، قال دون تفكير: «بابا هو من طلب مني ذلك» فالتفتت مارتينا إلى زوجها الّذي كان يقضم لحم الخنزير ويشرب قهوته اللاذعة بشهيّة مفتوحة. كانت قهوة خام مِن حصص الجنود، مُحضَرة لإبقائهم مستيقظين. «لا تنظري إليّ هكذا. يحتاج سميث إلى سلّم. لقد حصل على ألواح خشبيّة جديدة صالحة للبناء. وقد تساقطت الألواح القديمة كلّها.»

«ستعطيه إذًا نصف ما لدينا؟»

«صفقة لا بأس بها، بالنظر إلى أنّه هو من يعرف مسؤول مكتب تراخيص العمل. من دونه، ربّما كنا ما نزال حائرين عبر الحدود.»

قالت مارتينا: «لديه ما يكفي من المال لشراء مليون سلّم. أحسب أنّك قلت أنّه كان يُسدينا معروفًا.» أطلق بنيامين ضحكة مكتومة، وقال: «ما يزال تصريح عمل في الشمال لقاء نصف سلّم يُعدّ معروفًا.» دلقت مارتينا ما تبقّى من قهوتها فوق التراب، وتابعت: «علينا أن ننهض ونصلح سقفنا تمامًا كآل سميث.» فأجاب بنيامين: «لسنا في حاجة إلا إلى سلّم بخمس درجات لإصلاح السقف. لا سيّما أنّ ابننا قد كبر الآن وصارت

لديه القوة كي يصعد فوقه.» كانت نقطة يتفق معها سيمون بشدة؛ إذ يَعِد أمّه أنه سيتسلّق إلى صهريج الماء بشكل منتظم كي يضيف إليه الكلور وينظّف الألواح الشمسيّة من فضلات الطيور، تمامًا كما كان يفعل أبوه.

أفطرت العائلة معًا. أجهز بنيامين، شديد النحول طيلة حياته، على لحم الخنزير والبيض بشهيّة فاحشة. راح ابنه يراقبه، ويَعدُّ لائحةً صارمة بكل ما يفعله أبيه، فهو مِثاله لِكُلِّ ما تعنيه كلمة رَجُل. وسرعان ما أجهز الابن سريعًا على طبقه هو الآخر.

ارتشفت البنتان عصير البرتقال في كوبين بلاستيكيين، وراحتا تقضمان البسكويت، إلى أنْ خفّفت أمهما جفاف الخبز بشئ من الزبدة. حدّقت مارتينا في زوجها، عيناها ثابتتان صامتتان. نظرةٌ أساء الأطفال فهمها، فاعتبروها نظرة قاسية، لكنّ زوجها كان يعرف أنها ليست إلا طريقتها في النظر. قالت أخيرًا: «إيّاك أن تقول لهم شيئًا عن عملك مع الجنوبيين الأحرار.» أجاب بنيامين: «ليس سرًّا. إنهم يعرفون جيدًا أنّ كافّة الرجال في تلك الأنحاء قد عملوا فترة من الوقت لحساب الجنوبيين الأحرار. لا يعني ذلك أنني حملتُ سلاحًا كي أقاتل معهم.»، «لكنك لست مضطرًا للاعتراف بهذا. إنْ تقل ذلك، سيتعيّن عليهم وضع علامة داخل أحد مربعات الاستمارة واصطحابك إلى غرفة أخرى ومن ثمّ استجوابك. وفي نهاية المطاف لن يُعطوك تصريحًا بالعمل لأسباب أمنيّة أو لأيّ أسباب أخرى يُلفّقونها. لا

تقُل غير أنك عملت في مصنع قُفصان. هذه ليست كذبة.»، «كفى قلقًا.» قال بنيامين، وهو يميل للوراء في كرسيه، يلتقط نسيلة اللّحم من بين ضروسه. «سيمنحونا التصريح. فالشماليون يحتاجون العُمّال. ونحنُ نحتاج للعمل.»

هُنا تدخّل سيمون قائلًا: «ولماذا نرغب في الذهاب إلى الشمال؟ نحنُ لا نعرف أحدًا هناك.» فأجابت أمّه: «لديهم وظائف هناك. ومدارس. أنت تشتكي دائمًا من أنه ليس لديك ما يكفي من الدمى، والأصدقاء، ومن كل شيء. حسنًا، لديهم *هناك* كثير من ذلك كلّه.»

«يقول كونور إنّ الخونة هم الّذين يرحلون إلى الشمال. ويقول إنّه ينبغي شنقهم.»

كانت سارات تصغي إلى الحديث باهتمامٍ شديد. تقلّب الكلمة الجديدة داخل عقلها، *خوَنة*. بدت عجيبة. ربّما كانت قبيلة أجنبيّة. قالت مارتينا: «إيّاك والحديث بهذه الطريقة. هل ستسمع كلام أمّك أم كلام صَبيٍ لا يتجاوز عمره العشرة سنوات؟» أخفض سيمون عينيه صوب طبقه وغمغم: «هكذا قال والد كونور له.»

فرغوا من الفطور وعادوا إلى الشرفة. جلست مارتينا فوق الدَّرَج ونظّفت وجه ابنتها من أحمر الشفاه بمنشفة أطباق مبلّلة، والبنت تبكي وتحاول التملّص. وراح سيمون يصقل أطراف النصف سلّم بورقة صنفرة، مُلقيًا ثقله كلّه في المهمّة، إلى أنْ قال له أبوه أنّه ليس مضطرًا لإرهاق نفسه في العمل هكذا.

أمّا سارات، فقد عادت إلى مشهد تجربتها الصباحيّة، أثناء سَكْبِها العسلَ الثقيل داخل عُقَد الخشب، مبهورة الأنفاس بلزوجة السائل الكهرمانيّ. لقد شُغفت بمدى جاهزيّة العسل للتماهي مع شكل الإناء. كسرت قشرةً بخنصرها وتذوّقت قليلًا منه. توقّعت أنْ يُشبه مذاقه مذاق الخشب، لكنه كان ما يزالُ عسلًا خالصًا.

جلس بنيامين فوق كرسي مصنوع من خشب الجوز، اهترأ وتقشر نسيج مسند ظهره. كان يتأمّل النهر القاحل الأسمر، وينتظر مجئ صديقه الذي سيقلّه بقاربه. سألته مارتينا: «هل تعرف ما ستقوله لهم في مكتب تصاريح العمل؟ هل فكّرت؟»

«سأجيب عن أسئلتهم.»

«أوراقك جاهزة؟»

«جهزتها.»

هزّت مارتينا رأسها وفتّشت عن إشارات قارب مُقبل. قالت: «قد لا يصدرون لنا تصريحًا. ربّما يفعلون ما يفعلونه دائمًا ويردّونا خائبين. هذه طريقتهم. إيّاك أنْ تبوح لهم بشئ عن أيّ أحد جنوبَ الولايات الانفصاليّة(2). كأنّنا لسنا بشرًا، ولا حيوانات كذلك. كأنّنا من طينة أخرى تمامًا. سيردونك خالي الوفاض. أعرف ذلك.» هزّ بنيامين كتفيه مستهجنًا، «هل تريدين أن أذهب أم لا؟»

«أنت تعرف أنّني أريد أن تذهب.»

حين فرغت من مسح أحمر الشفاه، طفقت تضفُر شعر

دانا المسترسل شديد السواد، بخلاف شعر سارات، الحوشي الجامح المتمرِّد وإنْ كان نديًا، رغم شِدّة سواده هو الآخر. سألت مارتينا البنتين: «هل تعرفان أفضل ما في الشمال؟» فردّت سارات: «ماذا؟»
«حسنًا. تعرفان مدى حرارة الجو *هُنا* أثناء الليل وبلوغها حدًا لا يُحتمل. فأنتما تصحوان وقد بلّل العرق فراشيكما.»
قالت دانا: «أكره ذلك.»
«حسنًا. حين نبتعد بما يكفي في قلب الشمال، لا تبلغ الحرارة هذا الحدّ أبدًا. وفي الشتاء، إنْ تعمقنا كفاية في قلب الشمال، لا تمطر الدنيا، بل تسقط من السماء كُرات صغيرة من الثلج. وتكتسي الأرض بهذا الثلج فيعجز المرء عن رؤية الطُرق، ويتجمّد النهر فيصير حجرًا صلدًا يمكننا المشي فوقه.»
قالت دانا: «هذا سخيف.» وفي تصوّرها أنّ ما تقوله أمّها ليس إلا حكايات خرافية مُتقنة؛ إذ الأنهار المتحجّرة والثلوج المتساقطة لا تختلف كثيرًا عن الأسماك ذات الشوارب التي حكى لها أبوها عن رؤيته لها تسبح عائدة في قطعان هائلة خلال المسيسيبي المُقفر ولم يزل بعدُ نهرًا عاديًا. أو السحالي العتيقة المدفونة في صحاري الغرب، والتي ساد ما تبقى منها العالم ذات يوم. لم تصدّق دانا أيًا من ذلك يومًا.
لكن سارات كانت تصدّق. لقد آمنت بكل كلمة.
قالت مارتينا: «هذا حقيقي. الجو لطيف في الصيف،

ولطيف في الشتاء. *معتدل*، هكذا يصفونه. وآمن أيضًا. يظل الأطفال في الشوارع يلعبون حتى وقت متأخر ليلًا، ستكوّنون صداقات في أوّل يوم لكُم هناك.»

هزّ سيمون رأسه في هدوء. كان يدرك أنّ أمّه حتى وهي تتكلّم مع البنتين، كانت تُخاطبه هو. كانت تُخاطب الجميع مباشرة، دون انفعال أو كلام ليّن. لكن مع ابنها الوحيد الّذي لا يكفّ عن التفكير، كانت تخشى ألّا تتمكّن من فك شفرته، فكانت تمرّر إليه رسائل عبر وسطاء اعتمادًا على رموز واضحة سَقيمة. وقد كره سيمون ذلك. لماذا تعجز أن تكون مثل أبيه؟ لماذا تعجز عن الإفصاح ببساطة عمّا يدور في داخلها؟

* * *

حلّت الظهيرة ولم يظهر القارب الّذي سيُقلّ بنيامين. وبدأ يراود مارتينا إحساس بأنّ جارهم نسي زوجها. أو ربّما ضُبط صديقُ زوجها أخيرًا مستقلًا قاربه الّذي يعمل بالوقود الأحفوري فسقط رهن الاعتقال. لا ريب أنّ الولايات المحيطة بجاراتها الحمراء المتمرّدة، وهي شرنقة مؤلّفة من لويزيانا وأركانساس وتينيسي وكارولينا الشمالية، كانت شديدة التعاطف مع قضية دولة الجنوب الحرّة. ورغم أنّ سكّان تلك الولايات ما زالوا يُطلب منهم استخراج تصاريح للسفر شمالًا إلى قلب الولايات الزرقاء الحقيقي، فإنّ تلك الولايات هي الأخرى أعضاء بشكل رسمي في الاتحاد، ولذلك فإن مَن يُضبط متلبسًا باستخدام الوقود الأحفوري في تلك

الأنحاء، يُعَدّ خارجًا على القانون أيضًا.

فكّرَت مليًا أنّ الجميع سيعيشون في يُسر إنْ أتيح لتلك الدويلات المزعومة التحرُّرَ ببساطة من نير الاتحاد، وأنْ تُشكّل دويلاتها الصغيرة على أساس وحدة الإقليم، أو الدين، أو العِرق، أو الأيديولوجيا. يعرف الجميع بوجود انقسامات دائمة: في الشمال الغربي كانوا يهددون بإعلان الاستقلال عن كاسكاديا المسالمة المتباهي؛ ومن تحتهم، كان أغلب كاليفورنيا ونيفادا وأريزونا وغرب تكساس خاضعًا بالفعل للسيطرة غير الرسمية للقوات المكسيكيّة. كانت خارطة هذا القسم من القارّة ترتدّ ببطء إلى ما كانت عليه قبل مئات السنين. وفي الغرب الأوسط، أضمر أبناء البلاد الأصليين عداوة شبه مكتومة حيال ملايين اللاجئين الساحليين مِمَن احتشدوا في وسط البلاد هربًا من ارتفاع مناسيب البحار والعواصف العاتية. وهنا في الجنوب، قرر إقليم كامل شنّ الحرب مرّة أخرى كي يفصل نفسه عن الاتحاد، بدلًا من إيقاف استخدام ذلك الوقود المحظور المسئول عن كثيرٍ من المصائب التي حلّت بالبلاد.

أحيانًا كان يتبدّى لمارتينا أنّ الاتحاد لم يكن له وجود يومًا، وأنّ حزبًا غير مبال أو انتهازي قد رسم منذ زمنٍ بعيد حدودًا لم تكن موجودة مسبقًا فوق خارطة، وأثناء ذلك اخترع دولةً مُشكّلةً من دُوَل كثيرة متباينة. تُرى ما مدى السوء الممكن حدوثه حقًا، لو أنّ الحكومة الفيدرالية في كولومبس كفّت ببساطة عن إهدار كثيرٍ

من المال والدمَ خلال سعيها للمّ أشلاء قارة ممزّقة؟ دع للجنوبيين وقودهم البالي، إلى أنْ يستخرجوا آخر قطرة منه من أرضهم المقهورة.

تأمّلت مارتينا النهر وانتظرت مجيء القارب. رأت سارات بالقُرب من الماء تُفتّش عن شبكة روبيان مهملة كانت الأمواج قد جرفتها إلى الشاطئ منذ شهور قليلة خلت، وصنع الأطفال منها فخًا مؤقتًا لأنقاض النهر. وقد جمعت الشبكة كافّة أنواع الكنوز الغريبة: صليب معدني؛ مسند عنق من كرسيّ حلّاق؛ صورة منضّدة لمستعمرةٍ مخصّصة للمصابين بالجذام ولم تغد كذلك منذُ زمن؛ ويافطة صغيرة كُتب عليها: *رجاءً يُمنع التلفّظ بما هو مُسيء داخل المقصف*.

تفحصت سارات الصفحات المبلّلة لكتابٍ غمرته المياه وقد علِقَ في الشبكة. كان عنوان الكتاب *الأرض المتغيّرة*، ويحمل غلافه صورة جبل أزرق ضخم من الجليد الطافي. قلّبت صفحاته بحذر وهي تفصل بين صفحةٍ وأخرى. امتلأ الكتاب بخرائط للعالم، القديم والحديث. كانت خرائط العالم الحديث تُشبه خرائط العالم القديم، عدا الأطراف المكشوطة: اختفت جُزر بأكملها، وتراجعت السواحل إلى قلب القارات. تراءت أمريكا في الخرائط القديمة أكبر وأضخم.

لمحت ظلّ أخيها سيمون يقف خلفها. قال وهو يلقي نظرة خاطفة على الكتاب: «ما هذا؟» فأجابت سارات: «ليس من شأنك.» وأبعدت الكتاب وهي تثب واقفة،

تتأهب للشجار معه دفاعًا عن الكتاب إذا لزم الأمر. «أنا عثرث عليه أوّلا.»
قال سيمون: «أيًا كان. أنا لا أريده. ليس إلا كتابًا غبيًا.» لكنها رمقته يتفحص الصفحة المفتوحة. سألها: «هل تعرفين ما هذه؟»، «إنّها خرائط. أعرف الخرائط.» قالت سارات.
أشار سيمون إلى ركن في الصفحة حيث بدا فيه أنّ زرقة الماء تغمر بضع مساحات صغيرة من الطرف الجنوبي من القارة. واستطرد: «نحن هنا، أيتها الحمقاء، نعيش هنا» نظرت سارات إلى حيثُ أشار سيمون. كانت الخارطة شديدة التجريد، لا تحمل أيّ إشارة إلى بيتها أو ما يُذكّرُ به.
قال سيمون: «هل ترين كل هذا الماء؟ كانت اليابسة محلّه ذات يوم، والآن لا أثر لها.» وأشار ناحية منزلهم، متابعًا: «سيغمر الماء المكان هُنا أيضًا ذات اليوم. وسنضطرّ إلى الرّحيل وإلّا غرقنا.» رأت سارات إبتسامة متكلّفة باهتة ترتسم على وجه أخيها؛ فأدركت على الفور أنّه كان يحاول إخافتها. تساءلت في نفسها عن الداعي إلى هوسه بمثل هذه الحيل، ولماذا كان يسعى دومًا إلى ترديد أشياء على أمل دفعها للتصرّف بطريقة تبدو بها خائفة أو حمقاء. كان أكبر منها بثلاث سنوات تقريبًا، وهو صبيّ! فصيلتان مختلفتان تمامًا. مع ذلك كانت ما تزال تلمس في أخيها قلقًا ما، كأنّ سعيه لإثارة فزعها ليس وسيلة وحشيّة لتزجية الوقت، بل هو في

غمقه محاولة لإثبات شئ ما لنفسه. وتساءلت ما إذا كان الأولاد كلّهم متشابهين هكذا، في وضاعة دفاعاتهم عن النفس.

وعلى أي حال، كانت تدرك كذبه؛ فالماء لن يلتهم بيتهم أبدًا. ربّما ما تبقّى من لويزيانا، أو ما تبقّى من العالم، لكن ليس بيتهم أبدًا. سيظل بيتهم للأبد فوق يابسة جافّة، لأنّه هكذا كان منذ الأزل.

***

وَصَلَ صديق بنيامين قُرب الغُروب، متأخِّرًا خمس ساعات. راح قارب الصيد المصنوع من رقائق الخشب يتمايل بهدوء فوق سطح الماء النازح، ومحرّكه الخارجي يبقبق ويرسل دخانًا. كان قاربًا عتيقًا لكن ما يزال أسرع وأخفّ من مراكب البحر الصغيرة التي ينذر أنْ تتغلّب مُحرّكاتها الضعيفة التي تعمل بالطاقة الشمسية على التيار.

كان القارب يقول شيئًا؛ إذ إن في امتلاك مركبة لا تني تعمل بالوقود المحظور، دلالة لا عن ثروة مكنوزة، بل عن علاقات، وعن مكانة صاحبه.

«طاب صباحك.» قال سميث وهو يقود القارب إلى مرفأ أسرة شستنت، ويلقي حلقة من النايلون حول عمود الإرساء. مثل بنيامين، كان فارع الطول، لكن بكتفين عريضين منحوتين ورأس يُغطيها شعر بني استحال نحاسيًا من طول التعرّض للشمس. كان أبوه يمتلك قبل الحرب عدة وكالات للسيارات التي تعمل

بالوقود الأحفوري في نيوأورليانز وباتونروج. انتهت هذه الأعمال منذ زمن طويل لكن الأموال التي ورثوها كانت ما تزال موجودة؛ هكذا كان سميث يعيش في بحبوحة على الضفة الأخرى من النهر. وقد اشتهر بين العائلات المتفرقة في أنحاء الجنوب الّذي غمرته المياه بلويزيانا والمسيسيبي، بوصفه وسيطًا، رجلًا يحظى بعدد وافر من الصداقات. كان يعرف مسؤولي حكومة دولة الجنوب الحرّ في أطلانطا، والمهرّبين القائمين على إدارة الأنفاق بين حدود المسيسيبي-أركنساس، والقناصل في المكاتب الفيدرالية المنتشرة في الأجزاء المروّضة والمنفصلة عن اتّحاد الجنوب. بل كان يدّعي معرفته بأعضاء الكونجرس اليمينيين داخل العاصمة الفيدرالية في كولومبس.

ردّت مارتينا التحية. «طاب صباحك. هلمّ إلينا. لدينا بعض الشطائر المتبقية، والقهوة كذلك.»

«أشكر لطف استقبالك. لكننا تأخرنا. هيّا يا بن. فأبناء الشمال لا يحبّون الانتظار.»

قبّل بنيامين زوجته وأطفاله وودّعهم، ثمّ تقدّم بضع خطوات للداخل كي يُقبّل قدم العذراء الخزفيّة. نزل إلى النهر بحذر شديد كي يتحاشى الانزلاق في الوحل وتلطيخ بنطاله النظيف. كان يحمل معه حقيبته الجلديّة القديمة ونصف السّلم. تراقبه زوجته من فوق حافّة الأرض المستوية.

«دعوا القارب يرسو جنوبًا ثم ادخلا المدينة.» صاحت

تخاطب الرجلين. «احذرا أن يرى أي من موظفي الحكومة ذلك القارب.»

ضحك سميث بينما يشغِّل المحرِّك. وقال: «لا تقلقي. في مثل هذا التوقيت من الأسبوع القادم، ستكونون في منتصف الطريق إلى شيكاغو.»

«حافظا على نفسيكما. انتبها. هذا ما أقصده.» قالت مارتينا.

دفع الرجلان القارب بعيدًا عن الوحل ووجّهاه شمالًا صوب باتونروج. دمدم القارب داخل المجرى الضيق للنهر الأسمر العظيم، مثيرًا في أعقابه موجتين شاهقتين مترامتين.

---

(1) كاليبسو هو اسم إحدى حوريات البحر في الأوديسة، والتي احتجزت أوديسيوس فوق جزيرتها سبع سنوات. (المترجم)

(2) يشير إليها الكاتب في النص بكلمة Mag اختصارًا للحروف الأولى من أسماء الولايات: المسيسيبي وآلاباما وجورجيا. (م)

مقتطف مِنْ:

مبادئ المنهج الفيدرالي التوجيهيّة –

التاريخ، الوحدة الثامنة: الحرب الأهليّة الثانية

مُلخَص الوحدة

اندلعت الحرب الأهلية الأمريكيّة الثانية في الفترة مِن 2074 إلى 2093. نشبت الحرب بين الاتحاد والولايات الانفصاليّة: المسيسيبي؛ آلاباما؛ جورجيا؛ وكارولينا الجنوبيّة (إلى جانب تكساس قبل انضمامها إلى المكسيك.) كان السبب الرئيس للحرب هو مقاومة الجنوب لمرسوم المستقبل المستدام، وهو قانون يحظر استخدام الوقود الأحفوري في أيّ مكان داخل الولايات المتحدة الأمريكيّة. كان القانون الّذي دعمه الرئيس دانيال كي، ردًا في جزء منه على عقود من التقلّبات المناخيّة السلبيّة، والأهمية الاقتصاديّة المتراجعة للوقود الأحفوري، والخروج القاتل لأحد قطارات النفط عن مساره في ويلستون بولاية داكوتا الشمالية عام 2069.

مِن أبرز الأحداث التي أسفرت عنها الحرب، اغتيال الرئيس كي على يد انتحاريّة انفصاليّة تُدعى جوليا تمبلستو، في جاكسون بولاية المسيسيبي، ديسمبر/ كانون الأول 2073. ومقتل متظاهرين جنوبيين خلال إطلاق نار خارج حصن جاكسون في كارولينا الجنوبيّة، أمام القاعدة العسكرية، في مارس/آذار 2074.

أعلنت الولايات الانفصالية (التي اتّحدت تحت شعار

«دولة الجنوب الحرّة») الاستقلال في الأوّل من أكتوبر/تشرين الأوّل 2074، التاريخ الّذي غالبًا ما يُعدّ نقطة الانطلاق الرسميّة للحرب. وعقب سلسلة من الانتصارات الحاسمة التي حقّقها جيش الاتحاد خلال السنوات الخمس الأولى من الحرب، وأهمّها في شرق تكساس وحدود المسيسيبي الشمالية، وآلاباما، وجورجيا («الماج») هدأ القتال إلى حد كبير. رغم ذلك، انخرطت المجموعات المتمرّدة في بعض أحداث العنف المسلّح على مدى خمس سنوات أخرى، ساعدهم في ذلك عملاء أجانب ومخرّبون مناهضون للولايات المتحدة. وبعد مفاوضات مطوّلة تمّت تسويتها في الغالب لصالح الاتحاد، انتهت الحرب رسميًا أثناء الاحتفال بيوم الوحدة الجديدة في العاصمة الفيدرالية بكولومبس، أوهايو، في الثالث عشر من يوليو/تموز 2093. في ذلك اليوم، نجح أحد الانفصاليّين في عبور الحدود إلى المنطقة الشمالية وإطلاق وسيلة بيولوجية («وباء الوحدة الجديدة») ما أسفر عن طاعون تفشّى في البلاد كلّها. ظلّت آثار هذا الوباء، الّذي تُقدّر خسائره بمائة وعشرة ملايين ضحية، ملموسة في كل أرجاء البلاد على مدى السنوات العشر التالية. وما تزال هويّة الإرهابي منفّذ العملية مجهولة إلى الآن.

الفصل الثاني

احتفظت عائلة شستنت بوعاءٍ مبطّنٍ بالنفط فوق سور الشرفة من أجل اصطياد البعوض. كان السائل اللامع يستدرج الحشرات فتقع في الشَرَك.
وقفت سارات في الشرفة، الشمس ساخنة فوق جبهتها. راقبت البعوض يتملّص. كان مثل نقاط سوداء ثقيلة تتساقط مثل حبّات عنب. التقطت بعوضة بين سبابتها وإبهامها، وقرّبتها من عينيها. لم تكشف البعوضة عن أيٍّ ممّا تعرفه الفتاة الصغيرة كدليل على الحياة؛ لم تقُل شيئًا، ولا أصدرت صوتًا، بخلاف صَرير صراصير الليل أو الدجاجات أثناء انخراطها في نوبة هيجان. لكنها كانت تعلم، مع ذلك، أنّ الشئ بين أصابعها كان حيًا.
كبست سارات أصبعيها معًا، فانفجرت الباعوضة بسبب الضغط مُخلّفةً بقعة سوداء. «ماذا تفعلين؟» سألتها دانا، التي لم تنتبه أختها لدخولها المنزل. أجفلت سارات، وقالت: «لا شيء.» تفحصت دانا أصابع أختها، وقالت أخيرًا: «هذا مقزّز.» ثم ابتعدت.
مسحت سارات أصابعها في نسيج ثوب العمل القطني الخشن. كان الثوب لشقيقها من قبل، وقد استحالت أزراره النحاسيّة إلى اللون الأسود بفعل الزمن. كانت تلبسه على جسدها مباشرة دون ثياب تحتيّة. وحين ترتفع درجة الحرارة، كانت تفك أشرطته وتربطها حول خصرها كأنّها حزام، حيثُ لا تصمد إلا دقائق قليلة على الأغلب قبل أن تتراخى، وتجرجرها وراءها في التراب.

كانت قد عجزت عن استيعاب سبب عدم ميل أختها لاكتشاف العوالم الحية الدقيقة المحيطة بهن، عوالم تستلقي أسرارها التي لا تُحصى جاهزة للحصاد: كرات الدم المُحلَّقة داخل مصيدة النفط، وعيون الأرضيّات المصنوعة من خشب الصنوبر المطزّزة بالعسل، والديدان التي يلتقطها والدهن ويغرزها في الصنانير كي يُعلّم الأطفال طقسًا كان معروفًا فيما مضى، وقت أن كان هناك أسماك في الأنهار لاصطيادها. كانت دانا تجد مثل هذه الأمور مُضجرة أو مُنفّرة. لكنّها بالنسبة لسارات، هي الأوردة والشرايين التي يجري فيها سحر الحياة.

***

وقفت مارتينا شستنت فوق العشب النامي بين منزلها وحقل الذُرة البيضاء. كانت تنشر الثياب المبلّلة على حبل ممدود بين خُطّاف مُثبّت بأحد أعمدة الشرفة وبقايا مظلّة شاطئٍ مُقحمة داخل الطين. شأن القماش الّذي كان يُغطّي ألواح السّقف، جرفت الأمواج المظلّة إلى الشاطئ قبل عامين، فاستُغلّت على الفور.

بسطت مارتينا الثياب فوق الحبل وثبتتها بمشابك. كانت قطرات الماء تتساقط من أطراف البناطيل وأكمام القمصان. هُنا أسفل الحبل، كان العشب أكثر خُضرة بعض الشيء.

كانت الثياب عادية، لا تؤذي العين: بيضاء وبنّية ورماديّة بدرجات متفاوتة. وقد اكتسبت شفافيّة باهتة

جزاء كثرة الاستعمال. في بعض الأجزاء من *الماج* كانت بعض العائلات، حيث يحظى المتمزدون بالنفوذ الأكبر، تلجأ إلى صبغ ثيابهم باللون الأحمر تجنبًا للمتاعب، لكن بالنسبة لساحل لويزيانا الهادئ، لم يكن هذا الشاغل قد أتى بعد.

على مسافة آلاف الأميال، هناك على الساحل الشرقي، كان ثمة ثياب جديدة جاهزة للإقتناء. كانوا يُفرغونها شهريًا من سفن المساعدات التي تصل من امبراطوريات بعيدة: ثياب رخيصة وقمصان بولو وبذلات رياضية وقُبعات بيسبول. كثير منها كان يحمل شعار الجولدن بولز أو النادي الأهلي وغيره من النوادي الرياضية الشهيرة الأخرى. لكن الناس كانوا يتلقفونها دائمًا فور وصول السفن إلى المرفأ - حيث، في الورق على الأقل، كان ممنوعًا بيعها أو نقلها بأي شكل خارج الولايات الانفصالية الثلاث: المسيسيبي وآلاباما وجورجيا. بالطبع كان هذا القانون يتم تجاهله بشكل روتيني، لكن مع مرور الوقت، وجدت هذه الثياب طريقها إلى لويزيانا أو أركنساس أو غربًا إلى المحمية المكسيكية، وكانت تمر من خلال سماسرة متعددين، ما جعل سعرها باهظًا بالنسبة لأغلب السكان.

منذ الأيام الأولى للحرب الأهلية، عاشت الولايات الانفصالية على إحسان القوى العظمى. في الماضي كان الوقود الأحفوري عملة جديرة بالاهتمام، سلعة تكفي لضخ الحياة في مرافئ لويزيانا ومصافي تكساس، حتى

وإن كان التدفّق النقدي أقل ممّا كان في القرن الماضي. لكن حين أدرك باقي العالم طريقة الاستفادة من الشمس والرياح وانشطار الذرّات واصطدامها، صار الوقود القديم شيئًا غابرًا ودون قيمة تقريبًا. أقفلت مصافي التكرير وأهملت مثاقب التنقيب، حتّى حين اختارت الولايات المتمرّدة أن تشنّ حربًا مفتوحة على الحظر. الآن، إذ يوشك الجنوب على خسارة الصراع ونضوب مصادره، كان اعتماد النّاس يزداد يومًا تلو الآخر على السفن العملاقة التي كانت تصل شهريًا من الجانب الآخر من الكوكب مُحمّلةً بالطعام والثياب والضرورات الإنسانيّة الأخرى.

كانت السفن تتوافد من القوى العظمى الوليدة: الصين وامبراطوريّة البوعزيزي، والأخيرة لم تكن منذ عقود قليلة خلّت سوى مجموعة من الدول الخائبة والمخيّبة، امتدّت في عرض الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. لكن ذلك كان قبل أن تُطيح ثورة الرّبيع الخامس بأنظمة الحكم البالية بصفة نهائية. الآن، بدلًا من تلك الدول المحطّمة، امتدّ كيانٌ واحد غطّى المنطقة كلّها، بدءًا من مَضيق جبل طارق في ولاية المغرب، وحتّى أطراف البحر الأسود وبحر قزوين.

* * *

عند المغيب، حين انخفضت حرارة الجو، جاءت إليزا بولك لتناول العشاء. كانت تعيش على مسافة ميل شمالًا بالقرب من ضفّة النهر بين حقول القمح، فصارت

بذلك أقرب جيران عائلة شستنت. خسرت الصيف الفائت زوجها وابنيها اليافعين في إحدى معارك شرق تكساس، وبسبب حِدادها المحموم الّذي دام شهورًا، ورفضِها ارتداء أيّ ثياب عدا السوداء منها كل يوم منذئذ، فقد أطلق عليها أبناء شستنت فيما بينهم اسم *سانتا مويرتيه*[3]. وهي عِبارة التقطوها من أبيهم.

كانت في الثامنة والأربعين من عمرها لكنها بدَت أكبر من ذلك بعشر سنوات، بسبب قامتها المحنيّة والرجفة الهشّة في صوتها. منذُ مقتل أسرتها في معارك شرق تكساس، عاشت إليزا على راتب أرملة كانت تصرفه لها إحدى المجموعات المتمرّدة. وإضافة لذلك، كانت تتلقى العون بطرق أخرى. ذلك أنّ قاربًا تابعًا لسلطات المسيسيبي كان يعبر النهر متجهًا إليها كل بضعة أسابيع، وعند وصوله، يهبط منه رجلان متجهّمان يشذّبان الفناء وينظّفان المنزل ويمدّان الأرملة ضئيلة الحجم بأكثر ممّا يلزمها من طعام وثياب، فكانت بدورها تعطي كثيرًا من المؤن الفائضة لعائلة شستنت، وفاءً لنصيبها من اتفاق غير مُعلن تقوم الأسرة فيه بالمقابل بتوفير بعض الرّفقة للمرأة الوحيدة تُزجي بها الأيام الطويلة الحارّة.

حين وصلت بولك، احتضنت جارتها بقوّة وسألتها إن كانت سمعت أخبارًا عن زوجها. لكن مارتينا أجابت بالنفي.

قالت بولك: «إنّه بخير يا عزيزتي، لا تقلقي. هو في

رعاية الله، أحسّ ذلك في أعماقي.»
كانت قد أحضرت معها فطيرة، وضعتها فوق سور الشرفة، ودارت حول المنزل تصيح مرحّبة بسيمون. لكن الأخير كان يجلس فوق السلّم المكسور يُصارع لتسلّق السّقف، يمنعه كبرياؤه من طلب المساعدة من أمّه. جلست بولك على أحد الكراسي المصنوعة من خشب الجوز تجفّف العرق عن جبينها وتنادي على البنتين. لم تظهر دانا التي كانت مشغولة بلعبة البيت، لكن سارات جاءت. «مرحبًا يا عزيزتي، يا لحُسنِك اليوم!» قالت بولك، وهي تقبّل وجنة سارات وتحاول، كعادتها في الغالب، أن تملّس شعرها الأجعد الخشن. قالت سارات: «مرحبًا يا سانتا.» وكما هو الحال دائمًا، افترضت المرأة أنّها حازت تلك الكُنية بسبب كل الهدايا التي كانت تعطيها للعائلة.

حين فرغت مارتينا من نشر الغسيل، اتجهت إلى الشرفة وجلست بجانب ضيفتها. ارتشفت المرأتان شايًا حلوًا وراحتا تراقبان الأطفال يلعبون مع مغيب الشمس. كان سيمون يحتفظ عند ضفّة النهر بطَوْفٍ بسيط مربوط إلى جذع شجرة. كان الطّوف مصنوعًا من لوح خشب مثبت فوق براميل نفط فارغة، ينتصب في منتصفه صاري على هيئة صليب مِن الأغصان المغطّاة بالرّمال، تكسوه ملاءة سرير كشراع يعجز عن تحمّل الرّياح حتى الخفيفة منها. لكن سيمون رسم فوق هذا الشراع علامة راية القراصنة المخيفة بالقلم الأسود، واحتفظ بالطوف

في مكانه لِبَثّ الرّعب في قلوب الزوارق المارّة، أو هكذا كان يأمل!

حين يهدأ الماء، كانت الأمّ تسمح لسيمون أن يركب الطوف بمفرده حتى منتصف النهر، فيجذف بجنون بمجرفة فحم كبيرة. لكن حين تكون الفتاتان برفقته، كان يضطر للبقاء قريبًا من الشاطئ. وفي كل الأحوال، كان عليه الحفاظ على القارب مربوطًا بجذع الشجرة.

كرّرت بولك كلامها. «أثق أنّ الرجلين بخير يا مارتينا. تعرفين كيف هي تلك المكاتب الحكومية، ربّما قالوا لهما أنّ فرز الأوراق قد يستغرق يومًا بأكمله. وربّما يسهران طيلة الليل كي لا يضطرّا إلى العودة عبر النهر مرّة ثانية في اليوم ذاته. أراهن أنهما يقضيان أفضل ساعات حياتيهما في السفر ذهابًا وعودة.» هزّت مارتينا رأسها. «بل كان سيعود. حتى لو لم يتبقّ أمامه سوى ثلاث ساعات، لعاد إلى البيت.» ارتشفت بولك شايها، وتذكّرت الماضي، حيث قضت أغلب أيامها مع ذكرياته. «تعرفين، حين أنبأني المتمرّدون بمقتل هنري والولدين، قلت لهم أن يدفنوني معهم. يدفنوني في القبر نفسه لأنّني أعجز عن الحياة بمفردي. فالحياة لا تساوي شيئًا إذا عشنا بمفردنا.» واستطردت: «لكن حين رأيتهم، قبل أن يمددوهم في مقبرة الشهداء هناك على الحدود مع المكسيك برفقة الباقين من هؤلاء الرجال الشجعان، بدوا هادئين نظيفين كما اعتدت رؤيتهم دائمًا. حتى جروح الرصاصات لم تكن تشبه ما ترينه في الصور من

فوضى- بل مجرّد ثقوب صغيرة. ستفكرين حين ترينهم، كيف يُمكن لشئ متناهي الصِغر كهذا أن يُنهي حياةًص بأكملها. أصابني هلع هائل قبل رؤيتهم، وظننت أنّ مشهدهم سيكون مريعًا، مدمّرًا. لكنهم كانوا على العكس تمامًا. ارتسمت على محياهم طمأنينة. كانوا سعداء يا مارتينا.»

«أحسب أنك قلتِ أنّ زوجي سيكون بخير.» قالت مارتينا.

«بالطبع يا عزيزتي. بالطبع سيكون بخير.» قالت، وتوقّفت لبرهة، بعدها تابعت بصوت خفيض: «لكن كل ما أقصد قوله هو إذا -لا قدّر الله- كان قد جرى شيء، إذا كان الشماليون قد فعلوا مكروهًا بزوجك، فلا عار عليك. سنتذكّره شخصًا وطنيًا جنوبيًا أبيًا، لا يختلف عن رجالي.»

طوّحت مارتينا ما تبقّى في كوبها من الشاي الحلو فوق التراب. «لسنا وطنيين من الجنوب ولا من أي مكانٍ آخر. بل كنا نحاول... نحنُ نحاول الخروج مِن هنا. سنسافر إلى الشمال. لسنا وطنيين ولن يكون بيننا شهداء.»

ربتت بولك على كتف مارتينا. «بالطبع، بالطبع، ولا عار في السفر إلى الشمال كذلك. أعرف أنك ترغبين في توفير حياة كريمة لأولادك، والشمال أكثر أمنًا من هنا، لا ريب. فهناك لن يضطروا لمعاناة ما عانيناه. لكنك لست منهم. لا إثم في توفير حياة أكثر أمنًا لأطفالك. وربّما

حين ينضجون بما يكفي لاتخاذ قراراتهم بأنفسهم سيستطيعون الرجوع إلى بلادهم. لكنك لستِ منهم. لن تزالوا جنوبيين في أعماقكم، في دمائكم. هذا ما لن يتبدَل أبدًا.»

قالت مارتينا وهي تتفحص المنعطف جهة الشمال، حيثُ كان مستحيلًا أن ترى وراءه ما هو أبعد: «نحن أسرة واحدة. ولسنا شيئًا آخر بخلاف ذلك.»

من وراء المنعطف تردد صوت يسبق مصدره. لم تكن الجلبة التي يُصدرها قارب سميث الأحفوري، لكن شيئًا آخر يسبح بسلاسة أكبر فوق الماء، قارب أضخم. لبرهة، ظنته مارتينا أحد سفن التهريب التابعة للمتمردين التي خرجت مبكرًا عن موعدها المعتاد في المساء. صاحت بأبنائها أن يعودوا إلى الشاطئ، فعادوا مسرعين فوق الضفة الزلقة وأقدامهم تغوص داخل الوحل. لكن حين اقترب القارب من المنعطف ألقت أضواؤه الكاشفة دوائر ساطعة فوق الماء المعتم، وكانت مارتينا تعرف أنَ سفن المتمرّدين تسبح في الظلام.

كان زورقًا تابعًا للولاية يبلغ طوله عشرون قدمًا، تدفع به باتونروج لرصد النهر. اسميًا، كان يُفترض بالزورق منع المتمردين من تهريب الأسلحة عبر النهر من حقول نفط تكساس والمحمية المكسيكية وإليها. كان يتحرّك بوضوح وبطء، وقد برزت ألواحه الشمسيَة المتألّقة من اليمين والشمال كأنها جناحي فراشة. كان الهدف من الألواح االشمسيَة إمداد الزورق بالطاقة، أمَا مُحرّك

الديزل الاحتياطي فلم يكن إلا لحالات الطوارئ فقط. لكن في الحقيقة سرعان ما أنهكت تلك الألواح وبطاريّاتها الضعيفة الضبّاط، فصاروا لا يستخدمون إلا الوقود الأحفوري تقريبًا، الّذي يُفترض فيهم تطبيق حظره، في عرض النهر.

كانت مارتينا تعرف نوعيّة الرجال الّذين يعملون على متن تلك الزوارق. كانوا جنوبيين، كلّهم، توظّفهم وكالة حماية نهر المسيسيبي أو إدارة الطوارئ الأمنيّة أو دزينة أخرى من بيروقراطيّات الولاية التي تديرها اسميًا، والتي أسّست كي تُلبّي أهداف الشمال الحربيّة ليس إلا. عُرِف هؤلاء الضبّاط باسم الشّارات الزرقاء، أمّا بتعبير المتمرّدين فكان يُقال إنّ هؤلاء الرجال مدينون بالمال للسيدة الرئيسة. هكذا، مرّة أو مرّتان كلّ شهر، كانت شارة زرقاء تدخل في عِداد المفقودين بالقرب من حدود المسيسيبي. وجرت العادة أنْ يُعثر على الرجل بعدها بأيّام قليلة مشنوقًا على غصن شجرة كاتالبا مُتشابك، وبطانة جيبَيّ بنطاله مقطوعة ومحشورة داخل فمه. تلك حظوظ المتّهمين بالخيانة. لايحدث هذا داخل الولايات الانفصاليّة فقط، بل في الولايات المجاورة أيضًا والتي كان سكّانها يتعاطفون مع المتمرّدين حتى وإنْ كانت حكوماتهم تُناصر الشمال.

«إنّه بنيامين.» قالت مارتينا، وهي تراقب الزّورق يغيّر مساره، ويتحوّل إلى مرفأ عائلة شستنت. «لقد أصابه مكروه. أصحاب الشارات الزرقاء لا يأتون إلى هنا في

هذا الوقت المتأخر ليلًا إلا لأمرٍ جلل.»

«هذئي مِنْ روعك. إياك والاستسلام لمثل تلك الأفكار.» قالت بولك، وأردفت: «ربّما زيارة روتينيّة.» لكن مارتينا كانت قد وثبت بالفعل من كرسيها واتجهت ناحية الضفّة. وقابلت في منتصف المسافة أطفالها عائدين من النهر. كانوا يسيرون وهم يديرون رؤوسهم للوراء، محملقين بالزورق القادم. فقالت مارتينا تأمرهم: «ادخلوا المنزل.» امتثلت الفتاتان، على عكس سيمون الّذي قال: «سيقولون شيئًا عن أبي، أليس كذلك؟ لستُ طفلًا، بل كبرت بما يكفي لأن أعرف.» دون أن تنبس بحرف، التفتت مارتينا وصفعت ابنها. فتسمّر الصبي ذاهلًا محمرّ الوجه دون أن ينطق ببنت شفة. فترات طويلة جدًا كانت تفصل بين تلك اللحظات التي تتجلّى فيها قوّة أمه الفطريّة، فكان الصبي يركَن لنسيان وجود تلك القوّة في الأساس. «ادخل.» كرّرت مارتينا على مسامع ابنها الّذي بدأ يذرف دموع الصدمة والغضب. قست ملامح وجهه غيظًا، لكنه أذعن هذه المرّة.

رسا الزورق إلى الضفّة الموحلة وهبط منه رجلان في ثوبين رماديين إلى الشاطيء. كان ثوباهما يشبهان زيّ مدير شرطة، وقد تدلّت فوق صدريهما شارتان قصيرتان بدا أنهما مصنوعتان من البلاستيك. أحد الرجلين كان طويلًا متين البنية، قصير الشعر، فبانت فروة رأسه الحمراء. وحتى دون أن تنظر إليه، أدركت مارتينا وجود لفائف دهنيّة صغيرة في قفاه. أمّا الآخر، فكان قصيرًا

ونحيلًا، وبدا أنّه أكبر بعشرة سنوات من شريكه الّذي لم يكن يتجاوز على أيّ حال الحادية والعشرين من عمره. حمل القصير حافظة أوراق خفيفة كان يُراجع محتوياتها مرّة تلو الأخرى على ضوء بطاريّته. وفي النهاية سألها: «هل أنت مارتينا شستنت؟»

أجابت مارتينا: «ماذا جرى له؟»

«هل أنت زوجة بنيامين شستنت؟»

«قل لي ماذا جرى له؟»

لم يُبدِّل الضابط وتيرة كلامه المطفأة، ورفض أن يرفع بصره عن الأوراق الموجودة داخل الحافظة. «آنسة شستنت، في الواحدة وسبع عشرة دقيقة مساء الأول من أبريل/نيسان 2075، فجّر أحد المتمرّدين قنبلةً داخل ردهة مبنى الخدمات الفيدرالية في باتون روج...» طفا باقي حديث الضّابط إلى جانب مارتينا، دون أن تسمعه. أعتمت الرؤية وضاقت، فتماهت هيئتا الرجلين مع النهر الأسود خلفهما. وأحسّت بغثيان حارق يضرب معدتها. عادت كفّ بولك تربت فوق كتفها من جديد، لكن هذه المرّة أيقظتها من غيبوبتها الطويلة فقاطعت المتحدّث: «خذني إليه. أريد أنْ أرى زوجي.» لكن الضابط استطرد: «سيدتي...»، «لديّ الحق أن أرى جثّة زوجي. لديّ حقّ. خذني إليه، بعدها أعدنا إلى هُنا. إنّه لا يرقد داخل مشرحة، بل في بلاده.»، «سيدتي، إلى أنْ تُنهي إدارة الطوارئ الأمنيّة تحقيقها، أخشى...»، «تبًا لجبنكما! أما من رجل حقيقي بينكما. ألا تفعلان إلا ما

تأمران به؟ لا فرق بينكما وبين الكلاب المدرّبة؟ ليت ما جرى لي يجري لأسرتيكما. ليت ما جرى لي يجري لأسرتيكما.»

«إذا انتهى التحقيق يمكنك المطالبة بالبقايا.»

«اخرجا من أرضي.» صاحت مارتينا، وانحنت تحفر في الطين وتلقي به على الضابطين. هبط رذاذ الطين المبلل على أرديتهما وحذائيهما. عادت تنحني من جديد لكن هذه المرّة نزل الوحل على ظهر قميصيهما وهما ينصرفان في اتجاه الزورق. التفت القصير ناحية مارتينا لحظة، وهو يفك الحبل المربوط بالمرسى وقال: «نحن آسفان لخسارتك.» راقبت مارتينا الزورق يغيب بعيدًا، يتلألأ جِزمه بين لحظة وأخرى وهو يعبر انعكاس القمر المموّج فوق النهر. بعدها عبرَ المنعطف، وغاب.

سمعت بولك تقول: «هو إلى جوار الله الآن. شهيد مثل زوجي.»، «اذهبي إلى الأطفال. تأكّدي أنهم دلفوا إلى الفراش. سألحق بكم سريعًا.»

«عزيزتي، لن أتركك.»

«هيّا الآن، سألحق بكم.»

أعادت بولك إلى المنزل، وتسمّرت برهة من الوقت بمفردها بالقرب من المنحدر الطيني على جانب النهر. حملقت في النهر الأسود الّذي يجري دون توقّف. سارت شمالًا، كانت الأرض دافئة ورطبة. وسرعان ما وجدت نفسها بين حقول الذُرة البيضاء. تتزاحم كيزانها السمراء حول سيقانها، صلبة مثل أسطوانة ذات كريّات معدنيّة.

حين ابتعدت عن البيت مسافة كافية وتأكّدت أنّ الأطفال في مأمنٍ عن سماعها، سقطت على ركبتيها وصرخت.

---

(3) قديسة الموت أو سيدة الموت عند المكسيكيين. (م)

الفصل الثالث

انحنت سارات فوق سور الشُرفة الأماميّ تنتظر عودة أمّها من منزل إليزا بولك. كانت قد ذهبت إلى هناك كي تتحقّق من أمر رجلٍ ما.

بالقرب منها، طفق سيمون يصارع كي يتسلّق إلى سطح المنزل. كان قد حاول زَفْع جسده فوق حافّة السقف عشرات المرات خلال الأيام الثلاثة الماضية. كان يدرك أنّ الألواح الشمسيّة تضعُف إن لم تُنظّف كلّ بضعة أيام، وأنّه من دون إضافة الكلور إلى صهريج المطر ستفوح منه عطانة البَيض الفاسد. كان يُضايقه كل يوم يمرّ بينما عجزُه يمنعه عن الوفاء بتلك المهام. من جديد، ثبّت السلّم في التراب وإلى جانب حاوية الشحن. هنا كانت الأرض طريّة بسبب ماءٍ يتسرّب دومًا من دُش استحمامٍ قريب، فانغرست ساقا السلّم رويدًا رويدًا داخل الوحل.

أمام إصرار سيمون، أسندَت البنتان السلّم من الجهتين، تحاولان الحفاظ عليه ثابتًا. فوقف فوق عارضة السلّم العليا، وجهّز نفسه ليثب ويتشبّث بالسقف. قال: «لا بأس.» وراح يمسح العرق الّذي يسيل فوق كفّيه. «جاهزتان؟»، «جاهزتان.» أجابت سارات ودانا بصوت واحد. أمسك سيمون حافّة الحاوية، وشبّ فوق أطراف أصابعه يرمق السطح. «أمسكاه جيدًا.» هتف بأختيه. فأجابت سارات: «نمسكه جيدًا.»، «كلا. أمسكاه جيدًا حتى لا يتحرّك.»، «نمسكه جيدًا!» جمع سيمون

شجاعته. فكّر في السهولة التي كان يؤدي بها والده مثل هذا العمل، كيف كان، حتى حين كان يعود إلى المنزل متأخرًا من مصنع القمصان، أصابعه حمراء من درز الثياب، يضطلع سعيدًا بمهام المنزل: يرقّع ثقبًا في صهريج المطر، ويُعيد تثبيت ألواح الخشب في النوافذ عقب عاصفة عاتية، ويطحن ذرة بيضاء بطاحونة يدويّة قديمة. تذكّر صرير الطاحونة إذْ تسحق الحبوب وتحوّلها إلى دقيق ناعم، كان ذلك صوت العمل.

ثبّت قدميه فوق العارضة العلوية وهتف: «واحد. اثنان. ثلاثة!» ثمّ وثب عاليًا قدر إمكانه. حلّق معتمدًا على كفّيه المتشبثتين بحافة الحاوية، وصار صدره في ستوى السّقف. علق في الهواء خفيفًا فترة وجيزة، وحاول أن يدفع جسده فوق السطح، لكنّه بات كأرجوحة غير متزنة، فمال قليلًا إلى الأمام ثمّ انقلب إلى الوراء. سقط على عنقه فوق الأرض الطريّة، مُصدرًا صوتًا مكتومًا. صرخت البنتان وتقهقرتا بعيدًا عن السلّم. حدّقت سارات بأخيها الممدّد على الأرض، وقدْ سفرتها شِدّة ارتطام جسده، والرذاذ الّذي تناثر من وقْع الارتطام. أمّا دانا فصاحت بسبب بُقع الطين التي غطّت ثوبها فجأة.

ظلّ سيمون ممدّدًا، تنقره الريح. في النهاية تأوّه واعتدل. قال لأختيه: «لا تقلقا. لم تمسكاه جيدًا!» فقالت دانا: «ربّاه. كان عليك انتظار مجئ أبي كي يصلح السقف. لقد لطّخت كل شئ بالطين.» واندفعت

إلى داخل البيت كي تبدّل ثيابها، وتبعها سيمون. بقيت سارات في الخارج تتأمّل موضع سقوط سيمون. ثمّ جثت فوق الأرض وطفقت تحفر بيديها خندقًا في التراب يبدأ عند حافّة كشك الحمّام إلى النّقرة التي خلّفها سقوط سيمون فوق الأرض. بعدها فتحت الصنبور وتركت الماء يتدفّق من الدش. سال الماء بطيئًا داخل الخندق مثل نهر صغير وملأ فراغ النقرة. بحرٌ وَليدٌ على هيئة صبي. «أغلقي الصنبور.» قال سيمون وقد عاود الظهور خارج المنزل في ثياب نظيفة. «أنتِ تُهدرين الماء.»

* * *

جاء الليل. تناول الأطفال عشاءهم بمفردهم. ما تزال أمّهم عند بولك على الجانب الآخر من الحقل. أكلوا شطائر من غيش جافّ ولحم خنزير محفوظ جاء في عُلَب صفيح عليها لغة لا يفهمونها، هديّة من شؤن المساعدات، أعطتها لهم سانتا مويرتيه. كانت زيارات جارتهم قد بدأت تتكرّر كثيرًا خلال الأيام الأخيرة مُحمّلة بمزيدٍ من الهدايا: طعام بجودة أعلى، وثياب أفضل. كان اللحم المُعلّب يشبه تحت أسنانهم محّايات مطاطيّة منقوعة في الماء. حين فرغوا من الشطائر، أكلوا ما بقي من فطيرة بولك التي قسَت وتصدّعت فيها كريمة الجبنة المجمّدة بعد مرور يومين داخل الثلّاجة.
تأمّلت سارات النهر. كانت قد رأت خلال النهار عددًا أكبر من المعتاد من القوارب المارّة قادمة من الضفاف

الشرقيّة، والآن وقد حلّ المساء، زادت حركة القوارب. كانت تسمع صوت مُحرّكات الوقود الأحفوري المكتومة تجئ من مسافة ميل أعلى النهر، وبين الحين والآخر كانت تميز أصوات رجال غير مرئيين يصدرون الأوامر. سألتهما دانا: «هل هذا أبي؟» أجاب سيمون: «لا. بل المتمردون.»، «ومن هم المتمردون؟»، «مقاتلون.» رمق سيمون شقيقته كي يرى إذا كانت قد وعت الكلمة. «هم إلى جانبنا في الحرب الدائرة ضد الشمال.»، «تقول أمّي إنّ أبينا في الشمال. وإنّنا سنراه هناك.»، «أمّي تكذب.» التفتت دانا إلى أختها غير مصدّقة. «إنّه يقول عن أمّنا أنّها تكذب!» والتفتت إلى أخيها: «سأقول لها.» قال سيمون: «هل تصدقين أن يطير أبونا إلى الشمال دون أن نكون معه؟ إنّه لم يأخذ معه إلا بضعة أوراق. لم يأخذ معه حتى ثوبًا بديلًا. شئ ما جرى له ولن تخبرنا أمّنا عنه.»، هزّت دانا رأسها، وكرّرت: «تقول ماما إنّ بابا في الشمال. أنت لا تعرف شيئًا.»

* * *

كانت القوارب التي سمعها الأطفال سفنًا للمتمردين تنقل الجنود والإمدادات إلى حقول النفط على الجبهة الغربية. كانت ترسو بالقرب من منزل بولك حيث أقاموا معسكرًا مؤقّتًا، وحيث جاءت مارتينا شستنت تلبيةً لدعوة جارتها كي تتحدّث مع أحد قادة التمرّد بشأن البحث عن ملجأ.

كان منزل بولك يتألف من أربع مقطورات متنقّلة ألفت

مرتبًا فيما بينها. كانت مصنوعة من كُتل جاهزة يكسوها الفينيل من الخارج، مغطاة بسقف مائل من الصفيح. على غير العادة، غصّت أرض بولك الهادئة بالفوضى التي صنعتها حركة المتمرّدين القادمين. وبرزت مارتينا من بين حقول الذرة لتجد عشرات الرجال، أغلبهم مراهقين، يتحركون صوب المنزل. كانوا يجزون، يدًا ليد، صناديق خشبية وأكياسًا من الخيش، من الزوارق المطفأة إلى المقطورات. كانوا يحملون أجهزة راديو صغيرة تطقطق بأوامر الاستعداد لوصول مزيد من السفن القادمة. وقد جلس صبي على جانب النهر يرسل ومضات خاطفة من الضوء للمراكب المارّة فوق الماء المعتم. كانوا يلبسون ثيابًا رثّة غير متناسقة الألوان أو الطراز، تألّفت من أي شئ وقعت أيديهم عليه: بناطيل قطنية سوداء؛ وسترات واقية؛ وثياب صيادِي بطّ مموّهة؛ وثياب جيوش أجنبية هُرّبت على متن سفن المساعدات بناءً على طلب قادة التمرّد. كانت أسلحتهم تُهرّب بالطريقة نفسها، أو تُستخرج من أقبية وعِليّات الآباء والأجداد. وغالبًا ما تكون الأسلحة أكبر عمرًا من حامليها. كانوا، دون استثناء، غير مدرّبين ولا مجهّزين بما يكفي من أسلحة، وإلى الغرب منهم يَمثُل موت مُحقَّق على يد جيش يفوقهم في كل شيء. لكن من ورائهم، داخل المدن المسدودة حيث وُلدوا، كان يَمثُل موتٌ آخر أبطأ: موت على يد الفقر والسأم والتحلُّل.

وقفت مارتينا على حافَة الحقل تراقبهم. كانوا قد

نصبوا في الحديقة الوسطى طاولة قيادة مؤقّتة وبسطوا فوقها خارطة تعرض الحدود بين لويزيانا وتكساس. اجتمع بعض الرجال الأكبر سِنًا حول الطاولة، وراحوا يثبتون دبابيس ويضعون علامات بأقلام تحديد. كانوا يرفعون رؤوسهم بين الحين والآخر ويخاطبون المقاتلين الأصغر سِنًا الّذين يمرّون إلى جوارهم يُجرجرون الصناديق وينصبون الخيام. وتسلّق أحد الصبية مِمّن لا يتجاوز عمرهم السبعة عشر عامًا إحدى مقطورات بولك التي تواجه النهر وحاول تثبيت راية *اتّحاد المتمرّدين* التي تحمل صورة أفعى جرسيّة فوق السقف، لكن قائدًا أكثر حذرًا أمره بإنزالها.

عثرت مارتينا على بولك بالقُرب من مَدخل المقطورة الأمامي، كانت تبعُد عنها عِدّة أمتار، وتقف فوق الدرجات الأماميّة تترقّب انتهاء المتمرّدين من نقل حقائبها من المنزل إلى أحد القوارب التي ترسو بالقرب منها. رأت بولك مارتينا ونادت عليها. أحسّت الأخيرة وهي تقترب من المقطورة بعيون الصّبية مسلّطة عليها، باردة ومتشككة. لكنهم لم ينطقوا حرفًا.

احتضنت بولك جارتها وقالت: «آه يا عزيزتي. جرت الأمور بسرعة.»

«أعتقد أنك قلت إنّ الأمر لا يتعدّى حضور أحد القادة.»

هزّت بولك رأسها. «يتجه الشماليون شرقًا من حقول نفط تكساس. سيلقاهم رجالنا عند الحدود. يقولون إنهم إذا أسرعوا بما يكفي سيتمكنون من إبعادهم عن

لويزيانا.» تفحصت مارتينا ما حولها بحثًا عمّن يتناسب مع وصف قائد ميداني. وسألت: «هل هو هنا؟»

«بلى يا عزيزتي. لكنه مشغول. ولن يخاطب أحدًا سوى هؤلاء الرجال.»

«أشيري لي عليه.»

استأذنتها بولك. «تمهّلي قليلًا. لن يكون مفيدًا أن تحاولي الحديث معه الآن.»

«أريني أين هو.»

أشارت بولك لمارتينا متردّدة على رجل أمام الطاولة الموجودة في الحديقة. كان طويلًا ونحيلًا، ربّما أصغر بخمس سنوات أو ست عنها. له لحية مشذّبة بعناية، تضيق نزولًا حتى حافّة عظم القصّ العليا كأنها نصل رمح. كان يلبس ثيابًا سوداء، من حذائه إلى قبعته العسكرية. بدا المقاتلون من حوله، على كثرتهم، كأنّهم يحلقون في مدارات ممدودة، يهرعون إلى مختلف أركان المعسكر المؤقّت تنفيذًا لأوامره قبل أن يعودوا إليه ويحملوا تكليفات جديدة. كان صوته خافتًا، فعجزت مارتينا عن تبين أيّ كلمة ممّا يقول إلى أن وقفت مباشرة أمامه عند الطاولة التي تحمل الخارطة.

لم يقل القائد الميداني شيئًا حين رآها، بل نظر في اتجاه بولك التي قالت: «هذه جارتي التي كلمتك عنها. المرأة التي استشهد زوجها.» قال الرجل: «لم يستشهد. بل قُتل.»

عاد القائد الميداني إلى صمته مرّة أخرى. بدا على

الرجال القريبين منه أنهم يرمقون مارتينا بعداوة، لكن في عينيه هو، لم تر إلا السكون. «فهمت أنك تحتفظ بمنزل بالقرب من فيكسبرج من أجل أرامل الشهداء.» قالت مارتينا ثم أردفت: «مكان آمن للنساء والأطفال.» ولم يجب القائد الميداني، فاستطردت: «لديّ فتاتان وابن. أطفال. مات أبوهم ولا وسائل لدينا نُعيل منها أنفسنا.» والتفتت إلى بولك: «الآنسة بولك هي جارتنا الوحيدة هنا. وقد وقانا كرمها وطأة الجوع، لكن ها هي ترحل الآن. كل ما أطلبه هو أن تسمح لنا أن نذهب برفقتها إلى فيكسبرج حيث لن يصيب أطفالي أي أذى. لا أطلب شيئًا أكثر.»

أجاب القائد الميداني: «لا يُمكن أن ألبي طلبك.»

«لماذا؟ يمكننا حزم أغراضنا خلال ساعة. نستطيع السفر الآن، سنحمل ثيابنا فوق ظهورنا.»، «نحتفظ بالمنزل لأقارب الشهداء. إلا لو كان لك رجل آخر مات أثناء القتال في سبيل القضية، وهو ما لا ينطبق عليك.» عاد إلى الخرائط المبسوطة فوق الطاولة، وسرعان ما استأنف المقاتلون مدارهم حوله مرّة أخرى. هُنا هتفت بولك: «هيّا يا عزيزتي.» وشدّت مارتينا من ذراعها. «لنتركهم الآن. سنتدبّر أمرنا بدونهم. أعرف ذلك.» لكن مارتينا أبعدت ذراعها، وقالت تُخاطب القائد الميداني: «رجالك قتلوا زوجي. رجالك قتلوا واحدًا من بني جلدتهم وهم مسؤولون عن رعاية أسرته.»

دار القائد الميداني حول الطاولة واتجه إلى حيث

وقفت مارتينا التي استطاعت عندما اقترب منها أن ترى عينيه الخضراوين الجميلتين، ساكنتين، لكن جميلتين.
«رجالي يقتلون الشماليين والخونة. لأيهما ينتمي زوجك؟»
اجتذبت بولك القائد الميداني من كمّ قميصه، ترجوه أن يأتي كي يتكلّم معها على انفراد داخل المقطورة. تركا مارتينا تقف وسط المقاتلين الّذين توقّف كثيرٌ منهم عمّا كان يفعله كي يراقب المشهد، وسارا نحو البيت. قال أحد المقاتلين: «لديك جرأة كبيرة؛ إذ تحدثتِ معه هكذا. لقد رأيته يطلق النّار على رجال لم يبلغ كلامهم معه هذا الحدّ.»، «لا أعبأ بما رأيت.» أجابت مارتينا.
أطلّ القائد الميداني وبولك بعد برهة قصيرة من المقطورة. واقترب الرجل من مارتينا. «غدًا عند الفجر، ستأتي حافلة في الطريق المحاذي للضفّة الشرقية متجهة إلى المسيسيبي، إلى مخيّم بيشنس. بسبب شهادة هذه السيدة لك وبسبب ما قدّمه رجالها للقضية، سأرسل أمرًا أنّك إن تواجدتِ أنتِ وأطفالك هناك غدًا، أن يوفّروا لكم مشسقًا.»
«تقول لي أن آخذ أبنائي إلى مُخيّم لاجئين؟»
«أقول لك أن تقومي بما يناسبكم.»
وعاد القائد الميداني مرّة أخرى إلى الخرائط الموضوعة فوق الطاولة. «اذهبي الآن. لا أستطيع أن أقدّم لك ما هو أكثر.»
تلفّتت مارتينا حولها ترمق الجنود المحتشدين. «لا أحد

بينكم يجد في نفسه الجرأة على رفع صوته؟ لا أحد منكم لديه أمٌ أو أولاد؟» واصل الرجال مراقبتها، البعض ببرود، والبعض الآخر ضاحكًا، لكن دون أن ينبس أحدٌ منهم بحرف. تركتهم مارتينا حيث يقفون وعادت من حيث أتت. ولحقت بها بولك على طرف حقل الذرة. «آسفة يا عزيزتي. لقد بذلت أقصى ما أستطيع.»، «نحن إذًا لسنا شماليين لأننا من الجنوب، ولسنا جنوبيين لأننا حاولنا السفر إلى الشمال. أخبريني من نحن إذًا. أخبريني من نحن.»

ناولت بولك مارتينا قصاصة ورق كُتب عليها الموعد والمكان الّذي ستتواجد فيهما الحافلة في الصباح المقبل. «الأوضاع ليست بالغة السوء داخل المخيّم يا مارتينا. لديهم طعام طيب، طعام يجئ مباشرة من سفن المساعدات، ومجانًا أيضًا. ولديهم أماكن كي يلعب فيها الأطفال. ستكونون بمأمن هناك.»، «بل سنكون كالأنعام هناك.» أشارت بولك تجاه الغرب. «صدقيني يا عزيزتي، هذا أفضل لأبنائك. يقولون إنّ القتال يدور الآن على مسافة أقل من مائة ميل من هنا، وهم يقتربون أكثر باتجاه الشرق كل يوم. أولئك الخونة المنخرطون بين حرس لويزيانا يرشدون الشماليين للتوغّل داخل أراضينا، وهم لا يعبأون بهوية من يقتلون. ستكونين في أمان في مُخيم بيشنس، وأبناؤك أيضًا يا مارتينا. تُرى ماذا يهم غير ذلك؟»

حدّقت مارتينا في عينيْ جارتها الضيقتين الثابتتين.

«سأبقى في منزلي. سأطالب بجثة زوجي وسأدفنها في أرضه وسأبقى في منزلي. وإن جاءت الحرب فأهلًا بها. سأنتظرها مع أبنائي مدجّجين بالسلاح.»، «لقد بذلت كل وسعي. لكن ما كان عليكِ أن تقولي ما قلتيه من أنّ رجاله يقتلون بني جلدتهم. فلديهم حساسية بالغة تجاه ذلك.»

* * *

حين عادت مارتينا إلى المنزل، وجدت سارات مدفونة حتى العنق داخل وحل ضفة النهر. كانت البنت تصرخ جذلًا فيما شقيقها يكوّم حولها حفنات من الطين الأسود. وجلست دانا فوق جذع شجرة قريب، تراقبهما باستنكار مبهم. حين رأى سيمون أمه وثب على قدميه، وهتف: «هي طلبت مني فعل ذلك.»

«أخرجها واغتسلا. ثمّ اذهبا إلى فراشيكما.»

«ماما، سيمون يقول أنك كاذبة.» قالت دانا. فسارع سيمون: «لم أقل ذلك.» وألقى بعضًا من الطين في اتجاه دانا.

«لن أكرّر ما قلت.» قالت مارتينا.

تسلّق الأطفال الجسر تتقدمهم سارات ملطّخة بالطين، تفوح رائحته الآسنة من جلدها. تجرّدت أثناء سيرها، وألقت ثوبها في الطريق الترابي خلفها وهي تخطو داخل الحمّام. كانت بشرتها هي الأكثر سمرة؛ إذ ورثت دانا وسيمون سمرة أبيهما، وسارات لون أمّها الأسود. أحضرت مارتينا ثيابًا لابنتها وتركتها بجانب دلو ماء

المقلوب عند الدش. وسرعان ما اغتسل الأطفال وبدّلوا ثيابهم، ثمّ قبّلوا أمّهم واحدًا تلو الآخر عائدين إلى داخل المنزل.

جلست مارتينا بمفردها فوق الكرسي المصنوع من خشب الجوز. أكلت بقايا الشطيرة التي خلّفها الأطفال، وفضلات اللحم المعلّب. لم يفارقها الشعور بالجوع، فهرعت إلى داخل المنزل والتقطت علبة هلام بنكهة المشمش من الثلاجة. كان الهلام عبارة عن معجون برتقالي اللون جيلاتيني القوام، يجئ داخل عبوّة فضيّة بسيطة كجزء من حقيبة تموينيّة عسكرية. كانت مثل هذه الحقائب في الجنوب، إمّا تُباع أو تُرمى أو توزّع، لكنها تجد طريقها حتمًا إلى السوق السوداء حيثُ تُفتح ويُباع ما فيها كلٌّ على جدة. كانت مكوناتها طعامًا عالي القيمة، لا من أجل مذاقه، لكن بسبب نفعه، والطاقة التي يزوّد بها آكليه.

بدلًا من العودة إلى كرسي خشب الجوز، ألفت مارتينا نفسها تسير، لا إلى الشرق حيثُ النهر ولا إلى الشمال حيث حقول الذرة البيضاء، لكن غربًا، وراء المنزل، وبمحاذاة الدروب القليلة الاستعمال التي تتخلّل الحشائش البنية وتمتدّ قاطعةً ما تبقّى من البلدة الداخليّة.

في أوائل الشتاء، حين يبرد الجوّ ويزداد الطلب على العمّال، كان هذا الدرب هو الطريق الّذي يمشي عليه زوجها إلى المصنع في دونالدسونفيل. ثمّة حافلة

داخلية كانت تتوقّف إلى جانب أرض عائلة شستنت، لكنه كان يختار المشي أغلب الأحيان. كان يتبع الدرب الّذي يتخلل الحشائش إلى حيث يلتقي مع أحد الطرق الترابية العريضة. هناك بعد ميلين، كان الطريق يتقاطع مع قضيبي قطار مهجوزين، وينمو عشب كثيف بين العوارض الخشبيّة.

سارت مارتينا في الطريق ذاته المؤدي إلى قضبان القطار. كانت تمشي بحذر، عارفة بأماكن الشقوق والفجوات العميقة التي قد يلتوي كاحل القدم داخلها بسهولة. كانت هناك بعض أعمدة الإنارة التي ما تزال في مكانها بينما ألواحها الشمسيّة تعمل، تُلقي بهالات بيضاء على الأرض. خلاف ذلك كان الطريق غارقًا في الظلام.

انتصبت أطلال بيت ريفي يعود لأصدقاء والدي مارتينا في الجانب الشرقي من نقطة التقاء الطريق الترابي العريض مع الدرب. بالقرب من المنزل حقلُ قُطن، وقد مضى زمن طويل على زراعته آخر مرّة. حادت مارتينا عن الطريق وسارت في دربٍ ترابيّ جانبيّ. انتصب أمامها البيت الريفيّ البسيط المشيّد من الخشب مجفدًا على وشك الانهيار. كانت سلسلة من العواصف التي هبّت قادمة من بحر المسيسيبي قد انتزعت الجدران من أماكنها، لكن دون أن تتسبّب في انهيار المنزل الّذي مالَ ناحية الغرب على نحو واضح، مثل متوازي أضلاع مترنّح.

كانت مارتينا، كلّما أرادت الانفراد بنفسها بين الحين والآخر، تجئ إلى هُنا. لكن باستثناء زجاجة البيرة التي أحيانًا ما تجدها، أو علبة السجائر الفارغة التي يُلقيها عابر سبيل فوق درجات السلّم الأماميّة، لم يكشف المنزل أبدًا عن علامات تدلّ على الحياة. كان ثمّة شجرة جوز غزيرة الأغصان في الجهة الغربيّة من الأرض المحيطة بالمنزل، وقد علّقت العائلة إطارًا زائدًا فوق أقوى أغصانها منذ زمن بعيد كأرجوحة. منذُ طفولتها كان هذا المنزل ملجأ مارتينا؛ إذ خلف الشجرة كانت الأرض مبسوطة تمثّل ما بدا أنّه غرب لويزيانا بأكملها، كان المشهد نظيفًا غير ملوّث.

لكن في العتمة كانت الأشياء تختفي. وتكتسي السماء باللون الأسود. وحدها *الطيور* كانت تُحلّق فوق الرؤوس؛ وهي طائرات مُقاتلة عديمة الصوت مصممة للتجسّس والقتل من بعيد، يتحكّم في حركتها وهدفها رجال في أماكن نائية، لديهم هم فقط المشاهد المصوّرة للأهداف الثمينة غير الواضحة تنخُز ضمائرهم. كانت *الطيور* خلال السنوات الأولى من الحرب أكثر أسلحة الاتحاد فاعلية، إلى أنْ فجّر مجموعة من المتمردين قنبلة في حقل الخدمة العسكريّ الّذي كان يتحكّم من خلاله الطيارون البعيدون بطائراتهم. الآن، تقوم الطائرات التي تزوّدها الألواح الشمسيّة على أجنحتها بطاقةٍ دائمة، بالطيران على غير هُدىً، هائمة في السّماوات، تختار أهدافها ومساراتها بطريقة عشوائيّة.

جلست فوق إطار الأرجوحة البالية. مال الغصن قليلًا، مطلقًا طقطقة خافتة حين شدّ ثِقل جسد مارتينا الحبل حول لحاء الشجرة. مزّقت غطاء عُلبة الهلام وغرفت بأصابعها المادّة البرتقاليّة اللزجة داخل فمها. أخفقت بكل الطرق في مضغ الطعام بسبب قوامه. هرسته بين لسانها وسقف فمها، وتركته ينساب إلى حلقها. لم يكن له طعم المشمش بل رائحته، مشمش كما قد يتخيّله مهندسون لم يألفوا الفاكهة في العالم الطبيعي. وسرعان ما أحسّت بالسكّر يندفع إلى أطرافها العصبيّة.

سمعت صوت جرجرة قدمين. أجفلت، وبدأت تتساءل عن هويّة مصدر الصوت، لكنها توقّفت جامدة. اقترب صوت الجرجرة إلى أنْ صار أمامها مباشرة، وذلك حين تمكّنت أخيرًا من رؤيته. إنّه كلب أجرب مهزول يتجوّل كفيفًا عبر الحقل الفارغ. كان كلبًا لصيد الثعالب، يتحرّك ببطء وتحفّظ ناحيتها، مستطلعًا أي إشارة عداوة. اعتصرت مارتينا ما تبقّى من هلام المشمش فوق راحتها وعرضته على الكلب الّذي راح يتشمّم الطعام، ورغم جوعه فقد توقّف قليلًا ليتعرّف على الهلام قبل أن يُشيح برأسه بعيدًا.

رفعت مارتينا رأسها، إذْ أضاء فَجرٌ برتقاليٌ صغير السماء. لم تكن إلا نصف قُبّة من نور سطع في الأفق بضع ثوانٍ، قبل أن يختفي مرّة أخرى.

بعد لحظات سطع من جديد. لكن هذه المرّة انطلق في أعقابه قَرنٌ من لهب إلى السماء المظلمة. ظلّ اللهب

عالقًا في الهواء بضع ثوانٍ أيضًا، ثابتًا، قبل أن ينحسر. كان مشهدًا صامتًا، كأنّ كل دفقة نور كانت في الفراغ.

بعدها طلعت نصف شمس لتحجب دفقات النور السابقة، ودوى زئير لبضع ثوان لم تسمع له مارتينا مثيلًا من قبل. اصطدم الزئير بصدرها وأوقعها وراء الأرجوحة. سقطت فوق التراب، تحملق مبهوتة، وقد استبدّ طَنينٌ مُضجرٌ بأذنيها. نبح صائد الثعالب وهرب، تتبعه مارتينا هي الأخرى عائدة إلى أطفالها ومنزلها.

ركضت بأسرع ما يُمكنها، تستجمع سيقان شبابها الماضي. بعد ربع ميل اشتعلت رئتاها وزلزل انفجار آخر أعلى من سابقه الأرض أسفل قدميها. حين بلغت المنزل، وتشبثت بسور الشرفة تستند إليه، كان انفجاران آخران قد حطما الليل.

وجدت أطفالها داخل المنزل في حال من الاضطراب. نزلت البنتان معًا على الأرض بالقرب من فراش أبويهما، وقد احتضنت سارات أختها المنتحبة. أمّا سيمون فكان عند الواجهة، يحاول دون جدوى إغلاق باب حاوية الشحن الصدئ، الّذي نادرًا ما كانت الأسرة تجد ما يستدعي إغلاقه أثناء الصيف. «أين كنتِ؟» سألها. «ماذا جرى؟»

جذبت مارتينا ابنها من ذراعه ودفعته إلى مؤخَرة المنزل. «الأمور على ما يُرام. لقد اشتعلت النيران في أحد المصانع الموجودة على جانب الطريق. لا شئ يتعدّى تلك الأصوات، ولن تؤذينا بشيء.» جلست فوق

الأرض إلى جانب أطفالها وقرّبتهم منها. اجتذبت بطانية صغيرة مستعملة من أسفل سريرها ولفّت نفسها وبنتيها داخلها. «اشتعلت النيران بأحد المصانع الموجودة على جانب الطريق. لا شئ يتعدّى تلك الأصوات. سرعان ما سينتهي كل شيء.» راحت تردّد، ومع كل مرّة تردّد فيها عباراتها، كانت تصبح حقيقية أكثر.

* * *

لم تهدأ الإنفجارات حتى قبيل الفجر، مرسلةً ذبذبات وضغط غير متوقعين. في النهاية تسبب الإعياء في إضعاف حساسية الأطفال- تكوّرت البنتان في حضن أمهما، وجلس سيمون إلى جوارهن ثابتًا يراقب ضوء الشمس يتسرّب من خلال النوافذ.

حدّقت مارتينا أمامها حيث مدخل المنزل، تنتظر. تُصغي الآن، بعد انتهاء الانفجارات، إلى أصوات صغيرة: خُطى أقدام، تعليمات مهموسة، تجهيز بندقية. لكن لا أحد جاء. لم تكن سوى قوقأة الدجاجات البائسة ونبض الصراصير المسموع وصوت تنفّس أطفالها.

أنظري ما أخذه منك عنادك. كانت تقول لنفسها. *إياكِ أن تدعيه ينتزع منك شيئًا أكثر.* ثم أومأت إلى ابنها قائلة: «هل تظن أنك تستطيع نقلنا إلى الضفة الأخرى من النهر على متن قاربك؟»

«نعم.» أجاب سيمون دون تردد.

«اذهب إلى حجرتك إذًا، بهدوء شديد حتى لا توقظ

أختيك، واحزم قَدرَ ما يُمكنك من ثياب داخل حقيبة ظهرك.» سألها سيمون عن السبب. فاستطردت: «أسرع الآن. أعتمد عليك في نقلنا إلى ضفة النهر الأخرى. أبوك يعتمد عليك.»

نهض الصبيَ بهدوء شديد، وانتظرت مارتينا حتى فرغ من حزم حقيبته، بعدها نهضت هي الأخرى وحملت البنتين إلى فراشيهما، يُسكرهما النوم، لكن لم تغْفُا في النوم العميق بعد. وضعتهما في الفراش فنامتا على الفور، وهرعت تجذب أكبر حقائب السَفر التي تملكها من أسفل الفراش، حقيبة عتيقة برونزية التفاصيل كانت تخض جدتها يومًا. كانت الحقيبة عميقة وواسعة ومفصلاتها النحاسية هشَة. غطّت الملصقات جوانبها، كل منها تُخلّد ذكرى زيارة لمكان ما تاريخيَ أو إحدى الحدائق في إحدى الولايات التي كانت مارتينا لا تعرفها إلا من الكتب الدراسيَة في شبابها.

وضعت الحقيبة فوق الفراش وفتحتها، ففاحت في الحجرة رائحة النفتالين. عثرت داخلها على قلمين وإطار مكسور لا يحمل صوزًا. ألقت تلك الأشياء على الأرض وفتحت خزانة ثيابها وراحت تحشو الحقيبة بالثياب ومستلزمات الحمام. بسرعة ودون تفكير، طوّرت جدولًا هرميًا للمتطلبات، تبدأ بما يحتاجه الجسد مباشرة، ثم الأقل فالأقل: سدادات قطنيَة؛ ثياب تحتيَة؛ فساتين. عبأت منشفتين ولفَتين من ورق الحمام وعُلبة مطهّرات. وعندما أوشكت الحقيبة على الامتلاء توقَفت

واتجهت إلى المطبخ. حملت جرارًا وزجاجات ضمّت الأطعمة الأقل قابلية للتلف: مربّى؛ زبدة الفول السوداني؛ وكل ما تبقّى من حصص التموين العسكريّة. أخذت زجاجات الصودا البلاستيكية الضخمة وأفرغت محتوياتها فوق التراب، ثمّ أعادت تعبئتها من الصنبور المتصل بصهريج ماء المطر. طفقت تحشو الحقيبة حتى صار من المتعذّر غلقها، فاعتلتها لكن المشابك القديمة لم تعمل، فأحضرت حزامين كانا لزوجها من خزانة الثياب وربطتهما سويًا ثمّ لفتهما حول الحقيبة لمنعها من دلق محتوياتها. آنئذ وجدت حقيبتي ظهر ميني ماوس المتماثلتين اللتين تخصّان سارات ودانا وملأتهما بثياب البنتين.

خرجت. ونحو الجانب الجنوبي من المنزل، بالقرب من موقد الحطب، كان ثمّة أنبوب تصريف مياه واسع الفتحة امتدّ من سقف المنزل لكنه لم يكن متصلًا بشيء. كان الأنبوب مسدودًا عند قمّته وقاعه. جثت فوق الأرض وأزالت السدادة الموجودة عند القاع، فتوالى سقوط بعض الماء الآسن من الأنبوب. مدّت ذراعها وتحسست بحثًا عن جزّة قهوة. ما فتئت تسحبها حتى سقطت. فتحت الجزّة وأحصت محتوياتها: خمسمائة دولار أمريكي؛ وما يساوي ثلاثمائة دولار أخرى بعملة لويزيانا؛ وثلاثة أوراق كل منها تضمّ ستة عشر طابعًا تعود لأيام ما قبل الحرب؛ ما يساوي ألفي دولار من عملة المتمردين أصدرتها حكومة زويفيز

الجديدة في الأيام الأولى من الحرب لم تعد لها قيمة الآن عمليًا تقريبًا في البيع والشراء، لكن بنيامين كان يأمل أن يأتي يوم تصير فيه ذات قيمة من باب الفضول التاريخي؛ وساعة معصم رولكس معطّلة كانت تخص ذات يوم جَدّة جَدّة مارتينا.

* * *

حين فرغت مارتينا من حزم الحقائب، رصّتها في الخارج أمام الفناء ودخلت توقظ الفتاتين. حملقتا فيها بعينين زجاجيتين، فما تزالان متعبتين مشوشتين.

«يا بنات، سنخرج إلى مغامرة صغيرة. سنعبر النهر سويًا. ما رأيكما؟» أفاقت سارات تمامًا عند ذكر المغامرة. «ولماذا سنعبر النهر يا ماما؟»

«لأننا مضطرون للعيش داخل منزل جديد بعض الوقت يا حبيبتي.»

«هل سنرى بابا؟»

«نعم يا حبيبتي. الآن هيا كي ألبسكما ثيابكما. آن أوان الرحيل.»

انتزعت مارتينا خليًها من قعر صندوق أثناء استعدادها هي وابنتيها للمغادرة، وصورتين لها برفقة زوجها، كانتا قديمتين، التقطهما جدّها بكاميرته، ودسّتهما داخل ثوبها.

اتجهت إلى واجهة المنزل، حيث وجدت سارات تقف على أطراف أصابعها تحاول حمل تمثال السيدة العذراء. «دعي عنك ذلك يا ابنتي. سنعود إليها في وقت

لاحق.»، «سيريد أبي التمثال.» أجابت سارات. «اتركيه الآن فحسب. آن أوان الرّحيل. سيتفهّم أبوك الموقف.»، «لا!» هتفت البنت الصغيرة، وراحت بجهد خرافي ترفع التمثال من فوق الطاولة، فسقط بين ذراعيها وكاد يُجهز عليها. رفعت سارات التمثال الّذي يكاد يساويها طولًا وخرجت من الباب تترنّح.

أغلقت مارتينا باب حاوية الشحن الصّدئ خلفها بقفل رقميّ هشّ، كانت تعلم أنّه لن يصمد أمام أسنان أصغر قَطّاعة بَرّاغٍ. بعدها حملت حقيبتها وتقدّمت البنتين أسفل الجسر صوب الضّفة حيث سيمون وطوفه ينتظرانهن.

صعدوا على متنه. اهتزّ الطّوفُ وغطس قليلًا بتأثير أوزانهم. لم يسبق لمارتينا أن استقلته من قبل قط. كانت قد عبرت النهر عدة مرّات خلال السنوات القليلة الماضية، لكن على متن زورق آلدر سميث حين كان يدعو الأسرة إلى البلدة من أجل الطّهي في الهواء الطلق. كان الطّوف شيئًا طفوليًا لم يناسب قط عبور النهر، محض شئ زائد على صفحة المسيسيبي.

فكّت الأسرة مرسى الطوف تحت سماء محمرّة. أخذت مارتينا المجداف من ابنها وطفقت تقاتل الماء. أحسّت بالتيار يجرفهم، فعرفت أنّهم بعد عبورهم إلى الضّفة الشرقية سيضطرون إلى السّير ميلًا أو أكثر على الطريق كي يصلوا إلى مكان عبور الحافلة. تشكّلت بقع داكنة وواسعة من العرق فوق ذراعي ثوبها، وغطّت

عينيها.

* * *

بعد سنوات طويلة، داخل مخيّم بيشنس، ستلعن مارتينا في سرّها اليومَ الّذي غادرت فيه بيتها واصطحبت أطفالها كُرهًا إلى قلب الجنوب المتقيّح الّذي مزّقته الحرب. فما عجزت عن معرفته ذلك الصباح، هو أنّ قتال المتمرّدين، والقوات الفيدرالية، والميليشيات المكسيكيّة، كان قد وصل في نهاية المطاف إلى طريق مسدودة عند الجهة الشرقيّة من تكساس. وأنّ العنف لم يتقدّم بوصة زائدة داخل لويزيانا أكثر ممّا وصل إليه في ذلك النهار الهشّ من أبريل/نيسان حين غادرت أسرة شستنت أرضها.

مقتطف مِن:

شاهد على الانفصال:

روايات صحافيّة مبكّرة عن الحرب الأهلية الثانية

"أولى رصاصات الحرب الأهليّة"

ما لا يقلّ عن تسعة وخمسين قتيلًا وأكثر من مائتي جريح في مواجهات مع متظاهري فورت جاكسون

15 مارس/آذار 2074

دانيال ماناك. شارلستون فيد.

مدينة كولومبيا، ولاية كارولينا الجنوبيّة- قتلَت القوّات الفيدرالية ما لا يقل عن تسعة وخمسين شخصًا يوم الأربعاء في نهاية دامية لوقفة احتجاجية استمرّت أربعة أيام أمام بوابات فورت جاكسون- ما يُمثّل في اعتقاد كثيرين أوّل اعتداء ترتكبه حكومة كولومبس في حرب شاملة تندلع بين الولايات المتعارضة.

وقد صرّح الحاكم ديفيز براون بقوله: «لِنَكُن واضحين: ما جرى كان مذبحة لمواطني كارولينا الجنوبيّة، مذبحة للجنوبيين، ومذبحة لكل من يجرؤ على رفع صوته احتجاجًا. هذا بيان مباشر من الحكومة الفيدرالية مفاده اعتبار كل مَن يُعارض قانون المستقبل المُستدام، أو أيّ قرار تتخذه حكومة كولومبس، عدوًا تجب تصفيته.»

"هذه دعوة للحرب."

كان أحد كوادر حرّاس البحرية المُعيّنين على البوابة رقم اثنين بالقرب من شارع ستورم ثورموند -حيث

احتشد المتظاهرون بالمئات خلال الأيام الأخيرة- قد أطلق النار على المحتجين في حوالي الثانية عشرة ظهرًا من يوم الأربعاء، حيث تمركز الحرّاس في أبراج مؤقّتة بالقرب من أسوار شُيدت سريعًا بهدف صدّ المحتجين بعيدًا عن بوابة القاعدة العسكرية.

كشف إطلاق النيران الأول عن إصابة كثيرين مِمّن تواجدوا في الصفوف الأولى من المظاهرة. لكن ما وقع لاحقًا كان جرّاء تدافع المتواجدين في الصفوف الخلفيّة مذعورين، فقد دهش بعضهم بعضًا أثناء محاولة الهرب من الرصاص.

وبحسب إيليا ميلر، الّذي انضمّ للمظاهرة في وقت مبكّر من صباح الأربعاء ونجح في الوصول إلى البوابة قبل بدء إطلاق النار، فإنّه: «في اللحظة نفسها التي لوّح فيها الرّجل الّذي كان يقف أمامي، اندلعت تلك الرّشقات من الرّصاص، فسقط جثّة هامدة.»

«أقسمُ بالله إنّ هذا الرجل لم يكن يحمل سلاحًا. لم يكن يمثّل تهديدًا لأحد، ورغم ذلك أردوه قتيلًا.»

وقد وصف شهود عيان مشاهد وقوع مجزرة تلت إطلاق النار، وعديد من الجثث الهامدة التي غطّت الطريق المعبّد وبِرَك الدّم المنتشرة حولهم.

وقال أحد الجنود داخل فورت جاكسون، والّذي لم يكن من بين الجنود المتمركزين عند البوابة رقم اثنين، إنّ أكثر من مُتظاهرٍ مِن بين الصفوف الأولى للمظاهرة قاموا بإطلاق النار من مسدّساتهم على سلسلةٍ وقفلٍ

كانا يُبقيان على جزءٍ من السّور المؤقّت موصدًا. وأضاف الجندي الّذي رفض ذكر اسمه؛ بسبب تعليمات للقوات المتمركزة في القاعدة بعدم الإدلاء بأيّ أحاديث للمراسلين الصحفيين: «لابدّ أنّ المتظاهر الّذي أطلق النار تصوّر أنه يعيش فيلمَ أكشن، متخيلًا أنه بإطلاقه النار سينفتح القُفل أو ما شابه.» وأضاف أيضًا، إنّ الرصاص بدلًا من تحطيم القفل، ارتدّت شظاياه إلى الحشود. «عندئذ، اعتقدَ [المتظاهرون] أنهم يتعرضون لإطلاق نار، فاندفع نصفهم إلى الخلف واندفع النّصف الآخر إلى الأمام ناحية السّور. وبمجرّد أن رأت مُشاة البحريّة أنّ السّور على وشك السقوط، بدأت هي الأخرى بإطلاق النار.»

لكنّ متظاهرين كُثر يرفضون تلك الرواية، ويقولون إنّ مُشاة البحريّة لم تتعرّض لأيّ شكل من أشكال الاستفزاز. وبحسب بول هارتنج، أحد الذين رابطوا أمام البوابة طوال الأيام الثلاثة الأخيرة، فإنّ: «أولئك الجبناء على الجانب الآخر من السّور أطلقوا النيران دون سبب. لقد قتلوا كلّ هؤلاء الناس دون ذنب على الإطلاق. ولابدّ من شنقهم جزاء هذا الجُرم.»

وقد جاءت ردود الأفعال سريعةً على المجزرة. ففي كولومبس، أصدر أعضاء مجلس الشيوخ العشرة الّذين يُمثلون الولايات الجنوبيّة المتحالفة، وهي لويزيانا وأركنساس وميسوري وكنتاكي وتينيسي، بيانًا مشتركًا عبّروا فيه عن إدانتهم لِما جرى، ووصفوا فيه أحداث

القتل «بالاستفزاز المأساوي وغير الضروري الّذي لا يساعد إلا المتطرفين ولا يسهم في إنقاذ البلاد من السقوط في أتون الحرب.»

ووصف بيانٌ أصدره مجلس الولايات الجنوبيّة الحرّ، المكوّن من حُكّام تكساس والمسيسيبي وآلاباما وجورجيا وكارولينا الجنوبيّة أحداث القتل بأنها: «جريمة قتل بدم بارد لا لَبسَ فيها.» وعملًا يدلّ على طُغيان وخيانة ينبغي محاكمة الرئيس الفيدرالي نفسه، مارتن هنلي، عليها. وقال حكّام الولايات في بيانهم: «سيوقن كل وطنيّ جنوبيّ الآن، بمجرّد سماعه أنباء مذبحة فورت جاكسون، أنّ الحكومة الفيدرالية في كولومبس تعتبر حياة الجنوبيين أدنى قيمة. إن أولئك الّذين يغمضون عيونهم عن قصد فقط هم من يُمكنهم اليوم رؤية الشوارع التي خضّبتها الدماء ويرفضون مساندة قضية الإنفصال.»

وقد اندلع العنف في أرجاء كارولينا الجنوبيّة كلّها، حيث ازدادت موجة العداء للفيدرالية ربّما أكثر من أيّ مكانٍ آخر خارج حقول نفط تكساس، بمجرّد انتشار أنباء القتل أمام فورت جاكسون. وأضرم المواطنون النار في العديد من مقرّات امتيازات الشركات الشماليّة، والتي أغلقت كثيرٌ منها أبوابها بالفعل قبل شهور منذُ اغتيال الرئيس الفيدرالي، دانيال كي، في جاكسون، بولاية المسيسيبي، أكتوبر/تشرين الأول الماضي. وعُثر على جثث ثلاثة رجال تتهمهم مجموعات من المواطنين

الانفصاليّين بالعمل كجواسيس لصالح الشمال، مُقيّدين على شاطئ نيوشارلستون، مشقوقي الحلوق.

وصرّح ممثل عن أحد مجموعات المواطنين بكارولينا الشماليّة بأنّ: «لم يعد الأمر يتعلّق بالانفصال. بل بالثأر لقتلانا.»

ولم يصدر الرئيس الفيدرالي هينلي حتى الآن، مساء الخميس، بيانًا رسميًا بشأن ما حدث. ويواصل الموقع الصحافي الرسمي لوزارة الدفاع، الّذي لم يتم تحديثه منذ الاثنين الماضي، إبراز بيان مقتضب يقول إنّ مسؤولين عسكريين يعتقدون أنّ قوات مشاة البحرية في فورت جاكسون: يتصرّفون وفق أقصى درجات ضبط النفس.

وقد كرّر الحاكم براون، الّذي دعا من قبل كافّة المتعاطفين مع الشمال في كارولينا الجنوبية إلى مُغادرة الولاية، دعوته هذه يوم الأربعاء، وطالب مواطنيه بمدّ يد العون إلى قضية المقاومة. «أولئك الّذين ذبحوا أهلنا بالجملة ليسوا أهلًا للتفاوض. هذا ليس محلًا للتنازل أو التسوية. من بعد ما جرى اليوم في فورت جاكسون، لا عودة إلى الوراء.»

الفصل الرّابع

تحت الظّلال المشتّتة لبعض أشجار النخيل، انتظرت أسرة شستنت. جرفهم التيّار ميلين كاملين بعيدًا عن وجهتهم أثناء عبور النهر، فعادوا سائرين عبر الطريق الريفيّ العريض الّذي يمتدّ بمحاذاة النهر كلّ تلك المسافة إضافة إلى ميل آخر. كانت الصدوع العميقة تملأ أرجاء الطريق وكأنّه محروث. وكادت تختفي الآن تمامًا آثار الخطّ الأصفر المحدّد لمساريّ الشّارع، فلم يعد هناك ما يفصل بين القادم والرّائح.

ساروا إلى أنْ بلغوا منعطفًا في الطريق، وهناك وجدوا شريطًا ترابيًا وبعض أشجار النخيل المهزولة. وقد نمت سيقان النباتات الخضراء الحادّة وراحت تميل إلى الخلف باتجاه النهر، بعيدًا عن الشمس الطالعة. وتناثرت بين الأشجار بعض شجيرات اليوكا التي تلوّنت أوراقها المنجليّة باللونين الأخضر والأبيض. ها هُنا المكان الّذي قال القائد الميدانيّ إنّ الحافلة ستتوقّف فيه.

«سيأخذ النهر الطّوفَ.» قال سيمون محتجًا. بدا أصغر حجمًا تحت وطأة حقيبة ظهره، الممتلئة بالثياب وكتب المصوّرات وقناع غطس، وسكّينٍ شحذ نَصلها بنفسه، وعُلب سجائر غير مفلترة كانت تخصّ بنيامين شستنت. كانت السجائر الرفيعة المحشوّة بتبغ غث، واحدة من رذائل والد الصبيّ القليلة للغاية التي حافظ عليها. كان يحتفظ بها بعيدًا عن عينيّ زوجته خلف لوح خشبي عريض خارج المنزل. هذه السريّة لم تكن ضروريّة في

الحقيقة؛ إذ كان الصبي وأمه يعرفان عادة بنيامين في التدخين، لكن حفاظًا على ماء الوجه، لم يفه أيهما بحرف.

قالت مارتينا: «لن يأخذه النهر.»

«لم نرفعه بما يكفي فوق الضفة. وقريبًا ستمطر، حينئذ سيعلو الماء ويدفع به إلى عرض البحر.»

«ساعتئذ أبني لك طوفًا جديدًا.»

«تقولين ذلك لأنك تعرفين أننا لن نعود.»

«كفى.»

وضعت الأسرة أمتعتها على الأرض، وانتظروا وصول الحافلة. سقطت دانا متعبة تنام فوق الأرض متوسدة حقيبة ظهرها. وراحت سارات تطوف في الجوار بين الأشجار، تتفحص شجيرات اليوكا؛ كان مظهرها يدلّ على مرونتها وصلابة أوراقها المستوية. وكانت الأكثر نموًا من بين شجيرات النباتات القليلة التي كانت ما تزال تنمو في أرض الجنوب العطشى. تحسّست سارات الأوراق بأصابعها. كان ملمسها جافًا ونسيجها يُشبه ورقة صنفرة. لكنها كانت طريّة أيضًا، وليّنة. كبست سارات أصابعها بالإبرة الموجودة عند طرف الورقة، وأحسّت بالضغط فوق بشرتها. كانت نهايات الإبر سمراء وصلبة، منيعة ضد الشمس والعواصف.

صار الجو أكثر دفئًا، وظلّت أسرة شستنت تنتظر لكن الحافلة لم تأت. وسرعان ما بدأت مارتينا تتساءل إن كانوا قد فوّتوا الحافلة نهائيًا، وإن كان يتحتم عليها

سريعًا اتخاذ قرار بشأن اصطحاب الأسرة باتجاه الشرق سيرًا على الأقدام. سألتها سارات وهي تشير إلى واحدة من شجيرات اليوكا: «ما هذا يا ماما؟»، «نبات يا صغيرتي.»، «أي نوع من النباتات؟»، «صبّار. لا تقتربي منه كثيرًا، وإلا آذيت نفسك.»، «صبّار.» طفقت سارات تكرر، مفسحة للسانها مجالًا لينطق كل مقطع بوضوح. «صبْ-ار.»

سمعت مارتينا صوت احتكاك العجلات بالطريق. ودارت الحافلة حول المنعطف قادمة من الجنوب. كانت حافلة مدرسيّة صفراء اللون تعود إلى ما قبل الحرب، مزوّدة بألواح شمسية تغطي سطحها بالكامل. كُتب على جانبي الحافلة بحروفٍ ضخمة، حيثُ لابد طُبع فوقها ذات يوم اسم مدرسة راقية ما، **نقلُ مدنيّين**. كانت الحافلة تتحرك ببطء، وما تزال أشعة الشمس الأولى تتخلل ألواحها. توقّف السائق في الجهة الأخرى. وانفتح الباب. ساقت مارتينا الأطفال إلى الجانب الآخر من الطريق، وأنعمت النظر داخل الحافلة حيثُ رأت سائقًا في حوالي الثلاثين من عمره يجلس خلف المقود. كان بدينًا، تغطيه حبّات العرق. خلف السائق جلس رجل آخر، أطول وأعرض. كان يلبس قميصًا بسيطًا أبيض اللون وبنطالًا قطنيًا أزرق، وإلى جانبه بندقية قديمة من طراز95. كانت بندقية رخيصة فقيرة التصميم يَشيع استعمالها بين المتمرّدين لأنّ الرصاص نادرًا ما ينحشر داخلها أو تتعطّل، وبسبب إمكانية تهريبها داخل حقيبة

أحد الأقارب على متن سفن المساعدات. رمق الرجل ذو البندقية مارتينا بوجه خالٍ من التعبير.

«نحن آل شستنت.» أخبرت مارتينا السائق، وأدركت حينئذ أنها لم تعرف على الإطلاق اسم الرجل الّذي وعدها بضمان السفر. «أخبرني زعيم المتمردين أنه سيسمح لنا بالركوب إلى بيشنس.» أطلق سائق الحافلة ضحكة مكتومة، وقال: «زعيم *المتمردين* قال ذلك؟ حسنًا، لا يُمكننا مُخالفته.» واختفت الابتسامة المتكلّفة من فوق شفتيه. «مائة دولار عن كل واحد فيكم.» هزّت مارتينا رأسها. «لقد قال أنّنا سنتمكّن من الركوب. وقال...»، «سيدتي، هل تُعين ما أقول؟ مائة دولار عن كل فرد.» بحثت مارتينا بين حقائبها عن جزّة النقود الضفيحيّة. «كل ما لديّ ثلاثمائة دولار لويزياني.»، «هل قلت دولار لويزياني؟ ما عادوا يقبلون تلك العملة التافهة حتّى داخل لويزيانا نفسها.»، «هذا كل ما أملك.» هزّ السائق كتفه، وجذب عصا القيادة فانغلق الباب دافعًا مارتينا إلى الوراء. وبدأت الحافلة بالتحرّك. أبعدت مارتينا أطفالها بعيدًا عن طريق العجلات، وبدأت تركض إلى جوار الحافلة وهي تدق فوق الباب بحفنة دولارات، فأبطأ السائق وتوقّف من جديد. وقال يُخاطب الرجل صاحب البندقيّة: «هل ترى ذلك؟ أخمّن أنها أساءت التقدير ليس إلا.» سدّدت مارتينا الأجرة ودفعت الأطفال داخل الحافلة. وثب سيمون وتبعته البنتان. لا تني سارات تحمل تمثال العذراء، وراح سيمون يُحدّق

بالرجل صاحب البندقية كأنه منوّم، أثناء سيره داخل الممر.

جرجرت الأسرة أقدامها إلى مؤخّرة الحافلة. جلس رجل عجوز، المسافر الآخر الوحيد، في الصفّ قبل الأخير، وجلست مارتينا مع أطفالها خلفه فوق المقعد الأخير. وضعوا أمتعتهم فوق المقعد وتحته، وتكوّموا في جانبٍ واحد قبالة العجوز. مالت الحافلة إلى الأمام مرّة أخرى مصدرةً أنينًا صفيحيًا، كان عطبها يتجاوب مع الطريق الريفي المتصدّع. سأل السائق الحارس: «هل أرسلوني كل هذه المسافة من أجل هذا. ليس ذلك إلا هدرًا للوقت. لماذا ننقل المنبوذين من خارج *الماج*؟ إنهم يناصرون كولومبس، دع كولومبس تتعامل معهم. لدينا ما يشغلنا وأكثر.» ضبط الحارس مقبض بندقيته، والتفت صوب النافذة متجاهلًا السائق الّذي التفت إلى المسافرين. «حسنًا، أنصحكم بالاسترخاء. فأمامكم يوم سفر طويل.»

أيقظ صوت السائقِ الرجلَ العجوز الّذي كان نائمًا إلى تلك اللحظة، بينما قبعته مغروزة بين النافذة وجانب رأسه. مسح خيطًا رفيعًا من اللعاب سال من فمه. كانت مارتينا تراقبه. إنه في عقده الثامن، وربّما أكبر، أحد أبناء الألفيّة الماضية، وقد صبغت الشمس القويّة وجهه وذراعيه وغطّت أماكن أخرى من جلده ببقع سوداء. كان يلبس حلّة بيضاء تعود لزمن ما قبل الحرب، أكّدَ على أناقتها منديلٌ من الحرير الأحمر، أطلّت أطرافه من

جيبها العلوي. مسحة رماديّة كسَت أجزاءَ السترة والبنطال، حيث الركبتان والمرفقان، لكن عدا ذلك كانت حُلّته البيضاء ما تزال تحتفظ بلونها. في المجمل، أضفت الثياب على الرجل مظهرًا يعود لعالم انقضى، مظهرًا مهيبًا. بدا لمارتينا مخلوقًا لا من زمن مُغاير وحسب، بل بعيد جدًا؛ مخلوقًا ولد في أمريكا التي انزلقت منذ عهد بعيد إلى عصور الظلام وتركت أمثاله خلفها.

رتّبَ العجوز سقف قبّعته ووضعها في حجره. تفحّص الحافلة كأنْ لا فكرة لديه عن الطريقة التي آل بها إلى هُنا. اقترب من مارتينا، وحملق فيها برهة. أخيرًا قال: «هل أنتم من البلايند ريفر؟»، «لا.»، «هل تعرفون أحدًا من هناك؟»، «لم أسمع بها من قبل قط.»

صمت العجوز، والتفت إلى الأمام مرّة أخرى.

«كان لزوجي بعض الأقارب يسكنون بالقرب من تلك الأماكن.»

ابتهج العجوز. «بلايند ريفر تبعد حوالي ثلاثين ميلًا غربًا، تزيد أو تقل. لكنّتِ رأيتِ اليافطات التي تُشير إليها لو كنتِ قادمة من نيوأورليانز، لكن لم يعد لتلك اليافطات أثر الآن.»، «مممم.» تابع العجوز بينما يتردّد في صوته كبرياء واهن: «لقد عشت هناك واحدًا وخمسين عامًا. عاصرت إعصارَي آنا عام 43 ومايكل عام 51. لقد بلغ تدويم اعصار مايكل حُجرة معيشتي، وعصف بكافّة المنازل؛ عشرة مبانٍ في كل اتجاه، لكن

بيتي كان الوحيد الّذي لم يتأثر. لقد التقطوا صورًا له من الجو، ونشروها على غلاف مجلّة كورييرٍ.» نهض واتجه إلى جانب أسرة شستنت في الحافلة. دقّق النظر في كلّ طفل، كلّ في دوره؛ سيمون، الّذي كان كا يزال ذاهلًا بسبب المتمرّد وبندقيته. والبنتان الجالستان إلى جوار النافذة، تطلان على بقايا الأرض الزراعية السمراء وأعمدة الكهرباء بأسلاكها المرتخية ومصابيحها المطفأة. كانت سارات الأقرب إلى النافذة، تجثو فوق ركبتيها أعلى المقعد وتكبس أنفها بالزجاج. تألّقت الأرض تحت نور الشمس الدافئ، وغمرَ اتساعها البنت. أمّا دانا فجلست مثل سنور بين شقيقتها وأمها، تغزل ضفائر صغيرة من شعر سارات المجعّد. كانت حين تفرغ من كل ضفيرة، تتركها تنفك وتراقبها تعود لحالتها الأولى شيئًا فشيئًا، بعدئذ تبدأ في غزل ضفيرة أخرى.

«كم عمرهم؟» سألها العجوز.

«سيمون في التاسعة. والبنتان في السادسة.»

«توأم! لا يجمعهما شبه مطلقًا.»

«أظن ذلك.»

رمق العجوز دانا مستطردًا: «يا لكِ من جميلة!» والتفت إلى أمها مردفًا: «لي حفيدة تشبهها تمامًا، لكنها أقرب إليك أنتِ في العمر. أخذها والداها معهما إلى الغرب، إلى كاليفورنيا، قبل انفجار فقّاعة السيلكون الثانية عام 21. لم أرهم منذئذ. ربما رحلوا إلى الإقليم المكسيكي الآن لو كانوا ما يزالون على قيد الحياة.»

«هل تعرف شيئًا عن المخيم الّذي نتجه إليه؟ هل هو آمن؟»

«لم يخبروني شيئًا عنه. جاءوا إليّ وقالوا إنهم يريدون أرضي كي ترسو عندها السفن القادمة إلى المسيسيبي والخارجة منه. كلّهم مهزبو أسلحة، أعرف ذلك. ولم يتبق أحد هناك سواي؛ فقد ابتلع البحر الآن كافّة البيوت التي كانت موجودة على جانبي الطريق. قال الصبي المسؤول أنني لو كنت شابًا لكانوا ألقوا بي إلى الماء. لكنني أظنّ أن فيهم بعضًا من الإحسان، ذلك أنهم أمهلوني عشرة دقائق أحزم خلالها أغراضي، ثم طردوني. عشرة دقائق! أحزم خلالها ستة وخمسين عامًا.»، «لكن داخل المخيّم هل سيوفرون لنا الطعام؟ هل سيوفرون لنا سكنًا؟ لا نملك مالًا كثيرًا...»، «لكن أتعرفين، قبل أن أغادر، قلت لذلك الصبي، أنني لو كنت شابًا، لكنت ألقيت بك إلى البحر...»

تركت مارتينا العجوز يتكلّم، فلم يكف عن الحديث طوال ساعة تقريبًا عن حياته التي قضاها في بلايند ريفر حسبما يرد إلى ذاكرته، وكيفما اتفق. في الأمام سمعت مارتينا السائق يتحدّث أيضًا. كان يحكي للرجل صاحب البندقية عن عمه الّذي وفّر له وظيفة جيدة في المزارع الرأسية خارج أطلانطا. قال أنّ كل ما كانت تتطلبه الوظيفة كمشرف مناوب هو البقاء مستيقظًا وألا يبول فوق المزروعات، وفي خلال ستة أشهر كان سيرقّى إلى وظيفة مكتبية أنيقة. «أغلب مشاكل هؤلاء

الصبية أنّ حماقتهم تحول بينهم وبين استيعاب أنك ينبغي أن تتعب قليلًا قبل أن تمضي قُدمًا. تأتيهم الفرصة فيضيعونها على الفور. لا انضباط لديهم. لكنني منضبط. بلى يا سيدي، أنا منضبط.»

كان الحارس يحدّق عبر النافذة. وكانت الحافلة تتحرك ببطء بمحاذاة النهر، مجتازة بقايا أعالي لويزيانا الممزقة. ها هنا انتصر البحر أخيرًا. لقد أنفقت حكومات الولاية والبلاد بلايين الدولارات من أجل إنقاذ أعالي لويزيانا من زحف البحار؛ شيّدوا مئات الأميال من حواجز الأمواج والسدود والجسور العالية، بل انتهى بهم الأمر كذلك إلى بناء مدن عائمة. آنذاك كانت الأمور ما تزال في بدايتها، وكانت المحيطات لم تُجهز بعد على الفكرة المتفائلة أنه في وجود ما يكفي من الرمل والإسمنت والكبرياء والنقود، يُمكن إنقاذ أعالي لويزيانا. كان ذلك في حينه، أمّا ما بقي الآن فلم يكن يتجاوز أحشاء ذلك العالم وآثار المساعي العقيمة من أجل استبقائه: شرائح رقيقة من الإسفلت التي غرقت عند ارتفاع المدّ، ومُدن شبحية تتخذ من التلال الصناعية دعامات لها، وجسور مفتتة غطست داخل الماء. كل ذلك كان مُبعثرًا بين الجزر التي تبقت، وقد انتصبت أطلالًا، وشأن كافّة الأطلال في مسلكها الغريب، راحت تنتهك مرور الزمن.

* * *

غادرت الحافلة شاطئ النهر وانحرفت إلى الطريق

السريع 55 متجهة إلى شمالًا. في الأيام التي سبقت الحرب، كانت الطريق السريعة تمتدّ تحت الرقم نفسه حتى شيكاغو. أمّا الآن فكانت تنتهي عند حاجز من الأسلاك الشائكة وأبراج الحراسة على مسافة عشرة أميال جنوب ممفيس، وهي نقطة تفتيش عند الحدود الجديدة في زمن الحرب. انتصبت هناك اليافطات الزرقاء على جانب الطريق والتي تُعدّد وسائل الرّاحة المتاحة عند كل مخرج. وقد كسى التّعتيم كافّة شعارات محطّات التزوّد بالوقود، لكن فوق كثيرٍ من تلك المربعات السوداء أعاد شخصٌ ما رسم الشعارات بنقوش فجّة. أحاطت أشجارٌ نحيلة بالطريق السريعة، خالية من الأوراق، وليس فيها إلا أغصان يابسة. وفي كل ركن، كان العمران على جانبي الطريق يكشف عن دلالات نهب: أعمدة إنارة وقد انتزعت أسلاكها، وسيّارات مفرّغة الأحشاء، وواجهات مصانع لم يبق منها إلا خرسانة متصدّعة وحديد تسليح مكشوف.

فكّرت مارتينا، أثناء السكون الّذي خيم على الحافلة في الطريق السريع، بكل الأشياء التي نسيت إنجازها أثناء تعجّلها الفرار في الليلة السابقة. كانت قد حزمت علب الطعام دون أن تأخذ فتّاحة علب، وأغلقت باب حاوية الشّحن بقفل رقمي نسيت أرقامه منذ زمن طويل. كما لم تُغطّ الألواح الشمسيّة بالقماش، ولا أفرغت الصهريج من ماء المطر. وما تزال الدجاجات حبيسة قفصها.

* * *

بلغت الحافلة الحدود بين لويزيانا والمسيسيبي بعد ساعتين. هنا ينتصب أحد المباني المصنّعة من أجزاء مركّبة، مبنى شاحب ينتصفُ شبكة من مراكز حراسة وطرقًا خرسانية متعرّجة. تتهادى المركبات ببطء داخل هذه الطريق الضيّقة. وخلال مسافة ميل على جانبي الطريق، تناثر بعض الحرّاس المدججين بالسلاح؛ بعضهم من قوّات احتياط لويزيانا، والبعض الآخر حمل شعار دولة الجنوب الحرّة الأحمر ذي النجمات الثلاث. أبطأت الحافلة إلى ما يُشبه الزّحف البطيء، وهي تعزج بين المنعطفات. تقدّمتها شاحنة مغلقة صغيرة على مسافة بضعة أقدام، وقد غطّت سقفها أسلاك كهرباء سوداء ترسمُ كلمة *صحافة*. كانت الطريق المتعرّجة تستقيم لعدّة أمتار بعد كل ثلاث منعطفات. عبرت المركبة مطبًا صناعيًا جهة الشمال. وأطلّ جنديٌ من فوق برج حراسة قديم، غير مكترث.

توقّفت الحافلة منتظرةً انتهاء الحرّاس من تفتيش شاحنة صغيرة تتقدّمهم في الصفّ. أخرج الجنود أربعة رجال من المركبة ثمّ دخلوا. بدأ جنديان في إزالة معدّات موجودة خلف الشاحنة: كاميرات؛ حوامل بثلاثة قوائم؛ هواتف تعمل بالأقمار الصناعية؛ سترات واقية خضراء لامعة؛ وبعض الخُوَذ. ثم وقف جنديٌ ثالث بالقرب منهم يتفحّص بعض أوراقٍ أعطاها له أحد ركّاب الشاحنة. كان يقلّب الأوراق دون اكتراث بمحتوياتها أو بالأختام الموثّقة المختلفة فوقها. بين الحين والآخر،

كان الرجل الّذي أعطى الجنديَ الأوراق يحاول التدخّل بالكلام، لكن الجنديَ كان يأمره بالسكوت. بدأ مزيدٌ من الجنود في الاحتشاد حول الشاحنة، يحدقون ببلاهة في المعدّات التي تتناثر الآن فوق الأرض. أخيرًا، طوى الجنديَ الأوراق التي قرأها ووضعها داخل جيبه، وأمر ركّاب الشاحنة، برفقة مركبتهم ومحتوياتها، بالسّير نحو مبنى صغير على جانب الطريق. اعترض الرّجال، لكن دون جدوى.

أشار جندي آخر للحافلة أن تتقدّم. فسار السائق قليلًا حتى الموضع الّذي أشار إليه الجندي. فتح الباب ودخل الجندي. «طاب صباحك يا سيدي. الرحلة الروتينيّة إلى بيشنس. سنتجه شمالًا حتى نصل *جريناڤا* بعدها ننحرف إلى الشمال الشرقي حيث المدن الحدوديّة. أحمل تصريحًا من أطلانطا...» تجاهل الجندي السائق، وأومأ جهة المقاتل المتمرّد. ثمّ طفق يتفحّص الحافلة وركابها الخمسة. كان طويلًا ونحيلًا مثل المقاتلين الذين رأتهم مارتينا في منزل إليزا بولك، يرتدي زيًا خاصًا بالولايات الجنوبية المتمرّدة، تدلّت منه أزرار نحاسية ونجوم مفرطة البهرجة. وقد اغتمر قبعةً عسكرية تلقي حافتها ظلًا على عينيه. كان يُشبه طفلًا.

«ألا يُفترض ألا تجلب أحدًا من الولايات المحايدة؟»

«إنهم الوحيدون يا سيدي.» أجاب السائق، أثناء بحثه المتعثّر بين كومة التصاريح التي يحملها. «بعض من دفعهم القتال الدائر بالقرب من حدود تكساس للنزوح.

لدينا موافقة هنا من ممثل حركة التمرّد في باتون روج، إن تشأ إلقاء نظرة...» أشار المقاتل المتمرّد للسائق أن يكفّ عن الكلام، وقال مُخاطبًا الجندي: «لا بأس. إنهم متمردون.» أومأ الجندي، وتناول التصاريح من السائق وهبط من الحافلة. «تقدّم.»

أغلق السائق الباب، وتقدّمت الحافلة ببطء شديد تجاه المعبر. فك أحد الجنود عمود المعبر، فغطس الثقل الموازن عند الطرف الآخر وانفتحت البوابة. سارت الحافلة فوق الأرض المنبسطة وعبرت في غضون لحظات التخومَ الرمادية الفاصلة بين عالمين. سرعان ما أصبحوا على الجانب الآخر، ورأت مارتينا من خلال النوافذ الغربية أعدادًا هائلة من اللاجئين المحتشدين قبالة المعبر الجنوبي، لا يصدّهم إلا فئة قليلة من جنود احتياط لويزيانا. واصلت الحافلة تقدّمها وتزايدت سرعتها، وسرعان ما غابت الحدود الفاصلة. هُنا قال السائق للمسافرين: «أهلًا بكم في *الماج*. حيث آخر الشجعان في بلاد الله الخضراء.»

* * *

تحرّكوا شمالًا. أطلّت سارات من النافذة. جفّ الآن الماء الّذي غمر أغلب جنوب لويزيانا، لكن بطريقة أو بأخرى لم يختلف مشهد الأرض. كانت الحقول التي مرّوا بها فارغة وسمراء، والأشجار مهزولة وجرداء. وتبعثرت أشلاء إطارات ممزقة في خنادق تتناثر على جانبي الطريق. لكن ثمّة مشاهد أخرى أيضًا. مشاهد لم تر لها

مثيلًا من قبل؛ خفر يبلغ اتساعها عشرة أقدام تفغر فاهها في غرض الطريق السريعة، وزدم بعضها على عجل في بعض الأماكن: أحيانًا بالخرسانة، وأحيانًا أخرى بجسور من خشب وألواح صلب. عبرت سيارة رياضيّة قديمة تعمل بالوقود الأحفوري إلى جانب الحافلة، زُيّن غطاء محرّكها بأفعى مجلجلة منمقة.

كان ثمّة لوحات غريبة على جانب الطريق. حملت صورًا للخراب والمذابح: مبانٍ استحالت أنقاضًا؛ جثث أطفال غطّاها التراب؛ جنود من ولاية الجنوب الحرّة يمدون يدَ العون للأسر الفقيرة التي كانت تعيش في البلدات الحدودية. إلى جانب تلك الصور لم يكن ثمّة كلمات عدا: *نحميا (4)*[4] 14:4.

انحرف السائق بالحافلة شرقًا بالقرب من جاكسون. سرعان ما وصلوا آلاباما، ومرّة أخرى اتجهوا شمالًا. أبطأ السائق حين وصلوا هنتسفيل التي لا تبعد كثيرًا عن حدود المعارك بين آلاباما وقوات الشمال، ودخل البلدة.

«هل هذا هو الشمال يا ماما؟» سألت سارات.

«ليس بعد يا طفلتي. قريبًا نصل إليه.»

ضيّق السائق عينيه وهو يمدّ بصره إلى الأمام نحو البلدة من زاوية الطريق الجانبي المتفرّع من الطريق السريع. «يا الله! أراهم بوضوح الآن، يزحفون كأنّهم فئران.» توقّفت الحافلة أمام أبواب كنيسة ضخمة مبنية من الطوب. غطّى سرب من بشر فناء الكنيسة: نساء برفقة أطفالهن يحتشدن حول الأكياس وحقائب

السفر، ورجالٌ أقعدهم تقدّم العمر أو بَترُ أحد أطرافهم، يترنّحون فوق كراسيهم المتحرّكة. كان المتطوعون يميلون عليهم بالشطائر الملفوفة وأكواب عصائر الفاكهة. كان بعضهم قساوسة في ثيابهم الكهنوتية السوداء، لكنهم كانوا يلبسون جميعًا سترات بيضاء تحمل شعار *الهلال الأحمر*.

بدأت الحشود بالتململ حين رأت الحافلة. لكن بعض المتطوعين أبقوهم على مسافةٍ آمنة بالقرب من بوّابة معدنيّة سوداء تشير إلى آخر حدود الكنيسة. برز قسّيس من القطيع واقترب من الحافلة، ففتح السائق الباب. «طاب مساؤك يا أبانا. يبدو أنك تحت وطأة عمل شاق.»، «لقد قصفوا *هازلجرين* مساء السبت. الله وحده يعلم من سيأتي دوره، لكن القصف دفع بالبلدة كاملة إلى هُنا. ستُقلّ تسعين نفسًا منهم، أليس كذلك؟»، «بل خمسة وثمانين.» ألقى القسيس نظرة على قائمة مثبّتة بلوح يحمله بين يديه. «تقول القائمة هنا تسعين نفسًا. وقد قلت لهم بالفعل أنّ تسعينًا منهم سيرحلون.»، «لا تقلق يا أبانا. أراهن أنّ أولئك الناس قد سمعوا إلى الآن كافة العبارات التي تبيّنَ لهم فيما بعد عدم صدقها. خمسة وثمانون شخصًا لا غير.»

حك القسيس صدغه. «حسنًا، تمهّل، تمهّل قليلًا، وأغلق الأبواب. إذ ربما، حين أخبرهم بذلك، يُجهزون عليك ويقتلونك.»

«كما تقول يا أبتي.»

التفت القسيس يخاطب شطرًا من الموجودين في الفناء، وسرعان ما علت الهمهمة بينهم، وانهال صياح على القسيس من كل جانب، سمعته مارتينا عبر ستارة نافذة مفتوحة. صاحت امرأة: «إنه دوري. لقد قلت لي ذلك البارحة. لقد أقسمت.»، «ما باليد حيلة.» فهتف رجل يستند على عصا: «بل تستطيع.»، «تعرف أنّ الأمر ليس بيدي.»، «أشر لنا إذن على من بيده الأمر. ودعنا نتكلّم مع هذا المسؤول.»، «تعرف أنه ما من مسؤول. ليس إلا الحرب. الحرب هي التي تتكلّم. والحرب تقول أنّ خمسة منكم عليهم الانتظار ليلة أخرى.»

اجتمع القسيس مع المتطوعين الآخرين للتشاور بشأن تحديد من سيبقى. وبدأ المحتشدون يصيحون بالأسباب التي لا ينبغي لأجلها أن يبقوا ليلة أخرى، على سبيل الاحتراز. تكلّموا عن أمراضهم، وعن جراحهم المتقيحة التي تطلب رعاية عاجلة. صاحوا بعدد موتاهم وأسماء أطفالهم. وظل القسيس ومستشاروه ينظرون إلى القائمة ويضعون علامات أمام أسماء ويشطبون أسماء ثم يعودون ليضعوا أمامها علامات من جديد. هتف السائق: «تبًا للإنجيليين! لا يستطيعون اتخاذ قرار أبدًا!»

في النهاية، اتفقوا على بقاء أربعة رجال وصبي يافع في الكنيسة. أمّا اللاجئين الخمسة وثمانين الآخرين، وجميعهم إلا اثنين منهم نساء وأطفال، فقد شكّلوا صفًا تقدّم من الفناء إلى ممرّ جانبي. فتح السائق الباب،

فدلفوا واحدًا تلو الآخر. كان موكبًا عابسًا مطفأ العيون. ملأت النساء المقاعد بلامبالاة آلية، أمامهن الأطفال. تملأ أمتعتهن حقائب ظهر أو حقائب ثياب أو سلال غسيل. كُنّ يلبسن سراويل بيتيّة وقمصانًا وفانلّات دون أكمام لطّختها بقع طعام، تحمل أسماء وشعارات مطاعم وفنادق وشركات لم يعد لها وجود. ارتدت بعض النساء قمصانًا متشابهة رخيصة مصنوعة من الألياف الصناعية طُبع فوق صدرها الراية الرفرافة لدولة الجنوب الحرّة: ثلاث نجمات مجوّفات يصطففن أفقيًا فوق خطّ أبيض أفقي يقسم خلفية حمراء إلى نصفين متساويين. طُبع فوق ظهر القمصان بخطّ عريض تاريخ الأول من أكتوبر/تشرين الأول 2074- يوم استقلال الجنوب.

اقتربت مارتينا من أطفالها، تذودُ عن جانبها من المقعد. شيئًا فشيئًا امتلأت الحافلة إلى آخرها بحمولتها البشرية، وجلبت الأجساد معها الدفء. بدأ الهواء داخل الحافلة يصير خانقًا ورطبًا بتأثير حموضة العرق المُعتّقة والأجساد غير المغسولة. شغلت ثلاث نساء المساحة المتبقية فوق المقعد الأخير، وكوّمن أطفالهن وأمتعتهن عاليًا فوق حجورهن. اقتربت امرأةٌ من مارتينا، بدا أنها في أواخر العشرينيات من عمرها تجرّ خلفها صبيًا أصغر من سيمون قليلًا. «أنتم تشغلون مساحة كبيرة. تخلصوا من كل تلك النفايات.» قالت المرأة وهي تشير إلى أمتعة الأسرة. «بل نشغل متسعًا يُساوي ما يشغله الآخرون.» ألقت المرأة نظرة ازدراء

على تمثال السيدة العذراء الموضوع فوق المقعد إلى جانب سارات. «إنهم يحتجزون زوجي يومًا آخر داخل هذه الفوضى كي تستطيعون حملَ تمثال لَعين معكم؟ هذا ليس عدلًا.»

«لم أكن أعرف أنّ الأوضاع هكذا.»

«لا أعبأ بما تعرفينه. ألقي به.» استدرات امرأة تحتلّ المقعد المجاور للرجل العجوز القادم من بلايندريفر، وقالت: «اجلسي يا لارا. كُفي عن مضايقة المرأة المسكينة.»، «أغلقي فمك يا هولي. لست مسؤولة عن شيء.» هُنا وقف الحارس الجالس في الصفّ الأوّل من الحافلة، وهتف: «أغلقي فمك واجلسي.»، «هذا ليس عدلًا. ليس عدلًا! لماذا يحقّ لهم إحضار كل ما لديهم في حين لا يحصل زوجي على المقعد اللعين الّذي وعدوه به؟» رفع الحارس البندقية المعلقة حول كتفه وسار إلى مؤخرة الحافلة. «لا بأس. لا بأس. اهدأ. انتظر لحظة.» قالت لارا، لكن الحارس أجهز عليها ممسكًا بذراعها وجرجرها إلى الأمام. سبّته المرأة وتشبثت بظهور المقاعد، لكنه أزاحها بسهولة. وحين بلغ مقدمة الحافلة جذب مقبض الباب بيده الخالية ثمّ دفع المرأة إلى الخارج. اختل توازنها وسقطت فوق الرصيف. بعدئذ التفت الحارس ناحية الصبي الّذي طفق يشدّ قميصه ويصرخ أن يترك أمه، وألقى به إلى الخارج هو الآخر. وقبل أن تسنح الفرصة لأيٍ من المتطوعين في الكنيسة للاعتراض، طوّح حقائب المرأة وابنها أيضًا، وأغلق

الأبواب، والتفت إلى المسافرين. «هل لدى أحد منكم ما يقوله؟» لكنهم لزموا الصمت. فالتفت الحارس إلى السائق. «هيا.» هتف الحارس، وامتثل السائق.

عادت الحافلة سريعًا إلى الطريق السريع، في اتجاه المسيسيبي غربًا. بعد أنْ عبر الطريق السريع جُرفَ *ليتليلوكريك* بميلٍ واحد، انحرف السائق جهة الشمال معتمدًا على ذاكرته في القيادة داخل متاهة من طرق ذات وحيدة الاتجاه. كانت الطرق تتعرج حول قيعان جافة جرت فيها ذات يوم فروع نهر تينيسي. التفتت هولي مرّة أخرى ناحية مارتينا. «لا تشغلي نفسك بلارا. لقد تغيّرت منذ خسرت أصغر أبنائها الشتاء الماضي في قصف للطائرات بدون طيار.»

«لم أكن أعرف. لم أكن أعرف شيئا عن كل هذا.»

رفعت هولي يدها فوق ظهر مقعدها وقدّمت نفسها وصافحت مارتينا. «من أين أنت على أي حال؟» قالت تسأل مارتينا. «سانت جيمس.»، «لم أسمع بها من قبل قط.»، «جنوب باتون روج. تُطل على المسيسيبي.» قطبت هولي حاجبيها. «تلك بلاد تتبع الراية الزرقاء. هي مُحايدة على أي حال. لكن ماذا فعلتم كي ينتهي بكم الحال هنا؟»، «لقد انتقلت الحرب شرقًا قادمة من تكساس.»، «يا عزيزتي، هل تظنين القتال سئ في تكساس؟ لم تشهدي إذًا البلدات الحدودية القريبة. عليك السفر إلى الشمال متى سنحت لك الفرصة، لديهم مكتب في باتون روج حيث تستطيعين الحصول على

تصريح عمل.» رمقت مارتينا الأطفال كي ترى ما إذا كانوا يتابعون الحديث. لكنهم بدوا في عالمٍ آخر- دانا نائمة؛ وسارات مسلوبة اللّبّ بالبلاد الجديدة الغريبة؛ أمّا سيمون فانخرط في حديث مع ابن هولي الّذي قاسمه دمية مصنوعة من البلاستيك على هيئة تمساح استوائي كان قد أحضرها معه.

«على أي حال، ترى ماذا أقول لك؟ ستكونون على ما يُرام.» استطردت هولي. «لديهم رجال طيبون يديرون بيشنس، من الهلال الأحمر. وهي أفضل منظمات الإغاثة، المنظمة التي يرسلونها إلى الحروب الكبرى كلّها. لا تفهميني خطأ. هو ليس فندقًا، لكنه على الأقل كبير بما يكفي لحرمان الشماليين من مبرّر لقصفه مصادفة كما يفعلون أحيانًا. وعلى أيّ حال، يزعم رجال الرئيس كيرشاو في أطلانطا أنّ السلام سيحلّ بمجئ عيد الميلاد، وأنّ الجميع سيعودون إلى ديارهم، أو ما تبقى منها. وهو يقول أنهم قد يُجبرون الشماليين على دفع تكاليف إعادة بناء البلدات الحدوديّة، لكنني لن أصدق كلمة واحدة من ذلك حتى أرى بعيني.»

أطلّت مارتينا من النافذة، ورأت أربع شاحنات تعمل بالوقود الأحفوري تقبع على جانب الطريق، وإلى جوارها تقف مجموعة من حوالي عشرة جنود من دولة الجنوب الحرّة. لوّح واحد منهم للحافلة كي تقف.

«ماذا يريدون الآن؟» قالت مارتينا.

«لا شيء. هم فقط لا يسمحون للمتمردين المسلحين

بإدخال الناس. إذ يزعج ذلك الأمر رجال الهلال الأحمر.» توقّفت الحافلة، وتبادل الحارس مكانه مع جندي كان يرتدي الزي الأحمر نفسه الّذي كان يرتديه الحراس على معابر لويزيانا الحدوديّة. كانت قبعته مطوية ومثبتة أسفل الشارة فوق كتفه. «طاب صباحكم.» قال الجندي للمسافرين، فأومأ له بعضهم وحيوه بدورهم. فالتفت إلى السائق وقال: «لديك مجموعة متفائلة حقًّا هُنا. تقدّم بنا إلى البوابة.» تقدّم السائق. مرّت الحافلة ببضعة مطبّات صناعية صادفتها بعد عدّة أميال من السّير على طريق تخترق غابة مُحترقة لا تبعد كثيرًا عن نقطة التقاء ثلاث ولايات على نهر تينيسي. ثمّة لوحة إعلان تحمل شعار الهلال ذاته الّذي كان مطبوعًا فوق سترات متطوّعي الكنيسة في هنتسفيل، كُتب عليها: «منشأة مخيّم بيشنس للّاجئين. أرضٌ محايدة.»

* * *

تناثر اللاجئون خارجين في مساء المسيسيبي. كانت أسرة شستنت، وقد سرى الخدر في أرجل أفرادها بسبب السفر طوال النهار، آخر من نزل. لم تسنح لهم الفرصة لتأمّل محيطهم الجديد؛ مدىً مترامِ الأطراف مِن خيام ذات قماش سميك، تزخر بالنازحين. ذلك قبل أن يقودهم أحد عمّال المخُيّم إلى المبنى الإداري. انتظروا هناك في حجرة الاستقبال، حيث جلسوا فوق مقاعد مدرسية بلاستيكية، في حين أخرج آخرو، وقد

أنهكهم طول الجلوس، بَسَطًا من حقائبهم وبسطوها على الأرض ثم تمدّدوا فوقها وأغمضوا عيونهم. ثمّة مراوح عموديّة ضخمة تُصدر طنينًا في أماكن مختلفة من الحجرة، فاحتشد كثير من اللاجئين الجدد حول تلك المراوح. وسار عدد من عمّال الإغاثة في أرجاء الحجرة يحملون زجاجات مياه معبّأة من مُبرِّد.

«أين نحنُ يا ماما؟» قالت سارات. «مُجرّد مكان سنقضي فيه ليلتنا يا ابنتي.»

«يبدو غريبًا.»

«أعرف يا ابنتي. تمهّلي قليلًا فحسب.»

بعد أن دخلت الحجرة بنصف ساعة، سمعت عامل إغاثة ينادي اسمها، فحزمت هي وأطفالها الأمتعة مرّة أخرى وتبعوا العامل إلى أحد المكاتب، حيث جلس رجل خلف مكتب مُدرّس تعمّه الفوضى، وأمامه كومة من استمارات تسجيل الدخول.

«شستنت؟»

«بلى.»

«أربعة أفراد.»

«نعم.»

ألقى الرجل نظرة طويلة على الاستمارات الموضوعة فوق المكتب أمامه. أحاطت بعينيه الضيقتين هالات داكنة جرّاء قلة النوم. «لستم من المناطق التابعة لدولة الجنوب الحرّة؟» لم تجب مارتينا، فطفق الرجل يُقلّب باستمارة التسجيل مرّة أخرى. «هل لديكم... أى وثائق

تفويض من قنصلية الدولة...» استطرد الرجل، ثمّ توقّف. «هل أعطاكم أحد أوراقًا؟ هذا المُخيم مخصص للنازحين الداخليين بدولة الجنوب الحرّة. هل تعين ما أقول؟»

«لا أحمل أوراقًا.»

وضع الرجل استمارات التسجيل فوق المكتب وهرش فروة رأسه. تنهّد وأخرج استمارة وردية اللون من درج آخر، وبدأ في تعبئة خاناتها بناءً على الإجابات التي يتلقاها من مارتينا دون أن يرفع رأسه.

«تاريخ ميلادك؟»

«الحادي والعشرون من مارس/آذار 2036.»

«اسم الصبي وتاريخ ميلاده؟»

«سيمون شستنت. الأول من يناير/كانون الثاني 2066.»

«البنتان...»

«سارات شستنت، الثلاثون من ديسمبر/كانون الأول 2068. دانا شسنت، التاريخ ذاته.»

«هل تم تطعيمهم؟»

«ماذا؟»

«هل تلقوا جرعات التطعيم؟ ضد الحصبة، النكاف والحصبة الألمانية، هل تفهمين ما أقصد؟»

«لا.»

«هل هم مرضى؟ هل يعانون من أي أمراض معدية؟ سعال، حمّى، أو أي شئ من هذا؟»

«لا.»

هزّ الرجل رأسه وشطب فوق عدة أسطر في النموذج. قرأ باقي الصفحة ثمّ شطب النصف الأسفل من الورقة تمامًا وختمها بختم الهلال الأحمر، قبل أن يضعها مع استمارات التسجيل الأخرى داخل حافظة أوراق.

«هل جئتم على متن الحافلة مع لاجئي هازلجرين؟»

«نعم.»

«إذن، لأغراض إداريّة، إذا سألكم أحد من أين أنتم، لأننا نستقبل إعلاميين أحيانًا في تلك المنشآت، ستقولون إنّكم من هازلجرين. هذا الأمر شديد الأهميّة، هل تفهمون؟»

«بالتأكيد.»

نادى الرجل مساعده الّذي قاد أسرة شستنت خارج المبنى الإداري. «لقد استوفينا القسم الخاص بآلاباما الآن، لذا ستتجهون إلى حي المسيسيبي. الصفّ السادس والثلاثون، الخيمة رقم أربعة عشر. تذكروا ذلك، هذا عنوانكم الآن.»

في الضوء الأرجواني للغسق، دخلت أسرة شسنت حيّ خِيامٍ ضخم سيصبح ملجأهم، حتى ليلة المجزرة الكُبرى.

---

(4) أحد الزعماء العبرانيين في القرن الخامس قبل الميلاد. تُنسب إليه إعادة بناء أسوار القدس. والآية المشار إليها هنا من سفر نحميا في العهد القديم هي: ونظرت وقمت وقلت للعظماء والولاة ولبقية الشعب: «لا تخافوهم بل اذكروا

السيد العظيم المرهوب، وحاربوا من أجل إخوتكم وبنيكم

وبناتكم ونسائكم وبيوتكم.» (م)

مقتطف مِن:

تاريخ شفهي للحرب الأهلية الأمريكيّة الثانية:
المجلّد الثاني، 2074- 2080.

س: كم رجلًا كانوا إلى جانبك؟

ج: حوالي خمسمائة رجل حيثُ كنت، شمال كيلجور. وربّما ثلاثة أضعاف ذلك الرّقم في الأماكن الأخرى بين لونجفيو وجلادواتر، وحتّى ايست ماونتين. لقد انتشر المقاتلون في كلّ أرجاء هذا الجانب من تكساس آنئذ، حين أعلنت الدولة الجنوبيّة استقلالها. وقتئذ كان الجميع ما يزالون متحمسين للقتال.

س: هل تستطيع وصف بعض الرجال في كتيبتك في كيلجور؟ خلفياتهم، ومن أين أتوا.

ج: لم تكن كتيبة بالمعنى المتعارف عليه، بل مجموعة رجال مسلحين كانوا يجهلون أنهم مُقدمون على مذبحة. أغلبهم كانوا من تكساس. أو تعود أصولهم على الأقل إلى تكساس حين كانت ولاية حقًّا. البعض منهم كان جنديًا في السابق في الحرس الوطني أو جيش الشمال قبل استقلال الجنوب. تستطيع أن تُخمّن أنهم كانوا يحتقروننا منذ اللحظة الأولى. كانت لديهم بِزّات رسمية حقيقيّة جديدة من أوستن، وأسلحة حديثة تُشبه أسلحة الشماليين. أمّا نحن فكنّا نحمل بنادق من طراز 95 تأتينا على متن القوارب، أو بنادق صيد قديمة أو حتّى مسدسات وما شابه. وانضمّ إلينا بعض الرجال قدموا من المسيسيبي يجرجرون تلك السيوف العريضة

العتيقة الصدئة، كأننا في بلاط الملك آرثر أو ما شابه. لا يقوون على رفعها عن الأرض إلا بمشقة بالغة.

س: ما الّذي حفّز النّاس من خارج تكساس على المجئ إلى حقول النفط؟

ج: الّذين جاؤوا من الولايات المحايدة -أركنساس؛ وكنساس؛ وتينيسي- كانوا إمّا مفلسين أو عاطلين عن العمل أو عائدين إلى ديارهم، ولذلك كانوا يبحثون عن ثلاث وجبات يوميّة وأجر جنديّ أيّا كان المبلغ، وإمّا قد أغضبهم حقًّا أنّ تؤيد ولاياتهم كولومبس وقرار حظر الوقود الأحفوري، فتطلّعوا إلى خوض القتال.

أمّا أولئك الّذين جاءوا من الماج فقد كان أغلبهم أعضاء في الجماعات المتمرّدة -البالميتو جنز؛ والنيوزويفز؛ والمسيسيبي سوفرينز. إضافة إلى ما يقارب العشرة جماعات صغيرة يضم كل منها حوالي عشرة أعضاء أو أقلّ. كانت تلك الجماعات الصغيرة متى سنحت لها الفرصة، لا تكفّ عن الثرثرة بشأن عدالة قضية الجنوب. أظن أنّ البعض منهم كان يؤمن أنّ الله يرعى شرق تكساس فقط.

لديك بعدئذٍ رجال كارولينا الجنوبيّة، وهؤلاء كانوا مجموعة مختلفة تمامًا. جرى ذلك قبل أن تُجهِز كولومبس على كامل الولاية، لكن حتى آنذاك كان مقاتلو كارولينا هم الأشرس على جبهات القتال. لقد سبقت لي زيارة تلك الولاية في زمن السّلم، ولم ألق روحًا واحدة غير مضيافة. لكن منذ اليوم الأول في الحرب لم

يتبادلوا حرفًا مع أحد، ولا ابتسموا ولا صافحوا أحدًا أو أيًا من ذلك. ينتابك انطباع حال وجودك بالقرب منهم أنّ حربًا لم تنته قط في تاريخ كارولينا الجنوبية كلّها، وأنهم في قتال مستمرّ حتى الآن فيما بينهم في الوقت ذاته.

وهناك بعض من أدهشنا انضمامهم لنا؛ لم ينتسبوا لأيّ جماعة، ولا حملوا سلاحًا. تبًا، كنت أراهن أنّ البعض منهم شمالي المولد، لم يُغادر ولاية نيويورك إلا قبل أسبوع. أظنّ أنهم كانوا يرغبون في بعض الإثارة مثل أن يروا القتال عن قُرب، أو أن يُجرّبوا التمرّد. لقد كره أغلب أبناء تكساس والمتمردين تلك الفئة. كانوا يسمونهم سائحين أو جواسيس. لكن ما أنْ تتخطى تلك الأفكار حتى يغمرك شعور مُريح بشأن وجود شماليين يقاتلون إلى جانبك. احساس بأنّ قضيتك عادلة وعلى الطريق الصحيح.

س: هل تستطيع أن تصف ما رأيت حين وصلت إلى جبهة القتال أول مرّة؟

ج: لم تكن تختلف كثيرًا عن أيّ أراضٍ زراعية كالتي تراها في أيّ مكانٍ آخر، باستثناء خلوّها من المحاصيل. وقد أسكنونا داخلَ وحَولَ خمسة بيوت ريفيّة هجرها أصحابها، يفصل بين البيت والآخر حوالي ميل أو ميلين يكسوهما ذاك العُشب الأسمرَ الحادّ الحواف. لا أدري ما هو، لكن السَير فوقه كان يسبّب لك حكّة شديدة. وهو لا يموت مهما فعلت. رأيت رجلًا حمل منجلًا في مسعى

منه لإخلاء ذربٍ بين أحد البيوت وكوخ فيه بندقية، لا تتجاوز المسافة بينهما مائة قدم. لقد قضى ما يُقارب الساعة دون أن يخطو خطوة واحدة داخله، وحين عاد بدا كمن كان يسبح في بركة تملؤها قناديل البحر.

لكن أفضل ما كان في ذلك العشب أنه كان عاليًا؛ ذلك أنّ المقاتل مِنّا ما إن يجثو على ركبتيه داخل تلك الأجمة حتى يختفي عن الأنظار، لذلك وزّع التكساسيون أغلبنا في تلك الحقول، فكنّا نلفّ وجوهنا داخل مناشف قديمة لوقايتها من الحكاك.

س: حدّثنا عن ليلة الهجوم.

ج: كُنّا نصطفّ في جانبنا من الحقل، مقاتلان لكلّ مائة قدم. كان زميلي رجلًا من مونتجمري اسمه... تبًا، لا أستطيع تذكّر اسمه. أمضينا الليلة كاملة نهمس فيما بيننا: هل ترى شيئًا؟ لا، وأنت؟ لا شيء.

في حوالي الثالثة صباحًا سمعتُ شيئًا يُشبه التكّات التي تصدر عن إدارة أرقام قفل رقمي قديم لحقيبة ثياب. لم يكن الصوت عاليًا لكنه كان غريبًا. أذكر قول أحد جنود جيش تكساس القدامى أنّ الطبيعة لا يصدر عنها خطوط مستقيمة ولا أصوات متتالية. وهذا الصوت كان يتوالى. لكن قبل أن تسنح لي الفرصة لقول شيء، انفجرت مزرعة ماشية على الطريق إلى أشلاء. كانت دفقة برتقالية ساطعة، وفرقعة صوت كأنه بالون معدني ينفجر. بعدها لم يبق شئ عدا بعض اللهب وسحابة ضخمة من الدّخان الأسود.

آنئذ اندلع الجحيم. تعالت أصوات الرجال في الحقول تطلق الشتائم وتعطي أوامر بإطلاق النار، لكن لا أحد منهم كان يعرف على من يطلق الرصاص. كان بعض الرجال يقفون على منصات الرؤية الليلية، وقد طفق القريبون منهم يسألونهم عمّا يرون، لكنهم لم يكونوا يروا شيئًا. بعدها صدرت تكّات أخرى، فعرف الجميع أنّ عليهم الآن خفض رؤوسهم وسدّ آذانهم كما علمونا، ساعتئذ انفجرت المزرعة عن شمالنا.

كان الانفجار يُشبه لكمة في الأحشاء. ولمّا انتظمت أنفاسي ناديت على زميلي كي أطمئن، لكنه لم يُجب. ولم أعرف أنّه قُتل إلا في الصباح. كانت القنابل التي قصفونا بها تمتلئ بالإبر الدقيقة، فتمزّق جانبه الأيسر تمامًا. لو أنّني كنت أنا من يقف على شماله بدلًا من أن يقف هو على شمالي، لكان عاش ومت أنا. لكن الأمور لا تجري هكذا.

حين انتهوا من قصف المنازل بدؤوا بقصف الحقول. بعد برهة أخفضت رأسي نحو التراب وبدأت أتلو صلواتي وأنتظر.

بعد توقّف القصف سمعت صوت طائرات مروحية تحلّق فوق رؤوسنا. كان قد تبقى عدد قليل من الرجال الّذين نجوا من القصف، طفقت مروحيات تحصد أرواحهم الآن من الجو. آنذاك بدا كل شئ بعيدًا. كان ذلك الطنين يدوي في أذني. لكنني كنت أحسّ بالأرض تهتز من حولي.

بعدئذ حلّقت المروحيات على ارتفاع منخفض، ثمّ هبط بعضها على الأرض. كنتُ أحسّ اقتراب الجنود مِنّي دون أنْ أرى أو أسمع أحدًا منهم. طفقوا يسيرون في صفوف يمشطون الحقول، فتمددت ساكنًا كجثة هامدة. لا أدري ماذا دار بخلدهم حين اقتربوا مِنّي كقربي منك الآن، هل اعتبروني ميتًا أم لم يعبأوا بي أم أرادوا أن أعيش كي أروي ما جرى. لكنهم واصلوا السير على أي حال. غادروا بعد ساعة، لكنني لم أتحرّك إلا عقب طلوع الشمس.

س: ماذا رأيت في الصباح؟

ج: رأيت جثثًا في الحقول، والبيوت صارت ترابًا.

س: هل رأيت أي قوات فيدرالية، أو أي جثث تعود لتلك القوات؟

ج: لم يكن لها أثر.

س: هل أصبت؟

ج: لم أكن أشعر بشيء.

س: ماذا فعلت بعدئذ؟

ج: فكّرت أولًا في العودة إلى كيلجور جنوبًا. كان تقديري أنه المكان الّذي قصده الآخرون. لم أكن أعرف آنذاك أنه لم يبق آخرون. ثمّ خطرت لي فكرة أفضل، وهي أنّ الشماليين لابد سيتجهون إلى كيلجور وكافّة البلدات القريبة ويبيدون كل أعدائهم الّذين لم ينخرطوا في القتال.

س: هل فرّ أحد من القتال؟

ج: كلا.

س: لم يقاتلوا من الأساس؟

ج: بل ليسوا مقاتلين على الإطلاق. مع ذلك كانوا يمثلون العدو الحقيقي للشماليين، أكثر من أيٍ مِنا نحن الّذين كانًا نحمل الأسلحة. لا أتوقع أن تعي ما أقول. لقد خضتم القتال، لكن الحرب لم تجر على أرضكم. بل كانت في ولايات الجنوب.

لو عشت في الجنوب خلال تلك الحرب، ربّما لم تكن لتضطرّ إلى النزوح تحت تهديد السلاح، لكن كنت ستعرف أحدًا اضطرّ لذلك. قد لا تفقد حبيبًا أو حبيبة حين تأتي الطائرات بدون طيّار كي تُمطر الموت دون سبب واضح أو منطقي، لكن كنت ستعرف واحدًا خاض تلك التجربة.

بالنسبة لأغلب الناس الآن، لم تعد المعرفة كافية لدفعهم إلى حمل السلاح؛ إذ لا يستطيع الجميع تحمّل فكرة التعرّض لإطلاق النّار أو التمزّق إلى أشلاء بسبب شظايا قنبلة، أو -وهو الأسوأ- الوقوع في الأسر والتعفّن داخل شوجرلوف أو أيّ معسكر اعتقال آخر. لكن اللعنة عليك إن لم تدفعك تلك المعرفة للقيام بشيء.

هكذا تتصدّق بالمال لبعض الكنائس، وأنت تدرك أين سينتهي المطاف بذلك المال. أو تغلق فمك وتدع مُشاة البحريّة يمزقون منزلك حتى يصيبهم اليأس ويغادرون، حين يُغير الشماليون على بلدك بحثًا عن أولئك الثوّار الّذين يتكلّمون عنهم دائمًا، حتى وإن كنت تعرف

بالضبط مكان اختبائهم. وحين تحمل الأنباء خبر – كيف تسمونها هناك؟ هجمة انتحارية حارقة- خلّفت عددًا من القتلى في مكانٍ ما شمال حدود تينيسي، لا تنطق حرفًا، لكن قلبك يرقص فرحًا بين جنباتك. تبتهج لأنهم ذاقوا هناك بعضًا ممّا أذاقوه لنا هُنا. لا يجعلنا هذا متعادلين، ليس من خلال تسديدة بعيدة، لكنها تُنزل بهم بعض الألم.

هذا ما لن يفهمه الشماليّون أبدًا. إنّ الثوّار الحقيقيون لم يطلقوا رصاصة واحدة.

س: هل خضت معارك أخرى خلال الحرب؟

ج: لا. بل مشيت ناحية الشرق زهاء يومين، وركبت سيارة دون مقابل بالقُرب من كروسليك وعدت إلى دياري في جنوب آلاباما، وهناك انتظرت حتى انتهت الحرب، والوباء الّذي تلاها. آنئذ بلغت الأمور نهايتها، ومات كل من كنت أعرفهم.

س: هل تحسّ أيّ استياء أو مرارة باقيين أو تحمل نوايا سيئة تجاه الاتحاد أو الولايات الشمالية؟

ج: [ضَحِك.]

II

يوليو/تموز ٢٠٨١

لوكا، المسيسبي

الفصل الخامس

كان تصميم مخيم بيشنس يُشبه دائرة مقسمة إلى أربعة أرباع. شغلَ حي المسيسيبي الرُبع الشمالي الغربي، وجورجيا الجنوب الغربي، وآلاباما الشمال الشرقي، وكارولينا الجنوبية الجنوب الشرقي. كان تسكينُ اللاجئين يتمُ وفقًا لولاياتهم الأصلية، لكن أسرة شستنت المتطفلة نزلت في حي المسيسيبي لأنهم كانوا في طليعة من وصلوا منذ ست سنوات خلَت.

تلتقي أحياء المُخيَم الأربعة عند مركز مؤلَف من مبانٍ إداريَة: استقبال المُخيَم؛ والمدرسة؛ والكنيسة؛ والعيادَة الطبيَة؛ وردهة الكافيتيريا. وحول تلك المباني تناثرت خيام عشوائيَة تغطي الأرض. كان مخيَم بيشنس يُتاخم من جهة الغرب الأطلالَ المقروحة لمَلجئ *تيشومينجو كنتري جايم*، وتمتدَ تينيسي خلف أكثر الأسوار علوًا وترويعًا من ناحية الشمال. كان سكّان الخيام الواقعة أقصى الشمال يستطيعون خلال يوم شتويَ صافٍ رؤية أبراج الشماليين وقواعد عملياتهم الأماميَة المموَهة على هيئة أشجار، وسماع الشتائم وعبارات التوبيخ التي تطلقها ميليشيات موالية للاتحاد أثناء تسلَلها ليلًا بين الأدغال لاصطياد أولئك الَذين يجرؤون على الانطلاق جهة الشمال.

وقد حاول البعض، على أيَ حال، وتعرَضوا لإطلاق

الرصاص. البعض جاء ومضى، مفضّلين بدلًا من ذلك الفرص السانحة أمامهم للعيش داخل الأحياء الفقيرة المُحيطة بالعاصمة الجنوبية لأطلانطا. لكن الاستثناء الوحيد كان يتمثّل في اللاجئين القادمين من كارولينا الجنوبيّة الّذين أقاموا ما يُشبه حياة دائمة داخل بيشنس. لم يكن لدى نازحي كارولينا الجنوبية أمل في العودة للديار على الإطلاق، لأنّ كارولينا الجنوبية التي عرفوها لم يعد لها أثر؛ إذ صارت الآن مُجرّد مأوىً تُحيطه الجدران، بعد أن أطلق فيها عملاء للجنوب في وقت مبكّر من الحرب فيروسًا يوقف النمو، كجزء من جهد أكبر لقمع الانتفاضة الانفصاليّة العنيفة في تلك الولاية. بقي المرضى سجناء خلف جدران الحَجْر الصّحي، بينما لم يتمكّن الأصحّاء من العودة إلى ديارهم أبدًا.

* * *

طرقت لارا، جارة مارتينا، باب خيمة الأخيرة ودخلت. وجدتها في مكانها المُعتاد، في مكتبٍ مؤقّت تجلس إلى طاولة بلاستيكيّة مُستعادة. تُعتبر الطاولة مكتبًا مؤقّتًا، تقضي مارتينا داخله أغلب أيامها في طباعة رسائل استغاثة وطلبات لا تنتهي نيابة عن لاجئين أميين. سألتها مارتينا: «كيف جرى اللقاء؟»، «مثل كلّ مرّة. تعرفين هؤلاء الصحافيين الشماليين، يطرحون الأسئلة ذاتها. الثوّار هُنا، الانفصاليون هناك. هكذا أحصل على

بضعة دولارات للحانة. لا أستطيع التشكّي من ذلك.»، «تعالي. ارتاحي قليلًا. اشربي بعض الماء. الجو شديد الحرارة هناك.» فتحت لارا ثلّاجة صغيرة إلى جانب مكتب مارتينا وأخذت منها زجاجتي ماء. تصل زجاجات الماء داخل صناديقٍ في العاشر من كل شهر، بعد أيام قليلة من وصول سُفُن المساعدات إلى مرفأ أوجستا. كانت فوارغها المجعّدة تشكّل أغلب النفايات داخل المُخيّم. «ماذا تكتبين هذه المرّة؟» سألتها لارا وهي تجلس على كرسي يُمكن طَيّه إلى جانبها مُلقيةً نظرةً فوق كتفها على شاشة حاسب لَوْحِيٍ بالكاد يعمل. «امرأة أخرى في حَيّ آلاباما 12:36 تريد أن تطلب من أطلانطا السَماح لزوجها بالخروج من السجن قبل سنة من موعد خروجه المُحدّد. تزعم أنّ زوجها تمّ تجنيده *بالكوبرهيدز* تحت تهديد السلاح، وأنّه لم يُطلق رصاصة واحدة طوال حياته.»

«تحاولين ضبط التوقيت مع موعد يوم الاستقلال؟»

«نعم.»

«هل سيُفلح هذا؟»

«بالطبع لا. لكنها تُعرِضُ علبة سجائر كاملة بالمقابل، وما كنت لأرفضها.»

«غنها تُذكّرني بتلك المرأة، ماديسون التي حدثتك عنها من حَيّ جورجيا، والتي تبيّن أنها بذلت رأيها بشأن كتابة ذلك الالتماس للسيد شاريف.»

«هل عثرت على طريقة أخرى تُعالج بها شفة ابنها المشقوقة؟»

«لا. بل قالت إنها جاءت إلى هنا بحثًا عنك منذ بضعة أيام ورأت ذلك الشيء.» وأشارت لارا لتمثال السيدة العذراء المتصدع الّذي كان مثبتًا فوق صندوقي زُجاجات ماء بالقرب من واجهة الخيمة. «وماذا فيه؟» سألتها مارتينا. «أظنّ أنها لا تحبّ الكاثوليك.»، «أنت تمزحين؟»، «لا يا سيدتي.» هزّت مارتينا رأسها، وقالت: «بعض الناس... لا بأس بالنسبة لي. دعيها تُحضِر مُقبّل الثعابين هذا من برمنجهام كي يُعالج ابنها، ما دامت وَرِعة إلى هذا الحد!» ضحكت لارا. «لم يعودوا يسمحون له بالمجئ إلى هنا؛ إذ يفوق طاقتهم على التحمّل. يحضرون بدلًا منه معمدانيًا عاطفيًا من أطلانطا. تعرفين، هذه مشيئة الله، تلك مشيئة الله.» ثمّ تفحصت الوقت في حاسب مارتينا اللّوحي وتابعت: «بالمناسبة، هل ستحضرين الخدمة؟»

«لا وقت لديّ. عليّ إنهاء هذا الطلب بعدها أبدأ بطباعة طلب أسرة بكهورن.»

«وما الّذي تطلبه أسرة بكهورن الآن؟»

«أظنّ أنّ القتال انتهى في شرق جورجيا في المناطق المحاذية للحدود، وقد أعلنت أطلانطا أن بلدتهم عادت آمنة مرّة أخرى.»

«يريدون الذهاب إلى هناك أو ما شابه؟»

«بل يطلبون البقاء هُنا.»

«هذا طلب جديد.» قالت لارا.

«لا أستطيع لومهم. إنهم هنا من قبل أن نأتي. ربّما لم يعد ينتظرهم شئ هناك إلا حفرة كبيرة قديمة في الأرض.»

قُرِعَ الباب، فانقطع حديث المرأتين. دخل ليني البالغ من العمر سبعة عشر عامًا، أكثر مرافقي المُخيّم نفوذًا، وبين يديه رزمة نقود. «طاب صباحكما يا سيدتاي. الآن لا يسعكما إنكار سعادتكما برؤيتي، لأنني أعلم يقينًا أنّ هذا ليس صحيحًا.» فأجابت لارا: «بل نحن سعيدتان برؤية ما تحمله بين يديك على أي حال. كم أخذت منه؟»، «ستسرّك معرفة المبلغ يا سيدة تايلور، ذلك أنني بلغت معدلًا قياسيًا.» قال ليني وهو يعد ثلاثمائة دولار من لفّة الأوراق المالية ويضعها على الطاولة. «وهذا رغم الطريقة شديدة الإهانة التي عاملتِ بها ضيفنا هذا الصباح.»

«آه. وهل عليّ أن أغنّي وأرقص لأجلهم الآن أيضًا؟»

«لستِ مضطرة لسبّهم، كبداية.»

«لم أسبّ أحدًا.»

«لقد اتهمتِه بالكذب. وبالنسبة لصحافيّ شماليّ مُخضرم، هذا أسوأ من السبّ.»

مدّت مارتينا يدها وقالت: «أين نصيب ابنتي؟»

«هه؟»

«لا تمثل البلاهة علي، أرني جانبك الطيب.»

«كلّ جوانبي طيبة.» قال ليني وناول مارتينا مائتي دولار. «هل هذا كل شيء؟ لقد صوّروها ما يقارب من ساعة.»

«هذا في الوقت الراهن فحسب. لكن لا تقلقي، ستصبح دانا شستنت نجمة. سيدفع الصحافيون الأجانب الهواة كل أنواع النقود كي يصوروا بأنفسهم فيلمًا لفتاة لاجئة جنوبية صغيرة بارعة الجمال، ولديك أجمل فتاة لاجئة صغيرة شهدتها العيون يومًا.»، «لن نجعل مما جرى عادة لنا.» قالت مارتينا. «هذه دعواك. لكنهم سيعودون طلبًا للمزيد. أعرف ذلك.» وجثا إلى جوار الثلاجة ثمّ أخرج زجاجة ماء. جلس إلى الطاولة برفقة المرأتين وهو يمسح العرق عن وجهه، ثمّ استطرد باتجاه لارا: «أعتقد أنك مُخطئة بشأن ذلك الصحافي الشمالي. أظنّ أنه قد يستخدم بعض ما قلتِه له، رغم أنّ الله يعلم أنك كنت تهذين بكلام مفكّك نصف الوقت.»، «ولماذا أعبأ بما قد يستخدمه من كلامي؟ هل ثمة مسؤول هناك لا يعلم أنّ حربًا تدور الآن؟» ضحك ليني. «هل تعرفين أنه لم يكف عن الطلب مني أنْ أصطحبه إلى حي كارولينا. لقد صارحته أنهم سيذبحونه بمجرّد ظهوره أمامهم، لكنه مقتنع أنهم، ماذا قال؟ لا بأس، قال إنهم سيقدّرون حياديته.»، «آه، سيقدّرون شيئًا، وسيقدّرونه بسرعة بالغة.» أنهى ليني زجاجة الماء في جرعتين سريعتين

ثمّ أعادها إلى الطاولة. كان قصيرًا ونحيلًا بشكل يشي بتوقّف نموّه. كانت مواظبته سنوات على التمرين قد منحته كتفًا منحدرًا قليلًا وجسدًا مبرومًا بعض الشيء، هكذا توارى تقريبًا جانب وجهه المنكوب حيث ذاب الجلد والتفّت الأذن على نفسها. كان يلبس قمصانًا عالية الجودة وبناطيل تجوال يضع داخل جيوبها الكثيرة دفاتر مليئة بالأسماء والعناوين، إلى جانب أرقام الهواتف الثلاثة الوحيدة التي تعمل في مخيم بيشنس.

قال وهو ينهض: «أتمنّى لكما سعادة دائمة. سأراكما قريبًا. أثق في ذلك. لا تفكرا قدر استطاعتكما بعبور السور؛ ذلك أنّ عيوني تقول إنّ الميليشيات الشمالية يزداد هيجانها من جديد.»

حين انصرف، أطفأت مارتينا حاسوبها اللوحي واضطجعت في كرسيها. كانت قد طوّرت خلال السنوات الستّ الماضية حاسّة للتنبؤ بالطقس، وهي تخبرها الآن أنّ عاصفة ترابيّة في الطريق. كان ثمّة جفاف معتاد ويتعاظم مستترًا بالهواء. خلال اليوم أو اليومين القادمين سيسيطر تدرّج من ضباب برونزي على السماء مرّة أخرى، وستنفد أسطوانات الهواء والمناديل المبلّلة من المقصف طوال أسبوع كامل.

سألت لارا: «منذ متى يرافق ذلك الفتى الصحافيين؟»

«ليني؟ منذ كان في العاشرة من عمره أو الحادية عشرة. لقد بدأ ببيع السجائر للحرّاس الشماليين

المتمركزين بالقرب من الحدود، معتقدًا أنّ لا أحد سيطلق الرصاص على صبي بهذه الضآلة، وقد حالفه الحظ في رأيي لأنه نجا. بعدئذ بدأ بالعمل مع الصحافيين، هكذا خسر نصف وجهه. أظنّ أنّ أحد أولئك الصحافيين أراد الذهاب إلى شمال كورينث حيث قتل المتمردون كل هؤلاء الشماليين بالسيارات المفخخة، فاصطحبه إلى هناك، ولن أقول لك...»

«هل رأيت كل تلك الأوراق المالية؟ لابد أنّ الفتى يمتلك ثروة صغيرة الآن.»

«وهو لا يُنفق كثيرًا منها أيضًا. لديه خطط. في كل مرّة يؤدّي عملًا لصحافي شمالي أو أحد الجنود الشماليين، يطلب منهم كتابة خطاب توصية، وهكذا يمكنه التقدّم للحصول على تصريح يمَكّنه من الخروج من دولة الجنوب. يَعِدونَه جميعًا لكن لا يفعلون شيئًا. وهو من جانبه نادرًا ما يستخدم اسمه الحقيقي؛ ذلك أنّ لديه هوية أخرى مغايرة تمامًا يُجري على أساسها تعاملاته مع الشماليين. يعتقدون أنّ اسمه كريستيان الفلاني.»

«هل ما يزال يعمل لدى الجنود الشماليين؟»

«نعم. أظنّ أنهم اكتشفوا في وقت سابق أنهم إذا أرادوا الاحتكاك ببلدة جنوبيّة وطلب تعاون من المحليين، فمن الأفضل لهم الاستعانة بجنوبي يساعدهم في هذه المهمّة.»

«يُدهشني أنّ المتمردين لم يشنقوه على فعلته.»

هزّت لارا كتفيها. «لأنه ماهر في عقد صداقات مع الجميع، وهو يحظى بكثيرٍ منها. ستحيق به تلك النهاية يومًا ما، لكنه على الأقل يعمل لأجل غاية، بخلافنا نحنُ الّذين نقعد ساكنين يومًا تلو الآخر إلى أن نُدفن هُنا.» ووقفت وهي تكرر سؤالها لمارتينا: «هل أنت واثقة من أنك لا ترغبين في حضور الخدمة؟ سيقيمون حفل استقبال عقبها يقدمون فيه عصير برتقال يُشبه البرتقال الحقيقي.»، «بل اذهبي أنت، وسألحق بك لحضور مباراة الليلة.» فهزّت لارا رأسها وقالت: «لا أحد يفوق كاثوليكيٍ علمانيٍ حُزنًا.»

* * *

عادت مارتينا تفتح حاسوبها اللوحي بعد انصراف صديقتها، ومضت تُنهي رسالة الاستغاثة التي قبضت أجر كتابتها، لكن لم تطاوعها الكلمات. نحت الحاسوب جانبًا وعادت إلى الفراش في آخر الخيمة. ترقد فوق سرير خفيف أصدرت نوابضه المعدنيّة صريرًا جزاء وزنها.

لقد كتبت مئات من تلك الرسائل خلال السنوات الماضية - طلبات رأفة؛ اعترافات بذنوب صغيرة؛ مناشدات من عائلات يتزايد عدد أفرادها للحصول على خيام أوسع وفي موقع أفضل؛ رسائل إلى مُحررين في صحف بعيدة؛ تصاريح سفر إلى الشمال؛ رسائل حبٍ؛ ورسائل تأبين.

بخلاف رسائل التأبين، لم يُسفر أغلب ما كتبته مارتينا عن نتائج تُذكر؛ ذلك أنه ربما رسالة واحدة من بين كل عشرين رسالة هي ما حققت الهدف منها. وقد طبعت تلك الرسائل الناجحة، ثمار عملها الأكيدة، واحتفظت بها داخل خزانة أوراق صغيرة بالقرب من فراشها. لقد كانت تلك الرسائل هي التي حددت مكانتها داخل هيكلية المخيم- إلى جانب أقرانها من الرجال في حي آلاباما الذين يستطيعون نقل أي قدر من النقود إلى أي مكان في البلاد خلال أربعة أيام أو أقل، أو الجدة في جورجيا التي أتاحت لها خيمتها سعيدة الحظ أن تحصل لنفسها على وصلة لاسلكية من المباني الإدارية. يوفِّر العمل هدفًا للحياة، إحساسًا بالمكانة، بالقوة.

تعلّمت أثناء كتابة رسائلها بعض الأسرار بشأن خصال صنّاع القرار السياسي الجنوبيين. كانت جماعة المسيسيبي سوفرينز تفضّل مخاطبتها *بالأشقاء*؛ الرسائل إلى السيد شاريف مدير مخيّم بيشنس يقرأها سكرتيره ويصدر قرارًا بشأنها، لكن لا يُمكن بأي حال توجيهها إلى هذا السكرتير بشكل مباشر؛ إنّ حكومة دولة الجنوب الحرّة في أطلانطا لديها سِجِلّ مثالي لكُلّ الردود، لكن فقط بالنسبة للرسائل التي مضى عليها عامان على الأقل. تعلّمت أيضًا أي طرق الهجوم تُفلح وأيّها لا. كانت العلاقات العائلية بين مُقدّم الاستغاثة وبين مُتلقيها، مهما كان قدر هشاشتها، تُستغل بلا رحمة؛

لكن صور الأقارب الموتى أو جرحى الحرب المروّعة لم تُجد أبدًا، رغم إلحاح اللاجئين المتكرر من أصحاب تلك الصور على إرسالها؛ كان العرض المباشر للرشوة يجعل التعرّض للردود المهينة أكثر احتمالًا، بينما يلقى عرض بالتبرّع لصالح قضية من اختيار مستلم الطلب الردّ نفسه لكن بطريقة أكثر لباقة.

كان عملًا يائسًا على كل الأحوال؛ لأنّ الرسائل محكوم عليها دائمًا بالفشل. لكن بالنسبة لأولئك اللاجئين الّذين كانوا يستجدون مارتينا أو يدفعون لها من أجل كتابة تلك الالتماسات نيابة عنهم، لم يكن اليأس عائقًا للأمل.

***

كانت خيمة آل شستنت مُقسّمة إلى ثلاثة أجزاء مثل بيتهم القديم على ضفاف بحر المسيسيبي. احتلت غرفة مارتينا الثلث الأخير، شغل أغلبها سرير مستشفيات معدني وخزانة قديمة ذات أدراج. في الثلث الأوسط عاشت الفتاتان فوق سريرين متقابلين. تبرز مظاهر حياة فتاة في سن المراهقة بالجانب الّذي يخصّ دانا- مصفّف شعر؛ علبة ماكياج تتألف من شتى العلامات التجاريّة الأصليّة والمقلّدة، من بينها مُخفٍ للهالات تحت العيون وأحمر خدود وأحمر شفاه ومُظلّل جفون. إلى جانب تلك الأشياء ترقد كومة من النسخ المصفرّة مطوية الزوايا من مجلّة *الجميلة*، المطبوعة التي لم تعد تصدر منذ عقود. خلا جانب سارات من

الخيمة من الملصقات ولم يكن به إلا قليلٌ من الممتلكات. كانت تحتفظ داخل وعاء بلاستيكي ضخم بخليط من بذور الحرب- فوارغ رصاص وشظايا مسننة، حصلت عليها كهدايا من حرّاس متجهمين مكلفين بمسح الحدود الشمالية للمخيّم بحثًا عن الألغام الأرضية. كانت تحبّ مشاهدة الجنود أثناء عملهم بقاماتهم المنحنية وأدواتهم العتيقة التي تصدر صفيرًا عاجزًا.

جهّزت مارتينا مطبخًا بمساحة صغيرة أمام غرفة الفتاتين. وكانت غرفة سيمون في المساحة بين المطبخ وباب الخيمة الأمامي. كانت مساحة تشملها الفوضى، تفوح منها الرائحة الثقيلة الرطبة لثياب غير مغسولة مكوّمة إلى جانب سرير الصبي. فُرشت بطانية مطويّة أسفل مرتبة السرير كانت تقوم مقام ستارة مؤقّتة تخفي أشياء مخزونة أسفل الفراش. تدلّى فوق جدار الخيمة ملصق قديم لصحراء تكساس البكر، لم تمسّ ولم تفسد. كانت أحد أشكال الاحتجاج. اكتسب ملصق الصحراء شعبية بين المراهقين في المخيّم بعد أنْ حظر مديروه ملصقات أبرزت ماركة معينة من سيارات رياضية تعمل بالوقود الأحفوري توقّف تصنيعها منذ زمن طويل. قبل ذلك المنع، كانت ملصقات الاحتجاج تحمل أفاعٍ من أي نوع، وقبلها كانت تحمل أفعى المتمردين المجلجلة، وقبلها -في البداية- كانت

الملصقات تحمل أسماء أي من الجماعات المتمردة. وقريبًا سيعمد مديرو المخيّم إلى منع مشاهد تكساس الريفيّة، وسينتقل الأولاد إلى شئ آخر.

ثمّة أكوام من أشياء مختلفة في مختلف أرجاء الخيمة- ألواح تسخين؛ مراوح عموديّة؛ ثلاجتان صغيرتان، زجاجات كحول تدليك نصف فارغة؛ كريمات مرطبة؛ أوراق عمل من المخيّم ومن دولة الجنوب الحزة؛ فتاحات علب؛ علب إسعافات أوليّة؛ لكن أكثر ما كان موجودًا كانت الأغطية. كانت كل شحنة مساعدات إلى مخيّم بيشنس تمتلئ بها. صناديق فوق صناديق من الأنسجة الخشنة الّتي تحك الجلد وكأنه ورق صنفرة. حتى في الشتاءات الدافئة حيث لا حاجة لأيّ غطاء، حين كان اللاجئون يصنعون منها فواصل بين الغرف ومفارش للمائدة وحصائر وبطانات للأدراج، كانت تتوافر بصورة تفوق حاجاتهم. هكذا كانت تتواجد أكوام منها مطوية ومفروشة أسفل فِراشي الفتاتين وفوق خزانة الأوراق. لم تكن صالحة للمقايضة؛ إذ كانت تعاني معدّل تضخم ربّما أسوأ ممّا يعانيه الدولار الجنوبي، مع ذلك لم يكفّ المحسنون المجهولون في الجانب الآخر من المُحيط، في الصين وامبراطوريّة البوعزيزي، عن إرسال المزيد منها. لقد عجزت مارتينا طوال حياتها عن تصوّر ما يعتقده الأجانب بشأن الطقس في ولايات الجنوب، وأخفقت أيضًا في الوقت ذاته عن تخيّل

المحسنين بوصفهم بشرًا. كانوا يتواجدون في كون آخر، لا كمخلوقات من لحم ودمٍ، بل كأنابيب داخل آلة مُعقّدة هائلة، إنتاجها المرئي الوحيد هو سفن المساعدات الضخمة تلك الممتلئة بالأغطية.

***

تمددت مارتينا فوق سريرها. أغمضت عينيها لكنها لم تنم. كانت حرارة الظهيرة ترتفع، فنهضت وخرجت. مشت جهة الجنوب بعيدًا عن خيمتها، داخل حي جورجيا. تبعت المسارات بين الخيام إلى أنْ بلغت المكان الّذي تعيش فيه أمّ الطفل مشقوق الشفة. كانت واحدة من الخيام الجديدة بالقرب من الطرف الجنوبي الغربي من المخيم. كانت المرأة بمفردها تبدّل ثياب ابنها فوق الفراش. كان طفلًا بريئًا ذا بشرة ناعمة كأنّها مرمر. بدا مكتملًا حتى في وجود هذا التشوّه الّذي شقّ شفته العُليا، كأنّ العيب في الآخرين لا فيه. قالت مارتينا: «طاب صباحك. هل يسمح وقتك ببعض الحديث؟» لم تنطق المرأة حرفًا. كانت في أوائل عشرينياتها، تلبس قميصًا قصير الأكمام وتنورة رمادية بسيطة تصل إلى كاحليها. استطردت مارتينا: «قالت لارا لي إنك صرفتِ النظر عن كتابة رسالة إلى مدير المُخيَم.»

«هذا صحيح.»

«هل لديك خطّة أخرى؟»

«سنتدبّر حالنا.»

«انظري. لا أعرف حكايتك، ولا أعبأ بها. لكننا لا نملك هنا ترف اختراع الخصوم. دعيني أكتب لك تلك الرسالة. ولن آخذ مقابلًا.»

«كلا. شكرًا لك. سنتدبّر حالنا.» قالت المرأة وهي تُمدّد الطفل فوق غطاء مساعدات صغير، فتشبث في الهواء بأصابع ريّانة صغيرة. «بالله عليك. نحن لسنا كاثوليكيين. وهذا التمثال كان يخصّ زوجي.»

«إذن، زوجك كاثوليكي.»

«لقد مات.»

لم تجب المرأة. قرقر الطفل وتشاحن وحدّق ذاهلًا في السّقف. تابعت مارتينا: «لا بأس. افعلي ما ترينه مناسبًا. تذكّري فقط أنّ طفلك هو الّذي يدفع ثمن أحقادك المفتعلة.»

«شكرًا لاهتمامك.»

غادرت مارتينا الخيمة. وسرعان ما استحث غيظها من عناد المرأة ذكريات أيام أنْ كانت في الجانب نفسه من تلك التخوم المتعصبة العقيمة؛ أيام أنْ كانت تبدو كأنها كائن فضائي بالنسبة لما يتوقّعه الآخرون بشأن ما يُشكّل العالم الطبيعي الصّحيح- لون بشرتها؛ الأصل العرقيّ للرجل الّذي اختارت الزواج منه؛ حتى ابنتها المسترجلة. وناهيك عن قذر محاولاتها مقاومة تلك الظروف، لكنها كانت لا تني توغر صدرها بين الحين

والآخر. قالت لنفسها: *احتفظي بشرّكِ إن تشائي أيّتها المرأة الغبية. تشبثي بذلك الخيط الرفيع من القوة التي تتوهمين امتلاكها، لكن ليتك تذكريني في كل مرّة ترين فيها شفتي ابنك المنكوبتين.*

عادت إلى حيها في المسيسيبي. وقعت عيناها على سارات تلعب «المسّاكة[5]» مع مجموعة من الصبية الأصغر منها. كان بعضهم يراوغ بعضًا حول الخيام وأسفل حبال الغسيل، يضحكون ويصرخون. نادت مارتينا على ابنتها. «كفّي عن الركض وإثارة الأتربة. تبدين قذرة.»، «نحن نلعب.» أجابت الفتاة، وهي تلتقط أنفاسها فيما يعدو باقي الأطفال بعيدًا. «أين أختك؟»، «لا أدري. هناك برفقة أولاد كبار في خيمة ميسي، *رُبّما*.»، «ألم أقل لك أن تضعي عينيك عليها؟»، «إنهم لن يأكلوها.»، «وماذا عن شقيقك؟ لم أره طوال الصباح»، «سمعت أنّه هو ومارك وباقي أصدقائه قد تسللوا إلى *مسلشولز*. لا تُخبريه أنني قلت لك ذلك، سيغضب منّي.»، «مسلشولز؟ وكيف خرجوا من المُخيّم؟» أجابت سارات وهي تشير جهة الشرق: «بالطريقة ذاتها التي يدخل بها المهربون. من خلال *السانديكريك* في آلاباما.»، «وكيف عرفتِ ذلك؟ هل سبق أنْ خرجت معهم؟»، «وكأنّهم لم يقولوا لي قط.»، «إذن فالأمر لا يتجاوز المعرفة فحسب بالنسبة لك؟» هزّت الفتاة كتفها وقالت: «يعرف الجميع ذلك.»

نفضَت مارتينا بعض التراب العالق بطرف ثوب سارات الصيفي. كانت قد بدأت حين بلغت الثانية عشرة بارتداء ثياب البنات الأكبر منها سِنًا بثلاث سنوات والتي لم تعد تناسبهن. كانت تحصل عليها كهدايا من آبائهن، لكن حتى تلك الثياب بدت كأنها تنكمش بشكل يومي حول قوامها النامي. كانت الطفرة التي يشهدها نموها بالغة السرعة خلال السنوات الثلاث الأخيرة، إلى الحدّ الّذي جعل أمّها تقلق من أن تكون تلك الطفرة ناجمة عن اختلال توازن كيميائي ما أو مرض. كانت قد أصبحت بطول أمّها الآن. شعرها الآن بالٍ وقد أصابه العرق والتراب بالجفاف. «هيا ابحثي عن أختك، وارجعا سويًا إلى المنزل كي تستحمّا. لقد قضيتما وقتًا طويلًا في الخارج اليوم. وابتعدا عن الطرف الشمالي.» فأومأت سارات: «حسنًا يا ماما.»

* * *

راقبت سارات أمّها تعود إلى الخيمة. خلال الوقت الّذي استغرقته الأم وابنتها في الحديث، كان الأطفال قد غابوا عن الأنظار، وبدا أنه من العبث أن تحاول اللحاق بهم الآن. هكذا عادت سارات إلى خيمة حمّام السيدات، حيث تركت حذائها الخفيف على درجاته الأمامية الرطبة المتعفّنة، من أجل مزيد من حرية الحركة.

مثل الشقوق في الجسد، كانت خيام الحمّامات تشعُّ دفئًا رطبًا تفوح منها روائح بشرية. كان هذا شديد

الوضوح في ساعات الصباح الأولى حين يكون الماء أبرد والاغتسال أكثر احتمالًا. حينئذٍ كان يُمكن رؤية صفوف اللاجئين مترنحي العيون يجرجرون أقدامهم في أحذيتهم الخفيفة إلى أكشاك الاغتسال مثل حجّاج. كان الماء يجري أثناء استحمامهم من خطوط المجاري إلى خندق صرف صحي بعرض خمسة عشر قدمًا وعمق خمسة أقدام، وقد لُقب هذا الخندق الّذي يُحيط بالمخيم باسم *إميرالدكريك*. كان وحل المخلفات البشرية الأسمر، أثناء رحلته البطيئة إلى خزانات التنقية، ينتج رائحة نتنة شديدة الكثافة جعلت اللاجئين يرفضون بشكل جماعي العيش داخل أي خيمة على مسافة خمسة عشر قدمًا منه.

* * *

ارتدت سارات حذاءها الخفيف واتجهت شرقًا داخل آلاباما كي تبحث عن أختها. لكنها انحرفت عامدة جهة الشمال ضد رغبة أمها، وسارت بمحاذاة الحدود المسيّجة. كانت تقضي أغلب أوقات فراغها بالقرب من هذه الأسوار، حيث تراقب بمفردها الشباب المسؤولين عن إزالة الألغام من الأراضي الواقعة بين الطرف الشمالي للمخيّم وخطّ تينيسي. تراءوا لها رجالًا بائسين ذوي رتب متدنية؛ ولأنهم كانوا فنيًا موظفين لدى دولة الجنوب الحرّة، فلم يكن مسموحًا لهم ارتداء السترات البيضاء التي تحمل شعار الهلال الأحمر؛ إذ كانت تلك السترات محجوزة لعمّال الإغاثة المحايدين. فكانوا يلبسون بدلًا منها سترات ركوب درّاجات صفراء وخوذًا تحمل شارات عاكسة كانوا يأملون أن ينتبه إليها الشماليون على الجانب الآخر من الحدود، واعتبارهم مدنيين وليسوا مقاتلين. لكن حتى في وجود مثل تلك الثياب الرسمية، كان ثمّة خطر هائل يحدق بذلك العمل ليلًا، فكان الرجال لا يعملون إلا أثناء النهار. صاروا أصدقاء للفتاة التي تراقبهم، وطفقوا يعرضون عليها كل ما تكتشفه أجهزتهم ويتبيّن أنه أرسل إشارات خاطئة. كانت تثير فضولهم- فتاة حوشية الشعر ضخمة الأطراف يستغرقها فضول نهم لمتابعة بحثهم البطئ عن المعادن أثناء الحرب.

في حي آلاباما، صادفت سارات ولدًا يلهو بحوض غسيل نصف ممتلئ بماء عكر. علمت من موقع خيمته

الشمالي والأفعى المجلجلة المطبوعة فوق قميصه -والتي لم يتلق بعد توبيخًا بسببها- أنه حديث الانضمام إلى المخيّم. لهُ عينان خضراوتان وشعر أسود فاتح مفروق من المنتصف. وبدا أنه في الثانية عشرة من عمره، وإن كان يبدو أصغر قليلًا. لكن في الحقيقة كان يكبر سارات بعامين. سألته سارات: «ماذا تفعل؟» رفع الصبي عينيه مبغوتًا وقال: «أنقي الماء. أخبرني أبي أنني أستطيع ذلك باستخدام غلاف بلاستيكي والشمس.» دون استئذان، جلست سارات فوق التراب إلى جانب الصبي، يقتلها الفضول. سكب الصبي زجاجتين من الماء داخل حوض الغسيل المصنوع من الصفيح مع بضع حفنات من رمل، ووضع زجاجة ماء فارغة في منتصف الحوض استقرّت في القاع بتأثير وزن بعض الحصى. غطى الصبي الحوض بغلاف شفاف وضع فوقه هو الآخر بعض الحصى عند المنتصف، هكذا غطس الغلاف فوق فوهة الزجاجة تمامًا. «ستتسبب الحرارة في تبخير الماء، لا التراب. ولأنّ الماء النقي لا يُمكنه الخروج سينزلق ويسقط داخل الزجاجة.» تفحصت سارات الحوض، فرأت قطرات الماء تنحدر ببطء أسفل الغطاء، تشكّل الشمس أقواس قزح صغيرة داخل قبابها. قال الصبي: «تُسمّى هذه العمليّة بالتبخير الحراري.» سألته سارات: «هل انتقلت مؤخرًا إلى هنا؟»

«أجلبلى. منذ يومين. لا معارف لنا هُنا إلى الآن.»

«اسمي سارات شستنت.»

«وأنا اسمي ماركوس اكسوم. هل أنتِ من آلاباما؟»

«لا. نحنُ من حي المسيسيبي. مضت علينا ست سنوات هُنا.»

«ست سنوات! يقول أبي أنَّ من يمض عليه أكثر من شهر هُنا يلقَ حتفه.»

«ليس إلى ذلك الحدّ. رغم ذلك، الأحوال هنا مضجرة جدًا. لديهم فصل دراسي لكنهم لا يعبأون سواء ذهبت إليه أم لا.» تحوّل انتباه الطفلين إلى خيمة قريبة خرج منها والد ماركوس. كان يُشبه أغلب الرجال داخل المُخيم، عظيم البطن وله لحية غير مشذبة أخفت ملامح عنقه. شأن أغلب الرجال أيضًا، سجّل حضوره في المخيم بوصفه غريبًا غامضًا في مكان يسكنه في الغالب نساء وأطفال. كان يلبس ثياب عمل بُنية وقميصًا داخليًا أبيضَ مغسولًا لكن البقع القديمة ما تزال عالقة به. اقترب الرجل من ابنه. قال ماركوس: «هذه سارات شستنت. مضى عليها هنا ست سنوات.»

لوّحت سارات بكفيها مرحبة، لكن الرجل رمقها بنظرة ملتبسة، لا تنم عن دفء ولا عن برود، وسألها: «كم عمركِ؟»

«اثنا عشر عامًا.»

«لا يبدو أنك في هذا العمر.»

«أبدو أكبر من عمري. لقد ازداد طولي خمس بوصات العام الماضي.»

«تقولين أنه مضى عليك ست سنوات هُنا؟»

أومأت سارات، فأشار الرجل صوب الشمال الشرقي حيث أطلال الطريق السريع القديم رقم 25 والذي يمتدّ مباشرة صوب الأسلاك الشائكة التي تفصل بين أحياء المُخيَم، ويافطات حمراء لامعة تحذِّر من المرور. وسألها: «هل تعرفين إلى أين يذهب هذا الطريق؟»، «لا شك. إنه المعبر الشمالي. وهو يمضي حتى خطّ تينيسي. يصيبهم غضب شديد إذا اقترب منه أحد. يقول أخي إنّ الشماليين لديهم قناصة فوق كل شجرة تنمو على جانبيه، وهم يطلقون الرصاص على كل من يعبره، ولا يعبأون إن كان طفلًا أو امرأة أو أيًا كان.» تأمّل الرجل المعبر فترة طويلة مغمضًا عينيه قليلًا بسبب شمس الظهيرة. وسار بضعة أقدام نحوها قبل أن يُبدّل رأيه ويتجه جنوبًا حيث اجتمع أربعة وافدين جُدد حول صندوقٍ كرتونيٍ مقلوب يلعبون عليه الورق. التفت ماركوس إلى صديقته الجديدة وقال: «هل لديهم حقًا قناصة على الجانبين؟»

«بلى. هل تريد رؤيتهم؟»

أومأ ماركوس موافقًا، فقادته سارات إلى بُقعةٍ من السّور الشمالي، حيث انكسرت ثلاث حلقات ما صنع ثغرةً في السّور صالحة لتمرير الرّأس. قالت: «انظر هنا. إلى أعلى شجرة هناك. هل تراها؟» تفحص ماركوس الأفق. كانت الأشجار نحيلة أعلى الحقل إلا في موضع واحد ازدادت فيه كثافة الأوراق. في هذه البقعة من الغابة نمت شجرة ترتفع عن جاراتها عشرة أقدام. «يقول كاسحو

الألغام إنها ليست شجرة حقيقية، ولا أوراقها أوراق حقيقية كذلك. يطلقون عليها عش القناصة، وهم يسكنونها طوال الليل والنهار في انتظار من يحاول العبور. عندئذ يردونه قتيلًا.» حدّق ماركوس برهة صامتًا. «هل ينبغي علينا أن نحدّق بهم هكذا؟ ألن يطلقوا النار علينا؟» لم تفكّر سارات من قبل بذلك الاحتمال. لكن أثناء إمعانها النظر، وثب سنجاب من مكانٍ ما بين الأشجار فاهتزّت الأغصان. واقشعر بدناهما من الفزع.

* * *

عثرت سارات على شقيقتها وأربعة من أصدقائها بالقرب من مباني المُخيم الإدارية. كانوا يجلسون فوق أغطية صناديق قمامة ضخمة داخل زقاق ضيق يمتد بين مبنى الكافيتيريا ومكاتب المدير. كان الزقاق يظل خاليًا أغلب أوقات النهار- لا سيما في تلك الساعة، حين يحتشد الموظفون واللاجئون على حدٍّ سواء داخل مبنى كنيسة في أقصى شرق المُخيَم. وبغضّ النظر عن موقع الشمس، كانت الظلال تكسو الزقاق دائمًا، وغالبًا ما كانت تقل درجة الحرارة فيه أثناء الضيف عشر درجات عن أيّ مكان آخر داخل المُخيم.

لوّحت دانا لشقيقتها أثناء اقترابها، وقالت: «مرحى أيتها الفتاة الجميلة.» كان الأطفال يبحثون خلال الدقائق التي سبقت وصول سارات عن شئ ما في حاسبٍ لَوْحيَ قديم، لكنهم أخفوه الآن. حيّتها سارات بدورها،

ولاحظت أنّ الأطفال الآخرين كانوا طلابًا في الصفّ العاشر: ابنتا آل ميلر، وهما التوأمتان اللتان لم تعرف سواهما سارات داخل المُخيم؛ وصبي يُدعى آفري وآخر يُدعى بيشوب، وكلاهما كانا صديقين لسيمون وكثيرًا ما كانا يهربان عبر مرسى القوارب سئ الحراسة بالقرب من الساندیکریك. تراءى لها الأطفال الأكبر سنًا غرباء بكلّ الأوجه الممكنة، إذ كان يستولي عليهم تعلّق درامي بأشياء تافهة وتخلو من المغامرة: لون وطراز التنانير؛ نموّ الشعر في الوجه؛ طوبولوجيا الجسد الغامضة.

«تقول ماما أنّ علينا العودة للمنزل الآن.»

«ولماذا نحن؟ سيمون يقضي النهار كلّه في الخارج دون أي اعتراض منها.»

«لا أدري. هذا ما قالته بالضبط.»

قالت إحدى فتاتي آل ميلر: «يسمحون للأولاد بفعل ما يشاءون.» هناك شامةٌ فوق خدّها الأيسر تميزها عن توامتها، لكن سارات أخفقت في تذكّر صاحبتها: «العام الماضي أتلف بيل ومارك هيرنانديز نصف مكبرات الصوت في آلاباما وألقياها داخل الخليج الصغير، دون أدنى عقاب من أحد.»

سألها آفري: «ألم يُعادا إلى ولاية آلاباما في يناير؟»

أجابت الفتاة التي دون شامة: «نعم. لكن ذلك كان بسبب اضطرار والديهما للعودة، لا عقابًا لهما.» وتدخّلت دانا: «إنّه أمرٌ يسير في الحقيقة. فالأولاد كلّهم حين يبلغون الخامسة عشرة يعطونهم سلاحًا ويرسلونهم

خارج المعبر الشمالي، ويكون عليهم الحياة هناك أسبوعًا كاملًا، فإذا عادوا يمكنهم البقاء.»

فقال بيشوب: «ولماذا نضطر للذهاب؟ إننا لم نقترف ذنبًا.»

«لأنكم تفعلون كل ما يحلو لكم. هذا هو السبب.»

«لا بأس. لا بأس. ماذا عن هذا؟ هل أستطيع إرسال سارات بدلًا مني؟»

قالت دانا: «هل تقبلين؟»

«بالطبع، فأنا أعرف مكان القنّاصة.» عندئذٍ ضحك الولدان والفتاتان بقوّة. واستطرد بيشوب: «هل سمعتم ذلك؟ هيئوا لها فرصة، تضع حدًا للحرب غدًا!» لكن دانا أشارت لبيشوب أنّ أمهما قد لقّنت سارات ألا تحاول الذهاب أبدًا. ونهضت قائلة: «أراكم أيها الخاسرون غدًا» فردّ بيشوب فيما أطلقت الفتاتان ميلر قهقهة مدوية: «سنخرج من أجل القنّاصة. أحضري سارات.»

«تبًا لك بيشوب.» قالت دانا.

* * *

عادت الفتاتان من الزقاق وسارتا في تجاه حي المسيسيبي. كانتا تمشيان في الظلّ الّذي تلقيه سقيفة مبنى كافيتيريا مصنوع من صفيح عكس اتجاه المغادرين من الكنيسة. رجال ونساء في أبهى ثيابهم يجرجرون أقدامهم عائدين إلى الخيام، في أيديهم أكواب عصير برتقال، يتكلّمون عن كل الأشياء التي تكلّم عنها القس المعمداني *أحبائي، لا تجزعوا* حين يجئ

الابتلاء كي يختبر إيمانكم، كأنّ شيئًا غريبًا يحلّ بكم، بل ابتهجوا- وهنا كرّرها مرتين، بيديه كما بصوته -*ابتهجوا! ابتهجوا! بقدر ما تتقاسمون معاناة المسيح، هكذا يمكنكم أيضًا أن تبتهجوا وتسعدوا* حين ينكشف مجده. ارتدى المغادرون بِذلاتٍ وربطات عنق تعود لأيام ما قبل الحرب، لا ربطات العنق الرخيصة ذات النجمات الثلاثة التي تصنعها دولة الجنوب الحرّة بكميات كبيرة وتوزّعها في كل مناسبة، بل ربطات أنيقة من الصوف وأحيانًا من الحرير مزركشة بخطوط ناعمة مائلة أو زخارف عربية هندسية أو حتى شعارات قديمة لفرق كرة قدم أمريكية. أمّا النساء فكن يلبسن فساتينهن المزركشة بالورود الأكثر زهوًا وقبعات شمس عريضة زينوها بزهور مثبتة أو أوراق ملوّنة كي تبدو كأنها زهورًا. لم يكن اللاجئون مرتاحين داخل هذه الآثار التي خلفتها حيوات أفضل مضت، فلم تكفّ أجسادهم عن إفراز العرق، لكنهم كانوا يلبسونها على أي حال؛ لأنه لم تكن هناك مناسبات أخرى صالحة لها عدا يومَي عيد الميلاد وعيد استقلال الجنوب.

جلست سارات ودانا فوق درجات مبنى الكنيسة الّذي خلا الآن. راحتا تراقبان عددًا من عُمّال المخيّم يقودون امرأة أصابتها إحدى القذائف بالشلل، وطفلتها الرضيعة إلى بيتهما الجديد td ضواحي المسيسيبي البعيدة. قعقع *التوكتوك* يحمل شعارًا كبيرًا للهلال الأحمر فوق الأطلال الترابية للطريق السريع رقم 350 الّذي كان

يشقّ المخيّم عند المنتصف تقريبًا. جلس داخله جنديان من دولة الجنوب الحرّة ووقف آخران فوق الرفرف الخلفي. كانت المركبة الصغيرة ذات العجلات الثلاث تناضل لجرهم، فيما يُصدر مُحركها الضعيف صريرًا عاليًا، وتثير إطاراتها الغبار. قالت سارات: «أراهن أنهم سيصلحون البوّابة. لابد أنّ الميليشيات قد قصفتها مرّة أخرى.»، «عليكِ الكفّ عن الحديث في هذه الأمور.»، «ماذا؟ هل تريدين أن تشاهديها بعينيك؟ سأراهنك على خمسة دولارات.»، «لا أقصد الحديث عن الجنود. بل أقصد ما جرى اليوم، مع بيشوب. تصديقك كل ما يُقال لك، وجهلك أنهم يسخرون منك.»، «لست كذلك.»، «*أعرفُ مكان القنّاصة...*» احتجّت سارات: «هذا صحيح! لقد أرانيها كاسحو الألغام.»، «لابد أن تنضجي يا سارات، لم تعودي فتاة صغيرة. اسمعي، حاولي ألا تعطي الآخرين سببًا للسخرية منك. هكذا تكسبين أصدقاء جددًا.»

جلست الفتاتان صامتتين. عاد التوكتوك سريعًا دون ثلاثة من المسافرين الأصليين على متنه، لكنه حمل بدلًا منهم مسافرين جُدد، مسؤولة تطعيم من أطلانطا برفقتها جنديّ ضَجِر. طافت المتطوّعة من خيمة إلى أخرى تسأل عن سجلات تطعيم أي طفل أقل من خمسة أعوام. «كسبت صديقًا اليوم. اسمه ماركوس، يعيش في آلاباما.»

«أوه، حقًّا؟»

«ممم، هممم. اسأليه عن القناص إنْ كنت لا تصدقيني. لقد جعلته يراه.» هزّت دانا كتفيها وضحكت. طفقت تراقب موظفة الرعاية الصحيّة، كانت امرأة شماليّة في أوائل العشرينيات من عمرها. متطوّعة في *إئتلاف دولة واحدة* تؤدّي سنة خدمتها العامّة. سألتها دانا: «هل تذكرين حين أعطونا ذلك اللقاح؟» أومأت سارات، وقالت: «قلنا لهم إنّ أوانه قد فات. ربّما لم يحقق الأثر المرجو.»، «ربّما فعل مفعوله. إذ ربّما كنّا لقينا حتفنا لو لم نأخذه.»، «يقول أبو ماركوس إنّ كل من يبقى في المخيم فترة طويلة سيموت هُنا. هل تعتقدين أننا سنموت هنا؟» فكّرت دانا برهة. على الجانب الآخر من الطريق راحت موظفة الرعاية الصحيّة تهشّ زمرة من الأطفال كانت تعرفهم كزبائن دائمين، في محاولة لتذكيرهم بالحلوى التي تعطيها لهم عقب كل تطعيم. قالت دانا: «كلا. حسنًا، ربّما بعد مائة عامٍ من الآن، لكن ليس *غدًا*.»، «حسنًا. مائة عام مُدّة لا بأس بها.» تراجعت موظفة الصحة ووزّعت كل ما معها من حلوى في مواجهة رجاءات الأطفال الّذين بدأوا بالاختفاء واحدًا تلو الآخر، فيما تُنقّب فكوكهم الصغيرة بحثًا عن السكّر. اقتربت دانا من أختها، ووضعت رأسها على ذراع سارات. «آسفة بشأن ما قلته عن ضرورة أن تنضجي. لا تكبري أبدًا. لا تتبدّلي أبدًا أيتها الفتاة الجميلة.»

* * *

انتقلت موظفة الصحة من خيمة إلى أخرى تسأل

الأطفال عن أعمارهم. بعضهم كان يعرف والبعض لا. أولئك الّذين كانوا يجهلون أعمارهم طلبت منهم الموظفة رفع أذرعهم اليُمنى فوق رؤوسهم بحيث تستقر ثنية الكوع بالقرب من الرأس وتدلّى الأصابع حول الأذن اليُسرى. الّذين لمست أصابعهم آذانهم قدّرت الموظفة أنهم أكبر بخمس سنوات وهؤلاء لن يُفيدهم اللقاح. على هذا الأساس كان يتم إعطاء اللقاح: بضع قطرات من سائل شفّاف لدرء فيروس الشلل الّذي هُزم منذ فترة بعيدة لكنه عاد الآن، فوق صهوة حصان الحرب.

***

في وقت متأخر في الليل، حين يبرد الهواء ويُفسح صخب المُخيم الخشن متسعًا لنومٍ سمج قاس يبتلع المطرودين، كانت مارتينا تزور خيمة صديقتها ايريكا ياربر للعب الورق. طوال السنوات الخمسة الماضية، ظلّ هذا الأمر طقسًا تمارسه مارتينا وايريكا وصديقتهما لارا، وأي امرأة أخرى من الخيام المجاورة تقرّر الانضمام إليهن في أيّ ليلة، ثلاث أو أربع مرّات أسبوعيًا. كانت خيمةً واسعة بالقرب من الحدود الفاصلة بين آلاباما وكارولينا الجنوبية. سكنتها ذات يوم ايريكا وزوجها وابنها اليافع. لكن الابن سافر إلى الغرب كي ينضمّ صفوف إلى القتال وانطفأت شمعة زوجها ذات صباح فأصبحت الآن تعيش بمفردها.

وصلت مارتينا تحمل جرّة مخلّلات حمراء تسبح داخل

محلول مِلحي. أصابها مذاق المخلل بالنفور؛ ذلك أنه كان يستحضر مذاق كرز منقوع في العرق، لكن النساء الأخريات وجدنه لذيذًا. هؤلاء النساء الأخريات كُنَّ دائمًا ما يجلبن معهن ما يؤكل أو يُشرب: فول سوداني مسلوق ومجفف؛ خبز من الكافيتيريا مضى عليه يوم مدهون بالزيت أو شحم خنزير؛ عيدان حلوى؛ رقاقات بطاطس؛ عبوة طعام محفوظ؛ خمر *جويفول* المنزلي؛ إضافة إلى كل ما تنجح النساء في الحصول عليه ذلك اليوم سواء بالصدفة أو من خلال الهبات. يلعبن *قاتِل المالك*. عشر دولارات لكل نقطة، والأولى تحصل على مائة. يستخدمن ثلاث طبقات، هكذا تدور اللعبة بشكل أسرع وتتزايد احتمالات القصف بالقنابل والصواريخ. كُنَّ يلعبن على ضوء شموع ملوّنة مصنوعة من شمع ذائب وأربطة أحذية. فوق طاولة قريبة، كان بث راديو ديكسي ينساب في هدوء من مكبرات الصوت يحمل غناء رجل طويل النَفَس، نحاسي الصَوت: *جعلني حُبّ الشباب طاعنًا في السِّن، منهكًا، وكئيبًا*.

هتفت مارتينا وهي تضع ست أوراق فوق الطاولة الخشبية المتداعية: «*ماج* فوق *ماج*. التسعات فوق الثمانيات.» وقالت لارا: «لا.» وتابعت ايريكا: «لا شيء.» مسحت مارتينا المؤشر ووضعته مقلوبًا فوق كومة مرتبة أمامها. لقد بدأ خمر لارا يؤتي مفاعيله. صار خمر جويفول خلال السنوات الأخيرة المشروب الأكثر شيوعًا في الجنوب أثناء الحرب. لم يكن يُحضَر من

شئ بعينه، بل من أيما شئ تقع عليه اليد، لذلك لا يُشبه مذاق زجاجة منه الأخرى. أخذت مارتينا جرعة أخرى واستطعمت مكونات هذه الزجاجة الخاصة: عصير برتقال حامض مضت عليه شهور، علق به بعض الذرة وغسول الفم. شعرت ببداية السُكْر؛ ذلك أنّ لهب الشمعة كان يقف ثابتًا بين حين وآخر وتضطرب الغرفة. سرعان من انتهت اللعبة وجمعت مارتينا مكاسبها وعادت النساء إلى حجرة معيشة ايريكا المؤقّتة الضيقة. ها هنا كانت تتراص مجموعة وسائد مدروزة من أغطية البِرّ والإحسان ومادة رغوية، كانت ايريكا تضعها فوق الأرض على هيئة مجالس البوعزيزي بسبب عدم وجود أريكة. فضلت طاولات منخفضة مصنوعة من علب الكرتون المستعملة التي تأتي في داخلها زجاجات المياه للمخيّم بين الوسائد. جلست النساء فوقها وتركن باب الخيمة مواربًا كي يسمحن بدخول بعض النسيم. وسرعان ما غلب النوم ايريكا حيث تجلس. خيّم صمت لم يرافقهن خلاله إلا شخير ايريكا. بين الخمر والتبغ الجيد، غمر نسيم دافئ جسد مارتينا، وبدأت أوجاع النهار في الانحسار. «هل تعرفين أنه كانت لي شقيقة ذات يوم؟»

«لم يسبق أن قلتِ لي شيئًا عنها.» أجابت لارا. «ولا أي أحد آخر. بل حتى لم أحك لزوجي عنها. لقد ماتت وأنا في الخامسة. ولم أعد أذكر شيئًا عنها، عدا أنها كانت تمتلك إبهامين تستطيع أن تثنيهما في كلا الاتجاهين.

كانت تتباهى بذلك دائمًا ما إنْ عرفت أنْ لا أحد سواها يُمكنه فعل ذلك.» اعتدلت لارا فوق الوسادة، ورمشت بعينيها عدة مرّات كي تنفض الثقل الّذي كان ينمو فوق جفنيها. «وكيف ماتت؟»، «أصابها برد ذات يوم أثناء لعبها في نهر صغير كان يمرّ بمحاذاة منزلنا. بحلول المساء كانت ترتعد وتسعل دمًا، ولقيت حتفها في الصباح. لم تستغرق حتى يومًا كاملًا. أذكر أنّ أبويّ لم يسمحا لي بدخول حجرة النوم، لم يرغبا أن أراها تحتضر. لكنني كنت في الردهة وسمعت أنينها وهي تصارع كي تلتقط أنفاسها. ليتهما سمحا لي أن أراها. أظنّ أن صوتها وحده أسوأ ممّا لو سمحا لي برؤيتها.»

«آسفة. لابد أن ذلك كان قاسيًا عليك.»

«آه. لقد مضى على ذلك فترة طويلة. الزّمن يكفل النسيان، هكذا كانت تقول أمّي. مع ذلك كسر موتها أبي. ظل هائمًا بعدها عدّة أشهر، يتكلّم عن علاجات كان بإمكانها أن تشفيها، لكن الجميع كانوا يسرفون في استخدامها فلم تعد تفيد. أمّا ما يُفيد فلم يكونوا يستطيعون دفع ثمنه. ظل يكرر ذلك مرّة تلو الأخرى، كأنّ كلامه سيغيّر شيئًا.» أطفأت مارتينا عَقِب سيجارتها في كوب القياس الفارغ. «أذكر يوم دفنّاها. أحضرنا ذلك القسّ إلى المزرعة كي يرتّل بضع كلمات. لابد أنّ عمره كان مائة عام، نصف كفيف وشديد الخرف. مشى إلى القبر -كان أبواي قد حفرا قبرًا لها هناك في المزرعة، وصنعا صليبًا من أعمدة السور- مشى إلى القبر ووقفنا

خلفه نلبس أبهى ما لدينا من ثياب. كنّا نتصوّر أنّه سيقرأ مقطعًا ما أو يردّد بضع كلمات رقيقة عن الفردوس أو نداء الله لها كي تسكن إلى جواره أو ما شابه. لكنه لم يفعل أيًا من ذلك. هل تعرفين ما فعل؟ لقد بدأ يُغنّي. ردد أغنية تقول شيئًا مشابهًا *لإنّنا جميعًا أطفال في مملكة المسيح*. راح يُردد هذا المقطع عدّة مرّات. أظنّ أنّه كان قد ألّفها للتوّ؛ ذلك أنّ أحدًا مِنّا لم يكن قد سبق له سماع هذه الأغنية. ردّدها دون أن نبرح مكاننا كأنّنا مجموعة من البلهاء يقفون وراءه، ودون أن ينطق واحد مِنّا بحرف. بعدئذٍ شرع يردّد: *الأولاد والبنات أطفال في مملكة المسيح. القطط والكلاب أطفال في مملكة المسيح. البغال والظباء*... دون أن يتوقّف. كأنّه يخاطب حضورًا فوق الفُلك. في النهاية عجزت عن الاحتمال وبدأت أضحك فصفعتني أمّي على قفاي كي أصمت. لكنني أخفقت. أحاول حتّى أكاد أفعلها على نفسي، لكن أخفقت. عندئذ تذكّرت فجأة أنّني أضحك في جنازة شقيقتي، فأحسست بالذنب يعتصر أحشائي، يعصف بي كأنّه قِطار، فانخرطتُ في بكاء أشدّ ممّا كان قبلًا. لكن ذلك العجوز لم يعبأ، بل راح يواصل: *الضفادع والجياد والسناجب و*...» أطلقت مارتينا ضحكة مكتومة وهزّت رأسها. «لن أنسى أبدًا ذلك الواعظ العجوز الخرف اللعين. كيف كان مسلكه وكيف جعل فتاة صغيرة تكره نفسها أثناء دفن شقيقتها.»

«ربّاه. أنتم كاثوليكيون حقًا.»
بعد قليل بدأت أولى إشارات الفجر تتسرّب إلى السماء المعتمة. بعد أن تبخّر تأثير الخمر، استأذنت مارتينا وعادت إلى خيمتها. كان المخيّم رائقًا في تلك الساعات، والخيام التي تترامى بعيدًا في كافّة الاتجاهات رائعة المنظر بطريقة وعرة ومرهفة في آن، كأنّها حيوانات صحراء غريبة كتومة ومتجمّدة، حصاد حياة.
حين بلغت خيمتها فتحت الباب ببطء كي لا توقظ أطفالها. خطت عدة خطوات إلى الداخل ورأت ابنها جاثيًا يدفع شيئًا ما أسفل مرتبته، وقد غطّت الأوحال الطرية حذائه المخلوع إلى جانب فراشه. «هل تسمح لي أنْ أرى ما تدسّه أسفل فراشك؟» وثب الصبي حين سمع صوت أمّه، وأوشك على قول شئ لكنه عدل عن ذلك. مدّ يده أسفل الفراش وجرجر حقيبة قيثارة سوداء صلبة. بدا حزام الحقيبة مستعملًا لكن الحقيبة نفسها بدت نظيفة جِدًا بالنسبة لعمرها، ولاح لمارتينا أنّها كانت تُستعمل كثيرًا جِدًا لكن بعناية كبيرة في آن. «هل أعطوها لك؟ على سبيل الهبة مثلًا؟»، «لا. بل وجدتها داخل مُختزَف مهجور.»، «إياك أن تكذب عليّ.»
«أقسمُ لك.»
«اجلس.» جلس سيمون فوق فراشه، وجلست أمّه إلى جواره. كان قد جرح طرف جبينه الأيسر، فتفحصت الجرح بإبهامها. لكن سيمون تراجع للوراء. «هل تعلم ما يريدونه بالمقابل حين يمنحون هدايا للأطفال هنا؟»،

«ماما. لقد سرقته، لا أكثر ولا أقل. أقسم لك. لكنها ليست سرقة بالمعنى المفهوم. كان هناك ولم يرجع إليه أحد ليستعيده.» تنهدت مارتينا. «إن كان هذا ما تقوله. سأصدقك.» وتابعت: «لكن يبقى القول، لقد صرت كبيرًا ما يحول بيني وبين التعليق على ما تفعله أو الأماكن التي تذهب إليها، لذا لن أكرر ما سأقوله الآن: لو أنك ترغب في القتال، لو أنّ ذلك هو ما تتمناه، اذهب إلى أطلانطا حين تبلغ السابعة عشرة والتحق بالجنوبيين الأحرار. البس ثيابهم، وقاتل وفقًا للقواعد. لن أحبّ ذلك، لكنك حينها ستصبح رجلًا والقرار قرارك. لكن إياك والمتمردين. لا أعبأ بما يعطونه لك أو يعدونك به أو كيف يصورون لك الأمر؛ ذلك أنني أنا وأنت نعرف جيدًا ما يسخّرون أهل المخيّم لفعله، وهو ما لن أسمح لك به، هل تفهمني؟»

«أماه. هدّئي من روعك. لن أنضم لأيّ متمردين. لن أفجّر نفسي. لن أفعل ذلك أبدًا.»

«بصرف النظر عمّا يقولونه لك، بعض الأشياء خاطئة تمامًا، سواء في الحرب أو غيرها.»

«أعرف يا أمي.» احتضنت مارتينا ابنها، ثم صفعته على مؤخّرة رأسه. «وهذه سرقة. لا تكررها أبدًا.»

«حسنًا. آسف.»

قبلته وتمنّت له ليلة سعيدة ثم مرّت -بينما تسير على أطراف أصابعها- إلى جانب البنتين النائمتين في الحجرة المجاورة. استلقت فوق المرتبة التي تسرّبت

إليها رائحتها وانطبعت فوقها هيئتها على مرّ السنين.
أغمضت عينيها، فجاءها النوم بسهولة.

---

(5) لعبة يجري فيها كل طفل خلف زميله بُغية لمسه أو إمساكه، ومن هنا جاءت التسمية. (م)

مقتطف مِنْ:

لا مُتنفَّس ولا أمل:

القصّة التي لم تُروَ عن خَجر كارولينا الصحيّ أثناء الحرب

في القاهرة، عاصمة امبراطوريّة البوعزيزي، أطلّت مباني حي الطلاب القديمة الشاحبة فوق الأزقّة الحجريّة. كانت مبانٍ قليلة تعود لأيّام ما قبل الثورة، أثقلت سقوفها أقفاص الحمام وأكواخ البوابين المصنوعة من القش والألواح الشمسيّة المكسورة. كان الحرّ مُخيفًا، حتّى في يناير، وكان التواجد في الخارج أغلب السنة أمرًا عسيرًا بسبب تلك الحرارة الشديدة: هكذا سرعان ما سيتراجع حتّى أكثر السكّان خشونة إلى ساحل المتوسّط شمالًا، أو إلى الأماكن المغلقة النامية والمدن الموجودة تحت الأرض التي حلّت على نطاقٍ واسع محل نظيراتها العتيقة فوق الأرض. كانت الحرارة الشديدة تحول دون العيش بالطرق التقليديّة التي كانت تتشبث بالحياة؛ ذلك أنّ كثيرًا منها، على الأقل، كانت ما تزال تحاول البقاء مستغلّةً شهور الشتاء القارص.

يتصاعد النشاز من أسفل، حيث الأسواق المقامة في الأزقة الضيقة: جلبة المشغولات الفضية المعلّقة؛ طقطقةُ جذوات مشاوي اللحوم التي غطّاها السخام؛ صيحات السائحين الساخطة والّذين يساومون لعقد صفقة ما. ووراء كل ذلك، الأصوات المنبعثة من

الحاضِرَة الأوسع: الطائرات المُحلّقة فوق مطار المثلوثي، أكبر مراكز امبراطوريّة البوعزيزي؛ وسيمفونيّة أبواق تعزفها سيارات لا تتحرّك فوق جسر الرّابع عشر من أغسطس. القاهرتان القديمة والجديدة تتصادمان إلى ما لا نهاية.

في ذلك الحي تحديدًا، منذ خمسة وسبعين عامًا خلت، اندفع الطلاب في أزقّة خان السّيسي فقابلهم الجنود يُشهرون بنادقهم. لم يبق اليوم غير القليل لإحياء ذكرى تلك المذبحة، عدا نافورة منهكة ترش الرّذاذ وتُنقّي عملات السائحين المعدنيّة من الصّدأ برخامها.

داخل هذه الشقّة الصغيرة المُطلّة على نافورة الشهداء، يجلس محمود عبد الغفور منصتًا لتلك الأصوات التي تتخلل خشب النافذة الأرابيسك. هذا ليس اسمه، ولا هذه بلاده. اسمه الحقيقي هو جيري تاسك، وبلاده هي أميركا. إنّه خائن.

* * *

في الرابع عشر من يناير/كانون الثاني عام 2075، اليوم الّذي أعقب قيام المتمردين الجنوبيين بقتل ثمانية وثلاثين عاملًا فيدراليًا في ليكسنجتون، استدعى الرئيس نصف دزينة من الباحثين الحكوميين إلى المبنى التنفيذي في كولومبس وأوكل إليهم مهمّة ابتكار طريقة لتهدئة سكّان أولى ولايات البلاد المتمرّدة. بعد ثلاثة أشهر، حضرت مجموعة من عملاء مكتب الحرب (مِمّن قيل لهم هُم أنفسهم إنّ آثار المرض

ستنتهي دون أي أضرار في غضون شهور قليلة) اجتماعًا حاشدًا للمتمردين في مبنى مجلس ولاية كارولينا الجنوبيّة التشريعي حاملين أوعية من مرض خفي دسّوها أسفل ستراتهم. كان الشماليون قد شكّلوا على طول حدود الولاية الشماليّة كتيبةً تفوق في عددها كل ما شهدته العيون خلال الحرب، فتوقّع جميع سكّان الولاية المُحاصرة غزوة ما، لكنه في الحقيقة كان حَجْرًا صحيًا. انتشر المرض في أرجاء الولاية في غضون شهر، وبردت النواة المتّقدة للتمرّد الجنوبي. أمّا باقي دولة الجنوب الحرّة، فقد شُيّد حولها بسرعة جدارُ حَجْرٍ صحّي تلقائيًا، وذلك بعد أنْ انتشرت آثار الفيروس وغرقت.

كانت دفّة الحرب قد انتقلت لصالح الشمال حين وصل تاسك إلى معامل الحكومة في لينشبرج بعد عشر سنوات. وصارت غيبوبة الولاية المتمرّدة المتعقّدة التي حوّلت مجرى الأحداث لصالح الشمال مصدر حرجٍ صارخ الآن، وعار على الأمّة بأسرها. كان اختصاصي الفيروسات الشاب، حديث العهد بالعمل مفعم الحماس، مكلّفًا بالعثور على علاج.

بخلاف أغلب الأمريكيين، كان قد شاهد السّبات بشكلٍ مباشر. ذلك أنّ قافلة مدرّعة في الجُمعة الأخيرة من كلّ شهر كانت تسافر خمس ساعات من لينشبرج إلى جدار الحجر الصحّي في كارولينا، وبمجرّد عبور ذلك الجدار كانوا يجدون أنفسهم بين المصابين بالغيبوبة.

لأغراض بحثية، اختار تاسك أطفالًا لم يتمكّن المرض منهم بعد، وبالغين استنفدهم المرض بالكامل. هكذا استطاع اختبار العلاج واللقاح؛ كخيميائي يبحث عن اكسير الحياة.

أغلب هؤلاء أتى كرهًا، محشورين داخل مركبة عزل صحي يحرسهم جنود يلبسون سترات واقية سميكة. مواطنو كارولينا الأصغر سنًا الذين كانوا يعرفون جيدًا ما سيصبحون عليه قريبًا، توسلوا إليه أنْ يختارهم. لكن الأكبر سنًا، مِمَن بلغوا الثلاثين، فلم يكن باستطاعتهم سوى التقاط الأنفاس والأكل والتناسل، وسَبِّ الشماليين بين الحين والآخر، فكان إرغامهم على الركوب سهلًا. واقتيد الشيوخ دون مقاومة منهم إلى داخل الحافلة، مشلولي الأطراف، متيبسين كأنهم حجارة.

في كل شهر، طوال سبع سنوات، كان جيري تاسك يقوم بتلك الرحلة. شاهد خلالها أولئك الأطفال يضرعون إليه دون أمل طلبًا لعلاج لا يستطيع توفيره لهم. وربّما أورثه ذلك مرارة ما في حلقه مع مرور الوقت.

لَكَم خفّف عنه حين عادت الحياة برهة قصيرة إلى تلك العينات شبه الخاملة في ذلك اليوم من أبريل/ نيسان. تتفجر وجوههم بالنشوة وتستقيم أصابعهم بحذر شديد. ولكم بكى الباحث الشاب فرحًا حين رأى واحدة من علاجاته تؤتي ثمارها أخيرًا. تمكّنت منه آنئذٍ رغبة جارفة، ضد المنطق السليم، أنْ يفتح الباب المصفح ويقود مرضاه في الخارج إلى حديقة المعمل المركزيّة

الواسعة كي يتباهى بهم كأنهم ثمار ثمينة في الربيع.
ولكم بدا الكون قاسيًا في نهاية الأسبوع ذاته، حين ألقى بالأجساد التي عادت إليها الحياة برهة قصيرة، جثثًا هامدة داخل محرقة. بعد سنوات، سيُعرف الشئ الّذي ابتكره جيري تاسك باسم فيروس كويك-أ وسيكون أشدّ ضراوة من الفيروس الّذي أسقط كارولينا في الغيبوبة، ويصير قاتلًا عالميًا. لكن تاسك وقت تخلّق الفيروس كان قد منحه اسمًا لا يختلف عن أسماء كل كائناته الفاشلة، عبارة عن رقم تسلسلي بسيط: 032-072.
لا يوجد تسجيل مكتوب لأفكار العالم. لكن يصعب تخيّل هذين اليومين من أبريل/نيسان حين انتهى نور ساطع إلى ظلام دامس بسرعة كبيرة، دون الاعتقاد باتخاذ جيري تاسك قراره آنذاك: أن يُقايض حياته القديمة بشئ ما، أيّ شئ آخر.
لقد صار معروفًا الآن بشكل لا يقبل الجدال أنّ امبراطوريّة البوعزيزي التي تتوق إلى إطالة الحرب الأهلية الأمريكيّة قدر الإمكان، قد رتّبت الاتفاق الّذي يُمنح بموجبه اختصاصي الفيروسات النجاة بحياته.
هكذا، في صباح الثالث من ديسمبر/كانون الأول عام 2092، استقل جيري تاسك السفينة التجارية الفاتح المتجهة شرقًا من مرفأ ريتشموند. وسدد فيروسه القاتل تكاليف السفر. في العام التالي، سيعود الوحش الّذي اختلقه إلى الحياة على درجات ميدان الوحدة

الجديدة في كولومبس بأوهايو، وستزهق الروح الأولى من بين ضحاياه المائة مليون.

الفصل السادس

على ضفاف نهر *شوكهولو*، طفقت سارات تفتش عن طعام لحيوانها الأليف. مشت تغمرها نشوة خفيفة فوق الأغصان المتكسّرة والأوراق الجافّة التي كانت تصدر خشخشة خفيفة تحت قدميها الحافيين. كانت الأغصان حادّة والأوراق جارحة لكن الفتاة لم تحسّ شيئًا من ذلك؛ إذ كان باطن قدميها خشنًا مثل جلد مدبوغ.

جثت وحفرت في التربة المجاورة للماء. كانت التربة السطحيّة دافئة بسبب تعرّضها للشمس لكنها كانت أبرد في الأسفل. حفرت كوّة باتساع مرفق بحثًا عن الديدان الصغيرة المختبئة التي تذكرها من أيام طفولتها، لكن دون جدوى. وسرعان ما بدأ قاع الحفرة يمتلئ بماء النهر، فتخلّت عنها. بالقرب منها، طفق ماركوس اكسوم يجمع الفطر النامي فوق لحاء أشجار الصمغ الحلو القصيرة. كان يستخدم مدية لكشط فِطر عيش الغراب، الكبير الأبيض، من جذوره، ثمّ يضع غنيمته داخل حقيبة ظهره المصنوعة من إحدى الأغطية. كانت إحدى الأشجار المنهارة بشكلٍ تام قد اختفت تقريبًا أسفل طبقة أخرى من عيش الغراب، فانهمك ماركوس في حصاد الفطر النامي حتى امتلأت حقيبته عن آخرها، وتعرّى جزء صغير من الشجرة كاشفًا عن لحائها الأسود.

قالت سارات وهي تتسلّق الشجرة الميتة: «لا ريب أنه سيأكل ذلك الفطر. بلى، لكنت آكله أنا.»، «لا أدري.» أجاب ماركوس وهو يحاول طيّ حواف الفطر للأمام

والخلف. «ربّما يكون سامًا. يقول أبي إنّ أغلب الفطريات التي تنمو هنا سامّة. ويقول إنّ كل ما ينمو هنا ويُمكن للبشر أكله، قد أكلوه بالفعل.»، «سنقدمه طعامًا لسلحفاة. والسلحفاة ليست بشرًا.»، «نعم. لكن يظل السمّ سمًا. لا أدري من يأكل ذلك السمّ.»، «طيب. لابد أنها تأكل شيئًا مما يوجد حولنا. لنواصل البحث.»

مسحت سارات التراب العالق بكفّيها على جانبي قميصها الّذي حمل علامة كوسكو *للشحن*، قبل أن تعود لتهبط الوادي في اتجاه النهر. كانت قد صارت حبيسة ثياب الصبيان الآن؛ إذ لم يعد ثمّة بنات ولا نساء داخل المُخيّم في طولها. ورغم أنّ ذلك الطول حصرها داخل بنطال الجينز البالي والقمصان قصيرة الأكمام التي كانت لسيمون وأصدقائه ذات يوم، غير أنّها كانت تشعر داخل تلك الثياب بحريّة لا مثيل لها مقارنة بنموذج شقيقتها الّذي لا يُحتمل، والتي لم تحسب حسابًا بقطعة ثياب واحدة داخل دولابها الكبير تلائم مغامرات مثل تلك.

قطفت الأوراق الخضراء والزهور من إحدى نباتات آلاباما المتسلّقة التي اعترشت الماء. أغصانها مرتخية وظمآنة. اكتشفت فوق الأرض مجموعة صغيرة متشابكة من بذور الصمغ الحلو وثمار العنب الأسود. أودعت كل ذلك داخل حقيبة ظهرها.

على مسافة بضعة أقدام، هبطت سارات منحدرًا خاليًا من الأشجار يصل إلى حافّة الماء، إلى أنّ انغرز كاحلها

داخل النهر الموحل الدافئ. غطّت رغوة كثيفة خضراء قاتمة سطح الماء، فأزاحتها وغمرت وعاءً في النهر حتى امتلأ. كان الماء في الأسفل أسمر اللون، وحين عرّضته للشمس تلألأت داخله جُسيمات دقيقة. كان المصبّ المسقوف لنهر شوكهولو يُغذّي نهر سانديكريك بعد مائة قدم. وبعد ميل آخر شرقًا، كان السانديكريك يلتقي نهر تينيسي. رأت سارات زوارق المتمردين من بعيد، وقد رست بالقرب من رصيف معطوب في مرفأ مهجور. كانت تلك الزوارق تعبر النهر ما إنْ يخبو ضوء النهار.

لقد شهد الأطفالُ المتمرّدينَ مرّات كثيرة، وكذلك شهد المتمردون الأطفال. الأخيرون كانوا يعبرون مسارات بالشوكهولو حيث يرتخي سياج المخيّم الضعيف ويتمزّق إلى أشلاء. على عكس سكّان المخيّم الّذين تعلّموا على مرّ السنين ألا يخاطروا بقطع هذه المسافة شرقًا حيث كانت ترسو زوارق المتمردين، ولا إلى الشمال، حيث ازدادت وتيرة الاشتباكات بين المتمردين والميليشيات الشمالية. لكن بالنسبة لسارات، كان هذا المكان جنّة صغيرة، أرضًا تزخر بالحياة بعيدًا عن التلوّث البشريّ ورتابة المخيّم التي تفتقر إلى السّحر. هكذا، سرعان ما اعتاد المتمردون مقام الفتاة الضخمة، حوشية الشعر، وصديقها القصير. تجاهلوهما، ولم يروا فيهما تهديدًا أو غواية؛ فالصبيّ كان شديد القصر، والبنت كانت بالغة الضخامة.

نزل ماركوس الجسرَ بصعوبة شديدة إلى حيث وقفت

سارات. «ينبغي أن نعود.»

«اهدأ. تناول بعض الثمار.» وقطفت سارات ثمرتين من العنب الأسود قدّمتهما إلى ماركوس، لكنه رفض. هزّت كتفيها وفرقعت الثمرتين تحت أسنانها. كانتا طريتين فانفجرتا دون مقاومة. سار الطفلان عائدين إلى الخيام. تبعا أطلال الطريق السريع رقم 25 الّذي غطّاه التراب بعض الوقت. وكان الجسر المقطوع الّذي يصل إلى الولايات الشماليّة على مسافة أقل من ميل. اتجها غربًا، إلى حيث الخيام المهجورة الآن التي تحدّ الطرف الشمالي للمخيّم. علّمتهما التجربة أن تلك الخيام ينبغي تجنّبها، تلك التي كانت، رغم خلوّها، تحتوي شحنات المتمردين غير القانونيّة التي كانوا ينقلونها أثناء الليل عبر الساندیكريك. كانت تلك الخيام القريبة من السور تخُص بشكل رسمي اللاجئين الذين لقوا حتفهم أو رحلوا إلى أماكن أخرى منذ زمن بعيد. أمّا اللاجئون الوافدون حديثًا، فكان السكّان المخضرمين يسارعون إلى تحذيرهم منها بمجرّد تخصيص تلك الخيام لهم هُنا، فلا يجدون مفرًا من العثور على طريقة ما لتسكينهم إلى الجنوب أكثر، قريبًا من قلب المُخيّم.

وصل الطفلان إلى خيمة بالقرب من الحدود بين حيي المسيسيبي وآلاباما. لم يكن يميزها شئ عمّا عداها في المنطقة باستثناء شقّ مستطيل بقماشها المواجه للشرق، كانت سارات قد صنعته هناك كي يسمح بمرور مزيد من ضوء الشمس. كان ماركوس قد أتقن فتح

مزلاج الباب المعدني من الخارج مستخدمًا رأس مديته المعدني، وهكذا اطمأن الطفلان إلى قدرتهما على إخفاء محتويات الخيمة بعيدًا عن عيون المتطفلين. صارع رأس المزلاج برهة من الوقت، حتى انفتح، ودخلا. شكّلت أربعة أسرّة اصطفت على جوانبها في قلب الخيمة على هيئة مستطيل، قفصًا مؤقتًا. كانت سلحفاة مدوّرة صغيرة يبلغ طولها حوالي ست بوصات. باعدت خطوط سوداء بين العلامات الصفراء التي كست ظهرها لتشكّل أنماطًا تُشبه نظيراتها الهندسية الجميلة المكرورة فوق أجنحة الفراش. كانت تتحرّك فوق أقدام جلديّة عتيقة، ونمت عند أطرافها مخالب حادّة راحت تمزّق الغطاء في بطء. راقبت السلحفاة الطفلين يقتربان بتركيز صامت، ثم تراجعت رويدًا رويدًا إلى داخل صدفتها. فتساءل ماركوس: «هل *سيألفنا* يومًا؟»

«إنها فتاة.»

«وكيف تعرفين أنها فتاة؟»

«أنا من عثر عليها، إذن فهي فتاة.»

«طيب، هل *ستألفنا* يومًا؟»

«ستحبنا حين ترى كل ما أحضرناه لها من طعام.»

«ربّما علينا إعادتها إلى النهر.» قال ماركوس، لكن سارات نحّته جانبًا. مدّت يدها داخل الحقيبة وطفقت تضع الأوراق والتوت في تلال صغيرة على أطراف القفص الذي نأت السلحفاة إلى أحد أركانه، وتبعها ماركوس دون حماس يُثبّت رؤوس الفطر فوق الغطاء.

«ليس هكذا. فرؤوس الفطر أضخم من رأسها. قطّعها أولًا.» وضع الطفلان الطعام داخل القفص ثمّ تراجعا بضعة أقدام. في النهاية عاودت السلحفاة الظهور خارج هيكلها وانتبهت للطعام المنتشر على الجانب الآخر من القفص، لكنها لم تتحرك. «ربّما تحسّ بالوحدة.» أجابت سارات: «لا حيلة لنا في ذلك. متى كانت آخر مرّة رأيت فيها سلحفاة أخرى بالقرب من هنا؟ أو سحليّة، أو حتّى صراصير.»، «لابد أنّها جاءت من مكانٍ ما. لقد وُلِدَت، فلابد أنّ لها أبوين، وربّما أشقاء وشقيقات كذلك.»، «لا يعني وجود عائلة لها، أن تكون تلك العائلة ما تزال في مكانها.» انتظر الطفلان برهة أطول، لكن السلحفاة رفضت الحركة، ولم تتحمّل سارات رؤية هذا المشهد الثابت. هكذا تقدّمت إلى الطرف الآخر من القفص، لكن السلحفاة عادت مرّة أخرى إلى داخل صدفتها. أمسكت سارات بها وحملتها للطرف الآخر من القفص ثمّ وضعتها أمام الطعام، وتراجعت للخلف. عاودت السلحفاة الظهور. انتبهت لوجود الطفلين مرّة أخرى بعينيها ذات الخلفية البرتقالية، ثمّ استدارت مبتعدة بخطى ثقيلة.

هتفت سارات: «تبًا.»

«ربّما ينبغي علينا أن نجرّب فكرتي.»

«أقول لك إنّها لن تنجح. ذلك الفأر في حجمها تقريبًا. وسيزداد ذعرها.»

«وماذا سنخسر لو جرّبنا؟» أذعنت سارات، فغادر ماركوس مسرعًا وركض إلى خيمته. في غضون دقائق

قليلة عاد يحمل دلوًا من الصلب المطلي بالزنك، رفعه أعلى القفص ثمّ أماله، فانزلق من طرفه فأر حقول بُنّي صغير. تجمّد شاغلو الخيمة الأربعة. كل منهم يراقب الآخر. وإذا بالفأر يهرول إلى ركن القفص العامر بالطعام ويبدأ بالتهام العنب الأسود. فاستطردت سارات: «طيب، على الأقل لن تعود السلحفاة وحيدة بعد الآن.»

غادر الطفلان الخيمة، وانفصلا جنوب حي آلاباما حيث عاد ماركوس إلى خيمته. قالت سارات إنها ستعود بوقت متأخر في المساء كي يطمئنا من جديد على رفاهية حيوانيهما الأليفين. لكن ماركوس قال معترضًا: «لكنك تعرفين أنه لا يجب علينا الاقتراب من السور ليلًا.»

«كذلك ليس علينا الاقتراب منه أثناء النهار. هل تخاف؟»

«لا.»

«لا مشكلة إذن.» ودّعته وغادرت. اتجهت جنوبًا عبر الجزء الغربي من آلاباما ثمّ انحرفت إلى داخل المسيسيبي. وقبل أن تصل إلى المنزل، اعترض طريقها صبيّان ملأتهما الإثارة بالنشوة. «أقول لك، لقد ضاعت منه في الوحل. وقعت من ذراعه وهو يطوّح الكرة، ثمّ سقطت هناك بين النفايات.» تبعتهما سارات يأكلها الفضول حتى بلغوا ضفاف نهر *اميرالدكريك*. هناك اجتمع ما يقرب من عشرة أولاد وبنات من الخيام القريبة إلى جوار الخندق الّذي تنبعث منه الروائح

الكريهة.

في قلب هذا الجمع المضطرب وقف صبيٌ اسمه ايثان. كان الصبيّ البائس الّذي يكبُر سارات بعام واحد، يُشير إلى شيء ما داخل الخندق محاولًا إقناع حفنة صبيان آخرين بأمرٍ ما، بدا أنّهم يتكلمون جميعًا في الوقت ذاته. وانتبهت فتاة تمسك أنفها اتّقاءَ الرّائحة الكريهة من اقتراب سارات. «أنتِ! ربّما تستطيع سارات استعادتها، فهي أضخم منكم جميعًا.»، «استعادة ماذا؟» سألتها سارات، فرمقها الأطفال بطريقة اعتادَتها: فضولٌ حَذِر تجاه فتاة لا تُشبه الأخريات. تجاهلتهم وشقّت طريقها صوب الضفاف. تدفقت مياه الصَرف سوداء ثقيلة داخل الخندق كأنها صلصة. هذا هو حساء الفخيم الكريه المؤلّف من غائط وقذارة. وقد صنعت أهِلّة صغيرة من المطهّر الأزرق الّذي يدلقه موظّفو النظافة مرتين يوميًا دوّاماتٍ تغطّي السطح، وتبعثرت أعقاب سجائر وعلب فارغة وأغلفة تموينيّة على ضفتي الخندق وراحت تطفو فوق السائل المتحرّك.

استقرّت ساعة معصم قديمة موروثة فوق صخرة في منتصف الجدول. كانت شأن كثير من الأشياء المعطّلة التي كان اللاجئون يحملونها معهم ولها صلة مفعمة بالحياة ماضية بعيدة أكثر سعادة من الحاضر: صور فوتغرافيّة شاحبة؛ وبطاقات تخزين تالفة أو عفا عليها الزّمن؛ ومفاتيح بيوت تعرّضت للقصف أو الهدم منذ زمن بعيد. هتف ايثان: «لقد كانت ساعة جدي.

ستقتلني أمي إن عدث دونها.» قالت سارات: «انزل إذًا وأحضرها.»، «لا تكوني فظّة. لن أخطو أبدًا داخل الغائط.» همس صبيّ آخر شيئًا في أذن ايثان الّذي أنصت وأومأ برأسه موافقًا. «لماذا لا تحضرينها أنت يا سارات؟ سأعطيك خمسين دولارًا إن فعلت.» هزّت سارات كتفيها بلا مبالاة وقالت: «لا بأس.»

من جديد نحت الأولاد جانبًا مبتعدة عن الجدول، في اتّجاه أقرب خيمة. تبعها بعض الأولاد بينهم ايثان الّذي أمسك معصمها وحذّرها من إخبار أحد الكبار. «لن أخبر أحدًا.» أجابته سارات وهي تنتزع معصمها من يد الصبي. «كفّ عن الفزع من كل شيء.» وتابعت المشي بين الخيام حتى بلغت حبل غسيل متدل. حلّت حاملين معدنيين كانا مثبتين بكلا الخيمتين ثمّ لفّت الحبل حول قبضتها. بعدها عادت إلى الجدول، يتبعها الأولاد. على الضفة، فكّت الحبل وألقت به داخل خندق الصرف. في رميتها الأولى انحرف الحبل بعيدًا جهة اليسار فسحبته مرّة أخرى. لكن في الرمية الثالثة استقرّ الخطّاف وراء الصخرة التي كانت الساعة جانحة فوقها تمامًا. فطفقت تسحب الحبل شيئًا فشيئًا. هتف ايثان من ورائها: «احذري. احذري! ستلقين بها داخل الغائط.»، «اهدأ.» راحت تجرّ الحبل برفق إلى أن استقر الخطّاف فوق الصخرة إلى جانب الساعة تمامًا. ثمّ قرّبته بأنامل جزاح منها أكثر إلى أن أزاح الساعة من موضعها. بدأت الساعة تنزلق أسفل جانب الصخرة

المصقول في اتجاه المجرى، فعلقت بطرف الخطّاف. هنا أطلق عدد من الأطفال صيحة منتصرة، وهتف ايثان: «لقد ظفرتِ بها. اجذبيها، اجذبيها.»، «مهلًا. مهلًا. ناولني ذلك المضرب.» حمل صبي مضرب بيسبول قريب وناوله لسارات التي رفعتها بيدها اليُمنى ولا يني الحبل في يسراها. مدّته أمامها قدر استطاعتها دون أن تفقد اتزانها، ثمّ راحت ترفعه رويدًا رويدًا أسفل الحبل كي تصنع نقطة ارتكاز. بعدها طفقت تسحب الحبل فارتفع الخطّاف وقد علقت به السّاعة التي صارت تتأرجح وتكشط سطح المجرى أثناء ابتعادها عن الصخرة. لفّت سارات الحبل حول معصمها وجذبت السّاعة ووضعتها فوق الأرض. عندئذ التفتت إلى ايثان: «ادفع.»

حملق الأولاد في الساعة المطروحة على الأرض كأنها سقطت من الفضاء الخارجي. وفي النهاية، أخرج رزمة دولارات تكساسيّة من جيبه ودفع لسارات المبلغ المتّفق عليه. تفرّق الأطفال. بعضهم عاد إلى مباراة البيسبول التي كانوا يلعبونها، لكن في مكان أبعد عن المجرى هذه المرّة. وعرضت فتاة صغيرة لا تعرفها سارات أنْ تُعيد حبل الغسيل إلى مكانه بدلًا منها.

كانت توشك على الرحيل حين اقترب منها صبي آخر من جورجيا يبلغ من العمر أربع عشرة عامًا اسمه مايكل. كانت تعرفه عرَضًا، وكان الشقيق الأكبر لصبيٍ يُدعى توماس أصابته شظيّة أثناء تعلّمه المشي أوقفت نموّه

العقلي عند عمر الثانية. كان مايكل ينام في السرير نفسه ليلة هجوم الطائرات بدون طيار، لكنه نجا دون أن يُصاب بأذى. «مرحبًا سارات، انتظري يا فتاة، إلى أين تمضين سريعًا؟ سأعطيك خمسين دولارًا أخرى إن نزلت هنا.» صاح مايكل وهو يُشير إلى مجرى الصَرف. توقّف المغادرون. ورمقتهم سارات ثمّ رمقت مايكل. كان جسده نحيلًا لكنّه قويّ، يسبح داخل قميص فضفاض شديد الاتساع ماركة سنوبيسولار. كان قميصًا مستعملًا من مرفأ أوجستا. لم تقُل سارات شيئًا. فاستطرد مايكل: «هيّا الآن. أنت لست خائفة، أليس كذلك؟» كان يرسم على وجهه ابتسامة صفراء تعرفها سارات جيدًا. سبق أن رأت النظرة ذاتها فوق وجوه أطفال آخرين كُثر طوال السنوات الماضية. ابتسامة رضا عن النفس؛ لأنّه كان يعرف أنّه لم يترك لها خيارًا: إمّا أن تخوض داخل المجرى الممتلئ بالقذارة أو توصم بالجبن.

حتّى في ذلك العمر الصّغير، كانت تُعي جوهر تلك الابتسامة: قناع يُخفي خوفًا؛ بلسم يُشفي انعدام أمنٍ مدمّرٍ أصاب طفولةً تعرّضت لأذىً غائر. لم يكن أولئك الّذين يرسمون تلك الابتسامة الصفراء غير أولادٍ يعانون الهشاشة، وهشاشتهم كانت تتطلّب تهديد شخصٍ ما. لقد عرفت سارات ماهيّة هؤلاء الأولاد أكثر ممّا كانوا يعرفونها هم أنفسهم. فكانت تعلم أنّه ما من رابح في هذا التحدّي. كان هذا هو جوهر الموقف، لا رابح، بل مقادير متفاوتة من الخسارة.

قالت سارات: «وكيف أتأكّد أنك لا تكذب؟» أخرج مايكل من جيبه رزمة دولارات مجعدة ناولها لسارات التي تفحّصت ما هو مرسوم على ظهر الدولارات: المشهد الريفي الشاحب لصالة ماكوي الكبيرة، المكان الّذي بصقت فيه جوليا تمبلستو في عيون الشماليين قبل سنوات طويلة خلّت. «لن تفعلها سارات حقًا، أليس كذلك؟» هتف صبي بينهم، لكن صبيًا آخر دفعه بمرفقه وأمره أن يصمت. أشاحت سارات وجهها بعيدًا عن مايكل وتقدّمت نحو الجسر. تدحرجت قليلًا مرتكزة على المنحدر بردفيها. هبطت ببطء. كانت الرطوبة تزداد أسفل قدميها شيئًا فشيئًا كلّما اقتربت من البركة النتنة. طوال فترة تواجدها في مخيم بيشنس، لم تزعجها رائحة اميرالدكريك قط، لكن مع كل خطوة تخطوها إليه الآن كانت تكتشف ثقلًا للرائحة الكريهة لم تعرفها من قبل. غمرت تلك الرائحة الحدود بين الحواس وسرعان ما قاربت سارات على تذوق الحلاوة النفّاذة على لسانها.

ضاق حلقها وأحسّت رغبة ملحة للتقيؤ، لكنها قاومت. كان صخب حياة جميع سكّان المُخيم اليوميّة يستمر دون عائق، لكن هُنا وقف الأطفال يراقبون، صامتين مسلوبي الألباب. حين التقى الجسر مع مجرى الصرف، اختفت قدما سارات داخل الوحل الأسود اللزج. أحسّت بالسائل يلتصق بشعيرات قصبة ساقها القصيرة، دبقًا ودافئًا. خرجت تنهيدة حادّة من الأطفال الواقفين خلفها

وهي تخوض السطح، وسمعت بنتًا صغيرة تهتف: فظيع. حينئذ أدركت سارات أنها لم تتفق سلفًا مع مايكل على حدود التقدّم داخل مجرى الصرف. فصار بإمكانه أن يُطالب بمزيد من العمق، مهما كان الحدّ الّذي تصل إليه. حين بلغ الوحل مستوى ركبتيها، عثرت قدماها على أرضية صلبة فوق صخرة مسطّحة. كان المجرى أكثر ضحالة مما توقّعت، فرفعت مؤخرتها برفق بعيدًا عن الضفّة ونهضت تقف. التفتت إلى الصبي الّذي تحدّاها، وكان يقف على حافّة المجرى. كان ما يزال يرسم الابتسامة المعتدّة نفسها على وجهه، لكن سارات رأت خلفها ذهولًا كان يُحكِم كَبحه، غير مُصدّقٍ أنها خاضت فعلًا داخل النفايات البشرية وكسبت التحدّي.

عادت سارات تستريح مرّة أخرى فوق الجسر، يغمرها الرضا من أنها لبّت شروط الرهان. لكن هذه المرّة كانت تولي وجهها إلى الأمام، وقد تشبثت بكفيها في التراب. دفعت نفسها إلى أعلى، لكنها سمعت طقطقة مكتومة أسفل السطح. لقد أفلتت الصخرة التي كانت تقف فوقها. فإذا بها تغوص فجأة.

ابتلعتها المياه السوداء كلمحِ البصر. أغمضت عينيها على نحو غريزي وأحسّت في العتمة بدفء الماء على شعرها ووجهها. اعتقدت لوهلة أنها تغرق. ردّة فعل مذعورة لا تشبه شيئًا أحسّت به مسبقًا، قبل أن تستجمع قواها وتتشبّث بالضفة. هنا فتحت عينيها. خربشت أظافرها الصخور والتراب، وراحت تضرب

بهياج حيوان مُحاصر، والخوف ينبض بالحياة في داخلها. تسلّقت بعيدًا عن المجرى وقد غطّت أوحال قاتمة ملساء ذراعيها وساقيها. صارت عالقة بها الآن، الرائحة النتنة. لا يُمكنها أن تشمّ شيئًا سواها. رأت الأطفال يضحكون عليها، وكان الصبيان أعلاهم صوتًا. واستغلّ مايكل الفرصة، فقدّم استعراضًا كبيرًا زعم فيه أنّه يعجز عن التنفّس بسبب الضحك الهادر. كانت هذه طريقته في استعراض انتصاره؛ الحمارة المتذاكية التي فضحت عجزهم جميعًا بمجرّد حبل غسيل، ها هي الآن مغطاة بالقذارة.

صعدت سارات معتمدة على يديها وركبتيها إلى أن عادت إلى الأرض المستوية. وقالت: «لقد نفذت الرهان. أعطني النقود.» راح مايكل يتراجع كلما اقتربت منه، وألقى الدولارات في اتجاهها فوقعت على الأرض بين قدميها. هتف مايكل وهو ما يزال يضحك: «ربّاه! إن رائحتك كريهة.» التقطت سارات النقود، ومشت بمحاذاة الأطفال الّذين صنعوا سبيلًا كي تمرّ من خلاله. بقيت قِلة منهم في محيطها أثناء عودتها إلى الخيمة، أمّا الباقون فقد ركضوا أمامها كي يخبروا آباءهم وأشقاءهم بما جرى، كأنهم طليعة كشفيّة.

التصقت القذارة بساقيها، وصنعت قطرات منها أثرًا خلفها فوق التراب. أحسّت شيئًا في شعرها يتحرّك مثل حشرات صغيرة. لمّا وصلت الخيمة اكتشفت أنّ الأنباء سبقتها إلى هناك. وكانت أمّها تقف في الخارج،

تنتظرها. «ماذا فعلت بنفسك؟» قالت سارات: «لا شيء.» كان ردًا غريزيًا. خرجت الكلمات منها قبل أن تدرك أنها ستقولها. لكن بمجرد أن نطقتها تقدمت مارتينا منها وصفعتها على وجهها. «هل تتخيلين أنه ليس لدينا ما يكفينا من المشاكل؟ تتخيلين أنه لا يكفي أننا عالقون هنا في هذا الجحيم، يحيط بنا القتلة من كل جانب؟ تعتقدين أنه ليس لديّ ما يكفي كي أتعامل معه. وأنك لن تكوني وصمة عار لأسرتك، وتجعلين الجميع يسخرون مِنّا أيضًا؟» هزّت سارات رأسها واندفعت الدموع من عينيها. كان أغلب من تبعوها قد غادروا، والآن تُغادر الفئة القليلة التي بقيت. لقد تبخرت بغتة أيّ طرافة كانت تمثلها مشاهدة المسرحية التي كانت هي بطلتها. «لن تدخلي مُحملة بكلّ تلك القذارة. أنت من فعل هذا بنفسه، وأنت من ستنظفينها. لا أحد سيصلح ما تسببينه من فوضى من الآن فصاعدًا سواكِ.»

«حسنًا. أنا لم أطلب منك إصلاح شيء.» واستدارت مبتعدة. اتجهت شرقًا وقد خيّم المساء على المُخيم. كان بعض الرجال الذين ينامون أثناء ساعات الظهيرة الحامية يخرجون الآن من خيامهم من أجل الجلوس فوق الصناديق المربعة واحتساء الشراب ولعب الورق. مشت سارات بمحاذاتهم، لكن رغم أن رائحتها سبقتها بسبب النسيم، لم ينتبه إليها من الرجال أحد، ولا بدا أنهم يعبأون.

بالقرب من الطرف الشمالي لحيّ آلاباما، رأت سارات

حوالي خمسة رجال يتحلقون حول طاولة قديمة تُطوى، وضعوا فوقها حاسوبًا لوحيًا يتصل بمكبّر صوت صغير. كانوا يشاهدون تسجيلًا لمباراة ملاكمة جرت الأسبوع الماضي في *القلعة* في أوجستا، وهي واحدة من أفضل المباريات في الذاكرة الحديثة. كان الملاكمون الاثنا عشر قد نجحوا في البقاء صامدين على أقدامهم طوال الدقائق السبع ونصف الأولى، قبل أن يتعرّض واحد منهم للهزيمة. قال رجل أنّ صبيًا من بيشنس كاد يحقّق الفوز، لكنه خسر مباراة قبل ليلتين في التصفيات المؤهلة. وتابع: «كان أحد أبناء كارولينا. يُدعى تايلور. يقولون عنه أنه كان وضيعًا.» وقال آخر: «بلى، لكنني كنت أراهنك طوال الوقت أنّ وضاعته كانت تشغله، في حين انشغل الآخرون بالقتال. الوضاعة لا تُفيد.»

برز ماركوس اكسوم على طرف حلقة المشاهدين. كان يجلس فوق سلة غسيل مقلوبة مادًا عنقه إلى الأمام كي يحظى بمشاهدة الشاشة. وقد وثب حين رأى سارات وجرى ناحيتها هاتفًا: «أنت. أنت. ماذا تفعلين؟» وربت فوق مرفقها. صاحت سارات به: «لا تلمسني.» فنكص. رأت في عينيه دفقة مباغتة من حيرة وتأذٍّ. فقالت تستدرك: «لا أقصد ما فهمته. أنا مغطّاة بالقذارة. ورائحتي كريهة.»، «وماذا بعد؟ استحمي إذن.»، «لا أحملُ ثيابًا بديلة. وأمي لن تسمح لي بدخول الخيمة. تقول أنني مصدر حرَجٍ لها.»، «أرهن أنك إن اعتذرت لها

فإنها سـ..»، «لست آسفة.» دوى صوتها بالعبارة، فرفع رجلان يشاهدان المباراة بصريهما نحوها. «لستُ آسفة ولا أحد منهم يمكنه إجباري على الاعتذار. كلّهم كاذبون وجبناء، كلّهم. يتظاهرون أنّ ما هم عليه هو الطبيعي، كأنّ الطبيعي أن نحيا هكذا. لكن هذا ليس طبيعيًا. أبوك مُحِق، نحن لا نفعل شيئًا إلا انتظار الموت، انتظار عبور الشماليين ذلك السور ذات يوم وقتلنا جميعًا. لست آسفة. لست أنا المخطئة.»

«لا أظن أنك مخطئة. ولم أفكّر يومًا أنك كنت مخطئة. اذهبي إلى مقطورة الحمّام، وسأحضر لك بعض الثياب من خيمتنا. فأبي ليس أضخم منك بكثير على أي حال.» مشت سارات فوق الطريق الترابي نحو مقطورة حمّام تنتصب في أقصى شمال حي آلاباما. كانت المقطورة عبارة عن كشك من البلاستيك والمعدن الصَدئ مشيد فوق حجارة. كانت رائحة عفونةٍ تشبه حبوب الهيل وقد انبعثت من عُلَب مطهِّرات كانت تأتي في صناديق كلَّ شهر من مرفأ أوجستا. كانت علبًا صغيرة شفَافة تُشبه علب التوابل، تتناثر فوق الأرض وتعلق بالمجاري وتلتصق بجانبي القدم. سكّان مخيم بيشنس كلّهم، عدا النافذين منهم، كانوا يستخدمون تلك العلب في غسيل شعورهم وجلودهم، ورغم ذلك ما من أحد منهم كانت تفوح منه رائحة السائل الكهرمانيّ اللزج، وحدها مقطورة الحمام تفوح منها الرائحة.

دخلت سارات المقطورة وخلعت ثيابها، ثمّ كوّمتها على

الأرض في أحد أكشاك الاستحمام الثلاثة، تحت الدش، قبل أن تفتح صنبور الماء الساخن. في غضون دقيقة، اندفع البخار يملأ الغرفة وحطم الماء قشرة القذارة التي تغطي الثياب وغمرت رائحة كبريتية مالحة المقطورة. تقدمت سارات داخل الكشك المتاخم، وفتحت الصنبور. كان الماء باردًا؛ فاقشعر جسدها وانتصب الزغب الناعم فوق ذراعيها. وقفت تحني رأسها، تراقب دوامات الماء اللبني الأسود حول المجرور. كانت كل أنواع الكتابة على الجدران موجودة وراء باب الكشك: رموز الميليشيات الجنوبية؛ رسوم كرتونية غريبة لأعضاء تناسلية؛ عناوين الخيام التي تعيش فيها العاهرات واللصوص والخونة. وسرعان ما صفا الماء.

سمعت سارات باب المقطورة يُفتح. سمعت ماركوس يمشي داخلها، يكاد صوت خطواته يتماهى مع صوت اندفاع الماء وبقبقة الأنابيب. سمعته يضع الثياب فوق مقعد إلى جوار حوض الغسيل، ثم سمعت صرير باب المقطورة يُفتح ثم يُقفل مرة أخرى. لكن رغم انقطاع الصوت كانت تعلم أن ماركوس لم يغادر. تعرف أنه ما يزال يقف داخل الغرفة، وعبر الشق الدقيق جدًا حيث فواصل الباب، أحست بعينيه مسلطتان عليها. رأت ما كان يراه برأسه الخفيضة، طوبوغرافيا جسدها: الكتفان العريضان القويان؛ والثديان اللذان لو كانا لفتاة أخرى في مثل عمرها لكانا منتصبين مثل تلين، لاحا خجولين بالنسبة لقوامها؛ الوركان بمستوى الكتفين والفخذين.

جسد ضخم دون نتوءات. امرأة على هيئة قالب حجري. كانت تعرف أنّ جائزة تلصّصه الأغرب كانت في الموضع الكامن بين خطوط جسدها، الموضع الّذي انقلبَ ضدّها خلال هذه السنة الأخيرة بطريقة شديدة المباغتة فتصوّرت معها في البداية أنّها تحتضر. الموضع الّذي حوّلها أمام نفسها إلى غريبة خلال لحظة. كانت تعرف أنّها إنْ رفعت بصرها ببساطة كي تضبطه متلبّسًا بالتلصّص عليها، سيفرّ، ولن يطلب الغفران لاحقًا، بل سيلقى نَخبه بعيدًا من الخجل. أصبحت تمتلك عينين أخريين بخلاف عينيها لأوّل مرّة في حياتها، وقد احتفظت بهما مسلّطتين على جسدها. لقد ظلّ الصبيّ والفتاة، في قلب البخار المتصاعد، مسلوبَي اللبّ بالجسد ذاته بعض الوقت.

بدأ جريان الماء يقلّ وصدر عن الأنابيب صفير هادر. أغلقت سارات الصنبور فسمعت حينئذ هرولة ماركوس خارج المقطورة. وجدت أمام الكشك قميص علي بابا وجينزًا مترهّلًا أصاب لونه البلى عند الرّكبتين. كان القميص على مقاسها بعكس الجينز الّذي كان واسعًا حول فخذيها. التقطت قميصها القديم من الكومة المنقوعة فوق الأرض ومزّقته نصفين. أخذت نصفًا من النسيج الممزّق وجدلته، وكانت تعتصر الماء منه أثناء ذلك، ثمّ مرّرته عبر حلقات الحزام وأحكمت شدّ البنطال حول خصرها. وجدت ماركوس جالسًا فوق درجة السلّم السفلى حين خرجت من مقطورة الحمّام. كان يحتضن

ساقيه بساعديه فجلست إلى جواره.

كان المُخيَم أثناء ساعات الليل الأولى ينبض بالحياة. ثرثرة ومشاعل تتجوّل وبخارٌ نَجمَ عن طبخ الفِطر. تتردّد أصوات إذاعة الجنوب الحرّ عالية رنّانة عبر مكبّرات صوت محمولة. نظرت إلى ماركوس لكنه كان يحدّق في قدميه. أحسّت أنّ جدارًا بينها وبين صديقها كان يتفتّت، لكنّ جدارًا آخر يختلف عن الأوّل كان يرتفع مكانه. ورغم عجزها عن تحديده، كانت تعرف أنّه موجود. وأنّه يتعلّق بتلك اللّغة الخفيّة التي تُتقن أختها الحديث بها. كان الجدار يعيش في تلك البقعة المحمومة الغريبة بين الفضول والرغبة.

وقد هزّها ذلك؛ ليس بسبب ما فيه من إثارة، بل من جدّة. إدراك قدرتها ليس فقط على التلاعب بتلك المشاعر الموجودة داخلها بل وقدرتها على التلاعب بدون تلك المشاعر؛ وأنّها تستطيع تحويل حركة التروس داخل شخصٍ آخر بقوّة طاغية. تكلّم ماركوس أخيرًا: «حين يسقط بابا في النوم، ما من شئ يوقظه.»، «لن أمكث في خيمتكم.»، «أين ستسكنين إذن؟»، «سأنام داخل القفص مع *شيرلين* وفأرك ذاك، إن لم تكن قد أكلته بالفعل. ثمّة متسع كبير هناك.» التفت ماركوس وأمسك بساعد سارات. «أرجوكِ ألّا تبيتي هناك. تعلمين أنّ المكان ليس آمنًا. يقول أبي إنّ الميليشيات الشمالية ستقتحم ذلك السور في أي ليلة.»، «وأنا أصدقه، لكن ما هي احتمالات أنْ يجرى الاقتحام الليلة؟»، «وماذا لو

كان الليلة؟»، «ساعتئذ نلقى حتفنا جميعًا. أين تريد أن أسكن إذن؟»، «انزلي إلى مبنى المرضى، وأخبريهم أنك أصبت بالانفلونزا أو غيرها. سيسمحون لك بقضاء الليلة هناك.»، «لم يفتح مبنى المرضى أبوابه منذ عيد الميلاد الماضي.»، «ما يزال لديهم سريرين خاليين هناك. لا أحد يستعملهما لأيّ شيء.» قاطع حديثهما صوت فرقعة إطلاق نار، رصاصة دوى صوتها في الهواء بمكانٍ ما في الشمال. صوتٌ سمعاه ملايين المرّات من قبل، صوت لا مرسى له ولا وجهة.

«أرجوكِ لا تبيتِ هناك الليلة.»

«لا بأس.»

جلس الصديقان أسفل الدّرَج وراقبا امرأة عجوز ترتُق خرقًا مربعًا في خيمتها ببعض الخيوط وقطعة من لحاف. راحت سارات تتلوّى، فسألها ماركوس: «ماذا بك؟»

«شعري يأكلني.»

«ألم تغسليه؟»

«بلى.» وراحت تهرش فروة رأسها بأظافرها إلى أنْ قلقت من أن تنزف دمًا. مع ذلك، كانت أسراب من نمل خَفِيّ تمشي خلال شعرها الملبّد. «هل لدى أبوك ماكينة لقص الشعر؟»، «نعم.»، «اذهب وأحضرها إذًا.» وثب ماركوس ناهضًا ثمّ ركض إلى خيمته. عاد بعد قليل يحمل ماكينة قصّ شعر قديمة تعمل بالكهرباء ومزوّدة بملحقاتٍ ثلاثة. ثبّتت أحد الملاحق وأدارت الماكينة

فأصدرت أزيزًا وتذبذبت في يدها. وضعتها بحذر فوق جبينها دون أن تشعر بشئ بعض الوقت. بعدها أحسَت بشدّ خفيف عند جذور شعرها وسرعان ما رأت الخصلات الخشنة تنهمر أمامها على الأرض خصلة تلو الأخرى. راحت تحرّك الماكينة ببطء، لدواعي الحيطة وإطالة الفعل أيضًا؛ فدغدغة القص راقتها. بعد قليل صارت الماكينة تنزلق بسهولة فوق رأسها، ولم يعد هناك شعر يتساقط.

«هل فوّتُ شيئًا؟» تساءلت، فهزّ ماركوس رأسه نافيًا. هنا وضعت سارات الماكينة التي ما يزال الشعر يملأ أسنانها فوق الدَرَج، وفركت فروة رأسها بيدها، ثم نهضت وهي تقول: «أنت صديق رائع.» وغادرت.

* * *

مشت صوب المباني الإداريّة وهناك جلست إلى جوار باب المشفى الخلفي وراحت تنتظر. رأت على الجانب الآخر من مفشى قريب خيامَ آلاباما الواقعة في أقصى الجنوب. من بينها خيمة تُمزّق جانبها الشرقيّ تمامًا ولم يعد صالحًا للرّتق، فاستبدلته المرأة العجوز التي تعيش هناك براية ضخمة لدولة الجنوب الحرّة. كانت ألوان الراية قد بهتت بمرور الزمن، فصارت الخطوط الحمراء ورديّة شاحبة، وكادت النجمات الثلاثة السوداء تغيب عن الأنظار.

شدّت سارات الراية. كانت قد رأتها ملايين المرات تزين الخيام وترفرف فوق الأعمدة ومحفورة فوق عملات تتآكل قيمتها يومًا تلو الآخر. لكنها لم تكن تعيرها اهتمامًا أبدًا. لطالما بدا لها أنّ الجنوب ليس إلا أرضًا واقعة تحت حكم قوّتين مختلفتين: حكومة دولة الجنوب الحرّة الرسميّة ومقرها في أطلانطا، وهذه لا يُقاتل جنودها إلا نادرًا؛ ومجموعة واسعة من جماعات المتمردين ممن لا يفعلون شيئًا إلا القتال. كانت تعرف أنّ النجمات الثلاث فوق الرّاية تمثّل الولايات المتمرّدة الثلاثة، وكانت تعرف أنّه لولا تحوّل كارولينا الجنوبيّة إلى غابة للموتى الأحياء، لكانت هناك نجمة رابعة. انتبهت حين نظرت إلى الرّاية إلى أنّ النجمات السوداء الثلاث لم تكن متماثلة قليلًا؛ إذ كانت الأطراف اليمنى أطول قليلًا من مثيلاتها. وتذكّرت أنّها سمعت ذات يوم لاجئًا يقول أنه في أطلانطا، خلال العام الأول الّذي تلا

إعلان الاستقلال، اندفعت دولة الجنوب الحرّة لابتكار راية وتلحين نشيد وطني. لكنهم أفسدوا النجمات أثناء هذا الاندفاع، وأخفقوا بشكلٍ تام في الاتفاق على نشيد وطني. وهكذا اختلق الرئيس كيرشاو في خطابه في حفل إزاحة الستار، العبارة الشهيرة عن كيف أنّ أنين أهل الجنوب المكروبين هو أغنية الجنوب الوحيدة، ولم يأت أبدًا على ذكر النجمات سيئة الرسم. تصوّرت سارات مدى سهولة إصلاح الخطأ، وإعادة رسم النجمات كما ينبغي. لكنها كانت تعرف أنه حتى التاريخ المعطوب ما يزال تاريخًا. وأنّ النجمات، غير المضبوطة، ينبغي أن تظلّ كما هي. وأنّ الخطأ الحقيقي يتمثل في إصلاحها.

غلبها النوم أثناء التفكير، وهي تجلس مائلة إلى الجدار متكوّرة كأنها حبة لوز، تتوسد ركبتيها. وحين استيقظت كانت الساعة تتجاوز منتصف الليل، والفخيم هادئًا. سارت حول مبنى المستشفى إلى أنْ بلغت صندوق نفايات ضخم أسفل نافذة صغيرة. تسلقته ووقفت قبالة النافذة. كان زجاج النافذة يتسع بالكاد لجسدها، فساورها قلق من أن تعلق أثناء محاولة التسلّق إلى الداخل حتى إن أفلحت في فتحه. كانت الأضواء العلويّة تتوهج بشدّة عبر النافذة، فرأت سارات خيالها منعسكًا على الزجاج. بدا وجهها، بشعرها الحليق، مدوّرًا وأكثر امتلاءً بطريقة أماطت اللثام عن تناسقه. ثمّة سلاسة في صيرورة الفك جمجمةً، وقد بدت الأخيرة أمام النور كأنها نصف مرآة مصقولة. تأملت سارات

وجهها فترة طويلة، وتدفقت إلى عقلها كل أشكال المنغصات: غضب أمها؛ ومضايقات الأطفال الذين شهدوا أو سمعوا الآن ما فعلته. لكنها في تلك اللحظة، وحيدة مع أفكارها، كانت تحس بخفة جديدة ومستحيلة.

كان الزجاج من البلاستيك الردئ الذي هوى حين دفعته، لكن على الجانب الآخر من حافة النافذة العريضة انتصب حاجز سميك من الخشب يقف حائلًا دون فتح النافذة. حاولت حشرَ أصابعها ورفع الزجاج تمامًا. استغرقتها المهمة فلم تنتبه إلى الظل الذي راح يتسلق الجدار، ظل على هيئة رجل صار يقف خلفها الآن. «أيًا كان ما تبحثين عنه، أشك أنك ستجدينه هنا.» وثبت سارات وزلت قدماها فكادت تهوي داخل صندوق النفايات. استدارت لترى رجلًا في حوالي الستين، يلبس حلة سوداء مخططة بخطوط بيضاء رفيعة تنتمي لفترة ما قبل الحرب. لم يكن قد سبق لها رؤيته قط. كان قصيرًا، أقصر منها بنحو نصف قدم حتى بمساعدة كعبي حذائه السميك المصقول. يضع قبعة سوداء صلبة على شاكلة قبعات لم ترها سارات من قبل إلا مرة أو مرتين، ودائمًا على رؤوس العجائز. حجبت حافتها الضوء من السقوط على وجهه.

«لست أسرق. هل ستبلغ عني؟»

«لا تقلقي. لن أبلغ عنك. ما اسمك؟»

«سارات.»

«مرحبًا سارات. اسمي ألبرت جينز.» كان صوته خافتًا هادئًا يحمل لكنة من المسيسيبي. حرفٌ صائت واسع يتملّق الحرف التالي. ذكّر سارات بمذيع *البريتشتري فاريتي أور* الذي تُحبّ أمها سماعه في ليالي الجمعة: صوتٌ حميم، ومريح. «كم عمرك يا سارات؟»

«اثنا عشر.»

«ولماذا تلبسين ثياب شخصٍ آخر؟»

باغتها السؤال على حين غرة، وتساءلت وهلة من الزمن ما إذا كان العجوز راقبها حين نزلت في مجرى الصّرف. لكنها كانت واثقة أنه لم يكن هناك. فقد خفرت الوجوه كلّها التي كانت تشاهدها في ذاكرتها الآن، ستتذكرها كلها، كل ابتسامة، كل ضحكة نصف مكبوتة، إلى الأبد.

«لقد وثبتُ داخل *اميرالدكريك*.»

«ولمَ فعلت ذلك؟»

«على سبيل التحدّ.»

ابتسم جينز. رأت سارات وهاذًا وعلامات خلّفها العمرُ وإصابةٌ ما في المنطقة بين طرفي شفتيه والهالتين الذاكنتين أسفل عينيه. «انزلي. لديّ عملٌ أعرضه عليكِ.» هبطت سارات من فوق صندوق النفايات واقتربت من الرجل. تخيّلته ممثلًا رفيعًا مِمن يوفدهم الجنوبيون الأحرار من أطلانطا بين وقتٍ وآخر لقياس الحالة المزاجيّة للّاجئين ونشر أنباء تنازلات الشماليّين الأخيرة وما تعرّضوا له من إذلال. لكن هؤلاء كانوا وحوشًا مُختلفين، كانوا يلبسون قمصانًا مهلهلة رخيصة

يثبتون بها دبابيسًا على هيئة راية الجنوب، ويتأتئون ساعات دون قول شئ مفيد. كان أولئك الرجال بالنسبة للاجئين لا يتعدّون كونهم شزرًا مضجرًا تطلقه تروش آلةٍ ما بعيدة. أخرج جينز مغلّفًا صغيرًا أصفر اللون من جيبه العلوي، وقال: «لديّ أحد المعارف أرغب في توصيل هذا المُغلّف له. اسمه ليونارد ويعيش في الصفّ التاسع، الخيمة رقم تسعة، في حي كارولينا الجنوبيّة.»

«لا بأس.»

«ألست خائفة من الذهاب إلى كارولينا الجنوبيّة؟»

«لا.»

«ألا تريدين معرفة ما أنوي دفعه؟» توقّفت سارات، فقهقه الرجل: «لا تقلقي، هذا ليس تحديًا، بل مهمّة. وستتقاضين أجرًا عنها.» ثمّ ناولها المُغلّف. «هيا إذن. لنر مدى كفاءتك.»

تناولت سارات المُغلّف الّذي كُتب فوق جانبه الخلفي اسم ليونارد بخطّ أنيق. اتجهت صوب الجنوب الشرقي، وعبرت المباني الإداريّة ثمّ واصلت نحو بوابة المُخيّم الرئيسة. كانت شأن جميع اللاجئين من الولايات الأخرى، لم تجرؤ على دخول كارولينا الجنوبيّة. كانت تسمع عنها قصصًا فحسب: عن رجالٍ أشرار قساة، آخر من ظلّوا دون مرضٍ من ولايةٍ محجور عليها صحيًا. كان حي كارولينا الجنوبيّة أوسع أحياء المُخيّم قبل سنوات، لكنه راح ينكمش عامًا تلو الآخر، مُتخليًا عن تخومه الشمالية والغربية لصالح حييَ آلاباما وجورجيا،

وذلك بسبب استمرار تدفُّق اللاجئين من هاتين الولايتين دون أن يغادر أحد ولاية كارولينا الجنوبيّة. لقد كانت الولاية بأكملها وراء أسوار مُغلقة.

مرّت سارات بمحاذاة خيام غير مُزيّنة، بقيت أغلب تمزقاتها دون إصلاح. جلس رجالٌ قلائل فوق كراسٍ بلاستيكيّة يقرأون ويلعبون الدومينو. وقد لاحظوا مرورها بجانبهم. بلغت المكان المقصود لتجد صبيين يلعبان الورق فوق شوال أرز. ربّما كانا في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، كان الّذي يوليها ظهره حليقًا أحمر الشعر، أمّا الآخر فأشقر نحيل لا يلبس إلا سروالًا قصيرًا ماركة *دابلستار*. خلفهما، وخلف الخيمة بعيدًا، توهجت أضواء الفخيَم الرئيسة البيضاء الناعمة. وخلف تلك البوابات، امتد عالم الجنوب الكبير بمدنه التي تملؤها الحفر وشواطئه التي تآكلت بفعل الملوحة وأحشاءه المتقرحة الظمآنة، ينتظر. كان عالمًا لا يوجد بالنسبة لسارات حتى الآن إلا في الخطب النارية لوغاظ الراديو، وقصائد الحرب، والمشاهد الريفيّة في دعايات دولة الجنوب الحرّة. كان شيئًا مُجرّدًا، محض فكرة، ليس إلا.

وثب الصبي الأشقر من فوق صندوق يوسفي فارغ كان يجلس عليه، حين رأى سارات تقترب. واقترب بدوره منها وقال: «ماذا تريدين؟»

«أبحث عن ليونارد. لديّ رسالة لأجله.»

«أنت لست من هنا. ارحلي.»

كان الصبي شاحبًا، كأنّه لم يقض وقتًا أبدًا تحت شمس

الجنوب. وقد امتدَ خط ورديّ من الجانب الأيسر في عنقه حتى سُرّته تقريبًا، عجزت سارات عن تحديد ما إذا كان طفحًا جلديًا أم عيبًا خلقيًا أم بقايا جلد مُحترق. كان أقصر منها بثلاث بوصات أو أربع، وأخفّ منها بثلاثين رطلًا على الأقل، أمّا عظام ردفيه فتشبه شفرات السّواطير. قالت سارات وهي تمسك بالرسالة: «سأغادر بعد أن أعطي هذه الرسالة إلى ليونارد.»، «ألا تسمعين؟ قلت لكِ: ارحلي، الآن.» وأوشك على دفعها واضعًا كفّيه في المنطقة بين كتفيها وثدييها. لكن شيئًا انفجر في داخلها حينئذٍ. أحسّت غضبًا حارقًا، كأنّ حريقًا اندلع في تجويفي عينيها. فأطلقت هديرًا مدويًا ووثبت باتجاه الصبي، وأحاطت حلقه بكفيها. تعثّر ووقع على ظهره فوق الأرض فوثبت فوقه وقد ثبّتت ذراعيه أسفل كتفيها. هوت لكمتها الأولى بقوّة فتهشّم أنف الصبي. تبعتها لكمة أخرى، وأخرى، إلى أن فقدت الشعور بيدها. كانت تطلق زفيرًا مع كل لكمة وسرعان ما تحوّلت زفراتها إلى صرخات. وأثناء ذلك كانت تلمح في عينيْ صبي كارولينا النحيل، الواسعتين اللتين غطّاهما الدّم، انعكاسها الخاطف.

نهضت بعد برهة، ما تزال أطرافها تتحرّك لكن ذراعين مبتورين أمسكا بجسدها؛ ذلك أنّ رجلًا يفوقها طولًا بحوالي سبعة أقدام قد طرحها أرضًا وسدّ بجِرمه العريض على الفور مجال رؤيتها للصبي المنسحب. حاولت الدوران حول ساقي الرجل لكنه أمسكها بقوّة،

مثبتًا كتفيها بذراعيه المبتورين. «كفى. ابق مكانك.» حاولت سارات الإفلات من قبضة الرجل لكنها فشلت. استدارت لترى وجهه. كان مُخزِيًا. دون شفتين تقريبًا وقد حلّت مكانهما قشرة سوداء من شظايا جلد رفيع. الوجنتان تملؤهما التجاعيد والتفحمات. رأت الفتحة الغائرة حيث كانت العين اليمنى ذات يوم وأحسّت نفسها كالمنوّمة لمرآها. «لِمَ هذا الشُجار؟» أبرزت سارات المُغلّف: «عليّ تسليم هذا إلى ليونارد.» أمسك الرجل المُغلّف، وثبّته بين رسغيه. «لقد أدّيت مهمتك. حسنًا؟»، «حسنًا؟» رأت الصبي يقف خلف الرجل، ما تزال الدماء تنزف من أنفه المصاب. أطلّ من عينيه خوف هائل، سوى أنّه لم يكن ينظر للفتاة، بل إلى الرجل. «أخبري جينز شيئًا لأجلي. أخبريه أنّ هناك عائلتين لا عائل لهما.» ثمّ رفع المُغلّف واستطرد: «وهذا وحده لن يكفي.» أجابت سارات وهي تستعدّ للرحيل: «حسنًا.»

«مهلًا.» قال الرجل وهو يلتفت إلى الصبي.

«هل رئيتَ جبانًا؟»

أجاب الصبي بصوت خافت آلي، وقد أخفض عينيه: «لا يا سيدي.»

«لكني أرى الآن أمام عيني جبانًا. اعتذر.»

فتقدّم الصبي وقال: «آسف.» ولم تقل سارات شيئًا.

«حسنًا. ليس عليك قبول اعتذاره، لكن كان لابد أن يعتذر.»

***

حين عادت سارات إلى المباني الإدارية وجدت جينز يجلس على مقعد بجانب المكتب الرئيس. كان مستغرقًا في قراءة كتاب ورقيّ قديم حمل غلافه خربشات من لغة تعرّفت عليها سارات لكنها لم تفهمها. كان الغلاف خاليًا من الرسوم التوضيحيّة، عدا نموذج هندسي وخطوط كأنّها سيوف منقضّة. كانت الكتابة تُشبه نسخة أكثر تفصيلًا من المخطوطة ذاتها التي سبق أن رأتها سارات آلاف المرات، بجانب حاويات طعام وماء، وحزم مساعدات، وعربات نقل تابعة للهلال الأحمر. لغة الأجانب.

«يقول لك ليونارد أنّ هذا لن يسدّ حاجة العائلتين الأخريين اللتين لا تجدان من يعيلهما.» رفع جينز عينيه عن الكتاب وابتسم. «أظنّ أنّ فروسيّة وهميّة قد أصابت ليونارد.» وأخرج ورقة نقدية من محفظته ناولها لسارات. «كما اتفقنا.» حدّقت سارات في النقود. كانت ورقة نقدية فئة عشرين دولارًا شماليًا، ورقة خضراء غير زائفة طُبع عليها صورة رئيس ما مات منذ فترة طويلة. ثمّة صورة لضريح قديم بأعمدة من الجرانيت تتلألأ الأضواء على محيطه. «هيا. خذيها. أعرف، أعرف أنّها عملة شمالية، أليس كذلك؟ حسنًا، تذكري ذلك: لا إثم في استعمال ما لهم ضدهم.» مدّت سارات يدها كي تأخذ الورقة النقدية فأمسك جينز معصمها، وأدركت أنّه كان يتأمل مفاصلها المحمزة

الدامية. «حسنًا، لا أحسب أنّ ذلك بسبب ليونارد. هل هو صبيّه؟»

«لقد دفعني.»

أخرج جينز من جيبه العلوي منديلًا حريريًا رمادي اللون ومسح الدماء العالقة بمعصميها. «فتاة رائعة.» وأفلت معصمها. تمكّنت من رؤية البثور في وجهه من هذه المسافة القريبة. كانت تضيف سنوات أخرى إلى عمره، ومع ذلك لم يبد عجوزًا ولا متعبًا مثل الرجال الّذين كانوا يعيشون داخل المُخيّم. كان نابضًا بالحياة، كأنّ مصباحًا يشتعل بالثقة يضئ عينيه الزرقاوتين. كانت جلسته مختلفة، ظهره مستقيم وثابت، يبثّ حوله هالة من سكينة تذكرها بأبيها.

قالت وهي تدسّ النقود في جيبها: «شكرًا. سأراك قريبًا، أليس كذلك؟» واستدارت لترحل. «سارات. هل تودين الانضمام إليّ لتناول عشاء متأخّر؟»

«هل لديك خيمة هنا؟ ظننتك أحد رجال دولة الجنوب الحرّة من أطلانطا.»

«لم ولن أكون. لكنني أحتفظ بمكتب لي هنا. وأظنك ستجدين فيه بعضًا من المؤن التي أحتفظ بها، وهي قليلة على أي حال، لكن ربّما كانت راحة من الرواسب الطينية التي يطعمونكم إياها في هذا المكان. تعالي.»

تبعته سارات إلى الجهة الخلفية من المبنى الإداري حيث فتح بابًا جانبيًا. لم تطأ سارات مكاتب المشرفين منذ وصلت إلى المخيم إلا عدة مرّات. كان مبنى عاديًا

مُعتمًا، جدرانه مدهونة بلون ورديّ عاجي يُشبه دهان الأظافر. ارتقيا دَرَجًا لم تره من قبل قط، وعبَرا بابًا معدنيًا إلى قبوٍ صغير. كان الرواق هُنا ضيقًا والأسمنت غير مدهون. في نهاية الرواق باب، فتحه جينز وأبقاه مفتوحًا لها.

تقدّمت سارات. كانت تفوح من الحجرة رائحة خشب الماهوجني والليمون. خلفها، كبس جينز مقبس الكهرباء. «خذي راحتك. يسعدني دائمًا استقبال الزائرين.» كانت حجرة واطئة الجدران، ضيقة لكن طويلة، فيها نافذتان بمستوى الأرض في الخارج. رأت سارات على شمالها مكتبًا من خشب الماهوجني مدهون بلون الشوكولاته الغامق، تُشبه أرجلَه الأجزاءُ السفلى من ساعة رمليّة. تراصّت فوقه كومة مرتّبة من مُغلّفات مانيلا إلى جانب قلم حبر قديم من قرن مضى، وفتّاحة رسائل ذات شفرة ذهبيّة. تدلّت سلسلة من خرائط فوق الجدار المُتاخم للمكتب؛ كانت إحداها لولايات *الماج*، وبدت أخرى كخارطة مفصّلة لخطّ تينيسي الذي يشهد أسوأ المعارك الآن. الخارطتان الثالثة والرابعة كانتا غريبتين، تغطّيهما خربشات دائريّة غير مفهومة ومسارات عريضة ملوّنة بالأحمر والأزرق والبنّي. الخارطتان الموجودتان أدنى الجدار رأتهما سارات من قبل داخل كتاب منذ زمن بعيد. كانتا للعالم كُلّه؛ واحدة منذ مائة عام، والأخرى الآن. «هل تعرفين أين أنت؟» سألها جينز وهو يقف خلفها، فأشارت دون تحديد إلى

بقعة من الأرض في الجانب الأيسر من الخارطة. «هذه جورجيا. ونحن قريبون جِدًا منها.» وأمسك كفَها بيده وحركها بضع بوصات باتجاه الشمال الغربي. «وهل تعلمين من أين تأتي سفن المساعدات؟ الأماكن التي ترسل لنا كل تلك الأغطية والطعام الّذي ينتهي به الحال إلى الكافيتريا؟»

حملقت سارات في لخارطة.

في البدء، أشار جينز نحو مساحة هائلة من اليابسة على الجانب الأيمن من الخارطة، وقال: «بعضها يأتي من الصين.» ثمّ انتقل أصبعه إلى المنتصف، إلى دولة غطّت حدودها مترامية الأطراف الثلث الشمالي من إحدى القارات إضافة إلى شبه جزيرة مستطيلة شرقها. «وبعضها الآخر يأتي من امبراطوريّة البوعزيزي.»

«ماذا تعني *امبراطوريّة*؟»

«الامبراطوريّة هي أن تصير كثيرٌ من الدويلات الصغيرة جزءًا من دولة واحدة كُبرى، سواءٌ قبِلَت بذلك أو غُصبت. هكذا كُنّا امبراطوريّة ذات يوم.» تأمّلت سارات الخارطة القديمة للعالم منذ مائة عام. كانت المنطقة التي أشار إليها جينز فوق الخارطة تزخر بالحدود العبثية، تصف بعضها دولًا بالغة الصغر تداخلت أسماؤها المطبوعة. أمّا في الخارطة الجديدة، فلم تكن المنطقة بأكملها تحمل إلا اسمًا واحدًا: بوعزيزي.

«حين كنت في مثل عمرك، قام أولئك الناس في تلك البلاد بثورة، لكنها أخفقت. بعدئذ قاموا بثورة أخرى، ثمّ

أخرى. وأخيرًا حققوا مُرادهم في المحاولة الخامسة. وبعد انتصارهم، أطلقوا على دولتهم الجديدة اسم الرّجل الّذي أشعل فتيل ذلك كلّه.» وأشار إلى مساحة زرقاء كانت تمثّل الحدود بين أطراف امبراطوريّة البوعزيزي الشماليّة وقارة أوروبا. «إنْ أتيح لك الوقوف يومًا في أي مكان على هذا السّاحل، لتقل ساحل الجزائر الجديدة، سترين قوافل من زوارق صغيرة رثّة تتجه جنوبًا من الساحل الأوروبي. زوارق تمتلئ بالمهاجرين من دول اتّحادٍ قديم سعيًا إلى حياة أفضل.» ثم استطرد: «هذا ما تعنيه *الامبراطوريّة*: نظام من الجاذبيّة، تدور فيه كل الأشياء الأضعف حول شمس تقع في مركزه.»

واصلت سارات دراسة الخارطة، وانصرف جينز كي يُحضر شيئًا من ثلّاجة قريبة. وسرعان ما اعترضت أفكارها رائحة خبز مُحمّص. «هل ذقتِ العسل من قبل؟»، «نعم. فهم يوزعونه علينا كل بضعة أشهر في الحصص التموينيّة. طعمه لذيذ حسب ظنّي.»، «هذا ليس عسلًا، بل عصيدة طوّرها العلماء داخل معمل في *بيرل ريفر*.» وضع جينز الخبزَ المُحمّص فوق طبق، والطبق فوق الطاولة. ورأته سارات ينزع غطاء جرّة زجاجيّة صغيرة استقرّ داخلها لوحان تملؤهما خلايا سداسيّة، غرقا في سائل بلون الكراميل. غرف لها بعضًا منه فوق الخُبز، وقال: «هذا يُفرزه كائن حَيّ. ما تحصلين عليه من مخلوقات الله لا يُمكنك استنساخه،

أو تقليده أبدًا. تذوّقيه.»

جلست سارات إلى الطاولة وأخذت قضمة. وعلى الفور أطلقت حلاوته الألعاب النارية فوق لسانها، فقلّبت العسل في سقف فمها وعثرت على التيارات الأهدأ أسفل السكّر: قليل من مذاق القهوة، من مذاق الدنيا، وشيء من معدن ورطوبة. استيقظت في بقعة داخل تجاويف عقلها ذكريات عن المكان الّذي وُلدت فيه: الضفاف الطينية؛ الصندوق الصفيحي الساخن؛ مصبّ المسيسيبي. أدهشها إلى أنْ طفقت تبكي بهدوء، كأنها فتاة أخرى.

قال جينز: «ننسى أحيانًا أنه ما تزال توجد أشياء جميلة في الحياة.» ثم سألها من أين هي.

«ولدتُ في سانت جيمس بلويزيانا.»

«لطالما أحببتُ لويزيانا.» أجاب جينز، مُشيرًا إلى الخارطة القديمة فوق الجدار. «هل ترغبين في رؤية ما كانت عليه بلادكِ ذات يوم؟» أومأت سارات. كانت قدر رأتها من قبل، رأت مخالب الأهوار والمستنقعات والرقعة التي تشبه حذاءً كانت عليه ذات يوم. لكن رغبت أن يُريها، وتبعته إلى الخارطة حيثُ أشار إلى البقعة التي افترشت بها لويزيانا التي تشبه ساعة رمليّة محطّمة الحافّة الشمالية من المسيسيبي. «هل ترين هذا المكان، حيث يلتقي النهر مع الخليج؟ ها هنا كانت يابسة. يابسة جميلة. وهنا، بالقرب من الساحل الشرقي الآن، كانت أجمل مدن أمريكا.» تأملت الفتاة الخارطة.

في الخارطة الجديدة المعلّقة فوق الجدار إلى جانب مثيلتها القديمة، كانت البقعة التي أشار إليها الرجل ذات لونٍ أزرق منتظم. سألته: «أين ولدت؟»

«في مكان يُدعى روما.»

«وأين هي؟»

«كانت روما الشهيرة في دولة تُدعى إيطاليا. لكن روما التي جئت منها كانت تقع في *نيويورك*.» تفحصت سارات عينيَ الرجل بحثًا عن علامات كذب، لكنها فشلت. فأدركت حينئذ أنها، باستثناء العدد المتناقص من الصحافيين الّذين يزورون المُخيم بين الحين والآخر ويبذلون جهدًا ضخمًا كي يتراءوا حياديين جغرافيًا، لم تلتق شماليًا من قبل قط. «أنت إذن شمالي.»، «لم أقل ذلك. سألتِني أين وُلدتُ فأجبتك. لو كنت سألتني عن المكان الّذي أدعوه وطني، لكنت أعطيتك إجابة أخرى مختلفة.»

«من أنت إذن؟»

جلس جينز إلى الطاولة. «حسنًا. كنتُ جنديًا في شبابي. آنئذٍ لم يكن ثمّة جنوب أو شمال، بل جيش الولايات المتحدة الأمريكيّة فقط. وقد درست الطبّ أثناء وجودي في الجيش، وعملت فترة جرّاحًا تجميليًا. هل تعرفين ما تعنيه الجراحة التجميليّة؟»

«أن تجعل الناس أجمل.»

ضحك جينز. «أظن ذلك، بطريقة ما. لقد قضيت أغلب وقتي أساعد المصابين بحروق شديدة؛ إذ تخصصتُ

في إصلاح الجلد المعطوب.»
«هل ما تزال تمارس هذا العمل؟»
«يمكنك القول أنني ما زلت أمارس الطبّ. أنا متطوّع في المستشفيات الميدانية المنتشرة على خطّ تينيسي. وقد عملت فترة بالقرب من ديارك القديمة في لويزيانا، بالقرب من حقول النفط.»
«أنت تساعد المتمرّدين.»
«بل أساعد الجنوبيين.»
«لا يشكّل هذا فارقًا بالنسبة لي. أخي على وشك الانضمام إلى *فرسان فرجينيا*. وهو يظن أن ذلك سرّه الكبير، لكنني أعرف كل ما يتعلّق بذلك.»
«إذن لأجل سلامته ينبغي ألّا تفشي سرّه للجميع، أليس كذلك؟»
«لم أخبر أحدًا بذلك. بل أنت فقط.»
ابتسم جينز. «قبل أن أمارس الطبّ، أردت التخصص في الرياضيات. كنت مهووسًا بالأرقام باللغة الضخامة، والطريقة التي يمكنك بها كشف الأسرار من خلال الأرقام. لكن أبي كان طبيبًا، وقد رغب أن أدرس الطبّ. كان يقول أنّ المهنة المستقرّة الوحيدة حقًّا هي العمل في الدم: مهنة الجرّاح؛ أو الجنديّ؛ أو الجزّار. كان يقول أنّ كافة الصناعات تزدهر وتنحدر لكن ما دام هناك إنسان حي، ستظل الحاجة للعمل بالدماء قائمة، وأظنّه كان على حقّ.»
«ماذا تفعل في بيشنس إذن؟ لقد رأيت الرّجل الّذي

يحضرونه إلى هُنا مرّة كل أسبوع لتوزيع الأقراص الطبيّة: أنت لست طبيب المُخيّم.»

«كلا. لم آت إلى هنا كي أوزّع الأقراص الطبيّة. فما جئت لأجله هُنا، وما يُمكنك أنْ تسمّيه شاغلي الأكبر عندما جئت، شيْ لا أتكلّم عنه مع أغلب الناس. لكن لأنك زُفْتِ لي يا سارات؛ ولأنك كنت شديدة الكرم معي فسلّمت تلك الرسالة نيابة عنّي؛ ولأنك شاركتني سِرّ أخيك بشأن انتمائه السياسيّ، أعتقد أنّه من العدل أنْ أشاركك بدوري سِرًّا. أليس كذلك؟»

قالت سارات بشكل غريزي: «بالطبع.»

«أنا أسافر في أرجاء دولة الجنوب. أحيانًا إلى مُخيّمات مثل هذا المُخيّم، أو بلدات تقع على الحدود حيث يرتكب الشماليون وطائراتهم مجازر شنيعة، وأفتّش عن أشخاص مميزين.»

«مميزون! كيف؟»

«حسنًا، أشخاص جسورون. لكنّ الجسارة لا تكفي. كيف أفصح عن مُرادي؟ اسمحي لي أنْ أطرح عليك سؤالًا، هل رأيتِ يومًا أشخاصًا هُنا في هذا المُخيّم آذاهم الشماليون، أشخاصٌ فقدوا أطرافهم أو أبصارهم أو فردًا من العائلة؟»

«تبًا، هكذا حال أغلب الموجودين هُنا.»

«حسنًا. ألا يغضبك أن تعرفي أنّ من فعلوا هذا بقومك قد أفلتوا بفعلتهم؟»

«أظنّ هذا.»

«ألا تتمنين لو فعلت شيئًا حيال هذا؟»

صمتت سارات.

«أعتقد أنك تفكرين الآن: ترى ماذا أفعل؟ أنا عالقة هنا داخل هذا الفخيم كأنني في سجن، ترى ماذا أستطيع أن أفعل ضد جيش كامل من رجال بالغين مدججين بالسلاح؟ ربّما لا حول لي ولا قوة على الإطلاق.»

«لم أقل ذلك.»

ضحك جينز. «بالطبع. بالطبع! وهذه أولى شكوكي يا سارات، أنك ربّما تكونين أحد هؤلاء المميزين. لذا اسمحي لي أن أصارحك عمّا أفعل. أنا أفتّش عن المميزين، الأشخاص الّذين إن سنحت لهم الفرصة والأدوات اللازمة، سيقفون ويواجهون العدوّ نيابة عن غير القادرين. أفتّش عن أشخاص لن يترددوا في القتال حتى وإن عرفوا بشكل مؤكّد أنّ هذا القتال قد يكلّفهم غاليًا، وربّما يكلفهم حياتهم. ومن ثمّ أبذل كل ما أوتيت من قوّة كي أوفّر لهم الأدوات، والفرصة.» انتظرت سارات أن يضيف المزيد، لكنه جلس هادئًا يتأملها. جاهدت تفكّر في ردّ تقنعه به أنها وعت بالضبط ما قاله، رغم أنها كانت على العكس من ذلك، ورغم أنّ كل ما نطق به تقريبًا قد أربكها. خيّم عليها الصمت، فأحمرّت خجلًا. «آه! لا تحملي همّ ذلك كلّه. سيتوافر لنا كثير من الوقت كي نتبادل الحديث في هذا الشأن لاحقًا. أمّا الآن، ما رأيك في سماع بعض الموسيقى؟»

«موافقة.»

نهض جينز ومشى نحو مجموعة من الأرفف على الجانب الآخر من الحجرة. كانت الأرفف تمتلئ بالكتب الورقيَّة القديمة، بعضها كان سميكًا جِدًا، والبعض الآخر مغلَّفًا بأغلفة جلديَّة نُقشت فوقها حروف ذهبيَّة أنيقة. وانتهزت سارات فرصة إيلائه ظهره لها والتهمت ملعقة أخرى من العسل. في قعر الرفِّ الأوسط، رأت سارات جهازًا غريبًا عريضًا صغيرًا لم تر له مثيلًا من قبل، اتصل به مكبرا صوت صغيران. مرَّر جينز أصابعه فوق مجموعة من العلب البلاستيكيَّة الصغيرة التي اصطفَّت فوق أحد الأرفف. سحب علبة منها وفتحها، في داخلها رقد قرص مدوَّر حوَّل الضوء إلى أقواس قزح. كبس زرًّا في الجهاز الغريب فانفتح جزؤه العلويّ. وضع القرص وأغلق الغطاء وكبس زرًّا آخر فتدفق أزيز خافت. سأل جينز سارات: «أما تزال أسرتك تمتلك أغراضًا قديمة؟ أغراضًا تعود لأيام ما قبل الحرب؟»، «لا. كانت لدينا بعض أغراض تعود لأجدادي في منزلنا القديم، صور فوتوغرافيَّة وساعة معصم وبعض الرسائل، لكننا تركنا أغلبها حين جئنا إلى هُنا.»، «هذا أمرٌ مُخجل، ألست معي؟ إن أول ما يحاولون انتزاعه منك هو تاريخك.» قطعت مرثيَّة وترنَّة ناعمة حديثهما، وامتلأت الغرفة بموسيقى برزت منها آلة لم تسمعها سارات من قبل إلا مرَّة أو مرَّتين. أوتار أرضيَّة خفيضة رطبة كأنها مصفاة عبر نسيج سنديان فراش الموت. استطرد جينز: «لقد كانت هذه أغنية جدتي الأثيرة. انصتي.» برز صوت

امرأة من خلف أنين الأوتار. لم يكن صوتها يُشبه أي صوت سمعته سارات مسبقًا، ممتلئ وعميق. كانت المرأة تغني بلغة لم تفهمها سارات. صاح جينز: «*Son qual stanco Pellegrino*,» لم تعن الكلمات شيئًا لسارات لكن أصداءها الصوتية التصقت بجدران عقلها. انصتت مفتونة. بعدئذ حين قال جينز أنه يودّ أن يصبح هو وهي صديقان، وأنه يودّ أن يعلّمها الموسيقى والفنّ وكثير من الأشياء الأخرى عن العالم المتنوّع الواسع وراء بوّابات بيشنس، أومأت موافقة دون تفكير، فابتسم جينز. «أعتقد أنك ستجدين لنفسك مكانًا في هذا العالم. أعتقد أنك ستصنعين لنفسك مكانًا في هذا العالم.»

مقتطف مِنْ:

تربية جنديٍ شماليٍ في الحرب والسلم:

ذكريات الجنرال جوزيف وايلاند الابن.

لم أكن قد تجاوزتُ التاسعة والعشرين من عُمري حين أغتيل الرئيس دانيال كي. آنذاك كنتُ مسؤولًا عن مطالب التعويضات في كولومبس، أعمل في قسم صغير تابع لديوان الحرب. وكانت حرب انفصال الجنوب قد اندلعت للتوّ.

لم يكن من قبيل المصادفة أنْ كانت الأيام الأولى من الحرب هي الأخرى واحدة من أبرز سنوات بناء الأمّة في التاريخ الأمريكي والتي شهدت غزارة في إصدار القوانين، لا تُنافسها في ذلك إلا السنوات التي شهدت نقل العاصمة إلى داخل البلاد بدلًا من واشنطن التي مزّقتها العواصف.

أفلحت الحكومة الفيدرالية خلال سنوات الحرب الأولى تلك في تمرير قانون الانشطار النظيف، مستأنفة مبادرات تفكيك الساحلين الشرقي والغربي، لتتخلى بذلك عن أوّل ألف ميل من نظام النقل بالحزام الشمسي، ما زاد عدد سكّان الضواحي الممتلئة أصلًا بالناس حول بيتسبرج وإنديانابوليس وليكسنجتون. الحربُ حركة، يحبّ أبي ترديد ذلك.

أيامئذ كان القسم الّذي أعمل فيه يقع على مسافة حوالي ميلين شرق المبنى التنفيذي، حيث كان أبي يعمل في مكتب يقع أسفل غرفة عمليّات الرئيس مارتن

هنلي. وكان يستدعيني بين الحين والآخر، كي نتناقش كما جرت العادة بشأن بعض دعاوى التعويض التي وافقت عليها مؤخرًا. أذكر واحدةً من تلك اللقاءات التي جرت في الأيام الأولى من الحرب.

في طريقي كي أراه ذلك اليوم، مررت بخارطة التهديدات الموجودة في رواق المبنى التنفيذي. وكان جزء من تحصينات الجنوب يرسل نبضات باللونين الأحمر والأسود ذلك الصباح في إشارة إلى وقوع هجوم. وفقًا لحسابي، كان هذا هو الهجوم الثالث خلال ثلاثة أسابيع، وقد علمت في وقت لاحق أنه كان هجومًا انتحاريًا آخر استهدف أضعف دفاعات العاصمة الخارجيّة. لم يكن أيٌ من المتمردين قد نجح يومًا في اختراق البلوسكوير نفسه، لكن الحقيقة المؤسفة تمثلت في وقوع عديد من الهجمات الجبانة على تلك الدفاعات، والتي حصدت أرواح كثيرين من الحرّاس الشجعان. وقد خسرنا أربعة حرّاس في ذلك اليوم.

حين وصلت إلى مكتب أبي، رأيته يقرأ قرار التعويض الّذي أصدرته أخيرًا، لصالح مُدّعٍ من ألاباما زعم تعرّض ممتلكاته إلى دمارٍ عَرَضي جزاء قصفها بطائرة غير موجّهة ودون طيار.

تابعته وهو يتصفّح أوراق تقريري متفحصًا تقييمي الحقائق والأسباب التي بنيث عليها قراري وقدْر التعويض. كان وجهه، كما هو دائمًا، هادئًا غير قابل للقراءة. سألني إن كان ثمّة تأمين، وأجبته بالنفي.

وتابعت أنّ ذلك الرجل خسر كل ممتلكاته واضطرّ للبحث عن مأوى في المخيمات القريبة من أطلانطا التي تشتهر بسوء إدارتها من قِبل حكومة المتمردين.

«كنتُ أتخيّل أنّ لدينا سياسة متبعة بشأن أضرار الطائرات بدون طيار غير الموجهة.»

«نعم لدينا، لكنني استثنيت هذه الحالة؛ إذ هذه هي المرّة الثانية التي يتعرّض فيها منزله للقصف.»

«قصفه البرق مرتين؟ إمّا أنه كاذب أو أنّ حظه عاثر جدًا. وفي كلتا الحالتين لا أجد ما يستدعي انتهاك السياسة المتبعة.»

كدت أردّ، لكنه توقّع الردّ واستبقني: «لا يهم المبلغ. فكل دعوى تعويض هي بيان سياسيّ؛ إذ حين تدفع تعويضًا لمطالِب زَعمَ تعرّضه لقصف طائرة غير موجهة دون طيّار، تتحمّل مسؤوليّة جريمة ارتكبها خصمك. هُم الثوّار الّذين دمّروا حقول التوجيه. هُم السبب وراء عدم امتلاكنا أي سيطرة عليها. هل رأيتهم يوزعون تعويضات على المتضررين من ضربات تلك الطائرات؟»

قلت إنّ سكن المطالبين بالتعويضات كان في منطقة ذات أهمية استراتيجيّة بالقرب من خطّ تينيسي، وإننا سنتمكّن بدفع مبلغ التعويض من تغيير أفكار بعض الجنوبيين بشأن تفهّم الحكومة الفيدراليّة للمأزق الّذي يعيشونه تحت حكم المتمردين الفاسد. فابتسم أبي.

«قُل لي. هل لديك رأي بشأن صاحب الحقّ في هذه الحرب؟»

«بالطبع.»

«وكم المبلغ الّذي يجب أن أدفعه لك كي أحملك على تبديل رأيك؟»

في النهاية قبلت منطق أبي. كنت أعرف أنه، رغم كل ما خسره من جنود في الحرب، لا يحمل ضغينة ضد الجنوبيين. لا تنسوا أنه مَن قرّر، رغم اعتراضات كثير من السياسيين الفيدراليين الشرسة، تعيين مواطنين جنوبيين لحراسة الدفاعات الشمالية الخارجية، وهي الوظيفة التي كانوا ينفّذونها بشجاعة فائقة.

الفصل السابع

تساقط مطرٌ مسائي ضعيف على مخيّم بيشنس. وكان المطر في المنزل الّذي شهد طفولة سارات يُصدر صوتًا حادًا أثناء اصطدامه بحاوية الشحن، لكن هُنا لم يكن يتجاوز التوبيخ المهموس، ششش ناعمة على الخيام الرثّة.

أصغت سارات. كانت تتمدد فوق سريرها، بينما أمّها وشقيقتها نائمتان إلى جوارها. وقد أضاء شعاع ناعم من ضوء القمر الّذي تسرّب من خلال حرف النافذة، وجه شقيقتها النائمة. كانت أمّهما قد قالت ذات مرّة إنّهما كطائرين فقستهما البيضة نفسها، لذلك تحملان العظام نفسها والدماء نفسها داخلهما. ورغم أنّ سارات كانت قد قرأت أحد كتب جينز عن علم الوراثة وصارت تعرف الآن أنّ ما حكته أمّها ليس صحيحًا على الإطلاق، لكنها ما تزال تحبّ تصديقه. كانت متى تساءلت عن سبب لون بشرة أختها الفاتح بينما لونها داكن، أو لماذا شعر أختها مسترسل ولامع في حين أن شعرها، قبل أن تحلقه، كان مزأبزًا، تقول لنفسها أنّ مثل تلك الأمور لا أهمية لها، وأنّ ما يهمّ هو العظام والدمّ.

تأملت دانا أثناء نومها. كان وجهها يُشبه رخامًا أبيض. فعلت أمرًا اعتادته منذ كانتا طفلتين صغيرتين: حبست أنفاسها وراوغتها إلى أنْ تزامنت مع أنفاس شقيقتها، وتوافق صعود صدريهما وانخفاضهما. تمددت ساكنة وراحت تتنفس متى تنفست أختها، وأصغت إلى المطر

الهامس.
في حوالي الرابعة صباحًا، تخبّط سيمون داخلًا من الباب. كان يحاول أن يتحرّك بهدوء لكنه كان ثملًا، فاصطدمت قدمه بخزانة سريره. أطلق سبابًا مكتومًا، فأضاء نور في الجزء الخلفي من الخيمة. غادرت مارتينا فراشها، شأن سارات ودانا.
قال سيمون وهو يحاول خلع حذائه: «عُدن إلى النوم، بالله عليكن.»
سألته مارتينا: «أين كنت؟ لقد غبت عن المنزل أربعة أيام.»
«وهل يشكّل غيابي فارقًا؟ هل ثمّة دفتر حضور وانصراف أجهل وجوده؟»
شمّت سارات رائحة الخمر الكريهة تفوح منه، ورأت مدى سُكره الشديد الّذي يجعل المرء يحسّ برغبة في الهرش كأنه قطعة صوف. لقد رأت رجالًا كثيرين في بيشنس في مثل هذه الحالة. تقدّمت مارتينا إلى الجزء الأمامي من الخيمة، ومدت ذراعها نحو ابنها وانتزعت القلادة التي رأتها تتدلّى حول عنقه. كانت القلادة عبارة عن مُغلّف رصاصةٍ مثقوب بالقرب من رأسها بمسمار معدني: رمزُ *فرسان فرجينيا*. ففي الجنوب، لكلّ جماعة من المتمردين رمز: أفاعٍ ملفوفة أو مثاقيب نفط تكساس أو كلمات مكتوبة بسلكٍ شائك. أمّا فرسان فرجينيا فكان رمزهم رصاصة يثقبها مسمار. كُنّ يعلمن جميعًا؛ ذلك أنّ سيمون كان يخرج طوال أشهر برفقة

المتمردين إلى خط تينيسي، متسلًلا من بيشنس وإليها عبر المداخل القريبة من الحدود الشمال شرقيّة. وطوال تلك الشهور ظل هو وأمه يتظاهران بعكس ذلك، لكن في تلك الليلة لم تعد هناك فائدة من التظاهر.

صاحت مارتينا بينما ترمق سيمون كأنه ابن امرأة أخرى: «كيف تجرؤ وتقترف ما وعدتني بألّا تفعله؟»

«وهل أبدو كمن فجّر نفسه؟ أنا لم أفعل شيئًا.»

«لقد ذهبت وانضممت إليهم. التحقت بالجماعة نفسها التي فجّرت مكتب التصاريح في باتون روج. الجماعة التي قتلت أبيك.»

كشّر سيمون وجهه عند ذكر أبيه، وانتزع القلادة من يد أمه هاتفًا: «بل أنتِ مَن قتله. قتلتِه بإلحاحك المتكرّر عليه للسفر إلى الشمال، الهجرة إلى الشمال. لقد كان سعيدًا حيث كان، سعيدًا في بيته، لكنك دفعتِه للقيام بما قام به. أنت من قتله، ولا أحد سواكِ.» صفعته على وجهه فارتجّت سارات وأختها لمرأى الصفعة وسماعها، لكن سيمون لم يتحرّك. «تُرى أيّ طفل هذا الّذي يوجّه مثل هذا الكلام القاسي لأمه؟»، «لستُ طفلًا. لقد صرت رجلًا.» دوى صوته أعلى من صوت أمه إلى درجةٍ لم تسمعها شقيقتاه من قبل، كأنّ صوته كلّما علا صار أكثر صدقًا. «أنا رجل. أنا رجل. أنا رجل.» وفتح الباب بقوّة وعاد يتخبّط خارج الخيمة. غاب. وجلست مارتينا تبكي فوق فراشه، فجلست سارات ودانا إلى جوارها دون تفكير كي تواسيانها. في تلك اللحظة كرهت سارات

أخيها الوحيد كما لم تكره أحدًا. ستحاول الأمّ وابنها خلال الأسابيع والشهور التالية التغاضي عمّا جرى تلك الليلة، سيقولان إنّ ما جرى لم يكن إلا مشاجرة عاديّة تخوضها كل عائلة، وأنهما لم يقصدا حقًّا ما قالاه. لكن سارات كانت تعرف أنهما كانا يعنيان كل حرف نطقا به.

سرعان ما عادت إلى مارتينا صرامتها القديمة واستعادت نفسها مرّة أخرى. في تلك الليلة ظلّت ساهرة حتى الصباح تحكي لابنتيها عن ذلك اليوم الّذي غادرهم فيه بنيامين شستنت إلى باتون روج ولم يعد أبدًا. روت لهما عن الليلة التي خرجت فيها كي تقابل قائد المتمردين للحديث عن مأوى لهم، والليلة التي أخرجهم فيها قصف القنابل من ديارهم.

***

استيقظت سارات وقت الظهر تقريبًا، منقوعة في عرقها جرّاء حرارة منتصف النهار، على صوت ماركوس عند الباب. ناولها كوب عصير هرّبه من مبنى الكافيتيريا القديم، متسائلًا: «هل نمت كل هذه الساعات؟»، «طوال الليل. ماذا جرى؟»، «خرجت إلى *شوكهولو* أبحث عن طعام لشيرلين وهناك رأيت جماعة من المتمردين فوق تلك الجزيرة على الجانب الآخر من البحيرة. كانوا يحملون أطنانًا من الصناديق.»، «لقد خرجوا أبكر من عادتهم. لا يُمكنهم دخول المخيّم في ضوء النهار، سيراهم الناس.»، «هذا صحيح. سمعت واحدًا منهم يقول أنهم سيعودون إلى تلك الصناديق بعد غروب

الشمس.» استغرقت سارات بعض الوقت حتى أدركت ما كان يعنيه صديقها. «إذن، أنت ترغب في الذهاب كي نرى ماذا يوجد داخل تلك الصناديق؟»

ابتسم ماركوس.

سارا إلى حافّة المُخيّم الشرقية. مرّا على خيمة ماركوس حيث جلس أبوه فوق كرسيّ حدائق مصنوع من البلاستيك يضع خرقة بلّلها العرق فوق رأسه الأصلع. كان يُراقب، عبرَ مجهر، الجنودَ الشماليين الّذين يتوارون بين الأشجار النامية وراء السياج الشمالي. وراح بين دقيقة وأخرى يُسجّل شيئًا في دفترٍ قديم، مثل مراقب طيور غارق في الملاحظة.

دخل ماركوس الخيمة وعاد يحمل حقيبة ظهر *دونالد دك*، وضع داخلها زجاجتي ماء وشطيرتي هُلام مشمش. هرول خفيفًا يتقدّم سارات بخطوة. كانت الأخيرة أطول منه بقدم كامل، وفاقمت الطريقة التي كان يمشي بها هذا التباين بين طوليهما، فقد كان يمشي محدودب الظهر قليلًا وعيناه مسلطتان على الأرض. كان يحسّ معها بمزيد من الثقة. لكن خلاف ذلك بدا أنّ الخجل والقلق يُشكلان عائقًا دائمًا أمامه. كان الأولاد في المُخيّم قد أطلقوا شائعة مفادها أنه يُضطر تحت وطأة حجمه الصّغير، إلى ارتداء ملابس بعض بنات المُخيّم المستعملة. بالنسبة لسارات، كانت هذه القسوة العابرة جزءًا عاديًا من الحياة في المُخيّم (وحتى إن كان حقيقيًا أنه يرتدي ثياب البنات الصغيرات، هل

يشكّل هذا فارقًا؟ ثمّ من يهتم بهذا الفارق؟) لكن هذه الشائعة تحديدًا كانت تصيب ماركوس بالاضطراب الشديد. لذلك تكرّرت رؤيتها له عدّة مرات يتجوّل في أنحاء المُخيّم مرتديًا بناطيل قطنيّة وقمصانًا فضفاضة جدًا بالنسبة له، القرار الّذي تسبّب بجولة استهزاء كاملة أخرى قام بها الأولاد. لكن معها تعود إليه رباطة الجأش. وكان يُفرحها الشعور الّذي يولّده معرفة ذلك، إنّها حارسته؛ وصاحبته. لكن شعورًا آخر كان يمنحه لها دون قصد منه، عزاءٌ ما. سلوان ناجم عن ضآلته؛ ذلك أنّ وداعته ومسالمته أتاحتا لها اختبار مشاعرها السّائلة حول الإعجاب والرّفقة والأولاد والتحدّي الهرمونيّ في فترة المراهقة دون خوف. لم يكن لها أصدقاء في سنّها سواه، لكنها كانت تتساءل عمّا إذا كان ما يمنحه لها ليس الغاية الوحيدة للصداقة، بل أيضًا حيزًا لاختبار انفعالات جديدة وغير مُعتادة، دون مخاطر أو تقييم.

حين بلغا *شوكهولو* تسلّقا الأشجار المتساقطة ونزلا إلى الضفّة. أشار ماركوس إلى الجزيرة الصغيرة غير المأهولة شمال *سميثبرانش*، التي يفصلهما عنها ربع ميل داخل الماء تقريبًا. «هل ترينها؟» ضيّقت سارات عينيها. وتمكّنت بصعوبة من رؤية طرف طربالٍ قائم خلف الشاطئ، لكنها أخفقت في رؤية الأشياء المخبأة. «هل قالوا إنهم لن يعودوا قبل غروب الشمس؟»، «نعم. مع ذلك، لا أعرف طريقةً نصل بها إلى هناك.» فهزّت سارات كتفيها دون اكتراث وقالت: «سنسبح.» بدا أنّ شجاعة

ماركوس قد فارقته بغتة، فرمق الماء في ذُعر. كان ثقيلًا وموحلًا، وسطحه بلون الأرض. «حسنًا. كيف كنت تظنّ إذن أننا سنعبر إلى هناك؟»، «لا أدري. تصوّرت أننا سنجلب قاربًا أو ما شابه.» ضحكت سارات. «وأيّ قارب رأيته بالقرب من هنا لا يحمل رجلًا مسلّحًا على متنه؟» وتجرّدت من ثيابها لتبقى فقط بملابسها الداخلية قبل أن تخطو نحو أطلال المرسى الصغير، الّذي كانت ألواحه الخشبية تتأرجح بشكل غير مستو داخل الماء.

«هيا. الجزيرة ليست بعيدة.»

«لكن حقيبتي ستتبلّل.»

«اتركها لي إذن.» ورفعت الحقيبة عاليًا فوق رأسها كأنها تُقدّم أضحية. خطت خطوة أخرى بعيدًا عن حافة الألواح الخشبية وخاضت الماء. خلع ماركوس هو الآخر ملابسه وبقي بثيابه الداخلية ثمّ تبعها. كان الماء دافئًا كجسدَي الطفلين، وقد أثقله التُراب والطين فلم يغد يُشبه الماء العادي بأي حال. راحا يتقدمان في بطء مثل كلبين، يجذّفان، سارات في المقدمة وماركوس يُصارع كي يتبعها. نشرَ ماركوس ذراعيه وهو يسبح، لكن بدا أنّ سارات لا تبذل مجهودًا يُذكر، ترفع حقيبة الظهر عاليًا فوق رأسها، بينما تقوم ساقاها بالعمل كلّه أسفل سطح الماء. حين وصلا أخيرًا إلى ساحل الجزيرة سقطا فوق جانب صغير من الشاطئ. تمدّد ماركوس لاهثًا كالمصلوب، وتمددت سارات إلى جواره تحسّ آلامًا بالغة في ساقيها.

ليس للجزيرة اسم. كانت صغيرة ودون فائدة تُذكر. وكانت النباتات تغطيها من الحافة إلى الحافة ذات يوم، لكن لم يبق منها الآن سوى بقايا أشجار: أغصان ميتة سمراء؛ وحشائش تصل إلى الخصر؛ وأوراق قديمة هشّة كأنها مقرمشات. بالقرب من منتصف الجزيرة كانت ما تزال بعض جذوع الأشجار عريضة وعالية، لكنها قرب السّاحل كانت أقصر وأقل خضرة. توغّل الطفلان داخل الجزيرة يتبعان آثار الأقدام فوق التراب. قادهما الأثر إلى نتوء في الأرض يتلوّى حول ساحل الجزيرة الشمالي مثل فاصلة، يتوارى خلفه -بعض الشيء- جزء من الشاطئ بعيدًا عن أنظار كلّ من يقف على الجانب الآخر من النهر. عثرا هناك على الطربال الأزرق الكبير منصوبًا فوق أغصان وألواح من خشب. كان الطربال يُغطي حوالي نصف دزينة من الصناديق الخشبيّة، أغلبها مُقفل بمسامير باستثناء صندوق واحد فوق الأرض كان غطاؤه مواربًا قليلًا. اقترب الطفلان منه بحذر، ينصتان بحثًا عن صوت قوارب تقترب. حرّرت سارات غطاء الصندوق وحملقت في محتوياته. وقف ماركوس وراءها، يوزّع تركيزه بين الصندوق والدرب الّذي يتوغّل داخل الجزيرة. «ماذا فيه؟» تناولت سارات أحد الأقراص المعدنيّة المرصوصة داخل الصندوق. بدا لها مألوفًا، لكنها فشلت في تحديد أين رأته من قبل. كان ثقيلًا ومدوّرًا، مثل طبق عشاء سميك، ملوّن بلون ظلال الأرض السمراء التي يقفان عليها نفسها. تصطفّ

على حافته علامات على مسافات متساوية من بعضها، وفي منتصفه شيء يبدو كَزرّ أسود عريض. «لا أدري.»
«ربّما يوجد شئ في الداخل. هل تستطيعين فتحه؟»
تذكّرت سارات فجأة مشهد الحرّاس الجنوبيين البائسين بأجهزتهم المعدنيّة وهم يمسحون الأرض بالقرب من سور المُخيّم الشمالي. «إنّها قنبلة.»
«ماذا؟»
«قنبلة. قنبلة يدفنونها تحت الأرض وحين يمشي أحد فوقها تنفجر فيه.» أحسّت ماركوس متجمّدًا خلفها.
«ابتعد. امش إلى هناك في هذا الدرب الترابي، وسألحق بك في غضون ثوانٍ.»
«لن أتركك وأنت تحملين قنبلة بين يديك.»
«ابتعد بالله عليك. ما المغزى من مقتلنا معًا؟»
«أفضَل من أن تلقي حتفك وحدك وأضطرّ لشرح ما جرى. لن أغادر.»
انحنت سارات تُعيد اللغم الأرضي داخل الصندوق بحذر بالغ. عينا ماركوس زائغتان فوق كتفها وقلبها يدقّ بعنف. لكن اللغم انزلق من يدها على مسافة بضع بوصات من قعر الصندوق، وسقط. تسمرت سارات تنتظر الانفجار المحتوم، لكن بعدها بثانية واحدة التفتت وأمسكت ذراع صديقها ووثبا نحو قلب الجزيرة. ركضا دون وعي عبر الأجمة خمس دقائق كاملة دون توقّف. إلى أنْ دفعهما الإنهاك والإدراك المتأخّر لعدم وقوع انفجار إلى التقاط الأنفاس.

«ماذا...» هتف ماركوس مبهور الأنفاس. لكنه أخفق في صياغة نهاية للسؤال، فاكتفى في نهاية المطاف بقول: «ماذا جرى؟ ماذا جرى؟» لكن سارات فشلت في كتم ضحكتها، وسرعان ما سقطا في نوبة ضحك هستيري على الموت الوشيك. لقد ظلا حريصين منذ وصولهما على عدم إثارة ضجة شديدة، لكن ضحكاتهما الآن كانت تفرقع عاليًا.

وجدا نفسيهما بالقرب من منتصف الجزيرة، حيث صار غطاء الأشجار أكثف والأرض أبرد تحت ظلال الأغصان. أبصرت سارات منصة مراقبة خشبية على ارتفاع عشرين قدمًا أعلى إحدى الأشجار. ودون تردد، تسلّقت الحبل السميك المتدلي من البرج. «هل من شيء هناك؟»، «لا أدري. لكن أراهن أن المرء يستطيع من هناك رؤية المُخيم بأكمله. بل أراهن أن المرء يستطيع رؤية الشماليين.» تسلّقت إلى البرج وتبعها ماركوس. اعترضت بعض الأشجار القريبة قدرتها على الرؤية قليلًا، لكن عدا ذلك لم تكن هناك عقبات أخرى. عالمان متباينان في الشمال والجنوب امتدا أمامهما.

فتحا حقيبة الظهر وأكلا شطائرهما وهما يراقبان الأفق الواسع. رأت سارات بعيدًا جهة الشمال مزيدًا من الغابات الجافّة والمرافئ المتهالكة، بل والبرزخ الفاصل بين النهر الصغير ونهر تينيسي المتدفّق. كانت قد عرفت من خرائط ألبرت جينز الكثيرة وجود نوعين من الحدود، طبيعيّة وسياسيّة. كانت اليابسة تبدو مشابهة

في الشمال لكنها كانت تعلم بوجود صدع غير مرئي في الأرض تنتهي عنده بلاد أهلها، وتبدأ منه أرض الأعداء.

جلسا صامتين، يفسحان متسعًا للسكّر الموجود في هُلام المشمش كي يعيد لهما النشاط، شيئًا فشيئًا. «هل أنت غاضبة مِني؟»

«لماذا تظن ذلك؟»

«لم أرَكِ في الفترة الأخيرة. جئت إلى خيمتك عدّة مرّات، لكنك لم تكوني هناك.»

«أعتقد أني كنت مشغولة.»

«فيم؟»

«أتعلّم. حصلت على مُعلّم جديد يزورني عدة مرّات كل أسبوع.»

«أظن أنك قلت إنهم لا يعلمونكم ما يستحق التعلّم في بيشنس.»

«هذا صحيح. لكنه ليس أحد أولئك المعلمين عديمي الجدوى مِمّن يجلبهم الهلال الأحمر. بل مُعلّم آخر يعلمني كل ما لا يُدرّسونه. ما يخافون تدريسه.»

«مثل ماذا؟» فأشارت سارات إلى الجنوب وأجابت: «مثل ما يتعلّق *بهم*. عن كل ما فعلوه *بنا* طوال سنوات. كل المرّات التي جعلوا فيها ما فيه فائدة *لهم* أولويّة قصوى تسبق ما فيه فائدة *لنا*. ستمضي إلى المدرسة *هنا* ملايين المرات لكنهم لن يجرؤوا على ذكر الشماليين. لكن ها أنا الآن أعرف ماهيتهم حقًّا.» رمق ماركوس اليابسة إلى الشمال دون اكتراث. «لقد أخبرني

أبي قبل أيام أنّ جدي لأبي كان شماليًا.»، «وهل قاتل على جبهتهم؟» هزّ ماركوس رأسه، وأجاب: «كلا. بل عمل هناك على متن قطارات النفط في مكان ما اسمه ويلستون، ومات خلال ذلك الانفجار الكبير عام 69. قال أبي إنّ الشمال لم يكن يكترث بأمر الحظر كثيرًا هو الآخر قبل ذلك الحادث، وقال إنّ الانفجار لو كان قد وقع في تكساس ما كانوا فعلوا شيئًا أيضًا، حتى لو قتل ألفًا. قال إنّ الشماليين لا يرون فائدة إلا فيما يفيدهم وحدهم، أمّا ما يضرهم فمحظور على الجميع.»

«إن كان أباك يكرههم لهذه الدرجة، لماذا يتكلّم دائمًا عن التسلّل من هنا والالتحاق بهم؟»، «رغبته في الذهاب إلى هناك لا تعني أنّه يحبهم. بل تعني أنّه مكان آمن. ترى لو سنحت لك فرصة السفر إلى مكان آمن، ألا تسافرين؟» أمعنت سارات التفكير في السؤال. بدا التماس الأمن أمرًا معقولًا. التماس مأوى من القنابل والطائرات غير المسيّرة وبؤس الحرب اليومي. لكن في مكان غائر داخل عقلها هناك فكرة بدأت بالنموّ -ربّما كان التوق إلى الأمان نوعًا آخر من العنف في حدّ ذاته- عنف الجُبن، والصمت، والإذعان. ترى ما هو الأمان، على أي حال، باستثناء سماع صوت قنبلة تسقط فوق منزل شخص آخر؟

«لا أدري.»

بدأت الشمس بالغروب فوق الطرف البعيد من مخيّم بيشنس، فنزلت سارات وماركوس من نقطة المراقبة

وعادا في الدرب الترابي نفسه إلى طرف الجزيرة. كانت ثيابهما التحتيّة قد جفّت على جسديهما، لكن النزول إلى الماء مرّة أخرى بدا لهما أمرًا لا بأس به. كانت الحقيبة فارغة، فلم تعد هناك حاجة إلى رفعها عاليًا فوق الماء. هكذا وضعتها سارات فوق ظهرها، وصارت يداها خاليتين، فسبحت بسهولة، كأنّها تنزلق. لقد تعلّمت مؤخّرًا أنّ الأرض الصلبة ليست قشرة العالم الطبيعيّة، بل حالة طفيليّة نمت إلى السطح ثم عادت وانسحبت خلال دورات استغرق كل منها ملايين السنوات. قشرة العالم الطبيعيّة كانت الماء. وكل الماء الموجود فوق الأرض يتصل بعضه ببعض. هكذا صارت تؤمن أنها لا تسبح داخل مُجزّد فرع من نهر تينيسي، بل في تلك البقعة الموحلة على ضفاف المسيسيبي. وأحسّت لبرهة قصيرة أنها عادت إلى ديارها.

* * *

بعد حلول الظلام، تناولت العشاء بمفردها داخل الخيمة ثمّ خرجت لزيارة جينز. اتفقا على طقس يتكرّر ثلاث مرّات كل أسبوع: في كل مرّة يزور فيها المُخيّم تأتي لرؤيته في مكتبه. أحيانًا كان يكلّفها بمهام تنفّذها، أو مُغلّفات محشوة بالأوراق النقديّة لتسليمها في حي كارولينا الجنوبيّة. ذلك أنّ سكّان هذا الحي قد تعوّدوا أخيرًا على مرأى الفتاة حليقة الرأس فارعة الطول وهي تعبر منطقتهم. أثناء ذلك أطلق عليها أولاد كارولينا الجنوبيّة لقب *بيداي*[6]. ورغم أنّها كانت تحمل في كلّ

مرّة تأتي فيها إلى الحي المُحاصر مبالغ تفوق ما شهدها أي لاجئ طوال حياته، إلّا أنها لم تخف قط من السرقة أو المضايقات؛ إذ كانوا يعرفون جميعًا هوية من تعمل معه.

بعد إنجاز مهامها تعود إلى مكتب جينز وتنصت إلى ما يعلمها إياه. وكان يختلف كل ليلة: يتناقشان أحيانًا حول العالم الطبيعي، ويفتحان كتابًا ورقيًا فوق الطاولة أمامهما يمتلئ بصور كافّة النباتات والحيوانات التي لم تعد تحيا في ظلّ الاحتباس الحراري. وفي معظم الأحيان، كانا يتكلمان عمّا كانت عليه الأحوال فيما مضى.

حدّثها عن ميثولوجيا آبائها القديمة: جنوب المستنقع الأسباني وسعف النخيل؛ عن أشجار الماجنوليا المغطّاة بأوراق التاريخ والأسفار الدينية المُنتحلة -أخت التاريخ غير الشقيقة- وعن السخاء الفائض والكرم النشوان؛ عن خنازير يجري طبخها مدخّنةً بالكامل كل يوم، وعن خوخ وجوز وفطيرة الليمون البلدي. كانت تبلع ريقها نهمًا، ولم تبهجها فكرة أنّ عالمًا كهذا كان موجودًا فحسب، بل أنها متصلة به وبينهما حَسَبٌ ونَسَب. أمّا ما كان حقيقةً في هذا العالم وما كان خيالًا مُبهجًا فذلك أمرٌ لم يهمها. إذ كانت تؤمن بكل كلمة. قال لها إنّ بلادها احتلّت يومًا أغلب الأرض الخصبة في العالم كلّه؛ كانت مصدر السُكّر والقطن والذرة. وكشف لها عن أوّل مرّة مزّق فيها الشمال بلادها إلى أشلاء. قال إنّ الناس

يفكّرون الآن في تلك الحرب بالطريقة نفسها التي يفكّرون بها في أغلب الحروب: مُجرّد حفنة شباب يقتلون شبابًا آخرين بناءً على أوامر من عجائز. لكنه قال إنّ النساء هُنّ اللائي يُترك لهن مهمّة ترتيب ما خلّفوه من فوضى، هُن اللائي يُعدن بناء الجنوب المُحترق وتطبيب ما بقي من أولئك الشباب. قال إنّ بعض النساء كُنّ يحاربن أيضًا ويُقتلن، متخفيات في ثياب الرّجال إن اضطررن. النساء هن اللائي يقاومن.

كان يمنحها بين الحين والآخر ما أسماه *قصائد غنائية*: نصوص مكتوبة تتعلّق بشئ ممّا ناقشاه ذلك اليوم. ثمّ تعود إلى بيتها وتقرأها من جديد، إلى أنْ تحفظ دَوْرَها في الحوار. وفي المرّة التالية التي يعود فيها إلى المُخيّم، يتلو كلّ منهما دوره بشكل طبيعي، كأنهما خاضا الحديث نفسه من قبل آلاف المرات:

ما هو المُخدّر الأوّل؟

الثروة.

وإذا انتزعت ثروتك؟

الضروريات.

وإذا هدمت بيتك، وأحرقت حقولك؟

القبول بالأمر الواقع.

وإذا جعلت التعاطف مع محنتك أمرًا محظورًا؟

العائلة.

وإذا قتلت عائلتك؟

الله.

والله...

... لم يقل كلمة منذ ألفي سنة.

فتاة صالحة.

أحيانًا كانت تفلت منها معاني القصيدة، لكنها حفظتها على أي حال. كانت واثقة أنها يومًا ما ستكتشف فجأة عن معانيها، يومًا ما سيأتي سبب للغناء، وستغني.

***

وقفت سارات إلى جانب المبنى الإدراي تنتظر وصول جينز.

كان الرجل الوحيد من بين من عرفتهم الّذي يستطيع دخول مخيم بيشنس ومغادرته متى شاء؛ إذ ما مِن لاجئ حظي يومًا بمثل تلك الميزة، فحتى مديرو المُخيم وحرّاسه كانوا يضطرون لتسجيل مواعيد دخولهم وخروجهم في كلّ مرّة يُقدمون فيها على دخول أرض الجنوب. إلا جينز الّذي يعبر البوابات في أيّ ساعة شاء نهارًا أو ليلًا، مرتاح البال ودون مشاجرات كأنّ البوابات ليست مُخصصة لتعيين حدودٍ ما لحرب شعواء، بل كمدخل إلى منزله الصيفي.

كانت تمرّ ذات يوم بالقرب من بوابة بيشنس الأماميّة حين وصل جينز. شاهدت جنودًا شبابًا على البوابة يبتسمون له ويصافحونه، مستفسرين عن صحته وصحّة أسرته. وهو بدوره كان يسألهم عن أسرهم، وعن

زوجاتهم وآبائهم وأطفالهم، وهل هم مرتاحون في شققهم السكنيّة في أطلانطا. عندئذ كان الجنود يكلمونه بخبث عن مدى قسوة تلك الأيام عليهم وعلى أسرهم، وعن أنّ دولة الجنوب الحرّة قد تأخّرت مرّة أخرى في دفع رواتبهم، لكن، على أي حال، ما جدوى التشكّي؟ يومئذٍ رأت جينز يمرّر لكلّ جنديّ مُغلّفًا صغيرًا في الخفاء. وكان الجنود، رغم ممانعتهم المصطنعة باستحالة قبولهم مثل هذا العطف، فإنهم يسارعون إلى خطف المغلفات من يده. في تلك اللحظة، رأت سارات تعبيرات الامتنان الصادق الوحيدة التي شهدتها يومًا على وجوه الجنود. ولأنّها شاهدت بعينها هذا الموقف، فلم تكن بحاجة لمن يُبيّن لها، بين الراية المدروزة فوق ثيابهم الرسميّة ومغلفات جينز المحشوة بالنقود، هوية من يدين له هؤلاء الجنود الشباب بالولاء. آنئذٍ بدا معقولًا جدًا أن يأتي جينز إلى بيشنس ويغادرها متى شاء.

رأته بعد الحادية عشرة بقليل، يصعد الطريق القادم من المعبر الجنوبي. كان في كل مرّة يأتي بمفرده، لكن هذه المرّة جاء برفقة رجل آخر، رجل لم تره من قبل قط. «سارات، أريد أن أقدمك لصديق مُقرّب لي. أعرفه منذ زمن طويل. منذ كنا في عمرك الآن تقريبًا.» مدّ الرجل الّذي يقف إلى جانب جينز يده، فصافحته. بدا في عُمر جينز نفسه، عدا بشرته الفاتحة قليلًا كبشرة أبيها، والتي كانت ناعمة وخالية تقريبًا من أي تجاعيد. «يسعدني

اللقاء بك يا سارات. كلّمني ألبرت عن خصالك الطيبة الكثيرة. اسمي جو.» ثمّة رنّة غريبة في كلامه، الفونيمات في الصدارة، تتولّد في مكان أدنى قليلًا داخل الحلق. هكذا أدركت سريعًا أنه أجنبي. تقدّم جينز وسارات وجو إلى داخل المبنى الإداري، ونزلوا الدَرَج إلى مكتبه. بدا جو، شأن جينز، كأنه من زمن آخر في حُلّته المفصّلة بدقّة وربطة عنقه الحريريّة الخضراء. وشأن جينز أيضًا، بدا أنه يتلذّذ بصلابة وقفته، ومستوى كتفيه وكبريائه واستقامة عموده الفقري.

جلست سارات وجو إلى طاولة داخل المكتب في حين راح يُعدّ جينز قهوة. أدار جهاز تسجيل وشغّل الأغنية الكلاسيكيّة القديمة التي يُحبّها، الأغنية التي سمّاها أغنية *الحاج المُتعب*. أعدّ لسارات خبزًا مُحمّصًا مدهونًا بالعسل. أحسّت ببعض الخجل أمام مرافقها الغريب، فطفقت تأكل ببطء أكثر من المُعتاد. لكنه اكتفى بالابتسام ومراقبتها كأنّه يعرفها منذ ولدت. «يقول ألبرت إنّك من لويزيانا في الأصل. هل هذا صحيح؟»

«بلى. هذا صحيح.»

«لويزيانا بقعة بالغة الروعة من العالم. لقد زرتها منذ سنوات. أهلها ذوو كبرياء كبير، كبرياء شديد.»

«وماذا عنك. من أين أنت؟» بدا أنّ السؤال أصابه بالذهول، لكن سرعان من استعاد رباط جأشه. ابتسم لجينز، وأشار صوب خارطة مُعلّقة فوق الجدار، وقال: «من امبراطوريّة البوعزيزي. هل لديك معرفة جيدة

بامبراطوريّة البوعزيزي؟» هزّت سارات رأسها نفيًا وأجابت: «ما أخبرني به جينز فقط، وهو إنّها كانت محض دول شتى وقد صارت الآن دولة واحدة.»، «هذا صحيح. كانت دولًا شتى حين كان يحكمها ملوك وجنرالات دلّلوا فئات قليلة وأذلّوا كثيرين. لذلك قمنا بثورة، وفي نهاية المطاف طردنا الملوك وطردنا الجنرالات وأقمنا جمهوريّة ديمقراطيّة.»

كان جو يبثّ حين يتكلّم حالة من الصفاء تفوق حتى ما يبثّه حديث جينز. كان أصلع الرأس عدا جانبين فضّيين يعلوان الأذنين، حليقَ الذقن باستثناء شارب كثيف يُحيط شفته العليا تمامًا. حاولت سارات أنْ تحدّد بدقّة السرّ الّذي يُضفي عليه مثل هذه الرصانة، لكنها توصّلت في النهاية إلى أنه ربّما كان مردّ ذلك كونه محض زائر، متطفّل، معزول عن العواقب المباشرة للحرب المحتدمة حوله. «ماذا تفعل *هنا* إذن، ما دمت من *هناك*؟» أومأ جو، وأجاب: «هذا سؤال جيد جدًا. أنا *هُنا* لأنّ بلادي تساند أولئك الّذين يقاتلون من أجل الحرية، أينما كانوا في العالم. وهذا ما يفعله قومك، أليس كذلك يا سارات، يقاتلون من أجل الحريّة؟»

«نعم يا سيدي.»

نهض جينز مبتعدًا عن الطاولة صوب أرفف الكُتب. اختار كتابًا ذا غلاف أخضر سميك. بدت الكتابة فوق الكعب والغلاف صعبة ومطلسمة بالنسبة لسارات؛ إذ كانت الحروف كلّها متشابكة كأنّ قممها وحلقاتها خارطة

طريق في مدينة من هلوَسات. بخلاف جو الّذي بدا أنّه يعرف الكتاب، فصاح: «ربّاه! هل احتفظت به كل تلك السنوات؟»، «بالطبع. إنّه هدية ثمينة.» والتفت إلى سارات قبل أن يُتابع: «في شبابنا، أهداني جو هديّة، مجموعة من الشّعر الفارسي القديم اسمها *كتاب الأغاني*. كتاب بالغ القِدَم، شديد الندرة، ربّما هو النسخة الوحيدة الموجودة في الجنوب والشمال.» وفتح الكتاب فوق الطاولة، وراح يُقلّب صفحاته إلى أن بلغ صورة فوتوغرافيّة مدسوسة بين الصفحات. ناول الصورة لجو أولًا الّذي أطلق صفيرًا علامة عدم التصديق حين رآها. بعدها عرضها على سارات.

«من فضلك، قولي لنا أنّك ما زلت ترين بعض التشابه.» ألقت سارات نظرة على الصورة القديمة. كانت لشابّين طويلين مهزولين، أحدهما بلا قميص، والآخر يلبس ثوبًا مموّهًا بُنيّ اللون، يقفان داخل معسكر صحراوي. حملت شارة مدروزة فوق صدر الثوب المموّه اسمًا بحروف صغيرة: جو. بدا الرجلان في أواخر سنوات المراهقة في عمر شقيق سارات نفسه تقريبًا. كانا يبتسمان ويحيط ذراع كل منهما كتف الآخر. اتكأ عاري الصدر على كعب بندقيته، أمّا الآخر فلم يكن يحمل سلاحًا. سألتهما سارات: «كم مضى على هذه الصورة؟» فأجاب جينز: «لابد كانت عام 21 أو 22. وقت أن أرسلونا هناك للمرّة الثالثة، قبل الربيع *الخامس* مباشرة.» مال جو مقتربًا من سارات، وتأمّل الصورة من جديد. «هذا

صحيح. أذكر، أذكر حين كانت ما تزال الأمور هكذا: *سلاحكم ودماؤنا!*» تخيلت سارات لوهلة أنها رأت جينز يجفل. أخذ الصورة منها وأعادها في مكانها بين صفحات كتابه، ثمّ أعاد الكتاب فوق الرفّ. وجلس إلى جانب سارات. «لقد تكلّمنا منذ أسابيع بشأن ما قد ترغبين في عمله ذات يوم، حين تكبرين، وتغادرين هذا المكان.» وأردف: «هل تذكرين؟»

«بالتأكيد.»

«حسنًا، لهذا السبب أردت أن أعرفك على صديقي جو. لأنك حين تستقرين على ما تودّين عمله لنفسك وأهلك، قد يكون في مقدور جو مساعدتك. أعرف أنك تفكرين في احتمال السفر إلى أطلانطا يومًا ما والعمل لحساب دولة الجنوب الحرّة، لكن ربّما تغيرين رأيك. حينئذٍ قد تكتشفين أنك بحاجة لبعض الأشياء التي يصعب الحصول عليها، أشياء قد أعجز أنا شخصيًا عن تأمينها لك. لكن جو يستطيع. لذا أردت أن تصبحي أنت وهو صديقان، وأريد أن تجعلي من هذه الصداقة سرًا لأنّ كثيرين قد يسعون إلى إيذائه إذا عرفوا أنه كان يساعد الجنوبيين. هل تُعين ما أقول؟» أجابته سارات بالموافقة، رغم أنها كانت تتساءل عن نوع المساعدة التي يستطيع جو توفيرها لها. «لا بأس. لن أخبر أحدًا.» وقال جو: «يسعدني لقاؤك يا سارات. آمل أن يتمكّن كل منّا من مساعدة الآخر يومًا ما.»

مكثت سارات برفقة الرجلين حتى ساعات الفجر تقريبًا،

تصغي إليهما وهما يستعيدان ذكريات الحرب القديمة التي التقيا خلالها أوّل مرّة. كان أغلب العالم الّذي تحدّثا عنه قد اندثر؛ إذ انقلبت آليّات السّلطة القديمة، لكنها وجدت متعة في سماع ما يقولانه. تكلّما عن السنوات التي أمضياها في الجزء المسمّى بشبه *الجزيرة العربيّة* في امبراطوريّة البوعزيزي، وهو المكان الّذي كانت صحراؤه ذات يوم موطن ممالك متألّقة يموّلها النفط، قبل أن تصبح الآن مكانًا غير مأهول بالسكّان بسبب شدّة الحرارة. كانت سارات تعرف من كتبها السياسيّة والجغرافيّة أنّ تلك المناطق الصحراويّة الجافّة أصبحت تغطيها الآن موجات تلو الأخرى من الألواح الشمسيّة ذات اللون الكهرماني المبهر والتي تتصيّد الطاقة المطلوبة لتغذية وتمويل الإمبراطوريّة. لكن العجوزَين أقسما أنه كان ثمّة مُدن! بل وبلاد بأكملها في تلك الأماكن! لقد عاش ملايين البشر هناك ذات يوم، قبل أن ترتفع درجة الحرارة بصورة جنونيّة وينفد النّفط. هكذا حتى حلّ الصّباح، فودّعهما جو وغادر المُخيّم، وبقي جينز وسارات وحدهما داخل المكتب.

«لا شئ أكثر سخفًا من سماع ذكريات عجوزين عن أيام شبابهما، أليس هذا صحيحًا؟ لقد تحلّيتِ بأدبٍ جَمٍ ما دفعك لمجاراتِنا.»، «لا بأس. فكلّ البالغين في هذا المكان يتكلمون طوال اليوم عن أيام كانوا فيها شبابًا. على الأقل جرت حكاياتكما في مكان ما بعيد.» قهقه جينز، وقال: «حسنًا. أحسب ذلك باعثًا لبعض الرّاحة.»

نهض ورفع الستائر ثم فتح النافذة كي يسمح لبعض الهواء بدخول الغرفة. كانت الدنيا ما تزال مظلمة في الخارج. «أنا سعيد لأنني تمكّنت من تقديمك إلى جو. فأنا أدين لهذا الرجل بالكثير.»

«هل أنقذ حياتك أو ما شابه؟ أيّام كنتما جنديّين؟»

«لا. أعني نعم، لابد أنه أنقذ حياتي مرّات عديدة. لكن هذا ليس كلّ شيء.» وجلس إلى جانبها أمام الطاولة، ثمّ أبرز من محفظته صورة قديمة مجعّدة لمتخرجين من مدرسة ثانويّة. كانت للفتاة التي في الصورة ابتسامة جينز نفسها، وعينيه العميقتين. واستطرد: «حتّى قبل وقوع كل ما جرى، كان يُمكن رؤية ما سيجري في الأفق! قبل سقوط القنابل الأولى، وقبل مذبحة شرق تكساس، كان الجميع يعرفون أنّ هذه البلاد على وشك تمزيق نفسها إلى أشلاء. أحسست بالقلق على أسرتي، داهمني قلق بشأن قدرتي على تأمين زوجتي وابنتي. لكن جو ساعدني. عثر على مكانٍ آمن لهما كي تعيشا في البوعزيزي. لقد كرهتاني لأنّني أرسلتهما بعيدًا، لكنهما في مأمن هناك، وهذا كلّ ما يهمّ. هذا ما أسداه جو لأجلي. هذه هي المنحة التي وهبني إياها.» وطوى صورة ابنته من جديد قبل أن يعيدها إلى محفظته. «أتعرفين، أودّ أن أقول إنّك تذكرينني بها، أو أنكما كنتما لتصيران صديقتين مقرّبتين. لكن الحقيقة أنه قد مضى زمن طويل منذ تحادثنا آخر مرّة. وربما لو تقابلنا الآن فلن تتعرّف عليّ. ربّما لن ترَ ساعتها

إلا عجوزًا أحمقًا، أو مجرّد رجل أجنبي.»

بدا حينئذٍ أنّه لا يوجّه حديثه إلى سارات، أو حتّى يكلّم نفسه، بل يكلّم شبحًا ما. وقد حدّق في النافذة نصف المفتوحة. آنئذ سمعا طقطقة خطوات خافتة فوق رأسيهما: مديرو المُخيّم والمتطوعون يستعدون للنّوبة الصباحيّة. «حسنًا. بعد أن أعادونا أخيرًا من العِراق وسوريا للمرّة الأخيرة، رحت أتسكّع هنا وهناك فترة قبل أن أستقر في مونتجمري. كما ترين، لقد اعتدنا في هذه البلاد استخلاص دروس حروبنا المستفادة فقط بعد أن أنهكّنا القتال، وأظنّ أنّنا قرّرنا أنّ الحرب التي خضناها لم تكن بالفكرة الجيّدة على الإطلاق. في الشمال، حين يكتشف أحد أنّني كنت جزءًا من تلك الحرب، تنتابه رغبة في بحث جدواها معي كأنّي أنا من أصدر لنفسه الأمر بالذهاب إلى هناك. لكنهم في الجنوب لا يفعلون ذلك، أو على الأقل لم يفعلها أحد معي حتّى الآن.»

«أهذا هو السبب إذن؟ لأنّهم كانوا طيبين معك *هنا*، أيّدت الجنوبيين؟»

«لا. أيّدت الجنوبيين لأنّهم حين يصارحونك عمّا يقاتلون لأجله، سواءً كانت التقاليد أو الكبرياء أو لمجرّد العناد الغبي، فبإمكانك الموافقة أو الرفض، لكن لا يمكنك الزعم أنّ ما يقولونه كذب. لكن حين يتكلّم الشماليّون عمّا يقاتلون من أجله، يستخدمون كلمات رنّانة مثل الديمقراطيّة والحريّة والمساواة، في حين يعرف كلّ منكما طوال الوقت أنّ معاني تلك الكلمات

تتغير بين يوم وآخر، مثل الطقس. لقد نلت كفايتي من كل ذلك. أحرى بك أن تحملي سلاحًا وتقاتلي لأجل شيء، ولا تبدّلي رأيك. سواء كنت على حق أو كنت على خطأ، لديك قضيتك فلا تبدّلي رأيك أبدًا، أبدًا.»

«أنت ترانا إذن لسنا على حقّ. تظنّ أنّ ما نقاتل لأجله ليس صحيحًا؟»

«كلا. وأنت؟»

«لا.»

«لكن إن كنت ترين أن ما نقاتل لأجله ليس صحيحًا. هل ترين في ذلك سببًا كافيًا كي تنقلبي ضد أهلك؟»

«لا.»

هُنا ابتسم جينز، وقال: «فتاة صالحة.»

ارتفع صوت الخطوات، وسرعان ما تناهى إلى سمعهما صوت العمال يحذدون مهام اليوم: مَنْ سيشرف على توزيع الحصص التموينيّة، ومَنْ سيرافق موظفة التطعيم في أرجاء المخيم، ومن سيضطر للتعامل مع أبناء كارولينا الجنوبية.

وقفت سارات استعدادًا للرحيل.

«مهلًا. أريد أن تحملي شيئًا معك.» وفتح أحد أدراج المكتب. وحين التفت رأته سارات يحمل مدية صغيرة قابلة للطي. فتحها، كان النصل من الصلب المعيب بعض الشئ ومصقولًا عدا عند طرفه السفلي حيث انقلب إلى نصل مسنن. خفر على مقبضها ثلاثة أحرف: ***YBR***.

«هل تعرفين كيف تستخدمين سكّينًا؟» سألها جينز،

وهو يُشير بالنصل في اتجاهها.

«الجميع يعرفون طريقة استخدام سكّين!»

«كلا. بل الجميع يعرفون طريقة الطعن.» طوى المدية وقدّم لها المقبض الجلدي البالي. قلّبتها في يدها. كانت خفيفة فجعلتها هذه الخِفّة شيئًا لا يُعتدّ؛ فدفعت أصبعها فوق حافّة النصل. «لقد صَدِئ.»، «ليس صدءًا. بل بليد. وهذا شئ يُمكن تداركه.» وأخرج حجرَ شَحْذ من أحد الأدراج. كان الحجرُ أسود اللون مستطيل الشكل. له جانب خشن وآخر ناعم. وضع جينز الحجر فوق الطاولة أمام سارات، ثمّ وجّه كفّيها إلى أنْ ضبطتا السكّين على الجانب الخشن. «المقاومة والضغط. كل ما يتطلبه الأمر هو *المقاومة والضغط.*» وضبطَ حركة يده مع يدها، فراحت السكين تحتك بالحجر، على نحو مطّرد ومنتظم. وملأ الصوت الحجرة. «متى تعرف أنها أصبحت جاهزة؟» فأجابها: «تصبح جاهزة حين تؤدّي الغرض منها.»

* * *

طلعت الشمس. ودّعت سارات مُعلّمها وشقّت طريقها إلى البيت. في الخارج، حمل نسيم صباحي ناعم دوّامات من الغبار فوق الأرض. رمقت سارات الجانب الآخر من بحر الخيام الواسع، لم تبدُ مُغايرة على الإطلاق لمثيلاتها المتناثرة في خلفية الصورة القديمة لجينز وجو. ربّما تتشابه كل الخيام أثناء الحرب. رأت لاجئين يتعاركان على مسافة بعيدة. أحدهما، وكان

رجلًا ثملًا يترنّح، سلب قنينة خمر الرّجل الآخر. تشاتما وتبادلا لكمات ضعيفة، لكن سارات لم تقف كي تشاهد. بدا لها العِراك على شئ تافهٍ كهذا أمرًا حقيرًا، وغير منطقيٍ أبدًا.

.Payday (6)

مقتطف مِنْ:

ملاحظات كاسب بن عمران رئيس اتحاد البوعزيزيّ، ألقاها في جامعة ولاية أوهايو (4 يونيو/حزيران 2081)

لقد اختبرتُ صبركم من خلال الحديث مطوّلًا في هذا النهار الدافئ. غير أنّي أرغب بتكرار هذا: إنّ حكومة اتحاد البوعزيزي لا رغبة لها في فرض إرادتها على شؤون أي أمّة أخرى. وأعتقد أنّنا جميعًا متفقون على أنّ نهاية المتاعب التي تواجهها بلادكم ستنتهي على يد أبناء هذا الوطن، لا أيّ أحدٍ آخر [تصفيق.]

لكنني أؤمن أيضًا أنّ عقلاء العالم جميعًا، بصرف النظر عن جنسهم أو عرقهم أو دينهم، يتوقون إلى الحقّ نفسه في الحريّة والديمقراطيّة وتقرير المصير. فتلك بحقّ مُثل إنسانيّة عامّة، وما نفعله اليوم من أجل النهوض بها هو المنحة الأبرز التي نترُكها لأبنائنا. الحروب زائلة، أمّا تلك المبادئ فباقية إلى الأبد.

أذكر حين جئت أوّل مرّة إلى أمريكا منذ سنوات طويلة. كنتُ طالبًا جامعيًا شابًا يدرس في هذا الحرم الجامعيّ تحديدًا. آنذاك كانت بلادي تخوض غمار ثورة دمويّة، لكن حتميّة. ثورة أسفرت عن استشهاد كثيرين لكنّها حقّقت لشعبي الحريّة التي حُرِموا منها على مدى قرنين تقريبًا.

أذكر كل ما كان يفتنني في أمريكا: جغرافيتها الثريّة رائعة التنوّع، والتي أنعمت عليها بأكثر عجائب الطبيعة

إثارة للذهول؛ وتركيبتها السكّانيّة التي لا تقلّ تنوعًا بينما يعيشون معًا في سلام بغضّ النظر عن الاختلافات السطحيّة. لقد رأيت في شعب هذه البلاد روحًا تندُرُ رؤيتها في أيّ مكان آخر، وتقديسًا طاغيًا للحريّة [تصفيق.]

أقول لكم، في الختام، أنني أرى الآن وهُنا تلك الروح نفسها. وأثق أنه مهما كان ما تواجهه أمريكا من تحديات في هذا الوقت العصيب، فإنّ شعب هذه البلاد يستطيع تخطّيها؛ فقد سبق ونجحوا مرّات عدّة في السابق [تصفيق] وسينجحون مرّة أخرى. وأقول لكم إنّ شعبي، شعب اتحاد البوعزيزي الّذي طالب حُكّامه منذ عقود بالحريّة ذاتها التي طالب بها ثوّاركم الحُكّامَ هنا ذات يوم، يقفون على أهبة الاستعداد كحلفاء لكم لتقديم يد العون بكل الطرق الممكنة. فنحن ننشد جميعًا، كافّة سكّان هذا الكوكب، السّلام، ويقيني أنّ السلام سيسود.

شكرًا لكم، وبارك الله أمريكا [تصفيق.]

الفصل الثامن

قبل المذبحة بيومٍ واحد، هبّت عاصفة عنيفة استمرّت من الفجر حتّى الغروب. وتأرجحت سحابات رماديّة بين سَيلٍ هادرٍ وقِطَع خفيفة. تساقطت الأمطار كثيفةً وفي وقت مُبكّر. وكانت قد جرفت أغلب خيام بيشنس القديمة عندما وصلت قافلةُ شاحنات الجنوبيين الأحرار محمّلة بأكياس الرّمل. اتخذ اللاجئون من المباني الإداريّة ملجأ لهم، في حين أن تيّار الأوحال وماء الصّرف المتدفّق في الخارج قد طفى على سطحه أسطولٌ بائس منكوب من ثياب وأدوات طبخ وتذكارات ثمينة. راح هذا الفيضان يصبّ في الخنادق والروافد الصغيرة وراءها ونهر تينيسي الّذي بات يهدر الآن وراء الروافد.

راحت سارات وصديقاتها يلاحقن التذكارات التي جرفها الماء، في حين راح الجنوبيون الأحرار يرصّون أكياس الرّمل بمحاذاة ضفّتي *اميرالدكريك*، ويطلقون سبابًا ويكمّمون أنوفهم عن رائحة القذارة الطافحة. جعلت الفتيات، وقد غمرهن الماء، يلتقطن أي شئ ذي قيمة وجدانيّة أو عمَليّة: إطارات صور؛ لفائف خيطٍ لصيد الأسماك؛ أعلام للدولة والمتمردين؛ ومفاتيح، وهي الشيء الأهمّ! المفاتيح- مفاتيح المنازل التي لم يعد لها وجود في بلدان صارت مهجورة منذ زمن طويل. انهمكن في العمل بصمتٍ جليل. كانت سارات قد أطلقت منذ أسابيع قليلة، تحت إلحاح ألبرت جينز، نادٍ بدائيًا

صفيرًا- نسختها الخاصة جدًا من فريق الكشافة. وقد تدبّرت ضمّ أربعة مجندين يافعين: ابنتا آل سنجلتري من آلاباما؛ وتشارلي من جورجيا والتي شفيت على اسم شقيقها الأصغر المتوفّى؛ ونادين من المسيسيبي. كانت الأخيرة قد فقدت فكّها السفليّ قبل مجيئها إلى بيشنس بشهرين، خلال قصف للطائرات بدون طيّار على *الهوليسبرينجز*. وزرعت مكانه الآن عجينة من جلد ممسوخ ورقاقة معدنيّة ثبّتت ما تبقّى من فكّها. لم تكن نادين تتكلّم، وكانت، من بين كل الأخريات، صديقة سارات الأثيرة.

حين امتلأت حقائب الفتيات، حملوا محتوياتها إلى المباني الإداريّة. وهناك، فتحت سارات بابًا جانبيًا وتقدمتهن إلى بئر السلّم حيث رواق يؤدّي إلى مكتب جينز. وضعن الأشياء المستعادة فوق مناشف مبسوطة في الرواق كي تجفّ، ثمّ عدن إلى العمل. بدأ المطر يخفّ عند مغيب الشمس، ولم يزد بعد ساعتين عن محض رذاذ. ركضت سارات إلى الخيام في أقصى الشمال وراقبت السّحب الرماديّة الخفيضة تقفل عائدة. كانت الخيام في الشمال جديدة ولم تستعمل بصفة عامّة، مع ذلك لم يلجأ إليها أحد من اللاجئين.

في الصباح التالي قالت سارات للفتيات أنْ يبدأن بحمل الحطام المُنقذ من الرواق، فنشرت مُجنداتها ما عثرن عليه إلى جانب المبنى فوق الأرض. وحين تبين موظفو المُخيّم ما قامت به الفتيات، انكبّ اللاجئون على

معرض مفقودات مُرتجل. راحوا يفرزون أشياء ظنّوها ضاعت إلى الأبد وحين عثروا عليها بكوا واحتضنوا الفتيات وسموهن *ملائكة*. وعند الظهيرة لم يبق شئ دون صاحب.

* * *

تسمّرت مارتينا شستنت في مكانها مُدّة طويلة أمام خيمتها التي لم تُفسدها العاصفة. تأمّلت الأركان حيث عانق النسيج الحامل الخشبي. لا أثر لخرقٍ واحد، ولا حتّى إشارة على أنّ عاصفة ممطرة قد مرّت من هُنا. كانت الأرض المُحيطة بالخيمة تغطيها أوحال سميكة، وقد انهارت كل خيام جيرانها أو أوشكت على الانهيار، إلا خيمة مارتينا بقيت على حالتها الأولى. ظلّت مبهورة لوهلة بأفكار عن العناية الإلهية، وبدأت تجد متعة بفكرة أنّ قوة إلهية ما قد أحاطت بيتها برحمتها. بالتأكيد لم يكن ذلك من قبيل المصادفة، لا ريب أنّها تألّمت ما يكفي لتستحق بعضًا من الشفقة. بالطبع تألم الآخرون، ذلك أنّ البعض منهم وصل المُخيم وقد فقد طرفًا من أطرافه أو كلها، أو عينًا من عينيه أو كلتاهما أو بعض نظره، والبعض الآخر لم يكن سوى هياكل جوفاء في هيئاتٍ آدمية تتنفس. لكنها تألمت أيضًا. لقد تألّمت أيضًا.

في الداخل، وجدت سارات ودانا جالستين فوق سريريهما تقرآن. كانت دانا تمسك حاسوبًا لوحيًا تعرض شاشته عددًا من مجلّة *تمبل* عن الأناقة في البحر

الأسود وأحدث صيحات الملابس الجديدة المتمزدة في أقصى شمال البوعزيزي. أمّا سارات فقد جلست مستقيمة فوق فراشها، تحمل كتابًا استعارته من جينز عن تاريخ الجنوب القديم. «كيف عدتما إلى هنا بتلك السرعة؟» سألتهما مارتينا وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة؛ ذلك أنّ الهواء في الداخل كانت تفوح منه روائح كيميائية لاذعة. «لقد قضت الليلة في الخارج تنقذ نفايات الآخرين. أمّا أنا فكنتُ هُنا.»

«ولماذا لم تجيئا إلى المبنى؟ كان من الممكن أن تجرف العاصفة الخيمة بالكامل.»

قهقهت دانا، وقالت: «هل تمزحين؟ لقد جاء سيمون وأصدقاؤه قبل يوم ورشّوا الخيمة كلها بمادة كيميائية تصد الماء عنها، وتجعلها كأنّ مطرًا لم يطلها على الإطلاق. مع ذلك كانت عاصفة صاخبة، لم أنم بسببها أغلب الوقت.» ألقت مارتينا نظرة على ابنتها الأخرى التي لم ترفع عينيها عن صفحات الكتاب، وسألتها: «هل كنت تعرفين شيئًا عن هذا؟» فهزّت سارات كتفيها نفيًا. سكتت مارتينا، وتجاوزت ابنتيها متجهة إلى غرفتها. كانت المرأة وابنتاها التوأمتان قد شغلن الخيمة كلّها بعد ولع سيمون بالحياة خارج الفخيم، ولم يكن يرجع إلا ليلة أو ليلتين كل بضعة أشهر. وجدت مارتينا فوق فراشها صندوق هدية آخر من ابنها. كان عبارة عن علبة من الكرتون حملت ذات يوم خلّاطًا، أُغلق غطاؤها بإحكام بشريط لاصق. رفعت مارتينا الصندوق. كان

ثقيلًا. ربما يزن عشرين رطلًا. حملته دون أن تفتحه عبر اللحاف الفاصل متجهة إلى حجرة ابنتيها، ووضعته إلى جانب فراش سارات. «خُذي هذا الصندوق وأعطيه لمن فقدوا خيامهم.»

«وماذا فيه؟»

«لا يهمني. أعطيه فحسب لمن يحتاجه.»

«ثمة كثيرون يحتاجونه. هل تريدين أن أوزع محتوياته في المسيسيبي أم ...»

«نفذي ما أقول فحسب يا سارات.»

«حسنًا.»

عادت مارتينا إلى حجرتها وتمددت فوق الفراش. كانت الملاءات دافئة والوسادة وثيرة أسفل عنقها. وسرعان ما سمعت الفتاتان صوت غطيطها وراء الستار. ألقت دانا نظرة على شقيقتها وهي ما تزال ممدة فوق الفراش. «هيا إذن.»، «ستغيّر رأيها حين تصحو. سترغب في استعادة الصندوق.»، «وستغضب منك إن وجدته ما يزال هُنا. افتحيه لنأخذ بعضًا مما فيه ونقول لها أننا لم نوزّع الباقي بعد. وآنئذٍ يسعد الجميع.»

أخرجت سارات من غِمْدٍ داخل جيبها المديةَ الصغيرة القابلة للطي التي أعطاها إياها جينز. كان النصل بليدًا حين حصلت عليها، لكنها جعلت تشحذها فوق الحجر الخشن ليلة تلو الأخرى. الآن، أصبح النصل خشنًا وغير مستوٍ من فرط الشحذ، لكن سارات ظنّته مشحوذًا هكذا. شقّت الغطاء وفتحت الصندوق. التقطت أول

شئ وقعت عيناها عليه في الداخل: برتقالتان ذابلتان من حقول الشمال، فألقت واحدة منهما إلى شقيقتها التي قشرتها بأظافرها ورفعت الثمرة إلى أنفها وشمّتها بعمق. «لابد أنهم رحلوا إلى مشارف فرجينيا كي يحصلوا عليها.» هزّت سارات رأسها نفيًا وقالت: «يقول سيمون إنهم كانوا يقاتلون في النواحي الجنوبية من سموكيس حيث يصطادون أفراد الميليشيات المتواجدين هناك. ولئن توغلوا شمالًا أكثر فإنهم لا ريب واقعون في أيدي الجنود الشماليين.»، «لكن هذا البرتقال لا ينمو في تينيسي؛ إذ الجو شديد الحرارة. ليس أقل من فرجينيا.»، «هم لا يقطفونها من فوق أشجارها، بل يحضرونها من مرافئ أوجستا. هناك يمكنك الحصول على كل ما تشائينه. أشياء لا يمكنك الحصول عليها حتى في أطلانطا.» تكلّفت دانا ابتسامة وقالت: «وماذا تعرفين عن كل ذلك؟ لا يُمكنك حتى تحديد مكان أوجستا فوق خارطة.»، «بل أستطيع، وما أقوله حقيقي. لا أحد يتتبع ما يوجد على متن سفن المساعدات تلك. ويُمكنك سرقة نصف القارب قبل أن يتنبه إليك أحد.»

فرزت سارات ما تبقى داخل الصندوق. ألقت علبة جوز صغيرة إلى شقيقتها، واحتفظت لنفسها بعلبة هلام مشمش. نحت جانبًا أنبوبة صمغ ممتاز ولفّة خيط متين وبعض لوزام الحياكة كي توزّعها على لاجئين آخرين، وتركت ما تبقى لأمها. هُنا أشارت دانا إلى علبة صغيرة

لمسكّن آلام، وقالت: «أنتِ. أعطني بعضًا من ذلك. ماما ليست في حاجة له.»، «لا أحد يحتاج له. فهذا المسكّن لآلام العظام المكسورة. تُرى ماذا أصابك ويجعلك تحتاجين له؟»، «أحسّ بالضجر.» قالت دانا وهي ترفع قدمها في الهواء وتحرّك أصابعها قبالة السقف. «لديّ عظام كسرها الضجر.»

تأمّلت سارات أختها الممدّدة فوق الفراش. بدت أصغر قليلًا. بقدر ما تسعفها ذاكرتها، كان يراود سارات شعور بأنّ شقيقتها تفوقها نضجًا، وأنّ لديها وعيًا فطريًا بما يعنيه أن يكون المرء بالغًا. لكن خلال الشهور الأخيرة، فارقها هذا الشعور وحل محلّه شعورٌ نقيض. إذ بدت لها دانا الآن بغتة صبيّة ساذجة، والأشياء التي تشدّها لا تقل سذاجة وابتذالًا.

أعادت سارات مُسكّن الألم إلى الصندوق ثمّ سحبته إلى أسفل فراشها. عادت إلى الكتاب، والتقطت دانا برتقالتها متلذّذة بكل فصّ فيها وصنعت من قشرتها الطويلة شاربًا فوق شفتها العليا. كانت تغمغم بالسطور الأولى من أغنية ريفيّة شهيرة اسمها: *جولياز رايت*. حققت الصيف الماضي رواجًا كبيرًا في كلّ أرجاء *الماج* لكنها تعرّضت للمصادرة في كل الأماكن شمال خطّ تينيسي. كانت الأغنية لنجمٍ ريفيٍّ شهير اسمه *شيرلين سي*، الّذي أطلقت سارات اسمه على سلحفاتها الأليفة. التفتت دانا مرّة أخرى إلى شقيقتها وقالت: «إذن متى سنخبر ماما؟»

«نخبر ماما بماذا؟»

«تعرفين ما أعنيه. عن رحيلنا أنا وأنت. عن أطلانطا.» تنهدت سارات. لمّا كاشفت شقيقتها أول مرّة بطموحها السفر ذات يوم إلى العاصمة الجنوبية والعمل لدى حكومة دولة الجنوب الحرّة، قابلت دانا الفكرة بالضحك. يومئذ قالت لها، ما فائدة فتاة لاجئة من لويزيانا بالنسبة لهم هناك؟ هل سترشحين نفسك للرئاسة؟ لكن مع مرور الشهور وتواصل اكتظاظ المُخيم بما يفوق طاقته باللاجئين، وتعرّض قاطنيه بشكل يومي لإهانات شتى جديدة، بدأت فكرة الانتقال إلى المدينة تبدو مغرية أكثر فأكثر لدانا، بل بدأت بالتباهي بها أمام أصدقائها، إلى أن ندمت سارات لأنّها كاشفتها يومًا بأي شئ يتعلّق بأطلانطا. «لن نترك أمّنا هنا ونرحل. من سيرعاها؟» أشارت دانا إلى الصندوق أسفل فراش سارات وقالت: «سيمون يعتني بها بشكل جيد.»، «سيمون لا يقضي هنا في هذه الخيمة إلا ليلة واحدة كل شهر. تعرفين ذلك.»، «وماذا بعد؟ هل سنقضي ما تبقّى لنا من حياتنا في هذا المكان؟ ننتظر عاصفة أخرى تهبّ وتقتلع المكان كلّه من جذوره، أم ننتظر مجيء الطائرات دون طيار كي تقصفنا وتحيل المُخيم إلى جحيم؟ كنت أتصوّر أنك تخططين للعمل مع الحكومة كي تكشفي للعالم ما يرتكبه الشماليون في حقّنا. كل تلك الفظائع. ما فتئتِ تتكلمين عن أحلامك لتغيير العالم، لكنك لن تحققي هذا التغيير وأنت داخل

بيشنس.»

«سنرحل يا دانا. أعدك. لكن علينا التفكير في أهلنا أيضًا.»

أبدت دانا تذمرها وصاحت: «أهلنا؟ داخل هذا المخيم، هل تمزحين؟ ألا ترين أنه لولا أنهم يعرفون جميعًا أمر انضمام سيمون للمتمردين، وأنك الآن حيوانُ ألبرت جينز الأليف، لكانوا جاءوا إلى هنا وسرقوا كل ما نملك؟ ليس كل مَن في المخيم هنا أهلنا، بل بشر نشاركهم الظرف نفسه، وهو أننا على الجانب الخاسر من هذه الحرب.»

«لسنا خاسرين. ولستُ حيوان جينز الأليف.»

«رويدك يا فتاة. أنت تقضين كل ليلة معه. وأنت تعرفين تمامًا كما أعرف أنا أنه مبعوث الجماعات المتمردة والذي يأتي لأماكن كهذه كي يفتش عن حمقى يقبلون لف أنفسهم داخل ثوب الفلاح وتفجيرها خارج نقطة تفتيش شمالية ما. ولن يمرّ وقت طويل قبل أن يسعى لجعلك تلبسين ثوب فلاحة أنتِ الأخرى.»

«بل هو معلم. لا شئ أكثر.» ونهضت. أخذت حقيبة الساعي من فوق مشجب مثبت إلى الجدار وعلقتها فوق كتفها. «سأخرج بحثًا عن سيمون بجانب النهر. الشمس توشك على الغروب، ولابد أنهم قريبون. لا تخبري ماما شيئًا عن أطلانطا، وإياك أن تتناولي شيئًا من تلك الأقراص الطبية.»

* * *

فاحت في الهواء رائحة عفونة. كانت آثار العاصفة ماثلة في كل مكان، وعلامات التعافي أيضًا. إذ انطلق اللاجئون الذين لا ملجأ آخر لهم يلتفون حول الخيام التي أتلفتها العاصفة كأنهم أجسام مضادة تقاوم عدوى. مرّت سارات في طريقها إلى الطرف الشمالي الشرقي من آلاباما بما لا يُحصى من حبال غسيل وملاءات وأعلام وأغطية، كلّها تجفّ في الريح إلى جانب أجهزة راديو وهواتف مرصوصة داخل أكياس أرز كأنها بذور. تلبدت السماء بلون أرجواني. مساء جاف دافئ آخر يحل على الولايات المتمردة. بدأت بِرَكُ الوحل تجفّ. سارت بين الخيام الشمالية حيث رأت علامات الأضرار، لكن لا علامات على الحياة. مرّت بالخيمة التي تحتفظ فيها بسلحفاتها الأليفة ووعدت نفسها بالاطمئنان عليها لاحقًا.

حين اقتربت من أطلال الطريق السريع رقم 25، أبصرت رجلًا برفقة صبي. تقوس ظهراهما تحت وطأة حقائب ثقيلة كانا يحملانها متجهين إلى الشمال صوب الجسر المحطّم والمعبر المفضي إلى دولة الشمال. تحققت منهما واكتشفت أنهما ماركوس اكسوم وأبوه. كانا يحملان حقائب متخمة فوق ظهريهما وأكياس بقالة في أيديهما. وكان الأب يضع منظار مراقبة طيور حول عنقه. راقبتهما سارات برهة وهما يقتربان من المكان الّذي يمرّ فيه الطريق مُنخفضًا فوق النهر.

قبل الحرب، كان الطريق يمتد مباشرة إلى تينيسي. لكن

الآن لا ترى الأعين فوق سطح الماء إلا حاجزين إسمنتيين هزيلين كانا يُعيِنان ذات يوم حافتي الطريق السريع. لاحا كأنهما حبلين حجريين مشدودين فوق السّطح، في حين أشارت الأسلاك الشائكة وأبراج القناصة المموّهة بلون الأشجار بداية دولة الشمال على مسافة بعيدة، وراء سلسلة من يافطات حمراء كبيرة تحذّر من المرور. اقتربت سارات من ماركوس وأبيه. حين أبصرها الأخير التفت على عجل كي يتأكّد إن كان ثمّة من يراقبهما أيضًا، ولمّا اطمأنّ ألّا أحد سواها، أشار إليها أن ترحل.

«ماذا تفعلان؟»

«ما نفعله ليس من شأنك. ابتعدي الآن، لا صلة لك بنا.»

«لا بأس يا أبي.» قال ماركوس وهو يضع أكياس البقالة على الأرض. «اسمح لي أن أودّعها فحسب.»

«لا وقت لدينا. سيعودون إلى المعابر سريعًا.»

«دقيقة واحدة. أعدك.»

أنزل ماركوس حقيبة الظهر عن كتفيه. كان قد كبر قليلًا خلال العام الفائت، مع ذلك لم يكن يصل إلا إلى مستوى صدر سارات. وضع يده فوق ذراعها، وقال: «نحن راحلان يا سارات. سنذهب إلى الشمال الليلة. ولن نعود.»

«هل جننت؟ ما إن تقتربا من تلك البوابة، حتى يردياكما قتيلين.»

هزّ ماركوس رأسه، وتابع: «كان أبي يراقبهم. لم يكن

هناك حارس واحد على المعبر خلال اليومين الماضيين. كما لم يوجد أي حارس شمالي في أيِّ نقطة على طول السور. لا أدري أين رحلوا، لكنهم رحلوا.» ألقت سارات نظرة على البوابة البعيدة. بدت الأبراج المغطاة بأوراق الأشجار والمنعطفات القديمة على حالها كما كانت دائمًا. واستطرد والد ماركوس: «سيحدث شئ ما. إنهم يستعدون لاجتياح السور. يستعدون للعبور أخيرًا إلى *هنا*.»

«لطالما تكرر هذا الكلام.»

«لأنهم كانوا يستعدون طوال السنين الماضية.»

التفتت سارات إلى ماركوس، وقالت: «وكنت سترحل سِرًا هكذا؟ دون أنْ تودعني حتى؟»

«عرفت أنك كنت مشغولة بما تفعلينه. لم نتكلم كثيرًا حقًا خلال الفترة الأخيرة. لم أشأ مضايقتك.»

«لكنك صديقي الأثير.»

أفلت ماركوس من نظراتها المحدِّقة، وأخفض عينيه نحو الأرض. هُنا هتف والد ماركوس: «احمل حقائبك. لا وقت لدينا نهدره بالوقوف هنا.» راقبته يحمل أمتعته. إحدى حقيبتي البقالة كانت مثقلة بالحصص التموينية وأوعية حِفظ الماء وبعض ثياب داخلية، أمّا الكيس الآخر فحمل مصباحًا أماميًا وموقد تخييم صغير. سألها ماركوس: «ستعتنين بشيرلين، أليس كذلك؟» أومأت سارات مؤكّدة. فتابع والده: «لا تخبري أحدًا. سيعودون ويقتلوننا إذا شرع الجميع بالسعي إلى عبور الأسوار.»

راقبت الرجل وابنه يجتازان الحاجز الحجري إلى البلاد الممنوعة. امتد الطريق بضع بوصات فوق سطح الماء قبل أن يضيق لقدمٍ أو يزيد قليلًا. مشيا بحذر، يرفعان ذراعيهما بين فينة وأخرى عن جانبيهما في مسعى لحفظ الاتزان. انتظرت أثناء مراقبتهما يعبران اليافطات المحذِّرة بروز بنادق القنّاصة، وسقوط الرجل وابنه جثتين هامدتين في قلب النهر. لكن شيئًا لم يحدث.

سرعان ما عبرا المنعطفات وغابا داخل الأجمة. تسمّرت سارات مدّة طويلة بعد أن غابا، تراقب الأرض الساكنة على الجانب الآخر من النهر. حاولت أنْ تتخيّل الجهة التي سيقصدها صديقها وأبيه. ربّما وراء سلسلة التلال القصيرة السمراء حيث تتمدد بلدات صاخبة تتألق بأضواء الكهرباء. أو إلى طوابير المزارع الفوّاحة العامرة بأشجار البرتقال واليوسفي وثمار الشمال المدهشة التي لم تسمع بها من قبل قط. قد يعثر الحاجّان على ملاذ يعملان فيه معًا، مزرعة مثلًا، وقد تُفشي لكنتهما ولونهما الّذي سفعته الشمس سرّهما فيسقطان صريعين على معابر أول مدينة.

وهي تتخيّل تلك الاحتمالات، طرأت لها أفكار أخرى: عن الفرار، وعن الخيانة. لكن تُرى أليس ما فعله الرجل وابنه خيانة، عدا جُرم اليأس الكالح. كان ألبرت جينز قد كشف لها تاريخ معاملة الشماليين السيئة لأهلها، فكبُرت على بغض الأمّة العدوّة وراء خطّ تينيسي. لكن في هذه اللحظة تحديدًا، وهي تراقب أقرب أصدقائها يغيب في

تلك الأرض الغريبة، لم تتمنَ له إلا السلامة هناك. أن يعيش، أن يعيش فقط.

* * *

بعد تواري ماركوس وأبيه خلف الأشجار البعيدة، تابعت سارات سيرها شرقًا في اتجاه *شوكهولو*. كان المتمردون يقبعون على حافة النهر. سمعتهم قبل أن تراهم. يثرثرون بالغناء والضحك والحديث الصاخب. كان الصمت يُخيِّم عليهم عادة أثناء عبور النهر ليلًا، لكنهم لم يبذلوا جهدًا هذا المساء لإخفاء حضورهم. كانوا عشيرة سيمون، *فرسان فرجينيا*. لكن في الواقع لم يكن يميزهم شئ عن *المسيسيبي سوفرينز* أو *النيوزويفز* أو أي جماعة متمرِّدة أخرى. ليسوا إلا صبيانًا يلهون بالأسلحة، ينتشرون على الحدود، ويخوضون معارك متفرقة مع الشماليين.

وجدتهم، وكانوا حوالي عشرة أفراد، في منطقة سهلية تبعد عن الطريق السريع المعطوب حوالي بضع مئات من الأقدام. كانوا على متن ثلاثة قوارب بحريَّة صغيرة ومركب أوسع يعمل بالوقود الأحفوري، كانت جميعها ترسو الآن على الساحل الرملي، تتوارى عن العيون قليلًا بين أشجار الصمغ الحلو. وإلى جانب القوارب راح الرجال يفرغون حمولاتهم من الصناديق المغلقة بالمسامير. صاح فارسٌ نصف ثمل اسمه إيلي، في حوالي التاسعة عشرة من عمره، جاء إلى المُخيم منذ أربع سنوات: «مرحى يا سارات!» وتابع: «مرحى يا

سيمون. أختك هنا.»

صاح به سيمون مستلقيًا فوق الرمال، موليًا ظهره للقارب المدهون باللون الأسود، وقدماهُ في ماء النهر: «أخفض صوتك. لن تُحبّ أن يسمعوك تصيح في تينيسي!» كان إيلي جاثمًا إلى جوار نار، يشوي في لهبها شرائح سميكة من لحم على صينية طَهي تمتلئ بالفحم. كانت ألسنة اللهب تتراقص أسفلها جرّاء الدّهن والدّم السائلين من اللحم، يطقطان ويتفجّران. سألته سارات: «من أين أتيت بهذا اللحم؟» أجابها إيلي، راسمًا ابتسامة عريضة على وجهه: «جنرال منهم كان سخيًا فأعطانا إياه.» كان قد خسر سنًا قاطعًا علويًا. لم يغسل شعره الّذي تلبّد فوق جبينه في موجة متلاصقة. وشأن الآخرين، كان قد أمضى أيامًا دون أن يغتسل لكن رائحته الكريهة ذلك المساء ضاعفتها عذوبة النار الدافئة ورائحة الشواء المسكرة. «هل تعرفين أنّ هؤلاء الخنازير *هناك* يأكلون مثل هذا اللحم كل ليلة. أخبريني يا فتاة، متى أكلت آخر مرّة شريحة لحم مثل هذه؟»

«ربّما كانت في لويزيانا. لم آكل لحمًا *هنا* قط.»

«أولئك الخنازير يأكلون اللحم كل ليلة.» ومال يقطع شريحة من اللحم المشوي. كانت سميكة بسبب الدهن فتمزقت بسهولة تحت نصل سكينه الطويلة. ناولها سارات التي جعلت تمضغها ببطء، مستمتعة بدفئها وتعاطيها معها أسفل أسنانها مضغًا ومقاومة. كانت رائحة دخان الخشب قويّة في السّطح الخارجي

المتفحّم، لكن اللحم تحته كان ورديّ اللون وليّنًا.
فكّرت سارات، ترى كيف يُمكن لأي شخص أنْ يأكل لحمًا كهذا كل يوم دون أن يموت من الخجل، في حين لا تفصله غير أميال قليلة عمّن يقتاتون على أقل القليل؟
«ينبغي أن تحذر. فلو أنّ تلك الرائحة وصلتهم في المخيّم، فسيجيئون إلى هنا راكضين.» أشار إيلي إلى الصناديق المرصوصة على الضفة، وقال: «أوه. لدينا ما يكفيهم جميعًا. لا نستطيع الذهاب إليهم وتوزيع اللحم كأننا في عيد الميلاد، لكن سنجد طريقة لتوصيله إليهم. يعلم الله أنهم يستحقونه.» وغرز سكينه في شرائح اللحم ثم قلبها. هسهست النار وتصاعدت ألسنتها. مال مقتربًا من سارات إلى جوار اللهب، وسألها: «هل ما يزال هؤلاء الأولاد الذين بعثت بهم دولة الجنوب إلى هنا بعد العاصفة موجودين؟»
«لا. غادروا بعد توقف المطر مباشرة.»
«رائع. عازٌ علينا إن تذوّقوا شيئًا من هذا. ليعودوا إلى أطلانطا، فهناك يطعمونهم ما يكفي.»
سألته سارات: «إذن، هل سرقتموه أم ماذا؟» غادرت الابتسامة شفتي إيلي برهة. كان صبيًا هزيلًا -وكلّ المتمردين كانوا إمّا هزيلين أو مفتولي العضلات، ما من وسط- وقد ألقى وهج النار البرتقالي ظلالًا داكنة على التجويفات أسفل فكّه. «لم نسرق شيئًا. بل قاتلناهم لأجله وربحناه. لقد شهدتِ كثيرًا من عروضهم، وقرأتِ أكثر عن أخبارهم. يجعلونك تعتقدين أنهم لا يُغلبون.

حسنًا، بل يُمكن هزيمتهم. دعك من دبّاباتهم وطائراتهم وكل تلك الدمى التي يختبئون وراءها كالجبناء، اجعليها حربًا وجهًا لوجه، وسنربحها.»

«هوّن عليك. لم أقصد سوءًا بما قلت.»

عادت ابتسامة إيلي، واستطرد: «أعرف يا فتاة. تبًا، سمعت أنك تتلقين العلم من جينز الآن.» وضحك. «وأنه يحبك. يُقال أنك تمتلكين قلبًا جسورًا ليس لدى رجال كثيرين هنا.» والتقط سكينه الطويل وقطع شريحة بالعرض، قائلًا: «هاك نصف نصيبي.» شكرته سارات واتجهت إلى حيث جلس شقيقها على جانب النهر. هناك، جلس متمردون فوق جذع شجرة مقطوع، يعزفون على قيثارة ويرددون أغنية شعبية قديمة انتعش مجدها مؤخرًا على يد نجم أغان شعبية بالغ الشهرة في أطلانطا. كان النجم الشهير قد غنى كلمات جديدة على موسيقى قديمة، فراحت الكلمات تتآكل على ألسنة الأولاد الذين أسكرتهم الخمر، فطفقوا يسخرون من سخافة عزفهم. كانت أصابع العازف غير المتساوقة راحت تعزف على أربع أوتار خزة وحسب، مُضمنًا نصفها:

انتزعت ماما هذه الراية مِني

فلم تعد هذه بلادي...

جلست سارات إلى جانب شقيقها فوق الرمال، فصاح مرحّبًا. كان يرسم ابتسامة بلهاء فوق وجهه، وإلى جواره قنينة خمر نصف فارغة. كانت رائحة الخمر

الكريهة تغطي الشاطئ: رائحة فاكهة تُركت لتتعفن وخبز قديم وماء من النهر وكل ما وقعت أيدي الأولاد عليه يصلح للإضافة إلى العصير القاتم: بدءًا من مُضادات التجعد، مرورًا بزيت التربنتين وحتى مسكّنات الألم الطبيعية. سألته: «سمعت أنكم تحتفلون بشئ ما.»

«يمكنك قول ذلك.»

«لا أريد إفساد الحفل. لكن ماما غاضبة منك.»

«وماذا يجعلها غاضبة مني؟ ألم تترك الأشياء التي رششناها على خيمتها الأثر المرجوّ؟»

«بلى فعلت. لكنها تعتقد أنّ عليك وضعها على خيام الآخرين أيضًا. تظن أنّ كل جيرانها يسخرون منها لأنّ خيامهم انهارت إلا خيمتها التي تبدو كالجديدة.» قهقه سيمون وبصق. «هل تظن أنّ لدينا ما يكفي من الوقت كي نرش خيام الجميع؟ على أي حال، أخبريها أننا قادمون غدًا كي نساعدهم جميعًا في إصلاح الخيام. لم نستطع المجيء أثناء وجود جنود دولة الجنوب الحرّة، وإلا كنّا سنضطر لتعريفهم بحجمهم الحقيقي. ولكان ساعتئذ يومًا مشهودًا للمراسلين الشماليين ليقولو فيه: انظروا كيف يتقاتل الجنوبيون فيما بينهم.» ثم سكب ملء كوب من الشراب المُسكر الموجود في زجاجته وقدّمه إلى سارات، فمدّت يدها لكنه أفرغه في جوفه وابتسم. «طريف جدًا. سيصيبك هذا الشراب بالعمى على أي حال.»

«لو أنّ فيه نفعًا ما، فإنه سيعميني!»

دس كعبيه في الرمال مراقبًا الأولاد يغنون فوق الجذع القريب. لقد كبر خلال السنة الأخيرة، ليس طولًا -فما تزال تفوقه بثلاث بوصات- بل عرضًا. كان ينفق الوقت هو وبعض أعضاء الجماعة في معسكرات المتمردين المتنتشرة على ضفاف نهر تينيسي، في كَبس علب الحليب المليئة بالرّمل، فصارت تكسوه العضلات كتلال متعرّجة. كانت سارات تحسد مرونة أجساد الأولاد، والسهولة التي يمكنهم بها تشكيل أبدانهم، وهم بعد يافعون، كأبدان البالغين من أفراد الكشافة. لم تُلقِ بالًا طوال حياتها بما يدور في عقول الصبيان؛ إذ لم تتخيله يتعدى مروحة واهية تدور في اتجاه الأمور الواضحة. لكنها كانت تتوق إلى امتلاك مثل هذا الجسد المتوقّع الطيّع- جسد يمكن زيادة حجمه وقوّته دون أن يثير دهشة أحد.

راح الأولاد يرددون الأغاني ثملين في وهج النار الكهرمانيّ، فالتفت سيمون إلى أخته وقال: «لقد قتلنا واحدًا منهم بالأمس يا سارات. قتلنا صيدًا ثمينًا.»

«من؟»

«رجل يُدعى بيرسون. جنرال. قائد نصف القوات المتمركزة على خطّ تينيسي.»

«ربّاه. كيف؟»

«كنا نسير في الغابة متجهين نحو الشرق، إلى جوار *تشاتانوجا*. أمضينا هناك أيامًا. نُخيم على جانب الطريق الّذي كان الشماليون يستخدمونه في نقل الإمدادات من

البيجفروج وإليها. هناك نصب إيلي فخًا، لغمًا ضخمًا في مكان عميق في جوف الأرض، ولغمًا آخر أصغر فوقه مباشرة. الألغام الكبيرة لا تنفجر تحت ثقل رجل واحد بخلاف الألغام الصغيرة. لذلك يتعين وضعها هكذا، لغم صغير فوق لغم كبير. ثم وضعنا جذع شجرة بعرض الطريق وانتظرنا. انتظرنا ثلاثة أيام إلى أن جاءت أخيرًا هذه القافلة تتقدم من الفخ. عادة يمشون أربعة في كل مجموعة، لكنهم هذه المرة اكتفوا بمدرَّعتين خفيفتين في كل صفّ. اعتقدنا أنهم مجرد جنود منخفضي الرُّتب يدورون حول القاعدة الأمامية *بالهافواي برانش*. لكنهم حين خرجوا لإلقاء نظرة على الشجرة التي تعترض الطريق، إذا بإيلي يصيح وهو ينظر عبر المنظار المقرِّب: 'واحد منهم يحمل نجومًا فوق كتفه!' هكذا راقبناه يتقدمُ جنوده، كأنه يقدّم استعراضًا عن القيادة، فخطا فوقه. انفجر اللغم الصغير وتبعه اللغم الكبير فحصدهم جميعًا إلا اثنين. نزلنا مسرعين فور انتهاء الانفجار، ولم نجد في تلك المدرعات الخفيفة إلا صناديق الإمدادات هذه. كثيرٌ منها، حتى أننا عجزنا عن نقلها كلها.» وأشار إلى السماء مستطردًا: «أقول لك: كان الله ينظر إلينا يا سارات. كان يغمرنا برعايته. أعرف ذلك.»

«لكن يا سيمون لا يمكنكم التواجد في العراء هكذا كي تحتفلوا. عليكم الاختباء؛ سيلاحقونكم لا محالة.» ضحك سيمون. «يلاحقوا من؟ إنهم لا يعرفوننا. كل ما

يعرفونه هو كيف يشيدون جدرانًا ويرسلون طائرات دون طيّار كي يرتكبوا بها فعالهم القذرة.»

«وهل ستحتفظ بكل هذه الصناديق داخل المُخيّم؟»

«أغلبها طعام. سنحتفظ ببعضها داخل الخيام الخالية في الشمال، وسنوزع أكثرها. يستحق الناس أن يأكلوا.»

«سيعرفون. سينتشر الخبر. لن يأكل المُخيّم كله لحمًا دون أن يسمع الجميع بما جرى.»

«ستجري الأمور على ما يُرام.» وأحاط شقيقته بذراعه وقرّبها منه. ارتاح رأسها الحليق الناعم فوق ذراعه، فاستطرد: «يا إلهي. متى صرت شديدة القلق هكذا يا سيدتي؟ ماذا جرى للفتاة التي قفزت داخل بحيرة قاذورات لمجرّد التحدي؟»

«توخ الحذر فحسب.»

«لقد قتلنا واحدًا منهم يا سارات. يحصدون أرواح المئات مِنا كل يوم، لكننا قتلنا واحدًا منهم هذه المرّة.»

* * *

عادت سارات إلى قلب المُخيّم. دخلت المبنى الإداري من الباب الجانبي المفضي إلى مكتب ألبرت جينز. وجدته هذه الليلة يتكئ فوق المكتب يضعُ عدة معالق من شئ ما أسود ولامع فوق طبق. كان يلبس ثيابه التي تراه بها دائمًا: حُلّة مكويّة ذات صفّ أزرار واحد، وربطة عنق رماديّة باهتة بسيطة العُقدَة، نُقشت عليها ثلاث نجمات فوق رأس فارس مدرّع ودرْع مخطّط بخطوط حمراء. وكان يضع قبّعته فوق الطاولة. صاح حين رآها:

«تعالي، تعالي! لدي شئ مميز لأجلك.» تفحّصت سارات العلبة المسطّحة الصغيرة فوق الطاولة. كان غطاؤها مفتوحًا وداخل العلبة عدد من الكرات السوداء الصغيرة. كانت الكتابة على جانب العلبة بلغة أجنبيّة: حروف تشبه الإنجليزيّة لكن في أشكال غريبة كأنها مسوخ. حمل شعارٌ فوق الملصق صورة سمكة وتاج ملك. «يدفع الشماليون في كولمبس أكثر ممّا تتخيلين بكثير نظيرَ تقليدٍ ضعيف لهذه. والليلة تتذوقين الأصل مجانًا.» وَكَزَته سارات بأصبعها الوردي. بدا القَذر الضئيل في طبقها لا يناسب وجبة بأيّ حال، فتساءلت إن كان هذا محض أقراص فيتامين كالتي تأتي في شحنات المساعدات. سألته: «ما هذا؟»

«جربيه أولًا. ولا تتقززي منه سلفًا.»

«لن آكل منه.»

«كافيار. بيض سمك.»

«همم.» تذوقت سارات الكافيار الّذي همس للسانها سِرًّا مالحًا مروِّعًا. تكلّم عن شئ بعيد جِدًّا، عن فاكهة تثمرها أشجار من كواكب أخرى. فأجبته على الفور. «من أين أتيت به؟»، «من الاتحاد الروسي على الجانب الآخر من العالم. هدية من صديقنا جو.» واتجه إلى مطبخ المكتب الصغير حيث سمعت سارات صوت تكّات فُرن تحميص، قبل أن يعود مسرعًا يحمل طعامها الأثير، خبزًا محمّصًا مدهونًا بالعسل الأبيض. جلس إلى جانبها وراقبها تأكل. بدا أنه يمتلك قدرة لا نهائيّة على

المراقبة. «لديّ كتاب جديد لك.» ونهض متجهًا إلى أرفف الكتب ثمّ عاد حاملًا كتابًا بغلافٍ مقوّى. تفحصت سارات الكتاب. كان جديدًا، كأنه مطبوع في هذا اليوم تحديدًا. حمل الكتاب عنوان *تربية جنديّ شمالي في الحرب والسلم*، وعلى غلافه صورة رجل وسيم. كانت كل الكتب التي أحضرها لها جينز كي تقرأها حتى الآن تخلو أغلفتها من الصور، لا شئ إلا أسماء مؤلفيها وعناوين الكتب. لكن صورة هذا الرجل ملأت غلاف هذا الكتاب، كأنّ وجهه هو الموضوع. كانت صورة تصل إلى الصدر، فرأت سارات أنواطه وعلامات لباسه العسكري. «مؤلف هذا الكتاب هو جوزيف وايلاند الابن. ابن أكبر جنرالات الشمال.»

«وماذا يضطرني لقراءة كتاب جنرال شمالي؟ كلّه أكاذيب على أي حال.» فأشار جينز إلى صورة الغلاف، وقال: «لقد قرر هذا الرجل في الآونة الأخيرة ترشيح نفسه لمنصب الرئيس. وجرت العادة حين يترشّح رجل مثله لمنصب الرئيس، أنْ يثرثر بكلمات كثيرة يضعها بين دفتي كتاب يلصق صورته على غلافه ويصدره إلى العالم. هكذا مع اقتراب موعد الانتخابات تتكرّس صورة مشذبة بعناية شديدة للمرشح داخل أذهان الناخبين. لكن هذا ليس ما يدفعنا لقراءته. إذ نقرأه لأنّه عدونا، ونِصف ما يُفترض أن يدور حوله هذا الكتاب ليس عنه، بل عنّا، لأننا نمثل له العدو. نقرأه كي نقرأ ما بين السطور، وخلال ذلك، نكتشف ما يثير فزعه مِنّا.»

تأملت سارات جينز باهتمام شديد. كانت تحب الانصات إليه حين يتكلّم، أحبّت إيقاع صوته والعالم الواسع غير المنظور الّذي كثيرًا ما تُشير إليه خطبه اللاذعة. حتّى حين تعجز عن استيعاب ما يعنيه، حين تخفق تمامًا في فهمه، كانت تبتسم وتصغي برغبة محمومة ألا يتوقّف.

نهض جينز أمام الطاولة، وتابع: «لديّ لك شئ آخر.» وأخرج شيئًا من حقيبته الجلديّة. ثمّ وقف خلفها فأحسّت ملمس كفيه وما يحمله على عنقها. كانت قلادة من القنب، مجدولة من خيوط سوداء وبيضاء وحمراء. عقدها حول عنقها وأعطاها مرآة يد صغيرة. أطلّت على صورتها، كان ملمس القلادة خشنًا ومرهقًا على جلدها.

«ماذا تعني؟»

«كانت لابنتي. أردت أن تلبسيها.»

«شكرًا لك.»

أطالت الفتاة النظر في المرآة، لوهلة لم تعد ترى القلادة، بل كفّي الرجل العجوز فوق كتفيها: عُقلات الأصابع سمراء ومتشققة، والأظافر مقصوصة. بدا أنّ راحتي يده تشعان حرارة تملأ الفراغ ببطء بين كتفي سارات وتندلق فوق ظهرها. قبل أن تغادر، أعطاها مزيدًا من المغلفات كي توزعها على اللاجئين. دفع لها مقدّمًا. فدست العملات الشماليّة الجديدة داخل حقيبتها وألقت على معلمها تحيّة الوداع. في الليل أنجزت مهامها، وعند الفجر عادت إلى خيمتها. وهناك، لآخر مرّة في حياتها، نامت بعمق.

* * *

حين استيقظت في ظهيرة اليوم التالي، أبصرت سارات خيمتها خالية، رحلت أمها وكذلك أختها. اعتدلت ومدت يدها أسفل الفراش إلى صندوق الحصص التموينيّة. أخرجت أنبوب هلام المشمش من دَرَجٍ إلى جوارها واعتصرت بعض المعجون السكّري داخل فمها. بعد دقائق قليلة، اختفى الترنّح.

بدّلت ثيابها فارتدت بنطالًا قطنيًا وقميص *أوراسكوم* ثم غادرت الخيمة. في الخارج كان اللاجئون مشغولين بإصلاح خيامهم، وقد راح يساعدهم الآن بعض المتمردين. فاحت رائحة العفونة في الهواء لكن أيضًا رائحة اللحم وصوت الغناء والفرح والأحاديث الثملة. بدا أنّ كل مرارة اليوم السابق قد ذابت.

رجالٌ ونساء جلسوا فوق مقاعد وطاولات مصنوعة من أكياس الرمل، يشربون خمرًا منزليًا ويأكلون لحمًا بأيديهم العارية تتساقط عصارته فوق ذقونهم. انضمت سارات إليهم بضع ساعات كانت خلالها ممتلئة البطن، هانئة البال، ثملة بعض الشيء.

في المساء، بعد أنْ زال أثر الكحول، اتجهت إلى الشمال كي تطمئن على سلحفاتها. رأت حين وصلت الخيام الخالية بشمال آلاباما، لكن خلفها كان ثمّة شئ مختلف. كانت الأضواء الكاشفة الضخمة عند نقطة التفتيش الشمالية مشتعلة، تلقي بملايين الخيوط العريضة على الأرض قدامها. اختفت سارات خلف خيمة وأنعمت

النظر، تراقب. رأت رجالًا عند البوابة. مئات، وربّما آلاف، ملثمين ويرتدون ثيابًا سوداء. وصلوا على متن تشكيل من شاحنات قديمة غطاها الوحل، يحملون بنادق ومسدسات ومناجل. بدا الرجال في الأضواء الكاشفة كأنهم بقع حبر تنتشر، أطراف سوداء تعلو جذوع سوداء. كانت حركتهم المتوحّدة تشبه حركة كائن يتلوّى أسفل ثغرات السور وعبره. رأتهم فعلمت نواياهم على الفور. كانوا يقتربون، فتسلّلت من خلف الخيمة وراحت تعدو إلى قلب المخيّم. ركضت في ظِلّ الخيام، أسرع مما سبق لها من قبل قط، فراح الهواء يعصف برئتيها. هتفت بالرجال والنساء حيث أبصرتهم كي يركضوا، ويختبئوا. قالت إنّ الميليشيات قادمة، لكن لم يبد أنّ أحدًا سمعها. لمّا اقتربت من خيمتها سمعت أول رشقة رصاص، ليست طلقات بنادق القنص البعيدة تلك والتي اعتادت سماعها طوال سنوات، بل رشقة قريبة، خشخشة معدنيّة تصمّ الآذان. عندئذٍ سمعت صراخًا، صيحة عالية النبرة، ثمّ مزيد من الطلقات، أقرب هذه المرّة.

اندفعت سارات عبر الباب لتجد أختها جالسة فوق الفراش وبين يديها حاسوبها اللوحيّ. كانت تشاهد لقطات من حفل خيري في *كينيساو* لمساعدة الأمهات في الجمهوريّة الجنوبيّة، بينما نجم موسيقى الريف العجوز شيرلين سي يردّد أغنيتها المفضّلة. كانت تأكل برتقالات فرجينيا وتغني في الوقت نفسه. هتفت: «هل

تذكرين حين كنّا نثير جنونها ونحن بعد طفلتين؟»
بعدئذ أبصرت وجه أختها، فأردفت: «ماذا جرى؟»
«الميليشيات هنا. لقد اقتحموا المعبر الشمالي.»
«كم عددهم؟»
«مئات. انهضي بسرعة. أين ماما؟»
«لا أدري. ربّما تلعب الورق في خيمة ايريكا ياربر. وربّما خرجت مع لارا. لا أدري. لا أدري.»
جذبت سارات ذراع شقيقتها وركضتا معًا خارج الخيمة. كانت أصوات الرّصاص تدوي في الخارج، ومصدرها يقترب أكثر فأكثر. خرج بعض اللاجئين من خيامهم وراحوا يتساءلون عن سبب الفوضى، لكن سارات لم تقل شيئًا هذه المرّة. قادت شقيقتها إلى باب المبنى الإداري الجانبي، وفتحته بمفتاح ألبرت جينز. أغلقت الباب خلفهما ونزلتا عدوًا على الدّرَج الفضي إلى المكتب الموجود في القبو، بينما تُطفئان أضواء الرواق أثناء مرورهما. حين دخلتا المكتب، دفعت سارات ودانا أحد أرفف الكتب تجاه باب المكتب الأمامي ثمّ أتبعتا الرفّ بالمكتب. أطفأت سارات أضواء الغرفة، ودفعت أختها إلى الدولاب قبل أن تهمّ بالرحيل. لكن دانا تشبثت بذراعها هاتفةً: «كلا. كلا. لا يُمكنك الخروج.»
«عليّ أن أجد ماما. سأدفع الرفّ والطاولة قليلًا كي أوارب الباب، ثمّ أغلقيه خلفي.»
«أرجوكِ. أرجوكِ. تعرفين أنكِ لن تجديها قبل أن يجدوكِ. سيقتلونكِ. لا أحتمل خسارة أسرتي كلّها. لا

أحتمل خسارة كل من أحبهم. أرجوك لا تخرجي.»

نظرت سارات لأختها مشدوهة. لا بسبب دموعها السوداء اللامعة على وجهها، ولا بسبب الذعر في صوتها، بل بسبب الحسابات المتشائمة التي أجرتها بالفعل. دفعت الرف والطاولة خلف الباب من جديد، واحتضنت أختها داخل الدولاب.

اقترب إطلاق النار أكثر، وتاهت الصرخات في صداه. كان يأتي أحيانًا على هيئة رشقات سريعة متلاحقة، وأحيانًا أخرى محض رصاصات فرادى، أو استعراضٍ من رصاصات فرادى، تفصل بينها فترات صمت قصير.

استمرّت الأصوات حتى الليل. وجاءت فترةُ توقُّف قصيرٍ في ساعات الفجر الأولى. فنامت دانا خلال فترة السكون هذه، منهكة تهذي من الخوف. بقيت سارات إلى جوار أختها. لا دليل على وجودهما في العتمة إلا صوت أنفاسهما الهادئ، وصعود صدريهما وهبوطهما. خفت صوت إطلاق الرصاص في الخارج، لكن ثمّة أصوات أخرى. أصغت سارات: أحذية تدوس فوق التراب؛ فردٌ من الميليشيا يطرح سؤالًا مبهمًا يُجيب عليه فردٌ آخر أعلى رتبة منه؛ تعرف ما عليك عمله بالضبط؛ أصوات توسلات؛ وشتائم؛ طابور من أقدام تخطو متوافقة؛ لست معهم، أقسم، أقسم. يخترق صوته جدران المبنى الّذي تختبئ فيه سارات واضحًا كأنهم يدعسونه فيها. ثمّ لا شيء. ثمّ بعض الرصاصات المتفرقة، رصاصة تلو الأخرى. ثمّ لا شيء.

كانت الرصاصات أقرب من أي وقتٍ مضى، فتخيلت سارات لوهلة أنّ الرجال دخلوا المبنى. فكّرت، لو أنّ هذا قدرنا، لا بأس، لكن لن أموت ذليلة. ابتعدت بهدوء عن شقيقتها النائمة وأخرجت مديتها من جيبها ووقفت. واربت الباب ما يكفي لمرورها من خلاله، ثم أغلقته خلفها مرّة أخرى. كان الدهليز الموصل بين المكتب والدّرَج معتمًا فبدا أنها تسير إلى ما لا نهاية. حاولت أن تتخيل مشهد القتلة وهي تقترب من الباب. تصوّرتهم على هيئة الشماليين الّذين كانت تراهم على شاشة التلفاز، الّذين يتراءون دائمًا فارعي القامات أقوياء البنية، شاحبي البشرة. كانت تتخيلهم من سلالة أخرى، أو جنس آخر.

تسلّقت الدّرَج المفضي إلى باب المبنى الجانبي، ثم ألصقت أذنها بالباب وأصغت. لم يكن ثمة صوت، ففتحت الباب وأطلّت عبره. ظنّت لحظة أنها أساءت تحديد الوقت. كانت تعتقد أنها الثانية أو الثالثة صباحًا، وأنّ المجزرة استغرقت ما يقرب من يوم كامل. لكن السماء فوقها كانت مشرقة كأننا في الظهيرة. بعدئذٍ بدأ النور يخبو سريعًا مفسحًا المجال لسماء معتمة ظلّت على حالها إلى أن سمعت، من مكان ما بعيد في الشمال، أزيز وهجٍ آخر، وسرعان ما أضاء نهار مُخاتل المُخيّم مرّة أخرى.

مشت سارات ببطء بمحاذاة الجدار. تناهت إلى سمعها أصوات رجال يشتمون على مسافة بعيدة في الجنوب

الشرقي والجنوب الغربي، في جورجيا وكارولينا الجنوبيّة. ثمّة أصوات فوضى أيضًا: خيام تتهاوى؛ نساء يكتمن صراخهن؛ طلقات رصاص ليست سريعة ولا متواصلة كما كانت في وقت سابق. اندلعت نار هائلة في أحشاء حي آلاباما، وأحاطت ألسنة لهبها بأعمدة دخان أسود. ثمّة رجال على مسافة بعيدة، وجثث محترقة. راحوا يطفئون النيران بأغطية الخيام والثياب والمفارش. لكن النار تجاوزتهم وطقطقت وتصاعدت ألسنتها إلى السماء.

دارت سارات حول الرّكن لتصطدم بطابور من جثث مكتوفة قبالة جدار. كانت لرجال، شباب وكهول مصطفين جاثين على ركبهم. وحيث دخلت الرصاصات في أجسادهم تناثر رذاذ أحمر باهت. تسمّرت سارات متجمّدة ترمق الجثث. أغلبها ممدّدة على وجوهها أو على جنوبها إلى الجهة الأخرى. لكن هؤلاء الذين تمكّنت من رؤيتهم، كانت وجوههم بشعة يصعب تمييز ملامحها. جباههم مشجوجة تتلوّى في عذاب صامت.

صنعت الجثث بركًا رطبة من الدم فوق الأرض المتربة. ما يزال فيهم بعض دفء أحسّته سارات على بشرتها. دفء رطب وحقيقي مثل بخار يتصاعد من قِدرٍ يغلي. أدركت ماهيته. كان دفء أرواحٍ تنطفئ. دفء ما يرحل. أبصرت في فوضى الجثث المكوّمة وجهًا ميّزته. كان لإيلي، فارس فرجينيا الّذي تعرّفت عليه حين ذهبت كي تتحدّث مع أخيها. وسرعان ما بدأت الوجوه المحيطة

به تتوافد على ذاكرتها: كانوا لمتمردين من عشيرة أخيها.

خانتها شجاعتها فجأة، فوقفت مشلولة من الهلع، عاجزة عن ألا ترى كومة الجثث عند قدميها، والتي تثق الآن أنّ جثة أخيها ترقد بينها. تواصلت حولها أصوات الاحتراق والصراخ والقتل دون هوادة. النور والعتمة يخفقان في السماء فوقها في هيئةٍ كأنها فؤاد الرّبّ ذاته. جعلها صوت اقتراب الرجال من خلف ركن بعيد تفيق من صدمتها. أدركت من صوت أحذيتهم الناعم المكتوم ومن أصواتهم أنهم رجال الميليشيا. سمعت واحدًا منهم يقول: «يقولون ألا قواعد قبل شروق الشمس. الأمر يرجع لنا حتئذ.»

أدركت أنهم حين يدورون حول الركن سيرونها، فتمددت فوق الأرض دون تفكير. حشرت نفسها بين جثث الرجال، وأخفت جسدها بينهم. صار الدفء الّذي أحسته من قبل يحيطها الآن، ويخترق مسامها. تمدّدت بين دمٍ وعرقٍ وغائطٍ وبولٍ الّذين قُتلوا. لم تعبأ بالسائل الّذي بلّل ثيابها، ولا الرائحة ولا أي شئ آخر إلا دعائها اليائس البسيط: يا الله، لا تجعلهم يروني. لا تدعهم يقتلوني.

حبست أنفاسها. وكانت خطوات الأحذية تزداد اقترابًا.

تمهلت ساكنة مثل الجثث التي تحيطها. ومرّ الرجال.

سمعت صوتًا آخر أثناء السكون الّذي أعقب ذلك. كان قريبًا من الخيام الموجودة على الجانب الآخر من

الطريق. كان صوت حشرجة، وقرقعة عظم فوق عظم. حين هدأ ذلك الصوت علت صرخة مكتومة.

أبصرت سارات من بين أطراف الجثث، رجلًا يغادر خيمة على الجانب الآخر من الطريق. كان يلبس بنطالًا قطنيًا أسود اللون وقميصًا أسود فضفاضًا. وقد تدلّى لثامه من جيب البنطلون. رأت وجهه. لم يكن يختلف عن الرجال الذين عاشوا داخل المُخيّم. ولا كان يختلف عن أي أحدٍ آخر رأته سارات من قبل. كان ينتمي للفصيلة نفسها، والجنس نفسه. تسمّرت جامدة في مكانها وراقبت الرجل يغادر في اتجاه حي جورجيا حيث تشتعل محرقة أخرى. لم تسمع بعد أن غادر أيّ خطى أخرى، فنهضت وركضت في اتجاه الخيمة التي برز منها الرجل. هناك، رأت امرأة تدعى سابرينا. لاجئة من المسيسيبي، إحدى اللائي نجون من القصف الّذي تعرضت له *هوبويل*. كان فكّها منتزعًا بعنف إلى اليمين، وقد انتفخت المنطقة حول عينيها واحمرّت. كانت تتمدد فوق أرض الخيمة، تنورتها مرفوعة، سُرّتها مشقوقة. لكن ما تزال تتنفس.

حين أبصرت المرأة سارات رفعت يدها وأومأت إليها أن تقترب. التقطت الأخيرة يدَ المرأة وجلست إلى جانبها. كان القماش تحتها غارقًا في الدماء. أصدرت المرأة أنينًا وقالت كلمةً ما لم تفهمها سارات. اعتبرتها رجاءًا أن تريحها، وكانت لا تعرف لها معنىً آخر، فمدّت يدها إلى غطاءٍ وغطّت به بطن المرأة المشقوق. غمغمت المرأة

بالكلمة نفسها عدّة مرّات أخرى، ثمّ خيّم صمت.

بقيت سارات داخل الخيمة. كانت تحمل كفّ المرأة التي ثقلت الآن. أنصتت أثناء رجوع الرجال إلى المعبر الشماليّ الّذي دخلوا منه. عبروا على مقرُبة من خيمتها في طابور لا ينتهي كأنهم آلاف. تخيلتهم ليسوا رجالًا، ولا حتّى بشرًا، بل يومًا طويلًا مُعتمًا: كشتاء بدائي. حين عبر وَقْع الأحذية ولم يبق إلا طقطقة النيران، أطلّت سارات من باب الخيمة الأمامي. رأت الجدار حيث تتمدّد كومة الجثث.

ثمّ جاء متسكّع. فَرْدُ ميليشيا يحمل بندقية معلقة فوق كتفه. مرّ إلى جانب جثث الرجال وواجه الجدار ثمّ فك بنطلونه وبدأ يبول. راقبته سارات. أخرجت السكين من جيبها وفتحتها. خرجت واتجهت إلى الرجل الّذي أولاها ظهره. لم تعد خائفة. مشت كأنها شبح، نارٌ هائلة باردة على هيئة بنت. راحت تقترب منه وحين وصلت إليه أحاطت عنقه بسكينها وشقّت حلقه. مدّ الرجل ذراعه إلى يدها وأمسكها. دفعته إلى الجدار فسقطا معًا. هي فوقه، وهو فوق الجثث. اندفع شلال دماء من حيث شقّت حلقه. حاصرته تحتها وجعلت تطعنه. كانت الدماء تغطّي عنقه الآن. وسرعان ما كفّ الرجل عن المقاومة، لكنها لم تكف عن تمرير سكينها على عنقه إلى أن اصطدمت بشئ غائر داخل الجسد لم تستطع فصله. صرخت، وطعنت مؤخرة رأسه وحين اصطدم السكين بعظام جمجمته الصلبة علقت فيها. انزلقت يُسرى

سارات من المقبض الدامي وانحدرت إلى النصل فأصيبت راحتها بجرح غائر. خدّرها الألم. غادر دفء الحياة جسد الرجل، لكن هذه المزة لم تشعر به سارات.

* * *

وصل رجال دولة الجنوب الحرّة عند الفجر: رَكْبٌ من الجنود الّذين أوفدتهم أطلانطا. لعلعت جلجلتهم خلال المعابر وداخل المخيّم. جاءت خلفهم الشاحنات وحافلات المساعدات التي تحمل شعار الهلال الأحمر، وأتى خلفها عدد من الصحافيين. نزل الجنود من الشاحنات. كانوا شبابًا يافعين وصبيانًا، أغلبهم لم يشهد قتالًا يومًا واحدًا من قبل. ساروا مصعوقين بين الجثث ومحارق الجثث، يُشهرون أسلحتهم صوب أشباح. وبدأ المراقبون والصحافيون الأجانب يعدّون ويوثّقون مشهد الموت، شيئًا فشيئًا.

طلعت الشمس فوق بيشنس. فزحف الناجون من مخابئهم والأماكن التي ألقوا فيها، بعضهم مشوّه والبعض الآخر أخرسته الصدمة. ثم برزُ الموظفون المختبئون داخل المبنى الإداري يحملون رايات الهلال الأحمر فوق رؤوسهم، هاتفين بهويّاتهم. دارت سارات حول المبنى، وحين أبصرها الجنود أشهروا أسلحتهم في وجهها وأمروها بعدم التحرّك. وأمرها جنديّ آخر أن تجثو على ركبتيها. لكن سارات تسمّرت في مكانها تغمرها الدماء. انتبهت إليها موظّفة في المخيّم فطلبت من الجنود أن يُخفضوا أسلحتهم، هاتفةً وهي تهرول

نحو الفتاة: «إنها إحدى اللاجئات» وأردفت: «سارات يا حبيبتي. أخفضي السّكين. لقد انتهى الأمر.»
حوّلت سارات عينيها من الصبيان وأسلحتهم إلى المرأة. نحّتها جانبًا وتقدمت إلى المبنى الإداري. نزلت الدَّرَج ومشت إلى المكتب حيث تختبئ أختها. دقّت على الباب ثلاث مرّات، ثمّ مرتين، ثمّ مرّة، وهي إشارة سرية اتفقتا عليها طوال سنوات. ثم بأناةٍ انبعث صوت متثاقل من الجانب الآخر وراء الباب. هتفت سارات: «إنّه أنا. لقد رحلوا.»
فتحت دانا الباب ببطء. وأبصرت شقيقتها. «يا الله! ماذا فعلوا بك؟»
«لِنرْحَل.»
تقدّمت أختها خارج المبنى. كان الجنود الجنوبيون في الفناء يطفئون النيران ويفتشون الخيام. غطّوا الجثث وما تبقّى منها بقماش أبيض ثمّ مدّوها فوق نقّالات، قبل أن ينقلوها إلى قعر الشاحنات المنتظرة. واضطلع رجالٌ يضعون كمامات على أفواههم وأنوفهم بِعَدّ تلك الجثث وتسجيلها بحواسيب لوحيّة. التقط الصحافيون صورًا للقتلى وطرحوا أسئلة على الناجين الّذين سلّطوا أبصارهم أمامهم مباشرة بعيون زائغة. وزُجّ بالناجين السالمين سريعًا إلى مَتْن حافلات تقف في انتظارهم.
أطلقت دانا صرخة مدوّية حين أبصرت الأشلاء، فأمسكت سارات ذراعيها ودفنت رأسها داخل صدرها. «لقد قتلوهما، أليس كذلك؟ ماما وسيمون، لقد

قتلوهما.»

أرشدت سارات شقيقتها إلى اتجاه إحدى الحافلات حيث جلست حفنة من اللاجئين يخيم عليهم الصمت، وقالت: «اذهبي معهم. إن كانت ماما وسيمون ما يزالان على قيد الحياة، فسأعثر عليهما. ولو أنهما قُتلا، فسأعثر عليهما.»

اقتربت عاملة في المخيم نجت من القتل إلى حيث وقفت الشقيقتان، وقالت: «لا يُمكنكما البقاء يا سارات.»

«سأدفن أهلي.»

«سيقوم الجنود بتلك المهمة. سيلقون الاحترام اللازم، لكن عليكما أن تغادرا المكان هنا يا سارات؛ إذ لم يعد آمنًا. قد يعودون.»

«سأبقى. لو أنّ بقائي لا يروق لك، اجعليهم يطلقون الرصاص عليَّ.» والتفتت إلى شقيقتها، وتابعت: «سنجتمع قريبًا معًا. أعدك.» أخرجت دانا منديلًا من جيبها وربطت به جرحًا في راحة سارات اليسرى، ثمّ احتضنتها قائلة: «فتاة جميلة.»

صعدت دانا على متن الحافلة، ومشت سارات إلى المسيسيبي صوب أطلال نار. مشت بمحاذاة الخيام التي مُزِّق أغلبها، وتحطمت أبوابها. خنقتها رائحة الدخان. وصلت إلى خيمتها. كان الباب مفتوحًا عنوة وتناثرت أمتعة آل شستنت فوق الأسرّة وعلى الأرض. لكن لا أثر لأحد. عبرت سارات الممر الترابي إلى خيمة أخرى بمحاذاة الطريق، حيث تصوّرت سارات أنّ أمها

ربّما تكون ذهبت إليها في الليلة السابقة للقاء صديقاتها. كان الباب هنا أيضًا مفتوحًا عنوة. توقّفت سارات عند العتبة. حاولت أن تشدّ من أزر نفسها استعدادًا لما قد تواجهه في الداخل، وحاولت أن تتخيّل مسبقًا جثّة أمّها، وقد غادرتها الحياة. سوى أنّها أخفقت. وبدلًا من ذلك ارتدّ عقلها ولم يعرض إلا حيلة دفاعيّة واهية تخصّ طفلة: لا يُمكن لأمّي أن تموت لأنّها أمي. كل الآخرين يموتون إلا أمّي.

تقدّمت سارات داخل الخيمة. ثمّة دماء فوق الأرض وفوق الجدران، لكن دون أثر لجثث. في الخارج، إلى جانب الباب المكسور، رأت آثارًا فوق التراب. ممرّات عريضة تُشبه قنواتٍ وليدة. أدركت دون أن تتبع الآثار إلى أين تفضي. على مسافة ليست بعيدة جدًّا، كانت تحتضر بقايا نار سوداء ضخمة.

***

عمل الجنود في صمت، وعملت سارات إلى جانبهم وقد فقدت الشعور بالعالم حولها. ساعدت في تغطية القتلى بقماش أبيض وحمل الجثث إلى الحافلات المنتظرة. كانوا يضعون الجثث بعضها فوق بعض، وحين تمتلئ الشاحنات يرسلونها إلى الجنوب وتحل مكانها شاحنات أخرى فارغة. في المساء، كانوا قد أخلوا المُخيّم من القتلى وأطفأوا النيران وأرسلوا الناجين إلى مستشفى ما بعيد. جاءت أوامر لأغلب الجنود بالعودة إلى أطلانطا، باستثناء قليلين منهم بقوا لحراسة المُخيّم.

لعنّ المأمورون بالبقاء سوءَ حظّهم الّذي يُجبرهم على قضاء الليلة داخل المُخيّم؛ إذ رغم إخلاء المُخيّم من الجثث كانت رائحتها ما تزال ماثلة. وصداها أيضًا.

مشت سارات إلى الشمال. ثمّة جنود تمركزوا في آلاباما أيضًا عند السور المُحطّم. لكن واحدًا منهم نام فوق كرسيه، أمّا الآخرون فكانوا يشاهدون فيلمًا على حاسوبه اللوحي دون أن ينتبه لحضورها أحد. بدا الجنود واثقين أنّ الّذين ارتكبوا المذبحة لن يعودوا مرّة أخرى. بعيدًا، انطفأت أضواء الشماليين الكاشفة التي كانت توهّجت في الأمس فقط.

دخلت سارات الخيمة التي كانت تحتفظ فيها، هي وصديقها ماركوس، بحيوانيهما الأليفين. اكتشفت هروب الفأر، لكن السلحفاة شيرلين كانت ما تزال داخل القفص. التقطتها، لكنها لم تتراجع. عادت تحملها إلى وسط المُخيّم ثمّ وضعتها فوق مقعد في آخر حافلة بقيت. لم يبق الآن إلا قليلًا من سكّان المُخيّم: رجال ونساء يلبسون قفازات وأقنعة وجه واصلوا توثيق جرائم القتل. التقطوا صورًا للثقوب التي أحدثتها الرصاصات في جوانب المباني، وللبقع الجافّة فوق التراب. عادت إلى مكتب ألبرت جينز. أغلقت الباب خلفها. كانت الرائحة التي تفوح في المُخيّم رائحة دخان، لكن هنا داخل هذه الغرفة كانت رائحة أشياء أخرى: رائحة خشب فاخر وحِبر قديم على ورق، وأحذية مصقولة وملابس مكويّة بعناية. أغلقت الباب

خلفها. نزعت الخرائط من الجدران وقلبت الطاولة. أسقطت أرفف الكتب وجذبت ملابس ما قبل الحرب الأنيقة من فوق المشاجب وحطّمت الأطباق فوق الأرض. مزّقت الكتب العتيقة، قطعت أوراقها وحطّمت كعوبها. بعدئذ جثمت على الأرض وبكت.

وخلال لحظةٍ ما انفتح الباب، ودخل ألبرت جينز. ساز فوق أرفف الكتب المحطّمة ودار حول الطاولة المقلوبة ثمّ جلس على الأرض قبالة سارات. برز كأنه آتٍ من عالم آخر، بحلّة نظيفة لم تمسّ، لا غبار ولا دماء. قال:

«جئت فور سماعي نبأ ما جرى. هل نجت أسرتك؟»

«ماتت أمّي. لكن أعجز عن العثور على جثتها. ومات أخي، وأعجز عن العثور على جثته.»

«يسمون أنفسهم *إنديانا الحادية والعشرين*. ميليشيا غير رسميّة. لكن لا ريب أنّ قادة الشماليين على دراية بما فعلوه...»

«كفى كلامًا عنهم. لا أريد سماع شئ عنهم. ولا أريد قراءة شئ يتعلّق بهم أو تذكّر أسمائهم أو معرفة كيف ارتكبوا ما ارتكبوه في حقّنا.»

«ماذا تريدين أن تفعلي إذن؟»

«أريد قتلهم.»

ودفنت رأسها بين كفّيها. لم تر أبدًا الابتسامة الشاحبة التي عبرت، في تلك اللحظة، شفتي معلّمها.

مقتطف مِنْ:

ديوان الحرب-

أرشيف قرارات التعويضات النهائيّة

الحالة رقم: 091682

اسم المستحق: شستنت، مارتينا

(استمارة متوفّاة/أقارب)

ملخّص الحالة:

أ. اتفاقيّة الدّعوى

تصدر قرارات التعويضات النهائيّة، الصادرة من إدارة مكافآت المواساة، التابعة لمكتب التعويضات المُشترك(سيشار إليها تاليًا باسم القائم بالدفع) وفق قانون المطالبات الوطني، في حالة مارتينا شستنت وثلاثة مُعالين(ذكر بالغ، وفتاتان غير بالغتين) (سيُشار إليهم تاليًا باسم المستفيدين.) لقد قَبِلَ الطرفان بالقرار وهو يُشكّل تسويةً مُبرمة ونهائيّة بشأن الحادث الّذي تمّ إيجازه في القسم الثاني. القرار ومبلغ التعويض بناءً على تقدير القائم بالدفع وحده وهما غير قابلين للتفاوض.

ب. تفاصيل الحادث

تعرّض المستفيدون إلى حادث داخل منشأة للنازحين يديرها الهلال الأحمر في المسيسيبي (مخيّم بيشنس.) وحسب ما انتهى إليه مكتب التحقيق، فإنّ الحادث مصنّف باعتباره من الدرجة الثانية من حيث الخطورة، ومَشمول. المتّهم بارتكاب الحادث غير مُحدد.

ت. طبيعة الأضرار

مارتينا شستنت (أنثى بالغة): متوفاة.

سيمون شستنت (ذكر بالغ): استبعاد من المخيّم، إصابة من الدرجة الأولى (في الرأس.)

دانا شستنت (أنثى غير بالغة): استبعاد.

سارا شستنت (أنثى غير بالغة): استبعاد، إصابة من الدرجة الرابعة(في اليد اليُسرى.)

ث. جدول السّداد

يُمنح المستفيدون بموجب هذه الوثيقة حقّ الإقامة(في دار البرّ رقم 027، لينكولنتون، جورجيا) تعويضًا عن الاستبعاد. إضافة إلى خمسة آلاف دولار تعويضًا عن الوفاة. يُمنح المستفيدون أيضًا ألفين وخمسمائة دولار تعويضًا عن إصابة الدرجة الأولى، ومائة دولار تعويضًا عن إصابة الدرجة الرابعة.

ج. إخلاء المسؤوليّة.

لا يقتضي القرار ضمنًا أي اعتراف بخطأ ارتكبه الجيش أو وكالة ما أو الحكومة الفيدراليّة(أنظر الملحق الأوّل (إشارة إلى سياسة الأسف: الشروط والأحكام.) يتخلّى المستفيدون بموجب هذا القرار عن أيّ حقّ في اللجوء إلى القضاء بشأن هذه المسألة.

III

أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٨٦

لينكولنتون، جورجيا

الفصل التاسع

ثمة علامة حيث غادره الشيطان. كانوا يحجّون من أماكن بعيدة كي يلمسوا الشقّ الذي في جبهته ويقبّلوه. كي يروا الصبيّ المعجزة المعطوب. كانوا يجلسون صامتين أحيانًا، لا يكسر صمتهم إلا أصوات تنبعث من المطبخ حيثُ تغمغمُ المرأة التي ترعاه، *كارينا* شودري، بآياتِ أناجيل قديمة أثناء عملها. أحيانًا يصلّي الرجال والنساء الذين جاءوا لرؤية الصبيّ، ويغنون أحيانًا أخرى. وتحت وطأة نوبة مفاجئة تهاجمهم بين فينة وأخرى، يصرخون وينادونه بأسماء أطفالهم. جعل الصبيّ من نفسه ماعونًا لهم. فكان يجلس لا ينطق بحرف، بينما الأكُفُّ المرتجفة فوق رأسه، صافية كسحابة.

كان المنزل مُشيّدًا إلى جانب النهر، بالقرب من النقطة التي كان يلتقي فيها طريقا جوي *روود وتشامبرلين* فيري ذات يوم. ثمة منازل أخرى تُشبهه، في الشمال الغربي حتى إيليا كلارك، وفي الجنوب الشرقي بالقرب من أوجستا. كانت مُجرّد أكواخ بسيطة مصنوعة من خشب رخيص وجدران من البلاستيك، منازلُ مُسبقة الصنع: شُحنت مستلزماتها على متن بوارج ترسو في مدينة *سافانا*. لم يُبنَ غير ثلاثين كوخًا منذُ بداية الحرب، احترق أحدها خلال السنوات التالية بسبب

البرق، وانمحى آخرُ حين هوَت فوقه من السّماء طائرة حربيّة دون طيّار، لم تفارقها القُدرة على القتل رغم أنّها كانت معطّلة. سَكَنَ لاجئون آخرون من أقصى أطراف دولة الجنوب باقي منازل البرّ، إنّهم الرّابحون بورقة حظٍّ قاسية؛ الناجون.

كانت السافانا تكتسي أثناء الربيع، حين تهدأ العواصف، بلون الأوحال السمراء. وكانت أصغر الناقلات تتوغّل حتّى *هارتويل* رغم أنّ أوجستا تمثّل مرفأ المياه العميقة الأخير على ضفّة النهر. تتحرّك السفن نحو الدّاخل في ظلّ جدار الحَجْر الصحيّ المُحيط بكارولينا الجنوبيّة، بأناة، يحرس حمولاتها من الحبوب والألواح الشمسيّة والأسلحة المهرّبة جنود *الماج* أو المتمردون أو الجيوش المستقلة. وبعد مائتي ميل شرقًا، تُشرق على الشاطئ الناقلات العملاقة التي جاءت من امبراطوريات بعيدة، تحمل في بطونها مساعدات ثمينة.

* * *

وصلت كارينا في الصباح، كان التوكتوك يتواثب فوق الطريق الترابيّ الذي يربط لينكولنتون بعضها ببعض وحتى حافّة اللسان السّاحلي حيث تعيش أسرة شستنت. وصلت إلى المنزل لتجد أنّ ساكنيه ما زالوا يغطّون في نوم عميق. أطفأت التلفاز ونظّفت الأطباق من بقايا عشاء الليلة الفائتة، ثمّ دخلت المطبخ. كل شيء في مكانه كما تركته تمامًا في الليلة الماضية.

تناثر غبار دَقيق ذرة فوق لَوح المطبخ. كانت ترش بعضًا منه كل ليلة فوق اللوح وتحفظ شكله الأخير، ثم تتحقق من منظره طبقًا لذاكرتها في الصباح التالي. هكذا تستدلّ على مرور الأشباح. تأملت الدقيق وعرفت أنّ الأشباح لم تأت.

باب خلفي وثلاث درجات منخفضة هي كل ما يفصل المطبخ عن الفناء المنحدر المنتهي بضفّة النهر. لم يكن فناءً في الحقيقة، بل رقعة من اليابسة، كأن لا حدود لها عدا النهر. امتدّت بدءًا من حديقة المنزل الصغيرة عبر الشجيرات المحيطة، وحتى الألسنة الساحلية، وأطراف حرَج قريبٍ، تكتسب خلاله مدينةُ سافانا - باستمرار- منافذ جديدة. لا جيران على مسافة أميال. لا تداعيات للقتال الشرس الدائر في تينيسي. ولا زيارات من أبناء لينكولنتون أو أيّ مدينة أخرى. وباستثناء الّذين يأتون كي يلمسوا جُرح سيمون ومن أجل الصلاة، ما من زوّار آخرين تقريبًا من أيّ نوع. لم تر هذا المكان الذي تعيش فيه الأسرة، إلا عيون الحراس المتمركزين في أبراج الحراسة المنتشرة على طول جدار كارولينا في الجانب الآخر من النهر، والمتمردون الّذين يجيئون على متن القوارب كل أسبوع محملين بالطعام والمؤن.

في لحظة صراحة نادرة، قامت الآنسة دانا بمكاشفة كارينا عن أنّ أسرة شستنت عاشت حياتها بالكامل إمّا بجانب نهر وإمّا إلى جانب جدار. محتجزين

ومحاصرين دائمًا: تُحاصرهم الحركة، ويُحاصرهم السكون.

في الباحة، تخلل نور الصباح جذوع أشجار القيقب الشاحبة. كانت الأشجار نحيلة مهزولة ترتجف في النسيم العابر. تُسقط غصونها بين فينة وأخرى أوراقًا بلَون الدّم تلاحقها كارينا كي تحتفظ بها. كانت تحتفظ بتلك الأوراق لتجفّ بين صفحات كتاب مقدّس قديم تُخفيه أسفل فراش سيمون. ثمّ تسحقها حين تجفّ وتنشف داخل شاي بابونج الصبي. كانت تؤمن بقدرة الأوراق الحمراء على الشفاء، كما كانت تؤمن أنّ سيمون يتعافى.

تلك كانت وظيفتها، رعاية منزل أسرة شستنت، ورعاية سيمون شستنت، الصبي المُعجزة. اسميًا، كانت موظفة لدى دولة الجنوب الحرّة رغم استحالة أن تعتمد على أطلانطا في دفع أجرها في موعده، أو دفع ما أتفق عليه معها. مع ذلك كانت ما تزال تؤدّي عملها. كانت ممرضة مدرّبة مارست التمريض خلال السنوات الأولى من الحرب وأثناءها في علاج النّاجين الجنوبيين.

* * *

اكتسى النهر هذا الصباح بزرقة اختلطت ببياض مموّج عكسّه السحب. كان الهواء نديًا تفوح فيه رائحة الأرض والتعب، وتلك الرائحة الأخرى المنبعثة من وراء الجدار. كانت جَرّافةٌ نهريّة تتحرّك ببطء عند المنبع،

مُخلّفةً ذيلًا أسود. كانت الجرافات تطهّر النهر في كِلا الاتجاهين خلال الشهور التي تلي فصول العواصف، فتبدّل في طريقها جغرافيا المجرى.

خلعت كارينا صندلها ومشت إلى حافّة النهر. هنا أحسّت بالتربة دبقة ودافئة تحت قدميها. راقبت اندفاع تيار الماء مثل ذراع خشبية عريضة. على الجانب الآخر من النهر، ارتكز شابٌ على متن قارب صغير بالٍ، بالقرب من قاعدة جدار كارولينا الذي كُتبت عليه عبارةٌ برذاذٍ أحمر: *اقتلوا الشماليين كلّهم*. كان جدار الحَجر الصحي داخل أحواض أوجستا للسفن يُشبه جدارية نابضة بالحياة، مع ذلك بقيت الخرسانة الرمادية الداكنة كما هي دون أن تمسّ. رمق الحرّاس المتمركزون في الأبراج الموجودة أعلى السور المُخرّبَ الشابَ دون اكتراث. ربّما لو قرر أن يرمي خطّافًا فوق الساتر الّذي يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدمًا ويتسلّق إلى داخل البلاد *البطيئة*، ما كانوا ليمنعوه. لا يكترثون إلا بمن يحاول ترك كارولينا الجنوبية، ولم تكن طلقات البنادق تدوي ليلًا إلا على جانبٍ واحد دائمًا ولغاية واحدة فقط. وشاع في لينكولنتون أنّ الغابة هُنا على ضفاف النهر تفيض بأشباح أبناء كارولينا الّذين كادوا يفرّون، لكن الحقيقة هي أنّ البلاد تُعدّ الأكثر أمنًا بين الولايات الجنوبية كلّها.

تقهقرت كارينا بعيدًا عن الضفّة، وتفقّدت بستان الخضروات. بعد أسبوع من هذه اللحظة أخبرت الآنسة

سارات أنها كانت تخطط لزراعة خضروات حين وصل قارب للمتمرّدين يحمل أكياسًا من التربة السوداء الثقيلة. كانت تربة شرقية خصبة حاولت كارينا أن تغرس فيها البنجر والفجل والزّاوند والخسّ والبازلاء الجنوبيّة. لكن حتّى حين سقتها بانتظام وحرستها من الحرارة الزائدة، رفضت الجذور أنْ تضرب في التربة الغريبة. لكنها أبصرت هذا الصباح عسلوجًا: نبتة جنينيّة صغيرة بزغت من الأرض. كانت خضرتها شاحبة كشبح، فأدركت أنّها لن تبقى حيّة. لكن ربّما حيث تنمو الجذور في مكانٍ ما في الأسفل، تترك خلفها جيناتٍ وراثيّة أو خارطة عمل، تدفع ما ستغرسه هنا لاحقًا للنموّ أكثر.

* * *

غادرت البستان. أبصرت شيرلين تمشي بتؤدة عبر الفناء. كانت كارينا قد ظلّت فترة من الزمن، في بداية عملها لدى أسرة شستنت، تتساءل عن سبب وجود صناديق تضمّ قواقع وصراصير بين المؤن الأسبوعيّة في كثير من الأحيان. ثمّ أبصرت السلحفاة ذات يوم تتهادى داخل البستان. عادت إلى النهر حيث جثم صندوق تحلية مياه بالقرب من الضفة. كان في حجم وثقل ثلّاجة، فاضطرّ المتمردون إلى الاستعانة بزورق جزار قديم يعمل بالوقود الأحفوري لجرّه إلى منبع النهر. وهناك ثبّتوه فوق ألواح خشبيّة عريضة ودسّوا خرطومه في قلب النهر المالح.

فكّت الألواح الشمسيّة ووجهتها ناحية شمس الصباح. راحت تمتص النور ببطء، فدارت الماكينة، وسرعان ما بدأ الشفّاط يئزّ. وشرعت الآلة في تحلية ماء النهر الّذي عكّرَه الطين والملح القادم من بعيد حيث يدفع به المُحيط إلى البلاد الغارقة. خلال ساعة أنتج الصندوق بالطاقة الشمسيّة جالونين من الماء العذب، راحا يقطران نقطة نقطة داخل جرار زرقاء. كانت الآلة تنتج ضعفين بالوقود الأحفوري القديم. وكانت كارينا تعرف أنّ الآنسة سارات قد أمرت أن يعتمد المنزل بالكامل على الوقود القديم المحظور، لكن الألواح كانت تضطلع بالعمل بكفاءة، لذا كانت كارينا تتدبّر أمرها بما تهبه الشمس حين تغيب المرأة الشابة أسابيع في الغابة الشمالية على خطّ تينيسي. لم يكن تصلّب الآنسة دانا فيما يتعلّق بهذا الأمر يقل عن شقيقتها، لكن حين تغيب سارات لا يبدو أنها تكترث للأمر برمته بأي شكل. هكذا، متى رجعت الآنسة سارات عاود المنزل القعقعة وفاحت منه رائحة مولّد الديزل البالي. ما من فائدة في نقاش هذا؛ إذ لا تحمل الآنسة سارات أي نوايا للتفاهم.

اقترب زورق للمتمردين، ميزت كارينا الشاب الواقف خلف دفّته. كان هنري الألابامي، أحد فرسان فرجينيا السابقين. كان اتحاد المتمردين في أطلانطا قد نجح خلال الشهور الستة الأخيرة في ضم أغلب الجماعات الثوريّة تحت راية واحدة، لكن بعض الرجال ما يزالون

يتمسكون بانتماءاتهم القديمة، وكشكل من أشكال الاحتجاج اتخذوا من أسماء الولايات التي ولدوا بها ألقابًا لهم. اتجه هنري إلى الضفة الموحلة حيث تقف كارينا وألقى المِرساة. «صباح الخير يا عزيزتي.»

«صباح الخير يا هنري. متأخر كالعادة.»

«لِمَ، هل تمرّين بيوم صعب أو ما شابه؟ ليست إلا ساعة.»

رفعت كارينا تنورتها حتى ركبتيها وتقدّمت إلى داخل النهر. حاذت هنري وحملت كيس بقالة ضخم، ثمّ تبعها المتمرّد يحمل ثلاثة أكياس أخرى. «ضعها هنا.» هتفت مشيرةً إلى الأرض المجاورة لبستان الخضروات.

«سأحملها عنك إلى الداخل. لا مشكلة.»

«بل هنا. لا بأس بذلك.»

وضع هنري الأكياس، ثمّ رجع إلى الزورق وأخرج صندوقين معدنيين مقفلين وضعهما بعناية إلى جانب الأكياس. بعدئذ حمل بمساعدة كارينا برميل نفط من الزورق ونقلاه إلى سقيفة إلى جانب المنزل. فتحت كارينا القفل ونزلا معًا فوق الدَّرَج. هنا، أخفت أسرة شستنت المولِّد الناعب. فاحت في الحجرة المعتمة شديدة الرطوبة الرائحة الطاغية للوقود الأحفوري القديم. دائمًا ما كانت رائحته تعيد الذكريات القديمة إلى عقل كارينا، ذكريات طفولتها التي قضتها على الجانب الآخر من الدنيا: تزوّد السيارات العسكريّة

بالوقود؛ حرائق هائلة جامحة غير قابلة للإخماد؛ جروح كانت ترعاها في نور المصابيح الأمامية. لا ريب أنّ رائحة أي وقود ينتمي للعالم القديم كانت تمثّل بالنسبة لها رائحة الحرب.

عادا إلى ضفّة النهر حيث توقّف هنري برهة يحدّق في كارينا. ثمّ ابتسم. «إذن، هل ستعودين معي أم ماذا؟»

«عُد لديارك يا هنري.»

«اخرجي إلى أوجستا واقضي يومين فيها وحسب، ولو لمرّة واحدة. أعطني الفرصة كي أريك ما حول المفشى الخشبي. إنهم يعرفونني في تلك الحانات كلّها. ستقضين وقتًا ممتعًا. أعدك.»

«وما رأيك أن نرى ما تُسفر عنه هذه الحرب أولًا؟ لا أرغب أن ينتهي بي الحال برفقة رجل من الجانب الخاسر.»

«ربّاه، لقد كان الأولاد على حقّ! لقد هرمتِ جدًا وأصبحت غير صالحة للمرح.»

ابتسمت كارينا. «شكرًا على البقالة يا هنري. ثق أنني سأخبر الآنسة سارات عن مرورك.»

اختفت الابتسامة الشيطانية من وجهه، فتقهقر ببطء إلى الزورق وخاض إلى قلب النهر وسرعان ما غاب. حملت كارينا الصندوقين المعدنيين إلى حافّة الفناء حيث تنتصب قُفرة خشبية ارتكز مصراعا بابها على مفصلات صدئة بينما أوصِدَ بعتلة ممرّرة داخل حلقتين.

كان وجود القمرة يسبق وجود المنزل والأشجار بفترة طويلة، بل تمتد تلك الفترة إلى ما قبل مَحْو البحر للمدن الساحليّة وفيضان النهر خارج ضفتيه القديمتين. كانت ألواح القمرة الخارجية من خشب باهتٍ كثيرِ العُقد، مُلطَخ بخطوط حمراء قاتمة، كأنّ الخشب نفسه أصابه الصَدأ. رفعت كارينا العتلة فانفتح الباب. حملت الصندوقين إلى الداخل ووضعتهما فوق طاولة عمل. كانت القمرة خالية: الأرفف فارغة، والنوافذ مغطاة بأغطية البزّ والإحسان القديمة. سرعان ما ستعود الآنسة سارات وتفتح الصندوقين وتحمل محتوياتهما لمكانٍ ما بعيد، فتعود القمرة خالية من جديد. وإلى ذلك الحين، كانت لدى كارينا تعليمات ألّا تلمس الصندوقين وأن تستبدل العتلة بقفل رقمي. عدا ذلك، لم يكن مسموحًا أبدًا لها أن تطأ القمرة، ولا أن تدع سيمون يتجوّل بالقرب منها حين تصطحبه أثناء النزهة اليوميّة. كانت تعرف ما بداخل الصندوقين. كما كانت تعرف بطريقة مبهمة غير معلنة ماهية الآنسة سارات. كثيرون كانوا يعرفون أيضًا. رغم ذلك لم ينطق واحد منهم بحرفٍ قط. كانت أسرة شستنت تمشي في أرجاء لينكولنتون محاطة بهالة من القداسة: هؤلاء الذين نجوا من المذبحة؛ أبطال قضيّة الجنوب. وفي أطلانطا، كان السياسيون يكتبون إليهم رسائل تضامن. وفي أوجستا، ما من ملّاح لا يعرف أسماءهم ولا تقاضى صاحب حانةٍ

ثمنَ مشروبٍ منهم يومًا.

كانت كارينا تعرف. لكن بخلاف الآخرين، لم تكن الآنسة سارات تروق لها أو تدفعها على تبجيلها. كانت الفتاة ما تزال طفلة، في السابعة عشرة من عمرها، أقلّ من نصف عمر كارينا. علّمتها التجربة أنه ما من جنديّ كفء إلّا وهو مثقل بعبء الخوف، كطفلٍ تحطّم مبكّرًا. وكانت تعرف من الأنباء ومن ثرثرة أبناء البلدة ما كابدته الفتاتان. ولأنّها كانت تعرف، وعت. لكن ذلك لم يكن يعني أنها مضطرة للإعجاب بها.

حملت كارينا الأكياس إلى داخل المطبخ. كانت عامرة بمؤن نادرة، أشياء لا يمكنها الحصول عليها من البلدة: شاي صيني أسود؛ ضمادات للجنود؛ مسكّن للألم بونسيترز؛ مضاد للتشنج من أجل سيمون؛ كافيار من الاتحاد الروسي. أعدت الفطور. لم يكن سيمون يتناول البيض إلا ممزوجًا وسائلًا، دون ملح أو زبدة. عند الظهيرة، حين يوشك على إغماض عينيه، كانت تعدّ له شطيرة من معجون شيكولاته وهلام مشمش. كان يشمها ويظلّ بعدها عدّة ساعات ملؤه حماس وحيويّة.

خلال تلك الساعات، بعد عودة الحجّاج البكّائين الّذين جاءوا لرؤيته، كانت تصطحبه للتنزّه في الغابة. كانا يبقيان معًا أيامًا كثيرة، ترحل خلالها الآنسة سارات إلى أماكنها السريّة وتغادر خلالها الآنسة دانا إلى مرافئ أوجستا؛ يمشيان بمفردهما تُعانق كفُّها كفَّه. كان يبتهج

لمرأى مسارات البوارج المتعرّجة، وطقطقة الأوراق الميتة تحت الأقدام، والطريقة التي يسقط بها ضوء الشمس على مؤخّرة رأسه حيث لم يعد ينمو شعر. كان يرى أحيانًا زهورًا أرجوانية وبرتقالية نابتة من الأرض: حياةً غريبة لم تُعقها الحرارة الشديدة ولا العواصف المتكررة. وأحيانًا أخرى كان يُشير إلى الزهور وإلى كارينا التي تجهل أسماءها، فتخترع لها أسماءً: *بيجويسيس؛ مورننج هالوز؛ لافيولاس؛ وساوزرن لافيولاس.*

بعد أن فرغت من إعداد الفطور، أيقظت سيمون. كانت حجرته تُشبه باقي المنزل، قاحلة. لا شئ إلا منضدة وخزانة ثياب وفراش ينام عليه. فرضت الآنسة سارات مبدأ بشأن الزخارف داخل المنزل: ألّا يوجد منها شي: لا دهانات ولا صور فوق الجدران ولا مزهريات للوَرد في حجرة المعيشة، بل ولا سجادة للترحيب في الشرفة. ثمّة دوّارة معدنية كانت مثبتة فوق السطح، ديك فوق سهم دوّار، صعدت الآنسة سارات في اليوم التالي ليوم وصولهم، وانتزعته. الاستثناء الوحيد كان تمثالًا قبيحًا من الخزف للسيدة العذراء وُضِع فوق المنضدة الموجودة في غرفة سيمون. كان التمثال قد تصدّع في مليون موضع، وبدا أنه يُراكم الغبار أسرع من أيّ سطح آخر داخل المنزل. لكن الآنسة سارات أمرت كارينا ألّا تلمسه أبدًا.

أيقظت رائحتها سيمون حتى قبل أن يكتمل دخولها إلى الحجرة: عطرُ الفانيلا والخزامى بالغ الحلاوة الّذي كانت تعلم أنه يُحبّه. استيقظ مبتسمًا يمدّ يده نحوها. ارتدت الألوانَ التي يحبّها. ألوانًا دافئة زاهية: درجات الأحمر والأصفر، وزهرة عبّاد شمس مطبوعة فوق تنّورتها الفضفاضة. جثت إلى جوار سريره، وعلى الفور لامست كفّاه كفّيها. مال وقبّلها فوق وجنتها، قُبلة مبلّلة؛ إذْ كان ريق النوم لا يني يبلّل شفتيه. كان هذا تقدّمًا، خُطوةً أخفتها عن التوأمتين. كانتا تعرفان أنه بدأ بتذكّر الأسماء وردّ التحايا، وتعتقدان أنه بدأ يرتدي ثيابه بنفسه، لكنهما كانتا تجهلان أنه اكتسب قدرة وجدانيّة.

«صباح الخير.»

أجابها سيمون، يردّد إيقاع كلماتها والتغيير في نبرات صوتها: «صباح الخير.» ساعدته في خلع البيجامة وارتداء قميص أبيض نظيف بنصف كمّ، وبنطالٍ رياضيٍ تمطّط حول خصره الذي امتلأ مع الوقت. كانت تعتبر الزيادة الجديدة في الوزن، وحلقة الدهون الحديثة المُحيطة ببطنه، علامات زائدة على تعافيه. لم يكن يتناول خلال الأسابيع الأولى التي تلت وصوله إلى المنزل إلا الحليب ومعجون التفّاح المهروس. وذات صباح سيء، اكتشفت الأسرة أنه اكتسب فزعًا حدّ الشلل ولّدته رائحة اللحم المطبوخ. بات الآن يأكل. صعب الإرضاء ومُضجر، لكنه بات يأكل.

أرشدَت سيمون إلى كرسيّ أمام طاولة المطبخ. ثمّ عادت إلى غرفته ورتّبت الفراش الّذي تغطيه ملاءات أنيقة هرّبها المتمردون، مصنوعة من أرقى أقطان البوعزيزي.

***

جاءت النساء لزيارته في الظهيرة. وصلن مبكرًا عدة دقائق. أبصرتهن كارينا من نافذة غرفة المعيشة، يتسكّعن أمام البوابة الصغيرة عند نهاية الطريق. تركتهن ينتظرن. تعرف أنها إنْ سمحت لهن بالدخول مبكرًا عدّة دقائق فسيُبكّرن لاحقًا في الحضور أكثر، وستعرف أخريات ويفعلن الشيء نفسه، إلى أن يفسد الجدول الّذي اجتهدت من أجل الحفاظ عليه.

في الثانية عشرة تمامًا، قطعت الدرب الترابي وقابلت النسوة. كنّ يتصببن عرقًا بينما ينحشرن داخل التوكتوك: كانت سائقته امرأة اسمها الأوّل كريستين، لكنّها طلبت من الجميع مناداتها باسم الأرملة بنتلي. جلست ابنتها ليزلي إلى جانبها، وجلست أمّها إلينور في الخلف. فتحت كارينا البوابة. لوهلة، دارت عجلات المركبة دون جدوى فوق التراب، قبل أن تتحسّس الطريق في اتجاه المنزل. تبعتهم كارينا بتأنٍ. وحين وصلت، كانت الأرملة بنتلي وابنتها تساعدان أمّ الأرملة على النزول من المركبة الصغيرة. كانت المرأة العجوز، إلينور، مصابة بسرطان الرئة، ورغم ما كانت تعانيه

الابنة والحفيدة من آلام كي تمدّانها بالأمل، غير أنه بدا أنها قد استسلمت لحقيقة أنها تحتضر.

وَلعت الأرملة بنتلي بارتداء الثياب السوداء، بلوزات طويلة الأكمام وتنانير سوداء، منذ وفاة زوجها منذ عام أثناء غارة حمقاء للمتمردين على إيستريدج. وأجبرت أمها وابنتها على ارتداء الثياب نفسها فتدلّت فضفاضة حول خصر العجوز المهزول، ثابتة مرتخية كأنها راية مشبعة بالماء. كانت كارينا تفقت رؤية الأرامل بثيابهن السوداء. كُنّ يُفزعنها كأنهن زفات أو بقايا من أنفسهن صنعنها بأنفسهن! جامدات داخل تبجيل لا ينقطع لرجالٍ طائشين أو حمقى أو محض رجال بائسين، إمّا ماتوا أو تاهوا في بلاد الله الواسعة.

لا يلبس الأزواج الأسود أبدًا. لا يحبسون أنفسهم قطّ داخل هذا الإعلان السلبي، ولا يضطرون لإتعاس العالم من حولهم بالسير في ملابس الحداد ما تبقّى من حياتهم. مسموح للأزواج بالغضب، بالحنق، بالثأر لمن فقدوه عبر تشويه وإيقاع الأذى نفسه الّذي ألمّ بهم في الآخرين. بدا هذا لكارينا دليلًا إضافيًا على أنّ زمن الحرب هو الزمن الوحيد الّذي صار فيه العالم بسيطًا وضاريًا في تحرّره كما ينبغي له أن يكون، كما في أذهان الرجال. بعض النساء اللائي قابلتهن لم يعدن يستخدمن أسماءهن، فلم تكن تعرفهن إلا كأرملة فلان أو أرملة علّان، لكنّها لم تلتق قط أرملّ فلانة أو علّانة.

لقد عاشت أكثر من نصف حياتها في الجنوب، مع ذلك ما تزال تشعر أنها غريبة. كانت ابنة أناس طيّبين: والدين محليّين من بنغلادش، يتحلّيان بذهنين شائكين وبارعين في التحليل، ما جعلهما يتغلّبان على النزاع الدائر والفقر الشديد، ولم يكن لديهما لا الوقت ولا الصّبر للمسائل العاطفيّة. شهد أبواها منذ شبابهما أسوأ ما في الحرب: مواكب الموت المتجهة إلى الشمال هربًا من ارتفاع منسوب البحار؛ ومجزرة أرونشال؛ وثورات الرّبيع الأربعة الفاشلة. هكذا نذرا نفسيهما للتخفيف من هذه المعاناة حيث صادفاها.

أولى ذكريات كارينا كانت عن مستشفيات ميدانيّة، وأغطية أسرّة مكسوّة بالدماء، وهزيم فوّهات بنادق الحرب المدوّية. لقد شهدت التوسّع الروسي الأخير؛ وحروب فتح أقصى أطراف البوعزيزي. درزت أوّل جُرح وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وربطت أوّل وريد وهي في الخامسة عشرة. كانت تعرف الحرب حقّ المعرفة، تعرفها أكثر من أولئك الأرامل الواهمات المتمسكات بالشعائر. وكان تعي، وهو ما لا تعيه تلك النسوة اللائي يزرن سيمون لِلَمس جبهته، أنّ شقاء الحرب يمثّل لغة العالم الحقيقيّة المشتركة الوحيدة، وأنّ المتحدّثين بتلك اللغة يسكنون أركانًا مختلفة في الدنيا. لم تكن كلمات الصلوات التي يتلونها هي نفسها، ولا كانت الخرافات الفارغة التي يتشبثون بها بقوّة هي

نفسها أيضًا، ومع ذلك كانت الصلوات إيّاها، والخرافات إيّاها. لقد حطّمتهم الحرب بالطريقة ذاتها، وأصابتهم بالفزع نفسه والغضب إيّاه ما أفضى إلى رغبات في الانتقام متشابهة. لكن في أوقات السِّلم والحظّ الطيّب، كانوا يتجرّدون من كل تلك الأشياء التي تربطهم. كان شعار الحرب الجامع، الذي تعلّمْته، بسيطًا: لو تعرّضت للموقف نفسه، لقمتُ بالشيء نفسه.

* * *

تقدمت النساء إلى حجرة المعيشة. سألتهن: «هل ترغبن في شرب شيء؟» وأجابتها ليزلي: «ماء.»

سقطت الفتاة المراهقة فوق الأريكة الأبعد عن مكان جلوس أمّها وجدتها. ثمّ أطلّت من النافذة تراقب النهر الجاري. قالت الأرملة بنتلي: «تغمرنا رؤية سيمون بسعادة بالغة يا عزيزتي. أدخِليه الآن.» غادرت كارينا النساء وخرجت إلى الباحة الخلفية. وجدت سيمون يجلس عند المرسى الطيني حيث ترسو قوارب المتمردين، يُلقي أغصانًا مكسورة في تيار الماء. «قلت لك ألّا تدنو هكذا!»

رفع ناظريه إليها وابتسم. له وجنتان ريّانتان خاليتان من الزّغب، لكنّه عندما يبتسم كانت ابتسامته تُخفي امتلاءهما فيبدو كالمفزوع. «عندكَ ضيوف.» ثم ساعدته للوقوف على قدميه ونفضت التراب الطريّ عن مؤخّرة بنطاله. «زيارة مدفوعة.»

كرّر سيمون: «زيارة مدفوعة.»

تقدّمته إلى داخل المنزل. كادت الأرملة بنتلي تثب من مقعدها كي تلمسه حين دخل غرفة المعيشة. وهتفت: «مرحبًا يا سيمون.» لقّنت كارينا سيمون ما يقول: «مرحبًا سيدة بنتلي.» وقلّدها سيمون: «مرحبًا سيدة بنتلي.» وضعت الأرملة يدها فوق وجه سيمون، وتابعت: «كيف حالك اليوم يا حبيبي؟» أجابت كارينا: «بخير.» كانت تعرف مدى حنق الأرملة بنتلي حين تُقحم نفسها في الحديث، فكانت تقحم نفسها في الحديث قدر استطاعتها. «عزيزتي كارينا، هل من الممكن أن تعدّي لي ولماما كوبين من الشاي؟ ذلك أنّ حلقها يؤلمها منذ الصباح.» تركت كارينا النساء برفقة سيمون واتجهت إلى المطبخ. وضعت الماء ليغلي وأخرجت كيسين من شاي *ميسيسيبي بريكفاست* من خزانة المؤن؛ إذ لا نية لها لأن تهدر الشاي الصيني الطيب على الزائرات. في حجرة المعيشة، تابعت الأرملة بنتلي ربتاتها على وجنتي سيمون. «كيف هو نومك يا حبيبي؟ هل تنام جيدًا؟» فصاحت كارينا من المطبخ: «كطفلٍ صغير!»

كانت النساء قد انخرطن في طقوسهن بالفعل عندما رجعت إلى حجرة المعيشة. أخذت الأرملة بنتلي كفّ أمّها في يدها، ووضعت اليد الأخرى فوق جبهة سيمون. كان الكتاب المقدّس في حجرها. كأنهن، الثلاث، محور

عظة معالجٍ روحانيّ متشنج لطرد شيطان يتلبّس الروح. وضعت كارينا كوبَي الشاي فوق الطاولة لكن النساء تجاهلنها. كانت الأرملة بنتلي تتلو الصلوات نفسها التي تتلوها كل مرّة تأتي فيها للزيارة، المزامير التي تحفظها عن ظهر قلب:

لأنّك يا رب توصي ملائكتك أن يحفظوني
أن يحرسوني في طرقاتي كلّها،
وعلى الأيدي يحملوني
كي لا تصطدم رجلي بحجر...

كانت الأرملة بنتلي تغمض عينيها أثناء تلاوة صلاواتها وترتجف يداها ويرتعش صوتها. وكانت أمّها ترمقها بسماحة خاضعة، في حين أطلّت الابنة من النافذة ترمق النهر الجاري. حين انتهين، مسحت الأرملة بنتلي عينيها واجتاحها تأفّف ما بعد التطهّر العميق؛ تنشد البقاء برفقة سيمون قدر الإمكان. لكن الوقت الّذي اشترته نفد. رافقت كارينا النساء إلى مركبتهن، وقبل أن تغادر، دفعت الأرملة بنتلي رسمَ الزيارة: خمسمائة دولار جنوبي. أخذت كارينا المبلغ وشكرتها.

قالت الأرملة بنتلي: «ثمّة شيء آخر. نرغب أن تُسدي لنا خدمة.» مدّت الأرملة يدها تحت وسادة مقعد التوكتوك الخلفي وأخرجت صندوق أحذية. فتحتها أمام كارينا. كان يحتوي على لفائف الواحدة فوق الأخرى من الدولارات الجنوبية: مائة ألف دولار، وربّما أكثر. «لقد

سحبنا المبلغ من مصرف *فرست ساوزرن* هذا الصباح. كان مدير المصرف يرفض بقوّة صرفها لنا، لكننا قلنا له إنها نقودنا، وأنه لا يمكن أن يبقيها عنده رهينة.»

«وماذا تريدين أن أفعل بها؟»

«احتفظي بها لأجلنا. من بعد ما جرى في بيشنس، ساءت الأمور من جديد. هنا في أطلانطا، تنخرط دولة الجنوب الحرّة واتحاد المتمردين في قتال فيما بينهما لتحديد من يُدير البلاد، رغم أنه ما من طرف منهما له سيطرة حقيقية على أي شيء. القتال يشتد سوءًا والجميع ينتظر إجهاز الشماليين على تينيسي. آنئذ تعرفين أن الجميع سيركضون إلى المصارف وأنّ الرئيس كيرشاو سيغلقها في وجوهنا كي لا تُفلس ولايات *الماج*. كل ما نريده منك أن تحتفظي بالمبلغ لأجلنا- احتفظي بها حيث يمكث الصبي. هذا كل شيء. ولا تظني أننا لن ندفع لك مقابل ذلك.» وضعت المرأة صندوق الأحذية بين يدي كارينا. وأبصرت الراعية بطرف عينيها نظرة إزدراء على وجه ابنة الأرملة، فقالت: «إنه مُجرّد صبيّ يا كريستين. ليس مصرفًا. لا يدفع فائدة ولا يشتري أسهمًا أو أي شئ آخر. ليس إلا صبيّ.» أخرجت الأرملة خمسمائة دولار أخرى من محفظتها، وقالت: «لا نريد فائدة. ولا نريد أسهمًا. كل ما نريده أن تبقى نقودنا معه. فمَن يرعاه يكفينا.»

راقبت كارينا النساء يرحلن فوق الطريق الترابي. كانت

أحيانًا ما تحتقر الناس من أمثال الأرملة بنتلي بسبب إيمانهم بالغ الشدّة في مسابحهم وابتهالاتهم الساذجة. لكن أكثر ما كانت تزدريهم لأجله هو أنها خلال السنوات التي قضتها في رعاية صفوفهم، كادت تؤمن بالأشياء نفسها: معتقداتهم الخرافية نفسها؛ وابتهالات لدرء غضب الطائرات دون طيّار نفسها؛ وسقم أهل كارولينا المُحاصرين؛ ومسارات تحليق الأشباح خلال دقيق الذرة.

لمّا اختفت النساء عادت تدخل المنزل. كان سيمون مكوّمًا فوق الأريكة يضغط ركبتيه في صدره، يغطّ في نومٍ عميق. تساءلت برهة بشأن ما تفعله بالنقود. لو أنّ لديها أدنى اهتمام بتحقيق أمنيات الأرملة، لدسّتها أسفل فراش سيمون إلى جانب الكتاب المُقدّس والأوراق الجافّة. خلاف ذلك، يُمكنها أن تخفيها داخل السقيفة إلى جانب صهاريج الوقود. لكنها كانت تخشى حقيقة أنّ الآنسة سارات لا ريب ستجد النقود في أيّ من تلك الأماكن. وساعتئذ ستوبّخها بصوتها المتجهّم الخشن لأنّها أعطت لنفسها حريّات ليست لها. أو الأسوأ، ألّا تقول شيئًا ويختفي المال ذات يوم بكل بساطة، بعد أن تتصدّق به من أجل قضيّة ثورة الجنوب المجيدة.

أبصرت من نافذة المطبخ وهي تقلّب تلك الأفكار في رأسها، ظلًّا أسود ينعكس فوق صفحة النهر. فجثت على الفور أسفل لوح المطبخ في انتظار مرور الطائرة دون

طيار. كانت تعرف أنها تمطر الموت كيفما اتفق، وأنّ اختيارهم لو كان قد وقع على تلك المنطقة، فهي ميتة لا محالة. مع ذلك، انحنت أسفل اللوح في ردّ فعل لا إراديّ طلبًا للنجاة.

مرّت دقائق، فوقفت ونظرت من الشبّاك. كان الظلّ الأسود قد اختفى. خرجت إلى الفناء وجثت في بستانها القاحل وحفرت عميقًا داخل التراب. جاوزت الأماكن التي ترقد فيها أجنّة الفواكه داخل بذورها إلى أن بلغت التربة تحتها أخيرًا. وضعت صندوق الأرملة داخل الحفرة، ثمّ أهالت عليها التراب.

***

تحرّك الجنديّ الشاب داخل برج الحراسة ببطء وعلى إيقاع نبضات قلبه. كانت سارات تعرفه أكثر ممّا يعرف نفسه: طفلًا جاء إلى بلاد الشمال الفقيرة، ابن مزارعين، أو ربّما هارب من كاليفورنيا الظمآنة أو أحد سكّان داكوتا المحطّمة، من حزام ما بعد حظْر الوقود الأحفوري. كانت تعرف أنه صار جنديًا لا في سبيل الله ولا في سبيل الوطن، بل هربًا، فرصة كي يصبح شيئًا غير أبيه، أن يراوغ حياةً قضاها في لحام ظهور الألواح الشمسيّة أو الخوض حتى كاحليه داخل القذارة في المزارع الرأسية. أن يصبح أي شيء، أي شئ آخر. وإن عنى ذلك أن يحمل بندقية يُطلق منها النار على فرْدٍ مموّهٍ مبقّعٍ بالسّواد، فليكن إذن. لم تتكلّم مع الجندي

قط، ولا رآته قبل هذه اللحظة قطّ. مع ذلك كانت تُدرك خبايا روحه.
حدّقت سارات عبر منظار بندقيتها المقرّب، وطفا رأس الجندي أمام نقطة التسديد، كطوفٍ يسبح على غير هدى.

***

كانت الأسابيع التي تلت مجزرة بيشنس هي الأحلك. بدا لهما المنزل الّذي حصلتا عليه تعويضًا عمّا أصابهما غريبًا. كانت الفتاتان تنامان سويًا كلّ ليلة داخل حجرة يغمرها الضوء، وقد أوصدتا النوافذ بألواح من الخشب. مع ذلك، عجزت دانا خلال الليالي الأولى عن النوم. كانت تتمدّد متجمّدة إلى جانب سارات، يتملّكها يقين أنّ الرجال الّذين قتلوا أمّها وأخيها سيعودون ويقتلونها هي وأختها. وفي اليوم الخامس، حين جاء الجنوبيون الأحرار من المستشفى يحملون معهم هيكل أخيهم الحي الّذي ظنّت هي وأختها أنّه مات، أطلقت دانا صيحة. ذلك أنّ المجزرة كانت مستمرة الآن على نحو ما.
لم تبدأ سارات في ترك أختها والانطلاق إلى العالم الخارجي إلا بعد استقرار حياتهم الجديدة واستسلامهم لروتين منتظم. انطلقت أوّلًا إلى أطلانطا حيث تقدّمت بعريضة إلى اللجنة المسؤولة عن التحقيق في أحداث القتل في بيشنس تطلب معلومات عن زفات أمها، رغم

أنها تدرك في أعماقها أنّ كل ما تبقّى منها هو الرّماد.
واحدًا تلو الآخر، عرض عليها موكب متعجرف من الشخصيات الجنوبيّة الرّفيعة أفكاره ودعواته ووسائل الاتصال بالمساعدين. وأطروا على رزانتها وحكمتها في التعاطي مع الموقف.
سرعان ما أدركت أنّ النجاة من الأعمال الوحشيّة يعني التعيين قنصلًا فخريًا لجمهورية الألم. حيث تتحكّم بروتوكولات غير مُعلنة بالطريقة التي كان من المتوقّع أن تتعذّب بها. كان الانهيار العصبيّ الكامل والإخفاق في البكاء بسخاء انتهاكًا لتلك القواعد. لكن كما يكون غياب العذاب، يكون وضوح المغفرة. ما كان مسموحًا لها ولأمثالها هو ثكلٌ هامد، الحقّ في الوقوف أمام كاميرات المصورين الصحافيين وهم يحملون بين أيديهم صورًا مؤطّرة لأقاربهم الموتى، الحقّ في المشي في مواكب صاخبة لكن غير فاعلة، الحقّ في المطالبة بوضع حدّ لنزيف الدماء كأنّ نزيف الدماء آفة ما أو شخصًا مُشرّدًا يُمكن طرده أو إبعاده من المدينة. بقدر إخلاصها لتلك المبادئ، والتزامها بالتحرّك داخل تلك الهوامش، بقيت مؤهّلة للتعاطف العام الكبير.
لكن أيًا من ذلك لم تكن سارات تعبأ به. كانت تترك لكارينا، المُساعِدَة المستأجرة، مهمّة التعامل مع الأرامل الباكيات اللائي يجئن لزيارة أخيها ولمس الجرح في جبهته. وعندما جاء سياسيّو دولة الجنوب الخرّة من

أطلانطا لتقديم لوحات وبيانات التضامن المؤطرة إلى أسرة شستنت والتقاط الصور برفقة الناجين من مذبحة مخيّم بيشنس، هربت من باب المطبخ وهامت في الغابة وبقيت هناك حتى انصرفوا. لا يظهر في تلك الصور القليلة التي بقيت إلى اليوم، مبعثرة داخل أرشيفات دولة الجنوب التي لا تُحصى والملفات المُجفّعة لسياسيين ماتوا منذ زمن طويل، إلا دانا إلى جانب المصافحين السعداء من أطلانطا، ترسم ابتسامة مشفقة وزائفة بالكامل.

خلال الشهور الّتي تلت ذلك، بعد أن هدأت كوابيس دانا وانتهت عاصفة الاهتمام المحيطة بمذبحة مخيّم بيشنس ورحيل الصحافيين والسياسيين، أولت سارات اهتمامها للشئ الوحيد الّذي يستحق الاهتمام: الثأر؛ الجرح الّذي لم يلتئم. ظلّت طوال أسابيع تخرج في وقت محدّد إلى الغابة في *تالاديجا*، حيث كان لألبرت جينز كوخ متداع. هناك، علّمها إطلاق الرصاص. في البداية سألها إن كانت تفضّل أنْ تجعل من نفسها سلاحًا، أن تصير مِمَن يُطلق عليهم الشماليون وصف الانتحاريين. لا ترعبها الفكرة، لكن خاطر التخلّي عن دانا وتركها وحيدة ترعى ما تبقّى من أخيهما، كان أبهظ مما يطيقه ضميرها. مع ذلك أرادت أن تقتل. هكذا سحب جينز بندقية الصيد القديمة من فوق الرف ودرّبها على قنص عُلب الصودا فوق أعمدة أحد الأسوار.

لم يغلَق شيء مما تعلّمَته في رأسها أوّل الأمر؛ لا لأنّ البندقية نفسها نادرًا ما كانت تطلق رصاصة، أو بسبب منظارها المنحرف، أو زنادها غير الجدير بالثقة، بل لأنّ مشهد ما مرّت به كان ما يزال ماثلًا أمامها. كانت تتخيّل وجوه أولئك الشماليين الّذين رأتهم ليلة بيشنس مرسومة على علب الصفيح، فتسيطر عليها تلك الهلاوس البصريّة ويتملّكها الغضب ورغبة مسعورة في تدمير من دمّروها. كان الغضب يلفّ نفسه حولها مثل عاصبةٍ لوقف النزيف، تُبقيها حيّة حتّى وهي تهدّد جزءًا منها بالضمور.

كان أشقّ ما عليها تعلّمه هو السكون. حتّى بعد أن بدأت أخيرًا في إصابة عُلّب الصّفيح وتدرّجت إلى قنص الفئران، كان أكثر ما يشقّ عليها أوامر جينز أن تتعلّم البقاء ثابتة في مكانها ساعات كل مرّة. أحيانًا كان يضبطها نائمة في مكانها بينما حشرات الغابة تزحف فوقها. كان يقول إنّ أهم جزء في مهمّة الصيد هذه هو أن تذوب فيما حولها، أن تصبح الأرض. لكنها كانت تريد الحركة، كل خلاياها كانت تطالب بالحركة.

في أحد الأيام زار جو الكوخ. كانت سارات لم ترَ جينز يستقبل زوّارًا قط أثناء الفترة التي أمضتها هناك. لكن جو جاء كأنّها ليست زيارته الأولى، كأنّ الكوخ له بالقدر نفسه الّذي يملكه جينز. يومها قال لسارات: «لديّ هدية لك. شئ يساعدك في مهمتك.» كانت البندقية التي

أعطاها لها سلاحًا رائعًا. بندقية QBU-20 مهرّبة على متن سُفن الإحسان داخل كيس أرز. ما كانت بندقية جينز القديمة تُخطئه كانت تصيبه البندقية الجديدة بدقّة جرّاح.

تعلّمت كيف تفكّها وتعيد تجميعها، وكيف تضبط حالتها المزاجية. وجعلت تطبع علامات صغيرة بدهان الأصابع الأحمر فوق دعامة الكتف السوداء، تخلّد بها المرّات التي اصطفّت فيها روح السلاح إلى جانب روح مُطلقة النار، مع أنّ كل ما كان يلقى حتفه نتيجة ذلك الاصطفاف ليس إلا فأرًا مسكينًا. أطلقت على بندقيتها اسم *تمبلستو* وهو اسم أوّل متمرّدة حقيقية في الحرب الأهلية الثانية، المرأة التي قتلت رئيس الاتحاد الأحدب في جاكسون.

يومها قال جو أيضًا: «هكذا أستطيع مساعدتك. ففي النهاية، ليس إلّاكِ من يعود إليه الأمر في كيفية الاستفادة من تلك المساعدة. علينا السلاح، وعليكم الدماء.»

أدركَت أخيرًا ما كان يعنيه.

* * *

رقدت سارات دون حراك فوق قمة تلّ منبسطة، مختبئة بين الأغصان والقصب. انحدر التلّ خلفها رويدًا رويدًا حتى حدود جورجيا. تخلّلت الأرض شبكة من الأنفاق حفرها متمرّدون. أمامها على مسافة مِيل انتصب جدار

هافواي برانش الجنوبي، أوسع قواعد التشغيل الشمالية على خطّ تينيسي، الّذي تمتد خلفه أطراف جبال سموكي التي لوّنها الغسق. كانت قد استغرقت أسبوعًا كي تتمكّن من الاقتراب كلّ تلك المسافة، أنفقته في حركة بطيئة عبر الأنفاق الحجريّة، مُصغية لوقع خُطى الدوريات المارّة، ومن ثمّ عبر الغابة. كانت تنتقل ليلًا بين أشجار الجوز، وحين بلغت أخيرًا ذروة التل، انتظرت ثلاثة أيام أخرى اعتاشت خلالها على الأطعمة المجففة التي تدفن بقاياها في التراب. ظلّت تسلّط منظارها المقرّب على المعبر الجنوبي بالهافواي برانش طوال ثلاثة أيام، وتنتظر.

وضعت البندقية جانبًا وسلّطت منظارها نحو الأفق. كان الطريق المسفلت على عَجَل والمتّجه إلى البوّابة يرسل سرابًا ساخنًا، دون أدنى أثر لرياح فوق مطلعه المستوي. تفحصت الغابة التي تفصل بينها وبين القاعدة، تبحث عن الأشياء نفسها التي يبحث عنها الجنود المتمركزون في الأبراج: ظلال غير طبيعيّة؛ خطوط مستقيمة؛ أو بريق النيكل الأسود اللامع داخل الأجمة. درّبها جينز على رؤية تلك الأشياء. كان يبسطها فوق طاولة داخل كوخه: كتب؛ أدوات مائدة؛ ترس حذاف؛ حزمة بطاقات مفرودة. في كل مرّة كانت الأشياء تختلف ويختلف ترتيبها. كان يغطّي الطاولة بملاءة ويُحضر سارات إلى داخل الحجرة، ثمّ يكشف

الطاولة عشر ثوان قبل أن يغطيها مرّة أخرى. بعدئذ يطلب منها أن تصف كل ما تحت الغطاء بأدق التفاصيل: ترتيب البطاقات المفرودة؛ وعدد الثقوب في التّرس الحذاء.

غابت الشمس وراء الجبال، وغرق الهافواي برانش في الضوء المحتضر. قلعةٌ من حاويات شحن وخيام منصوبة منذ زمن بعيد. سار الجنود على غير هدىً داخل أبراج الحراسة. تمدّدت سارات ساكنة. ثمّة رواسب بلل في بنطلونها منذ تبوّلت فيه دون أن تتحرّك، والآن جفّ هذا البلل وتحجّر. أحسّت به على شعيرات ساقيها نزولًا إلى حيث يحتك كاحلاها العاريان بالأرض. صعد أربعة جنود إلى برج الحراسة. تبيّنت أنّ اثنين منهم هما حارسان شخصيان -مَتينا البنية- للرّجل الثالث. كان أكبر من الباقين، وشعره فضّي مفروق بعناية. كان يلبس الزيّ العسكريّ نفسه الّذي يلبسه المحيطون به، لكنه لم يكن منهم، فثمّة رصانة في تصرفاته، والطريقة التي يومئ بها أثناء قيام الرّجل الرابع وحارس البرج منخفض الرّتبة بالإشارة إلى أهداف ما في الأفق.

كانت سارات تعرف أنهم يُشيرون إلى الأماكن التي يأتي منها الاستشهاديون؛ رجالًا ونساءًا يتسلّلون من بين أشجار الصمغ السوداء محمّلين بالمتفجرات التي تطوّق صدورهم. نادرًا ما كانوا يتجاوزون المائة قدم قُربَ

المعبر قبل أن يُرديهم الخزاس قتلى. وحين جاءوا حاملين راجمات صواريخ فوق أكتافهم، استعدَّ لهم الشماليون بأبراج ثقيش مسارات تلك الصواريخ في الجوّ، وقبل سقوط تلك المقذوفات يكون من أطلقها قد قُتل. كان المتمزدون يعرفون هذه الأمور، يعرفون عُقْمَ هجماتهم. ومع ذلك، كل بضعة، أيام يبزز سلاحٌ سائزٌ بين أشجار الصمغ السوداء.

نقلت سارات عين البندقية من الجندي الشاب داخل البرج، إلى الكهل. كان يحيط نفسه بهالة التنائي، هالة العزلة. كان أقصر ممّن يحيطون به؛ مكتنزًا، يرتسم على ملامحه تعب خالص. رأت نور الغسق يبرق فوق نجومه الأربع. كان مُخبرها مُحقًّا. كان جنرالًا من كولمبس.

وقع رأس الضابط تحت عين البندقية. أخذت سارات نفسًا عميقًا، وأرخت صدرها فوق الأرض. صارت ثابتة. صارت على الفور هي وفتاتها سمراء الثغر شيئًا واحدًا. وحين ضغطت الزناد، أفلتت البندقية تنهيدة مكتومة. وقبل أن تكفَّ عيدان القصب إلى جوار شفتيها عن الاهتزاز، عرفت سارات أنها أصابت الهدف.

مقتطف مِن:

رصاصة واحدة على هافواي برانش:

حياة ومفات الجنرال جوزيف ويلاند

أزقدوا جثة الجنرال في مثواها في يومِ أحد. وقد خرجت كولومبس بأسرها كي تراه. اصطفَّ آلاف الناس فوق الأرصفة أثناء زحف موكب الجنازة الوئيد على طريق دانيال كي، بجوار المبنى التنفيذي، نحو كنيسة الثالوث الأسقفيّة. كما أنزلت الأعلام فوق مكاتب الحكومة الفيدراليّة- لا الموجودة داخل العاصمة فقط، بل في كل أرجاء الولايات الشمالية المنخرطة في القتال- حتى منتصف أعمدتها.

أطلّ من عربة الموتى تابوت أنيق ملوّن بدرجات الكرز الداكن والقمحي؛ يعجز كل من حضروا الجنازة عن تذكّر آخر مرّة شهدوا خلالها مثل خشب الماهوجني الأنيق هذا. اتّخذ حاملو النعش أماكنهم إلى جانب ممثّل عن كل فرع في جيش الولايات المتحدة، ورئيس الولايات المتحدة. ألقى السناتور جوزيف ويلاند الابن خطابَ تأبين للفقيد على جمهور تألّف من كافّة حكّام الاتحاد والمشرّعين الفيدراليين، فضلًا عن ما لا يُحصى من كبار الشخصيات الأجانب من كلّ حلفاء الشمال المُحارب تقريبًا.

في وقتٍ مبكّرٍ من الظهيرة، تبدّدت بشكلٍ مؤقّت الغيوم الكثيفة المفطرة والتي تُعدّ سمة أساسيّة لخريف أوهايو. وأرسلت شمس أكتوبر/تشرين الأول نورًا

كهرمانيًا دافئًا على أرض المقبرة. وانتصبت كتيبة من مشاة البحرية شاهدة، أشذاء كأعمدة الجرانيت في ثيابهم الزرقاء. ويُقال أنّ طلقات المدافع الرسمية حين شقّت الهواء، لم يطرف لأحدٍ منهم جفن.

يُعدّ اغتيال الجنرال جوزيف ويلاند في هافواي برانش نقطة تحوّل رئيسة في الحرب الأهلية الثانية بعدّة طرق. إذ بسقوطه قتيلًا على يدّ قنّاص مجهول متمرّد، أصبح الضحية العسكريّة الأعلى رتبة في الصّراع الدائر. لكن إنْ كان مقتل الجنرال ويلاند يمثّل نصرًا وقتيًا لمتمردي الجنوب الانفصاليين، فهو يؤذن أيضًا بنهاية دولة الجنوب لا محالة؛ ذلك أنّ الرأي العام الشمالي، الّذي ظلّ طوال سنوات يفضّل التسوية ولمّ الشمل على التوسّع في صراع الأشقاء، بدا كأنه تصلّب بين غشيّة وضحاها. وبرزت دعوات للثأر بدءًا من بيتسبرج إلى كاسكاديا، أصغت إليها حكومة الاتحاد في كولومبس.

تقرّر تولّي جوزيف ويلاند الابن، والّذي لم يمض على عزله من منصبٍ صغيرٍ في مكتب مطالبات التعويض إلا بضع سنوات، والسناتور لأقلّ من عام وقت اغتيال أبيه، قيادة مكتب الحرب خلال يناير/كانون الثاني من العام التالي. حيثُ ارتفع تحت قيادته مُعدّل الغارات التي شنّها الجيش الشمالي جنوب خطّ تينيسي. وسقط أكثر من مائتين وخمسين أسيرًا من المتمرّدين في كافّة أرجاء الجنوب على مدار العام الّذي تلى حادث الاغتيال في هافواي برانش. ورغم أنه تبيّن أخيرًا أنّ معظمهم لم

يلعب إلا أدوارًا ثانوية في الصراع، فقد أطلق سراحهم في نهاية المطاف، غير أنَّ هذا الزخم قد ساهم في تمهيد الطريق من أجل استئصال تهديد المتمردين بصورة نهائية.

الفصل العاشر

سقط الجنرالُ قتيلًا. ودوت أصداء الطلق النّاري في أذني سارات. في غضون ثوانٍ، بدأ نحيب صفّارة إنذار يجلجل من القلعة الشماليّة. فرفعت سارات نفسها من حيث ترقد، ودارت في اتجاه البلاد الجنوبيّة. طفقت تركض في الظلام. سرعان ما عثرت على مدخل نفق للمتمردين، فاندفعت داخل الفضاء الأرضيّ بينما الصفّارات تدوي فوقها. كان النفق خفيضًا؛ رطبًا؛ تغمره عتمة شديدة؛ فجعلت تتخبط في الظلام.

انتهى النفق بعد نصف ميل جنوبًا عند سفح منحدر شديد الميلان. طلعت من فتحة مغطّاة بالقش لتكتشف أنّ السماء مُخططة بخطوط حمراء جرّاء إطلاق الشماليّين للذخيرة الكاشفة. شيء ما كان يتحرّك بالقُرب من الأشجار على الطرف الغربي. ربّما كان كلبًا هجينًا من القرى الحدوديّة يبحث عن طعام. طفقت تراقب الجنود داخل أبراج الحراسة وهم يزيلون الأجمة. ثمّ اندفعت إلى جانب التل مبتعدة عن عيونهم. عبرت قاع نهر جاف وبطون أشجار الصمغ المتعفّنة التي يسكنها النّحل. كانت سارات قد درست المنطقة قبل أن تطأ الغابة بأسابيع: عرفت منعطفاتها وشقوقها، وأي الأماكن تصلح للاختباء.

بلغت التلال خارج *شاتسورث* خلال ساعات قليلة. حيث أدركت أنّ الشماليين سيسارعون في إرسال فريق هجوم. أغلب أولئك الّذين بقوا في أماكن مثل

شاتسورث، أي القُرى الحدوديّة التي تعرّضت لغارات الشماليين، كانوا مُقاومين. امّا البقيّة فاتجهوا جنوبًا إلى عمارات الفقراء الشاهقة المحيطة بأطلانطا غالبًا. لكن لم يكن سوى تلك الفئة القليلة العنيدة التي تسكن القرى الحدوديّة من كانت تعبر يافطات الطريق كل أسبوع كي تقضّ مضاجع الجنود، وتبصق على الأرض عند ذِكْر الشماليين. كانوا أشداء وموجعين، ويحملون حول أعناقهم مفاتيح بيوت هُدِمَت منذ زمن طويل.

وجدت مركبتها التوكتوك القديمة حيث تركتها على جانب الطريق السريع رقم 76. وأثناء رجوعها إلى أحضان جورجيا الدافئة في الجنوب الغربي، رفعت رأسها إلى السماء وأطلقت صيحة انتصار. لازمت الطُرُق الخلفيّة الصغيرة المؤدّية إلى المنزل كي تصل في وقت مبكّر من المساء. اتجهت شرق سقيفة خشبيّة إلى قلب الغابة، ودمها يضطرم بالأدرينالين. ثم سارت بحذر تعدّ خطواتها إلى أن بلغت خمسمائة. توقّفت عند الخطوة الأخيرة وسط منطقة خالية من الأشجار بالقرب من ضفّة النهر، ثمّ جثت وراحت تحفر داخل الأرض ودفنت بندقيتها. لم تترك أيّ أثرٍ من أيّ نوع، وراحت تربت فوق التراب إلى أن استوى وانبسط. بعدئذ سارت عائدة إلى المنزل.

أبصرت من حافّة الفناء كارينا الخادمة داخل المطبخ، تعجن وتغمغم بأغنية سلّم يعقوب. كانت ترى في المرأة أمرًا غريبًا، شيئًا يتجاوز بلدها الأمّ البعيد في جزر

بنغلاد، الّذي لم يَلقِ بأي ظلال على أسلوبها المتكلّف أو لكنتها. كانت تبتسم كثيرًا، وتتصرّف على راحتها جِدًا داخل بيتٍ وبين عائلةٍ غريبين عنها تمامًا. وقد لاحظت أنّ سيمون بدأ يولع بها، ولاحظت كيف تتسع عيناه وابتسامته حين يراها تقترب. كانت تعلم أنّ المرأة لم تقترف ذنبًا، مع ذلك كانت تتملّكها رغبة ضارية في أن تذكّرها بأنها ليست إلا خادمة: أنها ليست واحدة من أسرة شستنت، ولن تكون أبدًا.

تقدّمت سارات بين الأشجار ثمّ نزلت إلى الماء وخاضت داخل النهر. كان ملمس الماء لطيفًا. وكانت قد تعثّرت وسقطت خلال الليلة الماضية أثناء جريها بعيدًا عن الهافواي برانش، عبر أجمة ملأى بالشوك أصابت ذراعيها وكتفيها بالجروح. الآن، عادت الحياة إلى الأماكن المصابة فاتقدت بآلام حارقة كأنها مِن رذاذ زيت ساخن قذفته مقلاة معدنية ملتهبة. لكن هذه الآلام هي الأخرى، بدت لطيفة بطريقتها الخاصّة.

حين ابتعدت مسافة كافية داخل النهر، ولم تعد قدماها تلمسان الأرض، تجرّدت من ثيابها. سمحت للنهر أن يحمل ثيابها المتسخة، وطفت خفيفة فوق صفحته، عارية إلا من تعويذة ألبرت جينز حول عنقها. فاحت من النهر رائحة وحل وطحالب، ورائحتها أيضًا: نتن أسبوع كامل لم تغتسل خلاله؛ ومن إبطيها وبين ساقيها يسيلُ ما يُشبه حامض الخلّ. كانت تحبّ رائحتها، وتحملها كأنها طفلها الوليد. الآن، وعيناها مفتوحتان على

اتساعهما، غطست عميقًا داخل الماء ووهبتها للنهر.
أحسّت بعيني الحارس داخل برج الحراسة تراقبانها. لم يكن هناك غير برج واحد على جدار الحَجر الصحي يُمكن منه التلصّص على منزل أسرة شستنت دون عائق. جلس في داخله حارس شاب من دولة الجنوب مسؤول عن منع أبناء كارولينا المصابين من الخروج. كانت سارات قد رفضت أن تنام ليلة أخرى تحت مراقبة أبراج الحراسة بعد انتقال الأسرة مباشرة إلى منازل البرّ. لكن ألبرت جينز اصطحبها أخيرًا للقاء الحارس الّذي يعمل في أقرب برج إلى منزلها. وهناك تبيّن أنّه ليس إلا صبيًا بائسًا من ساحل جورجيا، إنه ولدٌ أصغر من سارات بعام واحد وقد كذب بشأن عمره كي يُقبَل متطوّعًا.
لم تستغرق سارات كثيرًا كي تفهم أنّ الصبي، وكافّة الصبية الّذين توفدهم دولة الجنوب لمجالسة موتى كارولينا الأحياء، كان يحمل دماءً جنوبيّة، أي أنّه غير مؤذٍ. وخلال الشهور التي تلت ذلك، أثناء رقودها داخل الغابة تراقبه عبر منظار بندقيتها، عرفت شيئًا آخر عنه أيضًا: لقد كان حرّاس البرج عميانًا. كان عمىً غذّاه الضجر والخوف، فأمامهم ما يفوق قدرتهم على المراقبة وما لا يُمكن مراقبته في آن واحد. غالبًا ما كان الصبيّ النعسان داخل البرج يحدّق إلى الخلف ناحيتها، حيث تتمدّد تراقبه، دون أن يرى شيئًا على الإطلاق.
حمل النهر رائحتها. اغتسلت من الأوساخ التي علقت بشعرها وذراعيها وساقيها. كان أبوها قد حكى لها حين

كانت بعد صغيرة جدًا أنّ بعض أسلافها قد دُفِنوا ذات يوم بالقرب من ضفاف نهر المسيسيبي، عندما كان ما يزال مبطنًا بالحجارة. لكن النهر انفلت أخيرًا واجتاح كل المنازل والأراضي الزراعية القريبة، بل والموتى داخل قبورهم. يومئذ قال أبوها إنّ الأنهار تتحرّك، وحين تتحرّك، تأخذ ما بدا لها. برزت من الماء لتجد ثيابًا نظيفة في انتظارها فوق صخرة قريبة من النهر، ودانا تجلس إلى جانب السقيفة.

ثمّة موسىً وعلبة صغيرة من كريم الأوكاليبتوس فوق جذع شجرة، فجلست سارات إلى جانب النهر وحلقت رأسها. ظلّت تحدّق في جريان الماء برهة، متلذّذة ببرودة الكريم الهشّة فوق فروتها، والنسيم فوق بشرتها. ثمّ نهضت وارتدت ثيابها. انضمت إلى أختها بجوار السقيفة. كانت أطول منها بقَدَمٍ كامل تقريبًا؛ إذ كان طولها يبلغ ستة أقدام وخمس بوصات وما يزال أمامها عام آخر لتُنهي سنوات المراهقة، وهي غير واثقة إذا ما كان طولها سيشهد طفرة أخرى أم لا.

جلست إلى جانب أختها. كانت تفوح من شعر دانا رائحة جوز هندٍ وياسمين، مموّج كأمواج ماء وقد لوّنته أشعّة الشمس بلون بنّي يُشبه الشوكولاته. تكاد سارات ترى غمزات الرّجال في مرفأ أوجستا. «ينبغي أن تدخلي وتتلقي التحيّة. مزاج سيمون طيّب اليوم.»

«هل كَثُرَ كلامه؟»

«مجرد أصداء لما تقوليه له. لكن هذا ليس بالشيء

الهيّن.»
هزّت سارات رأسها: «أمهليني لحظة. ما زلتُ منتشية.» ورفعت يدها اليمنى التي كانت ترتعد مثل وَتَرٍ مضروب.
أحاطت دانا كتف أختها بساعدها. فمالت عليها الأخيرة وتكوّرت مثل جنينٍ دافعةً رأسها إلى حِجْر شقيقتها.
«فتاة جميلة. أنا سعيدة لعودتك إلى البيت سالمة.»
رأت الشقيقتان كارينا في البستان. راقباها تنشر الثياب فوق حبلٍ يُحاذي ضفّة النهر. تظاهرت بأنها لا تراهما جالستين إلى جانب السقيفة، وراحت تردد أغنية أثناء عملها: الترنيمة القديمة نفسها التي تترنّم بها دائمًا، مردّدة كلمات الجوقة سطرًا سطرًا: نحنُ نحنُ، نتسلّق *نتسلّق*.
«تبذل جهدها كلّه في رعايته.»
«لا أثق بها.»
«ماذا فعلت؟»
«لا شيء، لكن شيئًا ما فيها لا يُريحني. لا أعرف رأيَها فينا، ولا ما تريده منّا في الحقيقة.»
«وفيمَ يهمّك رأيها فينا؟ إنّها تعمل هنا، لا شئ أكثر.»
«أليست في بيتنا؟ على أي حال، هي لا تكفّ عن الحديث مع سيمون وأي شخص آخر يصغي لحديثها غير المكترث بشأن الرابح، سواء كان الشمال أم الجنوب، طالما سيضع هذا حدًا للحرب. كأنها ستسعد إذا ما زحف الشماليون على أطلالنا غدًا. هل تعلمين أنّ

أبويها يعيشان في الشمال؟ لقد انتقلا قبيل نشوب الحرب مباشرة.»

«وماذا بعد؟ ألم تكوني لتفعلي الشيء نفسه ما دام لا شأن لك بها؟»

«الحربُ شأن الجميع دون استثناء.»

***

خيَم الظَلام، وانتشرت في الجوّ غلالة خفيفة من رطوبة. استيقظت سارات من قيلولة متقطّعة وما تزال يد أختها تربت فوق رأسها. سمعت صوت محرّك زورقٍ بعيد، أحد زوارق المتمردين يأتي من نقطة نائية. «لِمَ تركتِني أنام؟»

«لم تنمي طويلًا. بل ساعة تقريبًا.»

رسا الزورق؛ فمضت الشقيقتان نحو السقيفة وأخرجتا أحدث شحنة من الصناديق المُغلقة. حملتاها إلى الزورق المنتظر. شكرهما الصبي وراء دفّة القارب. كان عضوًا في *النيوزوافز* من جنوب آلاباما. أخذ الصناديق دون أن يتفحّص محتوياتها؛ إذ عرف أنّ الأسلحة المتّفق عليها موجودة بالكامل. علّمته التجربة أنّ أسرة شستنت قناةٌ موثوقة شأن كافّة القنوات الأخرى المتناثرة في طريق مُهرّبي سافانا.

شاهدتاه يبتعد. وحين غاب عن العيون وفارقتها دوخة النوم المتقطّع، انتبهت سارات للجوع الّذي يفتك بمعدتها. كان جسدها قد استنفد آخر ما تبقّى من عصيدة المشمش التي تناولتها في الغابة، فاشتهت

بامية تسبح في الزيت؛ وحمامًا مشويًا على الفحم؛ ولَسعة القُرفة بالخمر المنزليّ.

قالت: «هيا نذهب إلى أوجستا.»

***

كانت أطلانطا قلب الجنوب أثناء الحرب، لكن أوجستا هي من يزوّدها بالدماء. ذلك أنه منذُ ابتلعت العواصف والبحار -التي ارتفع منسوبها- أغلب السّاحل الشرقي، اضطلع هذا المكان بمهمة المرفئ لبلاد الجنوب الأكثر حيويّة. كانت سفن الشّحن الأجنبيّة القادمة من أقصى أطراف العالم ترسو في المرفأ الّذي يقع على مسافة مائة وخمسين ميلًا جنوب شرق البلاد نهاية كل شهر. هناك، كان قباطنة السفن ينتظرون مجيء ملّاحي المرفأ لإرشاد الناقلات الثقيلة عبر أطلال المدن الساحلية الغارقة وإلى أرصفة أوجستا.

أفرزت تلك الهبة الشهريّة تشكيلةً من الفرص في المدينة: نوتيّة؛ مهرّبون؛ متمرّدون؛ مرشدون في الميناء؛ قباطنة أجانب وأطقمهم. إلى جانب ملّاحين يقضون إجازاتهم من سلاح البحرية الجنوبيّ العاجز الّذي تخلّى أسطوله الأساسي عن المحيط لصالح الأسطول الشمالي منذ عهد بعيد. كانت الحانات والمواخير والأوتيلات الواقعة على ضفّة النهر تبقى عامرة بنشاط بالغ طوال تلك الأيام القليلة كل شهر.

كان مدير المرفأ ينقر مفتاحًا كهربائيًا عند الغسق فتعود الحياة لسلسلة من أضواء عيد الميلاد التي تتدلى فوق

ممشى خشبي. الأخير كان يعلو قِمّة حاجز شارع رينولدز المسطّحة، والذي يرتفع عشرين قدمًا. كان الجانب المواجه للنهر من الحاجز الاسمنتي شديد التحدّر، باستثناء الأماكن التي يقود فيها الدَّرَج إلى دار المرشدين النهريين وإلى الرصيف. أمّا على الجانب المواجه للمدينة فكان المنحدر الإسمنتي خفيف الانحدار. وها هنا، كنت ترى في ساعات الصباح الأولى كثيرين من السكارى مِمّن فقدوا صوابهم يغطّون في نومٍ عميق.

***

كانت الحانات تفيض بروّادها عند وصول سارات ودانا إلى أوجستا منتصف الليل، وليس أولئك الّذين ينتظرون على متن سفن المساعدات فحسب، بل السائحين من كافّة أرجاء *الماج* أيضًا مِمّن جاءوا إلى المدينة ليشهدوا *اليوفسي*. ذهبت الشقيقتان أولًا إلى فندق ديجروب بالقرب من شارع رقم 12. هناك احتشدت جماعة من عمّال الميناء ورجال أطلانطا داخل حديقة مُعدّة مسبقًا داخل الكنيسة المعمدانيّة، سكارى تملؤهم البهجة. انتصبت في منتصف الحديقة شاحنة شيفروليه قديمة كانت تعمل بالنفط مثبّتة فوق قرميد: أكسبها الصدأ لونًا داكنًا، وأنتزع غطاء المُحرّك ووضع مكان المُحرّك شوّاية فحم.

تصاعدت سحب دخان من الشوّاية. ووقف إسحاق، قبطان مراكب الشحن المتقاعد الّذي يدير فندق

ديجروب، بين مصباحي الشاحنة الأماميين المطفأين حاملًا مروحة من سعف النخيل في يده. كان رجلًا ضخم الجثة، عاري الصدر، غزير العرق لكن مطمئن البال أسفل قبّعة الربّان رغم وابل الجمر البرتقالي الّذي تبصقه الشاحنة في اتجاهه. كان الدخان يتصاعد من الصواني السوداء ويجعل من الكنيسة المبنية من الطوب الأحمر خلفها حلمًا بعيدًا.

قالت سارات: «كيف حالك أيها العجوز؟» فالتفت القبطان وهتف: «حسنًا الآن، المكان مخصص لرجال أوجستا الأشداء فقط. افسحا طريقًا بالله عليكما!» وأردف عبارته بركل صبيين من أطلانطا يسترخيان فوق كرسيين في الحديقة بالقرب من الشوّاية. «يتحوّل المكان هُنا إلى حديقة حيوان تقريبًا في هذا التوقيت من الشهر، تعرفان الأحوال حين تتوافر النقود.»

قالت دانا: «لا تقلق. سندخل ونسلب كل ما لديك. لم نتناول طعامًا لائقًا طوال أسبوع.» أومأ القبطان. «هيا إذن. سأرسل بعضًا من شرائح اللحم خلفكما.»

ضحكت سارات وقالت: «لا شئ مثل شرائح اللحم المُحلّق التي لديك هُنا. هل اصطدتها بنفسك؟»

«وسأرديك أنت أيضًا إن لم تكفي عن الكلام! شرائح اللحم المُحلّق أفضل من لا شيء.» وأشار القبطان إلى نوافذ الكنيسة المستديرة الواسعة المطلّة على الشارع. كانت النوافذ الأصلية قد تعرضت للتدمير منذ زمن

طويل أثناء أحد أعمال الشغب التي تلت مذبحة فورت جاكسون. كما أنتزعت الأجزاء الداخلية ونُهبت حتى المقاعد الخشبية وألواح الأرضية. «بالمناسبة، صديقك *براج* في الداخل.»

«العجوز أم الشاب؟»

«هه! العجوز لا يستطيع الوقوف كي يتبوّل هذه الأيام. بل الصبي. وبرفقته كل بطانته أيضًا.»

«ربّاه. إذن لا مرح.»

مسح القبطان حبّات العرق عن جبهته ثمّ جفّف يده بجانب بنطاله القطني. «أخبريني إذا تسبّب لك بأي متاعب. وسأدخل وأركل مؤخّرته. لا تعبأي بمدى وحدة متمرّدي أبيه الصّغار.»

شكرتا القبطان العجوز ثمّ دلفتا للداخل. ثمّة أطلال قليلة تبقّت من الكنيسة الأصلية خلف الجزء الخارجي المبني بالطوب الأحمر، محض عبارة **فنزلا كلاهما إلى الماء** مكتوبة فوق قوس على الجدار، وتحتها التجويف الشاحب حيث تدلّى صليب ساطع ذات يوم. كان القبطان يهوى جمع أشياء ماتت منذ زمن. أصناف وُجدت ذات يوم لكن فشلت في التأقلم مع خفّى الكوكب التي لا تتوقّف: رؤوس مُحنطة لرئة وثيران وأسود بحر وثعالب بيضاء الوجه تحملق من فوق الجدران بعيون من رخام.

كانت قاعة الطعام ممتلئة والهواء مثقل برائحة زيت القلي ونشارة الخشب فوق البيرة المسكوبة. زُثبت

الطاولات كيفما اتفق في أرجاء ما كان يومًا صحن الكنيسة الواسع. في آخر القاعة قطيع طهاة مسعور يتحرّك في طقس فوضويّ حول مواقد وقدور تغلي.

بحثت الفتاتان عن مكان صالح للجلوس داخل القاعة. وانتبهت سارات على الفور إلى التفات الرّجال لتأمل شقيقتها. بذلت دانا مَدار الغرفة، وصارت مسؤولة عن الهواء داخلها. التفت الرجال نحوها مثل برادة حديد تلتصق بقطب مغناطيس، وانتظرت سارات أن يتجاوز واحد منهم مُجرّد النظر، كانت تأمل ذلك في سرّها. عثرتا على طاولة خالية في آخر القاعة إلى جانب المطبخ. لكن قبل أن تجلسا جاء إليهما أحد حرّاس أدمبراج الابن وطلب منهما الانضمام إلى حفل مخدومه.

قالت سارات: «نحن بخير هُنا.» وأردفت دانا: «سننتهي خلال لحظات.» ثم التفتت إلى شقيقتها حين انصرف الحارس قائلة: «بضع دقائق فقط. بهدف المجاملة فحسب.»

«تعرفين أنها لن تكون مُجرّد بضع دقائق. ولماذا نجامله؟ نحن لا نعمل لديه، ولا تعهدنا بالولاء لاتحاد المتمردين ولا لغيرهم.»

«لا أكترثُ لاتحاد المتمردين أو لغيرهم. لكن أمثاله لن يصبحوا غير مهمين بسبب تجاهلنا لهم. والأفضل أن نكسبه إلى صفنا في حال احتجنا مساعدته أو مساعدة أبيه ذات يوم.»

«تبًا. أعجز حتى عن أخذ راحتي في الأكل معهم. هيا

نتته من هذه المهمة الشاقة.»
وجدتا الشاب، الذي كان يحتفل هذه الليلة بعيد ميلاده الحادي والعشرين، يجلس إلى طاولة مستديرة واسعة في ركن القاعة. كانت الطاولة الوحيدة المفروشة، وقد حلّق حولها سرب من الحرّاس، ومتمزّدون صغار ومجاملون وطفيليون. ميزت سارات عدة أشخاص جلسوا إلى جانبه: مُهرّب شهير اسمه هنسون؛ نائب رئيس بلدية أوجستا؛ ورئيس اتحاد المرشدين النهريين؛ وثلاثة رجال آخرين ربّما كانوا، وفقًا لرثاثة أرديتهم الواسعة، حكوميين من أطلانطا. كانت سياسات الجنوب الكسير تقتضي ألا يصنع أعضاء اتحاد المتمردين ودولة الجنوب الحرّة رفيعي المناصب صداقات بعضهم ببعض في زمن الحرب، لِمَا لذلك من مضامين متباينة بشأن نواياهم للسّلام. لكن في أوجستا كانت مثل تلك القواعد تُنحى جانبًا بشكلٍ مؤقّت.
هتف براج: «طاب مساؤكما أيتها السيدتان. تسعدني رؤيتكما حقًّا. اجلسا. اجلسا.» جلست الفتاتان بالقرب من مضيفهما الّذي قدّمهما للحضور على الطاولة بصوت عالٍ كي تتمكن الحاشية المحيطة من سماع ما يقول. «هاتان هما دانا وسارات شستنت. الناجيتان من مذبحة مخيّم بيشنس والوطنيّتان الأبيّتان في أمّة الجنوب. يشرفني اعتبارهما صديقتين لي.»
هتفت إحدى الأردية الحكومية من أطلانطا، عرّفها براج بأنّها مُدير عمليّات دولة الجنوب الحرّة الإعلاميّة في

شمال جورجيا: «رؤيتكما مبعث فخر شديد أيتها الفتاتان.»
«ألستما شقيقتي ذلك الصبي سيمون، الولد المعجزة؟»
أجابت سارات: «بلى. وأنت شقيقة مَنْ؟» نظر الرجل إلى مضيفه، وابتسامته تفارق شفتيه.
قال براج: «كفى ثرثرة. لنأكل.»
أتى من المطبخ موكب من الأطباق والصواني الفضية: أكباد دجاج؛ مقليات؛ أرز مطبوخ بالمرق؛ رقاقات ذرة وكافيار مسيسيبي؛ لحم بقري غير حقيقي بل لحم حمام متفحم من الخارج ورديّ اللون من الداخل. خيم على الطاولة صمت شره لا يقطعه سوى صوت الفكوك وآنية المائدة الفضية. مال براج ناحية ضيفتيه في هدوء، وقال: «سمعت أنك كنت في هافواي. أهذا صحيح؟»
لم تقل سارات شيئًا.
«حسنًا. على الأقل غذتِ حية. لا يستطيع كثيرون مِمَن يرسلهم أبي إلى هناك ادّعاء ذلك.»
حين فرغ الضيوف من الأكل، زفعت الأطباق وحلّت محلها صواني أخرى: شرائح خوخ وبطيخ وكنتالوب؛ وأباريق من ماء مُثلّج وليمونادا ومشروب مسكر. إلى أنْ فشل أخيرًا أولئك المتحلقون حول المائدة عن تناول مزيد من الطعام أو الشراب. نهض رجل من أطلانطا، ثملًا متلعثمًا، يقترح نخبًا. بدأ بكلمات تتعلّق بالزوح الجنوبية وقضية الحريّة العظيمة النبيلة. لكن سرعان ما

خانته أفكاره، فقاطعه براج: «لنقل فحسب: نخب الجنوب الظّافر.» فكرّر الرجل خلفه: «نخب الجنوب الظّافر!» ورفع المتحلقون كؤوسهم.

غادر الرجال من أطلانطا بعد ذلك بقليل، فجلس بعض رجال براج إلى الطاولة. اثنان منهما، *تروف* و*كورنهيل*، كانا من *السولت ليك* بويز. كانوا ستّة حين عثر عليهم المتمرّدون: أيتامًا في معركة *السبانيش فورك*، حيث وصل قتال الشماليين والقوات المكسيكيّة، بل وبعض منبوذي تكساس الضالّين، إلى طريق مسدود بالقرب مِمّا أصبحت الآن الحدود الشمالية الغربيّة للمحميّة المكسيكيّة. شاع أنهم نَسلُ المورمون. وقد عثرَ عليهم المتمردون في أعقاب المعركة يختبئون داخل حظيرة خنازير في ضواحي البلدة، فأطلقوا عليهم أسماء الأماكن التي وجدوهم فيها. في نهاية المطاف، أُعيدوا إلى الجنوب وجُنّدوا في مدار أسرة براج الصاخب.

نظّف العاملون الطاولات ثم أحضروا السيجار والبراندي. كان السيجار من جزر الكاريبي العتيقة باهظ الثمن، والأخير من فئته. وكانت الغيمة التي ملأت الهواء عذبة وترابيّة. قال براج وهو يميل مقتربًا من الفتاتين منتشيًا بالصداقة الحميمة السّهلة مع الفتاتين اللتان ثملتا توًّا: «يرسلني أبي إلى هنا لأنّه لا يثق بي. يزعم أنّ هذا كي يتأكّد من تمرير المؤن عبر قوّات الشماليين المنتشرة على الساحل وتوزيعها على من يستحق، من أجل متابعتها. غير أنّي أعتقد أنه يرغب

في إبعادي عن أطلانطا قدرَ المستطاع؛ إذ يخاف أن أقتله أثناء نومه. انقلابات القصور هي كل ما تُقلق هؤلاء العجائز.»

ضحك براج. كان يتجه بنظره إلى دانا، لكن شقيقتها هي من كان يراقبها. كان يحمل افتتانًا تلقائيًا تجاه أولئك الّذين وُلدوا في بحبوحة أو أولئك الّذين حقّقوا تلك البحبوحة من لا شيء. رسم ابتسامة افتراضيّة، أسنانه في غمدها، وعيناه مثل ماسورتي بندقيّة، كأنّ عدسات كاميرا تلاحقه دون توقّف. كان يحظى بموهبة بالغة النُّدرة والنّفع وهي الظهور بمظهر من يتحدّث بحميميّة، كأنّ كل كلمة ينطق بها سرّ ثمين بين صديقين حميمين.

جاء آخرون إلى الطاولة، لكنهم أبعدوا: متمردون أو راغبون باللحاق بهم وأقاربهما، وجميعهم يحتاجون خدمات؛ عمّال الميناء ومرشدون نهريون مسرّحون يبحثون عن عمل بالتهريب؛ نازحون يرغبون في السكن في أحياء أطلانطا الفقيرة؛ ونازحون يرغبون في الخروج منها.

ثمّة أيضًا أولئك المتحالفون مع الجماعات التي رفضت الانضمام تحت مظلّة اتحاد المتمردين، كانوا يراقبون المشهد من طاولات في الطرف الآخر من القاعة، يشاهدون الطوابير الضعيفة الكسيرة من الجنوب المحارِب المنقسم على نفسه. بالنسبة لسارات كان كل ذلك محض هراء. حروب الرجال غير الآمنين التافهة

داخل حلبات السباق. نادرًا ما كان يمر يوم دون أنباء عن نزاعات جديدة بين دولة الجنوب الحرّة واتحاد المتمردين وما لا يُحصى من المقاتلين الهامشيين الّذين يسيطرون على مناطق داخل ساحات المعارك الحدوديّة. نزاعات بشأن مَن يُدير المدارس ويجمع الضرائب؛ وأيّ طرف تتصدّر الجداريات أسماءُ قتلاه. رأتهم يرتكبون تلك الفعال في العلن -خلال خطابات التحدّي المتفطرسة- وعمليًا في السر داخل غرف أطلانطا وأوجستا الخلفيّة. رأتهم يرتكبون تلك الفعال التي تصيبها بالتقزّز. لم يكونوا بالنسبة لها إلا قباطنة انتهازيين متفاخرين يتجادلون حول حدود خرائط نجوم عفا عليها الزّمن، في حين دكّت مدافع الأسطول الحربي المعادي سفنهم ومزّقتها إلى أشلاء.

بالنسبة لسارات شستنت كانت الحسابات بسيطة: استباح العدوّ أهلها، ولأجل ذلك ستستبيح العدوّ. لا تعرف سبيلًا آخر. مُحال ألّا تسفك الدّماء.

استطرد براج: «على أي حال، سيسعد العجوز بسماع نبأ عودتك حيّة من هافواي...»

«أخفض صوتك. أم ترغب أن يعرف بذلك جميع الحاضرين؟»

«لا تقلقي كثيرًا. إذ ما تزالين جديدة، مجرّد شبح. المتواجدون أمام هذه الطاولة هم الّذين يعون ما أتحدث عنه داخل هذه الغرفة. وصدقيني، سأقطع ألسنتهم قبل أن تنطق بحرف واحد أمام شخص

غريب.» والتفت إلى رجلي *السولت ليك* بويز الجالسين إلى جواره مردفًا: «أليس صحيحًا ما أقول؟» لم يقل الرجلان شيئًا. بل جلسا مثل تمثالي شمع. دون ابتسامة أو عبوس. فرّق الكبير شعره المسدل من المنتصف، تصفيفة شعر طفولية جعلته يبدو أصغر من شقيقه الحليق. ثمّ استطرد كأنهما غير موجودين: «هل تعرفين أنّ شقيقيهما الكبيرين قد ماتا؟ لقي واحد منهما مصرعه أثناء غارة على قاعدة عمليات بالقرب من *فايتفيل*، يعلم الله أي حفرة يضعه الشماليون فيها الآن، إن لم يكونوا قد قتلوه. أمّا الآخر فأحاط نفسه بحزام ناسف وتسلل عبر السلك الشائك، ثمّ شقّ طريقه إلى كنتاكي فسقط صريعًا أمام نقطة تفتيش قبل أن يتمكّن حتى من تفجير ما يحمله.»

«لقد قبلهما العجوز هو الآخر. لم يطلق أي منهما رصاصة طيلة حياته، لكنه أبدى موافقته عليهما على أي حال.» ثم التفت إلى سارات: «لكن بالنسبة لك، ما كان لينصت. إذ لا يستطيع أن يتخيّل أنّ فتاة يمكنها القتال. ولولا تأثير جينز عليه ما كان بذل رأيه. على أي حال، سيرغب في رؤيتك، وعليك عرض مسألتك عليه. ربّما يهبك فرصة أخرى.»

«لن أعرض مسألتي على أحد. ورجلك العجوز بالنسبة لي محض نكرة. ليس رئيسي ولا أبي، ولست في حاجة إلى إذن منه. لو أنّ لديك ما تقوله له، هيا قله بنفسك.»

«بل سأنتظر موته، إن كنت أمينًا.» ثم انتظر ردّ فعل من

الشقيقتين، وحين لم يحصل على شيء استطرد: «هل تعرفان أنه كان في السادسة والخمسين من عمره حين أنجبني؟ ستة وخمسون عامًا! يفصل بيننا نصف قرن كامل. تُرى كيف يُفترض بي عبور تلك الهوّة؟ لا يني يعالج الأمور بطريقة عتيقة، ما يزال يتصوّر أنه في الصحراء يخوض تلك المعركة السحيقة. ما زال يثقل كاهليه بتقاليد فات أوان نبذها. الأفضل انتظار رحيله وتمنّي ألا يكونوا قد رفعوا راية الشماليين فوق أطلانطا قبل أن تصيبه فضيلة الموت.»

قاطعتهم عاصفة تصفيق وصفير على الجانب الآخر من الغرفة. وتناقلت الألسنة داخل قاعة الطعام نميمةً ما، كرّرها كل من سمعوها مصحوبة بسبابٍ سعيد ومطالبات بنميمة أخرى. «ما الّذي يسعدهم لهذا الحدّ؟» سأل براج حارسًا شخصيًا له استفسر عن الأمر من إحدى النادلات ثمّ عاد يهمس شيئًا في أذن مخدومه. فارق البريق ابتسامة براج، والتفت إلى سارات يسألها: «هل أنت من فعلها؟»

أجبرت سارات نفسها لأوّل مرّة تلك الليلة على رسم ابتسامة، فهتف براج: «ربّاه!» ثم أخفض صوته وتابع: «أيتها الفاسقة الكتومة. لقد مضيت وغيّرت مسار الحرب بالكامل.»

غمزت سارات. فالتفت براج إلى حارسه وهتف: «جهّز مقعدين إضافيين في *القلعة*. فلدينا حفل حقيقي.»

* * *

اصطفَ طابور طويل أمام أبواب القلعة. أغلبهم شباب ينتظرون القتال. راح فريق متنقّل من البوّابين يراقب الحشد ويطرد على الفور كل من ينخرط في مشادّة أو صخب يفوق المعتاد. طاف بائعان جائلان بالطابور. يبيع أحدهما في أكواب ورقية خمرًا منزليًا صُنع داخل صفّ البيوت الممتد في الشارع، أمّا الآخر فحمل فولًا سودانيًا وفُشار.

انتظر الشباب فتح الأبواب. ولمّا انفتحت أخيرًا، اندفعوا جميعًا إلى الطريق المؤدّي للطابق العلوي حيث حلبات الملاكمة. كانت جولات *اليوفسي* تُقام مطلع كل شهر. ثمّة مباريات أخرى أصغر تُقام في القلعة في مواعيد أخرى، لكن المتنافسين الاثني عشر لا يجتمعون إلا تلك الليلة من أجل الجائزة الكُبرى. يأتي بعض المشجّعين من أماكن بعيدة مثل المسيسيبي كي يشهدوا الاستعراض الجنوبي الأكبر للرجال المتناحرين.

كانت القلعة تمثّل بناءً مستديرًا مهيبًا بمتحف قديم. ردهة أنيقة عالية السقف. كانت الأرضية داخل الحلبة مبطّنة بحشوة خفيفة، بحيث كان إلقاء رجل فوقها يحتاج إلى قوّة كافية كي يحسّ بوقْع البلاطات الرخامية في عظامه. أُحيطت حلقة البناء المستدير الوسطى بسور ثُماني الشكل يمتد حتى شُرفة الطابق الثاني حيث يجلس أغلب المشجعين. لكن في الطابق الأوّل إلى جانب الحلبة، ثمّة دزينتان من المقاعد المحجوزة لنخبة مدينة أوجستا: زعماء الحكومة

الجنوبية؛ ومشاهير من أطلانطا؛ وقباطنة أجانب ينزلون في البلدة لقضاء نهاية الأسبوع؛ وأيّما شخص يملك ما يكفي من النقود أو النفوذ.

جلس براج والشقيقتان في تلك المقاعد، في القلب تمامًا بالقرب مِن الأبواب المزدوجة الواسعة التي يأتي يدخل منها الملاكمون، وحيث كان الفشار يتساقط فوقهم مصحوبًا بالسباب القاسي من مقاعد الشُرفة. خفتت الأضواء. ودوت هزّة رعد من مكبرات صوت معلّقة على الجدران. انفتحت الأبواب مصحوبة بتصفيق عارم. سار المتبارون حفاة الأقدام لا يلبسون إلا سراويل قصيرة، وربط بعضهم أحزمة حول رؤوسهم وأكمامًا ضاغطة حول أذرعهم أو سيقانهم. كانت الأكمام مزينة بألوان بزاقة: أحمر وأصفر وأخضر؛ مزخرفة بعلامات البرق ومخالب النمور ونجمات راية الجنوب. وحمل الرجال أوشامًا لصلبان وآيات من الإنجيل وأسلاك شائكة وأسماء أقارب لهم. دخلوا القفص بعيون ميتة كأنْ لا وجود لحاضرين، وسرعان ما عادت الأضواء وخمدت الموسيقى وغلّقت الأبواب. انتصب الاثنا عشر رجلًا يقيس كل منهما طول خصمه، ويخطط مسارات الهجوم.

تزعم حكمة تقليديّة أنّ الفوز في مباريات اليوفسي مُحال خلال الدقيقة الأولى، بل طرق كُثر للخسارة. هكذا، لا يميل كثيرون من المتبارين، حين يدقّ الجرس، إلى الانقضاض على أضعفهم، بل على أبطأهم؛ مَنْ

يستطيعون مناوشته بأمان دون أن يظهروا بمظهر الجبان كما فعل آخرون فخسروا مكانتهم. لكن نادرًا ما كانت تفلح تلك التكتيكات، وغالبًا ما يجد رجلان استهدفا العملاق الأبطأ نفسيهما مضطرّين للاشتباك فيما بينهما. كانت طبيعة الرياضة الفوضويّة تكفل أنّ الرهان على مُقاتل بعينه هو رهان عشوائيّ تقريبًا، ويضمن المقاتل الّذي ينجح في الفوز بثلاث مباريات أو أربع قبل الاعتزال وظيفةً مرموقة.

قرأ مُذيع الحلبة أسماء المتبارين. بعضهم كان جديدًا، والأرجح أنّ انضمامهم جاء بسبب ضخامتهم البادية وصلابتهم الكافية للصمود بضع دقائق على الأقل قبل أن يسقطوا. كان حامل اللقب يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا مِن هاتيسبورج، اسمه جوشوا، لكنه يُقاتل تحت اسم ريث. تقول شائعة إنّه انضمّ إلى *السوفرينز* لفترة، حيث حارب في شرق تكساس وكان لم يزل في الثالثة عشرة من عمره. لكنها كانت كذبة لفّقها مديره كي يبذر شائعةً أخرى أطلقها معسكر أحد الخصوم، مفادها أنّ جوشوا ابن لأحد الشماليين في الحقيقة، وأنّه وقّع اتفاقًا مع أحد المروّجين في بيتسبرج ترقّبًا لنهاية الحرب.

إذا حقق ريث انتصارًا هذه الليلة فسيكون هذا فوزه الثالث في اليوفسي على التوالي، وهو أمر غير مسبوق في منافسة يتقدّم فيها الفائز السابق دائمًا إلى مباراته التالية مُحاطًا بأحد عشر رجلًا يتربصون به. لكن

متنافسًا واحدًا فحسب جذب اهتمام سارات: مُحاربٌ مُحنك اسمه تايلور. كانت قد سمعت عنه منذ فترة طويلة في مخيم بيشنس، فقد عاش هناك ذات يوم قبل وقوع المجزرة. لم تكن تعرف إلا القليل عنه أو عن أسرته: هل رحلوا معه أم لا؟ وهل نجا منهم أحد؟ كل ما تعرفه هو أنه عاش ذات يوم في حي كارولينا الجنوبية وأنه يوشك أن يُتمّ الآن عقدًا من الزمن في التباري معتمدًا على خبراته فقط في منافسات لا يدوم فيها تواجد الملاكم داخل الحلبات أكثر من أربعة أشهر. كان جسده مهشمًا إلى درجةٍ لا يُرجى معها شفاء. رغم ذلك، تجاهلت سارات الباقين كلذهم وصبّت تركيزها عليه فقط.

دقّ الجرس. وارتفع الهتاف من الشرفات. تقدّم المتبارون الواحد تلو الآخر شامخي الرؤوس، ثم انخرطوا في القتال سريعًا. لا يُغادر متصارع حلبة المباراة إلا في ثلاث حالات: إذا لمس الحبال؛ أو إذا أصيب بجرح بالغ يبرّر الانسحاب عبر باب الحلبة الوحيد؛ أو إذا أُغمي عليه، وفي الحالة الأخيرة يدخل بهلوانان تابعان للحلبة كي يسحبا المتصارع خارجها.

كان منظمو اليوفسي، بهدف الحفاظ على إغراء المباريات بوصفها رياضة الجنوب الحقيقية التي لا تلتزم قانونًا، قد كرهوا وضع أي قواعد لها. هكذا كان المتبارون الاثنا عشر الّذين يدخلون الحلبة كل شهر غير ملزمين، بالمعنى الدقيق للكلمة، بأي قانون. لكن في

الواقع، ثمّة نظام مدروس من أعراف غير مكتوبة يحكم القتال: مبدأ شرفي يتعلّق بالمباغتات وطول الفترة التي يُسمح فيها للمتصارع بتجنّب منافسه. على سبيل المثال، ينبغي ترك المتصارع الّذي ينوي الخروج بصراحة. لكن لا عقاب حقيقي على انتهاك تلك المبادئ.

حَمِيَ وطيس مباراة الليلة، لكنْ أحدًا لم يسقط. ظل المتبارون الاثنا عشر صامدين بعد مرور اثنتي عشرة دقيقة. وصفّق الحاضرون لهذا التوافق النادر. لكن في الدقيقة الخامسة عشر، كان نصف المتبارين قد غادر الحلبة: أربعة منهم بمحض إرادتهم، يعرجون تغطيهم الدماء؛ وجرجر البهلوانان اثنين منهم فقدا الوعي. جاء خروج المتصارعين كعهده دائمًا، متعاقبًا. وبمجرد أنْ ينقشع خجل أن تكون أول مصارع يغادر الحلبة تزول آلام الرجال، وتصيب السعادة أولئك الّذين لم تكن لديهم إلا فرصة ضئيلة للفوز عندما يُحشرون في وضعيات قتالية لا يمكنهم الفكاك منها مثل قُفل الرّأس أو الذّراع المتصلّبة.

مال براج نحو سارات وقال: «جارك القديم يعاني من قدمٍ مكسورة.»

كان تايلور ابن بيشنس ينتقل بصعوبة معتمدًا على ساقه اليُمنى؛ ذلك أنّ قدمه اليُسرى تورّمت واحمرّت عند الكاحل. ولم يبق في اللحظة الأخيرة إلا هو وحامل اللّقب ريث وأحد المشاركين، وهو مصارع بالغ الضخامة يُدعى جرايسون. بدت الحلبة التي غطّت الدماء الجافّة

أرضيتها، كعادتها مع اقتراب نهاية كل مباراة مماثلة، شديدة الاتساع أمام شاغليها. فتباعد المتصارعون غريزيًا عن بعضهم عن بعض، يلتقطون أنفاسهم برهة. شقّ جرح واسع جبهة جرايسون فوق عينه اليُمنى، فراح يمسح الدماء بكفه الضاغط حول ذراعه. وسرعان ما أصاب هذا التراخي الحاضرين بالفتور، فطفقوا يلحّون على المتصارعين كي يستأنفوا القتال.

كان تايلور من شرع بالقتال، إذ عرج صوب جريسون. لكن قبل أن يصل إليه، رفع الأخير ذراعه مستسلمًا واتجه إلى الباب. اندلعت عاصفة استهجان من الشرفة، واستشاط الحاضرون غضبًا لأنّ رجلًا كانوا يعتقدون أنه ما يزال قادرًا على القتال قرر ألا يُقاتل. ألقوا بالفول السوداني وحبات الفشار على المصارع أثناء رحيله زاعمين أنه جبان وعار على الحلبة. لم يصدر ردّ من جرايسون. وسرعان ما اصطحبوه وراء الأبواب المزدوجة إلى سكن المتبارين، وهو غرفة عريضة داخل أحشاء المتحف القديم كانت توضع داخلها يومًا ما عظام ديناصورات.

بقي رجلان. ورغم أنّ أحدهما كان محبوب الحلبة، لكن الآخر صار يستحوذ الآن على ولع الحاضرين. هتف قليلون لأنهم كانوا يعرفون أنّ المتباري اليائس جاء من المكان الّذي شهد مجزرة الشماليين الشهيرة، وهتف آخرون لأنهم كانوا يعرفون أنه أخفق في الفوز باليوفسي ثلاثًا وعشرين مرّة، وهو رقم قياسي. أمّا

الأغلبية فهتفت تلبية لرغبة فطرية في مساندة الخاسر. لقد أكسبه وقوفه فقط بلا أدنى فرصة أمام خصمه الشاب المُدرَّع تعاطفًا أكبر من الحشد الهادر. كانوا ينتظرون منه المواجهة الفروسيّة نفسها التي يحسبون أنهم سيقومون بها لو كانوا في مكانه.

اقترب البطل. كان نحيلًا وقد نتأت أوردته من جلده. كافح المتصارع كي يُخفي ما به من ضعف، لكن ما يعيقه كان يتجاوز مُجرّد كاحل أيسر معطوب يُجبره الآن على التواثب حيث يقف. كان إعياءٌ يتغلغل في خلاياه كلّها، كأنّ كل ما أصابه خلال معاركه السابقة يُجهز عليه الآن. أبصر البطل ميزته ولعب بها. سدّد ركلة خاطفة إلى الكاحل المتورّم أسقطت المتصارع أرضًا. ثمّ سارع فوثب فوق خصمه مسدّدًا وابلًا من ثلاث لكمات سريعة، حطّمت أنف المتصارع في المكان نفسه الّذي تهشّمت فيه مرّات عديدة من قبل.

في مثل هذه الحالات، حين تقتصر إحدى مباريات اليوفسي على رجلين فقط، أحدهما على حافة الهزيمة بشكل واضح، يكون الأنف المصاب وسيلة متعارفة لإنهاء المباراة بما يحفظ ماء الوجه. كان كل ما على المتصارع عمله هو لمس الحبال أو التمدّد دون حركة فوق الأرض، ولن يضنّ الحضور عليه بذلك آنئذٍ. توقّف البطل الجاثي فوق المتصارع، وانتظر. لكن الأخير رفض. وبدلًا من ذلك، طوّح المقاتل المدمّى المهيض قبضته تجاه غريمه الّذي بوغت بهذا، فأخفق في صد

القبضة فأصابت فكّه. كانت بلا عزم تقريبًا فلم تترك أثرًا. لكن البطل انهال بوابل آخر من الضربات جعلت رأس المتصارع تتأرجح كأنها تستعد لتنقلع من عموده الفقري. مرّة أخرى انتظر البطل، ومرّة أخرى رفض المتصارع أن يستسلم. كان يترنّح في مكانه، لكنه عجز هذه المرّة عن ضم قبضته؛ لذلك لم يتمكّن إلا من صفع البطل فوق كتفه.

خيّم صمت على الحاضرين، وقد تسرّب إليهم شعور بالشك والعصبيّة؛ ذلك أنّ صبر البطل لا مناص سينفذ. لكن بدلًا من ذلك، وقف الأخير وترك المتصارع طريحًا على الأرض تزيّن هالة قرمزية الضمادة القريبة من دماغه. مشى إلى حافّة الحلبة حيث جلس المدرّبون، ورفع يده حانقًا. سأله مدرّبه: «ماذا تنتظر؟»

«أعطيه فرصة للخروج بسهولة. ماذا تنتظر مني، أن أقتله؟»

«إذا كان يرغب في الحياة، فعليه لمس الحبال. قم بعملك.»

كان المتصارع قد نهض يعرج على قدمه السليمة أثناء حديث البطل مع مدربه. تقدّم مترنحًا من حافة الحلبة وألقى بنفسه فوق جسد البطل. لم يبق منه الآن سوى وزنه الّذي لطم به غريمه ليرتد إلى جانب الحلبة ثم فوق الأرض. أطلق الأخير صيحة ألم أثناء سقوطه، وتسبب نتوء شائك في سور الحلبة بجرح غائر بطول صدره. وتدفقت دماء غزيرة من الجرح تسربت إلى

خارج الحلبة.

عاد البطل للنهوض على الفور، ثمّ جثا غاضبًا فوق غريمه الهامد وطفق يسدد إليه الضربات إلى أن عرف المدربون والحضور جميعهم أنّ المتصارع قد مات.

* * *

أضيئت الأنوار فتفرّق الحضور. عادة ما يُغادر الشباب الّذين جاءوا لمشاهدة القتال والأدرينالين يتدفق في عروقهم، متأهبين عند أدنى استفزاز للانخراط في شجار فيما بينهم في الأزقة الخلفيّة جنوب الممشى الخشبي. لكنّ خَرَسًا أصابهم تلك الليلة، فانتشروا في هدوء في أرجاء حانة *امبريال* وكافّة بارات شارع *رينولدز* الأخرى.

دعا آدم براج الابن، الّذي صار في حالة سُكر شديدة الآن، الشقيقتين للعودة معه إلى *وودرو*، حيث حجز هو وحاشيته الغرفَ كلّها لقضاء نهاية الأسبوع. لكن شغفه كان واضحًا أنّه ينصبّ على فتاة واحدة فقط منهما، وقد رفضتا.

وقفت سارات ودانا فترة قصيرة على المفشى الخشبي، تراقبان أحواض السفن. غالبًا ما كان الموج يندفع لاطمًا حاجز الأمواج في أعقاب عواصف الشتاء العنيفة. لكن الماء الليلة كان يتحرّك مثل دبس سكّر أسود. بل لم تكن سفن الشحن العملاقة التي تُعيّن أن تكون أول ما يصل إلى المرفأ الآن، قد ظهرت بعد. قالت دانا: «أخبرني رجلٌ خلال المباراة أنّ واحدة من سفن الهبات قد علقت في البوغاز.»

«لكنها تأتي كل شهر. كيف يُعقل إذن أنّ تكون السفن ما تزال تصطدم بالأرض إلى الآن؟»

«الأرض تنزاح تحت الماء. الأماكن التي كانت عميقة في موسمٍ ما تصيرُ ضحلة في موسم آخر، وإن لم

تتواجدي هناك بشكلٍ يومي فلن ترضدي تلك التغيرات أبدًا.»
راقبت سارات الرجال داخل دار المرشدين النهريين. كانت الأنوار مُضاءة، وكانوا يشربون ويلعبون الورق ويقضون الوقت على أمل أن يأتي اتصال كي يقصدوا البوغاز؛ الممرّ المائي الفاصل بين المحيط والنهر بالقرب من أطلال سافانا القديمة الغارقة. كان آخرون قد انضموا بالفعل إلى الزوارق الجرارة الموفدة لإنقاذ السفينة لأنه كان يوم عمل بالنسبة لهم. كان المرشدون النهريون هم الأفضل جنيًا للمال بين أغلب مُفتهني الوظائف القانونية في أوجستا، رغم ذلك لا يمانعون جني المزيد منه. سألت سارات أختها: «هل ستقابلين صديقك الوسيم الليلة؟»
«تعرفين أنني سألقاه. لا تبالغي في الأمر. يرى بعضنا الآخر ليس إلا. محضُ لهو، وسأعود حين تستيقظين في الصباح.»
«ليس مرشدًا نهريًا بعد.»
«يتدرّب. الجميع يتدربون على الوظيفة قبل القيام بها. يتعلّم.»
«لا يناسبك.»
ضحكت دانا. «أخبريني عن رجلٍ واحد تعتقدين أنه يناسبني.» ثمّ التقطت يدَ شقيقتها وقبلتها مردفة: «أراكِ لاحقًا أيتها الفتاة الجميلة.»
كانت سارات تعرف أين ستقضي أختها الليلة: داخل

مبنى الشحن *فارجو* بالشارع السابع. كان مبنى عريضًا بيروقراطيّ المظهر تتكدّس فيه حجرات المتدربين على الإرشاد النهري؛ ومكاتب الشحن والجمارك؛ ونُزُل أطقم الأجانب؛ وفرع دولة الجنوب الحرّة بشمال جورجيا. كانت سارات تزدري المكان. فهو يمثّل بالنسبة لها كافّة الزخارف غير الضروريّة التي تبرر بها مؤسسات بلادها وجودها. في الحقيقة، كان موظفو الجمارك فاسدين، والنزل ليس إلا ماخورًا بقناع خفيف، ووحدات التخزين المؤقّتة المتواجدة داخل القبو لا يستعملها إلا المهرّبين.

كل شئ كان محض كذب، بل أسوأ أنواع الكذب: تمثيلية زائفة توهم بأنّ الأحوال طبيعية، في حين أن الحرب ما زالت دائرة. وفكرة أن اختها داخل ذلك المبنى، مستلقية على إحدى تلك الأسِرّة الصّلبة، جوار أحد الفتيان الفارغين الداعرين، هذه الفكرة تثير غثيانها.

وحيدة، سارت إلى حانة بيل ريبل لتشرب قليلًا ثم تنام. تقوم الحانة داخل صَفّ من البيوت تمتدّ بين الشارعين رقمي 11 و12. كانت ليلى دينوم، صاحبة البيت، تحتفظ بثلاث غرف في الطابق العلوي. تؤجّرها بعض الليالي، لكن غالبًا ما كانت تدع أصدقاء ومتردّدين قدامى يسكنون فيها دون مقابل.

ابنتها، ليلى الابنة، البالغة من العمر ستة عشر عامًا، استمرّت تقدّم المشروبات طوال العامين الماضيين. كانت تقفُ على كرسيّ خشبيّ كي تبلُغ خشبة البار.

تعرف أسماء المترددين عليهم، لكن تعرف عن سارات ما هو أكثر.

ينقسم روّاد حانة *بيل ريبل* في الغالب إلى فئتين رئيستين: الأولى متقاعدو الحرب مقطوعي الأطراف. وكانوا يجلسون إلى الطاولات الأخيرة يعلوهم الصدأ ويُسدل السُكر أجفانهم في أضواء أطلانطا الخافتة. أمّا الثانية ففئران النّهر: مرشدون نهريون؛ قباطنة زوارق سَحْبٍ وقُطر؛ وأولئك الّذين يقودون قوارب محمّلة ببضائع مُهرّبة في جنح الليل. هؤلاء كانوا يجلسون في ركن من الحانة محتشدين أمام شاشة ضخمة مثبّتة إلى الجدار الخلفي. كانت الأخيرة تعرض موقع وحالة سُفُن الشحن أثناء اقترابها واجتيازها النهر. حيثُ يبرز تنبيه أعلى الشاشة متى طلبت واحدة من سفن المساعدات مُرشدًا نهريًا أو بضعة عمّال للمساعدة في تفريغ حمولتها.

كانت تلك الشاشة البسيطة، بالنسبة لصاحبة الحانة، ضربة موفّقة، نتجت عن علاقة امتدّت سنوات مع صاحب واحد من الأقمار الصناعيّة التجاريّة النادرة التي ما تزال تعمل وتغطّي هذا الجانب من العالم. أظهرت الشاشة هذه الليلة أنّ السفن التي كان ينبغي أن تكون الآن في طريقها إلى أوجستا، مكدّسة بدلًا من ذلك وراء السّفينة العالقة. فطفق العمّال يشربون الخمر المنزلي المُخفّف بالماء ويلعنون حظّهم العاثر.

هتف مُرشدٌ نهري: «إن كان لديه عقل، سيبقى على متن

قاربه اللعين على أمل إعادته إلى الصين. ذلك أنه إن رجع إلى هنا سيشنقونه فوق المفشى الخشبي.» جلست سارات على الطرف الآخر من الحانة حيث مالت ليلى وأمها فوق خشبة البار تأكلان المقرمشات. فهتفت الأخيرة إذ تحتضن سارات: «طفلتي العزيزة! قال جينز أنك ستأتين قريبًا. تسعدني رؤيتك.»

«كيف حالك ماما ليلى؟»

هزّت صاحبة الحانة كتفيها، وأجابت: «كالعادة. ليلة سيئة أخرى. يُقال إنّ أمامهم بضعة أيامٍ أخرى قبل انتشال تلك السفينة. لقد بدأ الناس في القلق بشأن ما لديهم من نقود، وقدرتهم على تسديد فواتير آخر الشهر.»

«هل ثمة عاصفة أو ما شابه؟»

«كلا. كان ثمة إعصار يُدعى *والتر* من فئة *كاتسيكس* جاء من الخليج منذ أربعة أيام، لكنه إنطفأ سريعًا فوق بحر فلوريدا. لم ينجم عنه الآن إلا مطر ورياح قليلين. كما لم يتسبب لملاحي سفينة المساعدات إلا ببعض المتاعب البسيطة على الحدود. لكن لا شيء بالغ السوء.»

«ماذا يعيقهم إذن؟ مُحال أنْ تكون تلك السفينة العالقة فحسب. هل عاد الشماليون يشددون عمليات التفتيش من جديد؟»

هزّت ليلى رأسها، وقالت: «بل السفينة العالقة فقط، هل تصدقين ذلك؟ لقد أرسلوا هذا المرشد الجديد، صبيٌ

يُدعى برونزويك، لم يُعتمد إلا منذ أسبوع واحد، وقد أرسلوه ليرشد سفينة المساعدات الأولى. ألم يكونوا يعرفون أنه أدار خارطة الموسم الفائت وتسبّب بضلال السفن بعيدًا جدًا في الجنوب؟ وها هي أول سفينة لعينة هذا الشهر، يتسبّب في اصطدامها بشعاب هتشنسون المرجانيّة.»

«إذن فلا شيء يفعلونه هناك إلا الجلوس؟»

«إنهم هناك منذ الغسق. وموظفو الشحن بالغو التشدّد بشأن إرسال آخرين. أعتقد أنّ الفرصة سنحت لهم أخيرًا لاستعراض عضلاتهم. لذلك ينتظر الجميع الآن أن يرسلوا من ينتشلها ويقطرها إلى هنا.»

«ربّاه! إذا كنّا عاجزين عن قيادة سفينة عبر نهر، تُرى كيف يُفترض بنا أن نكسب حربًا؟»

التقطت بعضًا من المقرمشات. كانت ليلى التي تقسم بأغلظ الأيمان أنّ لا أحد يمكنه تمييز الفارق، قد صنعتها من دَقيق الصراصير. لكن سارات أقسمت أنها تستطيع تبيّن الفارق. كان مذاقها المتخلّف في الفم عفنًا، كأنّ ماءً تبقّى من غسيل أطباق ينتشر أثره على اللسان. طلبت ليلى من ابنتها أن تحضر زجاجة خمر منزلي، فصبّت الفتاة كأسًا لسارات.

قالت الأم وهي تشير إلى فئران النهر في ركن الحانة:

«هؤلاء الرجال، ما هم فاعلون؟»

«يسألون إن كان بإمكانهم تأجيل الدفع إلى أن تصل شحنات الشهر القادم، في حال عادت تلك الشحنات

أدراجها.»

«وماذا قلت لهم؟»

«تعرفين ما قلته لهم.»

«نِعم الفتياة أنتِ.»

عادت ليلى الابنة إلى طرف الحانة الآخر بينما سارات تراقبها. كانت تضمّ شعرها في جديلة كثيفة على هيئة ذيل حصان. وخلفها، على قفاها، يرقد وشمٌ صغيرٌ لولاية جورجيا لم تتبيّنه أمها بعد.

سألت الأمّ: «كيف حال أسرتك؟»

«على ما يُرام.» قالت سارات «زارنا صديق جينز الدكتور هيلر مرّة أخرى الشهر الماضي، وتكلّم عن عملهم على برنامج مع الهلال الأحمر يرسلون من خلاله المصابين الجنوبيين إلى مصحات جيدة في بتسبرج. لكنني قلت له أنني أفضل أن يموت سيمون على أن يذهب إلى هناك.»

«وما الضرر؟ إن ذلك لا يعني أنك تنقلبين على أهلك. ماذا إذا كان لديهم هناك ما يشفيه في تلك المصحات؟»

«ما لم تكن لديهم آلة زمن في تلك المصحات، فلن يُعالجونه.»

تنهدت ليلى، ثمّ سكبت لنفسها كأس خمر واستطردت: «ماذا عن الرسائل؟ يقول جينز أنك تعيدينها.»

قالت سارات «لسنا في حاجة إلى تبرعات. يأتون كل أسبوع من كل أنحاء الجنوب. ناس لم ألقهم من قبل قط، بعضهم أعرف أنه لا يمتلك ما يتبوّل فيه، مع ذلك

ما يزالون يرسلون لنا مغلفات محشوة بأوراق النقد، كأننا كنيسة أو ما شابه. حسنًا، لسنا كنيسة، ولسنا في حاجة إلى إحسانهم.»

ضحكت ليلى: «آه يا عزيزتي، أعرف ذلك. عرفته منذ اللحظة الأولى التي عرّفني فيها جينز بك. لكن ما ينبغي أن تعرفيه أنّ الأمر لا يتعلّق بكم. بل بهم. لا تحسبي أنهم بهذه الدرجة من الغباء كي لا يدركوا مدى فاقتهم؟ بالطبع يعرفون أنهم فقراء. ومع ذلك يرسلون إليكم ذلك المال لأنّ عقدَ صلةٍ ما معكم يمثّل لهم الكثير.»

«لكن ماذا يعرفون عنّا؟ ماذا قرأوا في الصحف؟ ماذا قال ساسة دولة الجنوب الحرّة هؤلاء أمام تلك الحشود؟ لأنّ كل ما يعرفونه هو أنهم يرسلون نقودهم إلى حفرة في الأرض.»

«كل ما يحتاجون معرفته هو أنكم طاهرون. أنت وأختك وأخيك. لا سيما أخيك. وأنتم طاهرون بسبب ما أصابكم في بيشنس. إنّ كافّة الساسة والمتمردين، بل والوعّاظ، ربّما لا ينطقون إلا بما يُناسب الناس، لكنهم ليسوا أطهارًا مثلكم. لهذا يرسلون نقودهم إليكم، ولهذا يكتبون لكم تلك الرسائل التي تقول لكم إنكم في صلواتهم. لأنكم أطهار.»

«هذا ليس حقيقيًا.»

«أوه، بل حقيقي. ربّما ليس معقولًا، ولا منصفًا. لكنه حقيقي.»

«ما داموا يتوقون إلى أن يصيروا طَهارى لهذا الحدّ،

لماذا إذن يجلسون في بيوتهم لكتابة الرسائل؟ لماذا لا يخرجون إلى القتال، أو إعلان فخرهم بالانتماء إلى الجنوب، فخرهم بجانبهم من الحرب؟ في كل مرّة أقرأ فيها صحيفة جي-كون أو أي صحيفة جنوبية أخرى، أجدهم ينشرون مقالات عن استطلاع جديد يكشف تزايد عدد المؤيدين لهؤلاء الجبناء في دولة الجنوب الحرّة وخطتهم المصطنعة للسلام، خطّة لا تطلُب شيئًا إلا السماح بحريّة التنقل داخل أراضينا! إن كان يشغلهم حقًا أن يكونوا أطهارًا، بصرف النظر عمّا يعنيه ذلك، فليشنقوا أولئك الجبناء في أطلانطا ويحشوا أفواههم ببطانات جيوبهم.»

انطلق هتاف من جانب الحانة الآخر. تصوّرت سارات في بادئ الأمر أنّ العمّال النهريين كانوا ينصتون لما تقوله، لكنهم كانوا يهتفون فرحًا بتحرّك السفن. كانت النقطة الحمراء القديمة أعلى شعاب هتشنسون المرجانية قد صارت خضراء أخيرًا، وبدأت السفن المنتظرة جهة الشرق بالحركة إلى أعالي النهر. لقد صار موكب سفن المساعدات الشهري قيد الحركة.

هتف عاملٌ مهرولًا خارج الحانة: «لن نحتاج إلى ذلك الذين يا حبيبتي.»

فصاحت ليلى الابنة: «ما كنت لتحصل عليه على أي حال.»

نفخ العامل قبلة لها في الهواء وهو يُغادر، فردت عليه بأصبعها الأوسط. سرعان ما خيّم الهدوء على الحانة

باستثناء همسات متقاعدي الحرب. كان الرجال- نصف دزينة هذا المساء- أكبر من سارات بحوالي عشرة سنين أو عشرين، لكنهم بدوا أكبر من ذلك. لم تكن تعرفهم إلا على نحوٍ ملتبس: كان اسم الّذي فقد ساقيه ناثان الفلاني. أمّا الّذي إلى جانبه فاسمه جيب، جانبه الأيسر مشلول. الآخرون مِمّن يثملون في أركان البيل ريبل المظلمة في تلك الليلة وفي الليالي الأخرى كانوا مُصابين بإصابات أخرى. بعض الجِراح واضحة للعيان، والبعض الآخر خفِي.

أشارت ليلى الأم إلى الرجال، وتابعت: «هل تريدين التعرّف على من لن يكفّوا أبدًا عن مساندة الحرب؟ تكلّمي مع هؤلاء. فالحرب لن تنتهي أبدًا بالنسبة لهم. أراهنك أنّ أغلب أولئك الّذين يكتبون إليك تلك الرسائل لم يبلغ مصابهم هذا الحدّ بعد. ربّما مسّهم ضُرّ ما، كخسارة صديق أو سماع أنباء عن مذبحة ما، لكن الأمر مختلف مع هؤلاء. الحقيقة أنهم على الضفة الأخرى بالنسبة لك، ولم يُكابدوا ما كابدتِه. ولا رغبة لديهم في ذلك. ليسوا شبابًا مثلك، فأغلبهم كهول يمنعهم الغمر من تذكّر متى كانت الأحوال غير الأحوال، ومتى نعموا بالسّلم. وأنتِ نفسكِ لو كنتِ عرفتِ السّلام، لتمنيتِ عودته أيضًا.»

«لكنه لن يعود. ولو أنّ فيهم رغبة للحلم، فهذا خيارهم.»

أحاطت ليلى كفّي سارات بكفيها. فأحسّت الأخيرة

بدفء في راحتيها يكاد ينبثق من عيني ليلى التي قالت: «ربّما. لكن دعيني أطرح عليك هذا التساؤل، وأصدقيني القول: لو كانت لديهم آلة زمن هناك، في تلك المصحّة الشماليّة، وسنحت لك فرصة للعودة، العودة إلى زمن لم يصبك شئ فيه ممّا أصابك، عالم مُغاير تمامًا لم تنشب فيه حرب على الإطلاق، ألم تكوني لتستقلّيها؟»

«لا يهمّ. فلن يستطيعوا أبدًا اختراعها.»

«لكن ماذا لو كانوا يستطيعون...»

«مُحال.»

ابتسمت صاحبة الحانة. كانت ابتسامة حزينة، ارتابت سارات أنّها تخفي أسفلها شفقة ما. قالت ليلى: «لقد تأخّر الوقت. سيقضون الليلة بأكملها في المرفأ يُفرغون السفن، وسينضم إليهم تجار مصنع القمصان في الغد. سيصبح كرنفالًا يستمر ثلاثة أيامٍ بلياليها.» ومرّرَت مجموعة مفاتيح لسارات. «احصلي على قسط من النوم قدر استطاعتك. الغرفة مرتبة حسب رغبتك.» شكرتها سارات. تعانقتا وعادت ليلى إلى منزلها الّذي يبعد مسافة عشرة بيوت جنوب المفشى الخشبي، بعيدًا عن صخب ضفة النهر.

قرعت ليلى الابنة جرسَ الإعلان عن استقبال الطلبات الأخيرة قبل الإغلاق. فرغت سارات من كأسها ونهضت تترنّح من كرسيها. تسلّقت الدَّرَج القريب من الرّجال الّذين يتهيأون للرحيل إلى الفنادق المعتمة ومساكن

قُدامى المحاربين في الحروب الخارجية، والتي أُعيد تجهيزها لتستقبل قُدامى المحاربين في الحروب الداخلية. حدجت ليلى وهي تصعد الدَرَج، وتلاقت نظراتهما، لكن ليلى لم تنطق بحرف.

كانت غرفة النوم في الطابق العلويّ صغيرة، والفراش عبارة عن سرير معدني من طابقين مُستعاد من مدمُرة جنوبيّة محطّمة. كانت إطارات الفراش مفصولة عن بعضها وقد أُعيد تنضيدها جنبًا إلى جنب كي تؤلّف سريرًا بسيطًا مزودجًا. أضاءت مصباح الحجرة، لكن جدرانها المدهونة باللون البنيّ ابتلعت هذا الضوء. كانت مروحة سقف تدور، أذرعتها المصنوعة من البامبو مطويّة وتتأرجح. ثمّة نافذة تطلّ على المفشى الخشبيّ والمرفأ والنهر.

شمّت سارات الملاءات. كانت مغسولة حديثًا وفاحت منها رائحة الياسمين. هذا أوّل ما تفعله متى نزلت في البيل ريبل؛ إذ كانت روائح الآخرين فوق الملاءات تصيبها بالغثيان. وإذا تشمّمت أدنى أثر لجسد شخصٍ آخر، كانت تنزع الملاءات عن الفراش وتنام فوق الخشبة العارية، أو على الأرض حيث يكتم الغبار كلّ الروائح الأخرى.

ثمّة مشغّل موسيقى قديم فوق المنضدة. كان مشغّلًا عتيقًا من النوع الّذي يخزّن الأغاني في ذاكرته بدلًا من تنزيلها من السُحب الرّقميّة، وهو مِلك لأمّ ليلى ذات يوم، وبلغ منتصف العمر المهدور هذا بين الجِدّة والقِدم،

كان قديمًا بكلّ بساطة. بحثت سارات في ذاكرته عن أغنية سمعتها من قبل، أغنية بطيئة كانت تروق لها. ثمّة شاشة صغيرة على واجهة المشغّل لكنها تعطّلت منذ زمن بعيد؛ فجعلت تُصغي لكل أغنية وتتجاوز الواحدة تلو الأخرى إلى أن عثرت على مبتغاها. تدفّقت من مكبرات الصوت أنغام عزف على مفاتيح بيانو حبلى بالخمر. انطلقت أغنية تشبه بيجامة نومٍ رهيفة. سِرْتِ في *حلمي البارحة مثل العسل*. ثم خلعت ثيابها. ووضعت قميصها فوق المصباح فتحوّل الضوء من اللون الكهرماني إلى لون الدمّ. ألقى القميص ظلال راية جنوب كارولينا مرسومة فوق خلفية حمراء بدلًا من الأزرق.

أنصتت. كان صوت خطوات ليلى فوق الدّرَج خفيضًا. فتحت الباب. تراءت أصغر حجمًا بعد أن خلعت مئزرها. حليبيّة البشرة مقابل ظلال سارات الداكنة. أوصدت الباب خلفها. نادتها سارات: «تعالي هنا.»

«بعبارة ألطف.»

«لا.»

ابتسمت سارات. كانت ترغب أن تبدي ليلى مقاومة، وأدركت الأخيرة هذه الرغبة. لأنّ المقاومة تضفي جمالًا على ما يأتي لاحقًا، وتجعل الخشونة أحلى. كانت الخشونة ما تتوق إليها سارات. لم تشته الحبّ في ذاته، بل سيرورته. قسوة لسانها الظمآن وهو يخمش بشرة ليلى، وحصاد أنينها التالي. كانت تشتهي أن تحسّ ليلى

الحبَ كما تُجِش العظامُ بالكسور، أن تجعلها تصرخ بلغة تجهل أنها تعلّمتها ذات يوم. لغة تُودعها شفتيها كأنها أسرار تقولها لوسادة تكتم الصوت. كانت تشتهي حبًا جارحًا، كذلك الحال بالنسبة لليلى.

انسابت آهاتهما عبر نافذة غرفة النوم الهشّة وابتلعها صخب أرصفة المرفأ. صياح صناعي ناجم عن تفريغ حمولات ناقلات عملاقة من الصناديق في كلّ أرجاء ساحل أوجستا. في الخارج، انكبّ فئران النهر على تشغيل الرافعات والشاحنات لتخليص سفن المساعدات من شحناتها. بعد قليل ستنتقل الحصص التموينيّة الجافّة ولوازم الخيام وأغطية البزّ والإحسان إلى كافّة أرجاء الجنوب. بعدها، خلال الأيام التالية، ستحمّل السفن بنصيبها من المقايضة الكُبرى: صناديق فوق أخرى من الثياب المصنّعة في مصانع القمصان الجنوبيّة؛ إلكترونيات رخيصة من الورش المنتشرة على طول ساحل أطلانطا؛ وفاكهة وخضروات من مزارع أطلانطا الرأسية. آنئذٍ ترحل السفن ويعود الهدوء ليُخيّم على أوجستا من جديد. الأخذُ والردّ انتهى.

ترددت أصداء نبضات قلب ليلى في نوابض السرير، فانقلبت سارات بعيدًا. كانت المروحة تدور ببطء لتصنع حلقات متأنية فوق رأسيهما. أحسّت بأصابع ليلى فوق ظهرها تتعقّب جرحًا. كان الجرح رفيعًا وطويلًا، يمتدّ من أعلى كتفها الأيسر حتى منتصف ظهرها. سألتها:

«كيف أصبت بهذا الجرح؟»

«لا أدري.»

«بل تعرفين. لكن لا ترغبين أن أعرف.»

«معك حق.»

اعتدلت ليلى فوق السرير، ثمّ مالت والتقطت قميصها من فوق الأرض ولبسته. كان ممطوطًا قليلًا حول ياقته حيثُ جذبتها سارات منه. في الخارج، كانت سفينة الشحن التي ترسو بالقرب من الممشى الخشبي تتألق بضوء فانوس غامز تسلّل بعضٌ من نوره عبر نافذة غرفة النوم. أضفى النور مسحة ثلجيّة على ليلى برهة من الوقت، بدت خلالها مواضع بشرتها التي كانت حمراء ووردية مغسولة كأنها من خزف. استعادت نضارتها. «هذه آخر سنة لي هنا. سأرحل في يناير القادم.» سألتها سارات وما تزال توليها ظهرها: «وإلى أين سترحلين بالتحديد؟»

«جنوب *فالدوستا*. حيث نشأت أمي. ما يزال أهلها هناك.»

قهقهت سارات. «الجميع يحاولون الهرب من الساحل الجنوبي. هل ستعودين؟»

«*هناك* أفضل من *هنا*. لن أبقى هنا أنتظر فئران النهر السكارى لأنظّف قيئهم طوال حياتي. وأصحو ذات يوم فأكتشف أنني أصبحت الآن *ليلى العجوز*. على الأقل لن أضطر للقلق هناك بشأن ما إذا كانت هذه هي الليلة التي سيأتي الشماليون فيها من تينيسي أخيرًا ويضرمون النار في كل المكان.»

«السبب الوحيد الذي يمنعهم من السعي إلى فالدوستا هو أنه لا شئ فيها يستحق الحرق. وفيم ستعملين هناك، هل ستعملين في المزارع الفقيرة؟ أم مصانع القمصان؟»

«ربّما في واحد منهما.»

هزّت سارات رأسها متعجّبة وهتفت: «ربّاه! لكنك ما تزالين صغيرة.»

«وكأنك أنت نفسك لست صغيرة.»

التفتت سارات نحوها وقالت: «أعطني وجهك.»

أطاعتها ليلى. نحت سارات ذيل الحصان جانبًا وقبّلت خارطة جورجيا المطبوعة بالحبر فوق مؤخّرة عنقها. «أهربي إلى حيث تشائين. أنت لي هذه الليلة رغم أي شيء.» أجابتها ليلى: «لست ملك أحد.» لكنها تمددت فترة أطول تحت المروحة التي تدور ببطء.

غادرت بعد فترة، ونامت سارات. حلمت ببيشنس، وبالسكين التي تخلّت يداها عنها سريعًا. في الحلم، قيّدها الشماليون وحملوها إلى الشمال، إلى مكان ما داخل الغابة حفروا لها فيه سجنًا شديد العمق داخل الأرض. تجويف أرضي معتم لا تستطيع تسلقه. كان الحلم يتكرر دومًا. في كل ليلة تغمض فيها عينيها تصبح حبيسة بئر فارغ؛ لا حول لها ولا قوّة؛ كفيفة؛ ووحيدة.

استيقظت تسدّ رواسب الكابوس مسام جلدها. ظلّت فترة من الوقت تخربش الحشية، لكن يدًا دافئة ربتت

فوق رأسها، وهتف صوت: *لا بأس يا فتاتي الجميلة، لا بأس*. تركت أنفاس أختها تبث فيها الهدوء، وتشممت رائحة فخذيها. تركت التهويدة تنجرف خلالها. *لا بأس يا فتاتي الجميلة، لا بأس يا فتاتي الجميلة* . لكنها ظلّت تغمض عينيها لأنها كانت تعلم أنّ صوت شقيقتها ورائحتها ولمساتها ليست حقيقية، بل أشياء متخيلة اختلقها خيالها كي ينظّف طعم الكابوس الباقي. ولئن فتحت عينيها آخر الأمر فلن تجد أثرًا لأختها.

* * *

كانت أرصفة المرفأ في الخارج مضطربة بحركة التبادل التجاري. أفرغ العمّال الصناديق خلال الليل وساعات الصباح الأولى. وأثناء الظهيرة، حين أخفقت سارات في الإبقاء على عينيها مغمضتين، كانت العملية العكسية قد غدت قيد التنفيذ.

مشت إلى النافذة. كانت الغرفة رطبة رغم دوران المروحة البطيء. رفعت النافذة لتفتحها وهي ما تزال عارية، ثمّ أطلّت منها لتلتقط بعضًا من نسيم سافانا. بدا الممشى الخشبي عتيقًا وباليًا في ضوء النهار الصافي. وتمدّد سكرانان ينامان فوق قيئهما. حجبت سفينة شحنٍ مشهد النهر، لكن سارات كانت ما تزال قادرة على رؤية جدار الشهداء الكبير على الضفّة الأخرى، وهو عبارة عن جزءٍ مزخرفٍ فوق جدار الحَجر الصحي حول كارولينا، آخذًا مساحة حوالي عشر بنايات. كان الجدار مغطّى هنا بصور كولاج لقتلى الجنوب دون وجه حقّ.

اختفت الخرسانة خلف كتلة من رسومات وصور الأحباء الفوتوغرافية التي يلصقها أو يرسمها ناجون من الاعتداءات الشمالية يتم نقلهم يوميًا عبر النهر على متن القوارب متى سنحت الفرصة.

وحدهم الموتى مسموح لهم بمباركة الجدار. تحوّل الطقس في وقتٍ ما إلى شعيرة شائعة جدًا بين العاملين على متن القوارب، فبدأوا بتثبيت سلالم على قواربهم تصل إلى الأطراف القصوى من الجدار. كان الجنود الجنوبيّون يراقبون المشاهد من أبراج الحراسة دون أدنى ممانعة منهم مهما كان قرب المسافة التي يصل إليها المشيّعيون كي يسقطوا داخل البلاد *البطيئة* في كارولينا الجنوبية. في النهاية، تشبّع مركز جدار الحَجْر الصحي في أوجستا تمامًا، وبدأت الجداريّة تنتشر في اتجاه مصبّ النّهر ومنبعه. لم يكن يُسمح إلا في ظروف خاصة جِدًا، مثل مذبحة مخيم بيشنس، بلصق صور شهداء جُدُد فوق الجزء القديم من الجداريّة في أوجستا. لكن ثمّة اتّفاق بين الجميع ألّا يُلمس قلب الجداريّة الأوسط؛ إذْ وُضِعت في ذلك المكان المُقدّس لوحة عملاقة لجوليا تمبلستو.

ترنّح عاملٌ سكّير فوق المفشى الخشبي يُطلق صفيرًا، عاري الصدر. كان مبتدئًا، يحتفل بانتهاء أوّل نَوْبة عملٍ له فوق رصيف الميناء. اعتمر قبعة *فايكنغ* تُشبه دمية طفل، يتألّق قرناها البلاستيكيان بلون أخضر لامع. رفع عينيه أثناء مروره أمام البيل ريبل وأبصر سارات تقف

عارية عند النافذة. وقف وحملق غير مُصدِّق، فاندفعت سارات إلى الأمام كأنها ستطبق عليه. أجفل وتراجع حتى كاد يسقط من فوق الممشى الخشبيّ إلى الرصيف في الأسفل. غمزت سارات للعامل المنزعج، وأغلقت النافذة.

ارتدت ثيابها ونزلت إلى الطابق السفليّ. كانت الحانة خالية، فأعدت لنفسها شرابًا وأكلت بقايا مقرمشات بائتة، ثمّ غادرت. كانت الضفة تحفل بالحركة الآن كما كانت في الليلة السابقة، لكن في مسار معكوس. كانت هذه الساعة هي ذروة العمل. وبحلول الليل، حين ينتهي العمل الشهريّ وتكون سفن المساعدات قد عادت إلى المحيط الأطلنطي، يعود المرح الصاخب من جديد ليستنفد أوجستا، وينفق العمال المتوهجون بشكلٍ مؤقت نقودهم كلّها. ثمّ تصير أوجستا أهدأ، ثمّ أهدأ، إلى أن يأتي الأسبوع الثالث من الشهر، حينها لا تفكّر نصف الحانات في فتح أبوابها على الإطلاق.

تلتمس توصيلة مجانيّة إلى شرق الساحل على متن إحدى الشاحنات المسافرات على طريق سافانا السريع -جيئة وذهابًا- لنقل عمّال الميناء وأعضاء الأطقم الأجانب وطرودًا تجارية من أوجستا وإليها. وصلت إلى *جاردن ساوند* في وقت متأخر بعد الظهيرة. كانت نقطة التقاء مصبّ النهر مع المحيط منطقة مقفرة، لكن لا تخلو من جمال على طريقتها الخاصة. اصطفت أرصفة مُشرقة عريضة بطول حافة اليابسة. ها هنا شيِّدت كثيرٌ

من شركات الشحن مكاتب لها، وحيث يُبحر غوّاصو الإنقاذ الباقون للبحث عن هِباتٍ في قلب سافانا الغارق تحت البحر.

بعيدًا، على مسافة ستة أميال داخل الماء، طفت ست عوّامات لامعة تمثّل الحدود التي يسيطر الشماليون وراءها على الماء. كانت زوارقهم الساحلية تطوف حولها، يرافقون أيّ سفينة مساعدات تصل إلى أحد أرصفة الجمارك الضخمة العائمة، حيث يقوم الجنود بتفتيشها. ثمّة رصيف آخر أصغر عند آخر حدود الجنوب بالقرب من السفن الخفيفة التي تقدّم خدمة الإرشاد إلى مصبّ النّهر. فوق هذا الرصيف أقيم مبنًى بالغ الدقّة، شُيّد من حاويات شحنٍ ملحومة. كان مقهًى، يُديره رجل اسمه *برنس ويندل* يوشك أن يُتمّ المائة عام، أمضى حياته كلّها على ساحل جورجيا. اشتهر بأنّه آخر من قاوم الخروج العظيم. الرجل الّذي بقي فوق أرضه حتّى بعد أن كفّت عن كونها أرضًا.

بقي طوال ثمانين عامًا تقريبًا يُدير هذا المكان. أوشك على العمى الآن لكنه يعارض الانكفاء إلى العالم اليابس. لم يكن يفتح المقهى إلا خلال الأيام الثلاثة الأولى من كل شهر. خلال هذه الأيام يتوافد عليه زبائن من المرشدين النهريّين والأطقم الأجنبية والجنود الشماليّين العاملين على متن أسطول الجمارك الطوّاف. لربّما تعرّض أيّ جنوبيّ آخر للشنق جزاء خدمة الشماليين، لكن برنس ويندل كان عجوزًا وعنيدًا بما

يكفي كي لا تسري عليه القوانين المحلية. فانتصبت حدود مقهاه العائم الصغير باعتبارها المكان الوحيد في البلاد المتحاربة التي يحافظ فيها الشمال والجنوب على هدنة غير مُعلنة.

كان ألبرت جينز يحتفظ داخل أحد المستودعات القريبة من الشاطئ بزورق صغير رسا على الرصيف الحادي والعشرين. فاستقلّت سارات الزورق الصغير وخرجت به إلى عرض المحيط. لم تكن إلا رحلة بطيئة إلى مقهى برنس ويندل. وقد اختارت هذا المكان وهذا التوقيت للقاء مُخبرها الخاص، لأنّه يتزامن مع حالة الهدوء المخيمة على حركة التجارة عند مصب النهر. بحلول الليل ستبدأ أولى سفن المساعدات في العبور إلى الجانب الآخر من العالم، وسيكتظ الساحل مرّة أخرى أثناء عمليات التفتيش التي يقوم بها الشماليون للناقلات بحثًا عن مسافرين هاربين. لكن خلال تلك الساعات القليلة كان البحر هادئًا.

رست سارات عند سفح الرصيف وتسلّقت السلّم إلى السطح. هناك يافطة مُنارةٌ بالنيون تُعلن أنّ المقهى مفتوح وتصدر أزيزًا فوق الباب. في الداخل كان المقهى مزينًا بصور من مدينة سافانا القديمة ومن المنزل الّذي شهد طفولة برنس ويندل. كانت سارات قد رأت جدرانًا كثيرة تزينها صور كهذه، صور يعاملها أصحابها بتبجيل شعائري، كأنّها ذِكرى لشيء، ولو أُغدق عليها ما يكفي من التعبّد، فستُبثّ الحياة في ذاك الشيء من جديد.

جلس ويندل أمام منضدة المقهى. ظل يحملق في الباب فترة محاولًا تبين هوية زبونته. ولمّا اقتربت منه سارات مسافة تكفيه ليراها، ابتسم وصاح: «جوليا! تسعدني رؤيتك مرّة أخرى!»

احتضنت سارات العجوز. كان واحدًا من القلائل داخل وحول أوجستا مِمّن تعطيهم أسماء زائفة. «كيف حالك يا زعيم؟»

«لا يُمكنني الشكوى. هذا شهر طيّب. لقد أخطأتنا العاصفة. مع ذلك كانت عاصفة الشهر الماضي مريعة.»

واصل وصفه لعاصفة الشهر الماضي أثناء سيره إلى المطبخ كي يحضر لزبونته قدحًا من قهوة. وجلست سارات إلى أقرب طاولة من منضدة المقهى وانتظرت. سمعت زورقًا آخر يرسو عند قاعدة الرصيف، ثم تسلّق جندي شمالي السلّم. بغض النظر عن عدد المرات التي التقيا خلالها، كان مشهد زي مُخبرها الرسمي عن قرب يعتصر أحشائها عميقًا. دخل الجندي. ألقى التحية على برنس وندل فعاد العجوز على الفور إلى المطبخ يُجهز طلب الجندي المُعتاد.

جلس الجندي إلى طاولة سارات. يلتقيان كل شهر بهذه الطريقة. مدة وجيزة لا تتجاوز بضع دقائق. وفي كل شهر كانت تندهش لرؤيته؛ الطريقة التي نضج بها ليصير رجلًا على ما يبدو أثناء الليل، رغم هيكله الّذي لا يني هيكل قزم. لكنه نجا، وعاش، وكان هذا كل ما يهمّ.

قال ماركوس اكسوم: «تمكّنتِ منه. الجميع يتحدثون

عن ذلك. أعلى ضحايا الشماليين رُتبةً منذ قتلوا الرئيس في جاكسون.»

«ما كنت أنجح لولاك.»

أطلّ ماركوس فوق كتف سارات صوب الباب. ثمّ سألها:

«هل تبِعَكِ أحد إلى هذا المقهى؟»

«لا. لكن مُحال أن تعرف من سيأتي أيضًا.»

مرّر ماركوس سيجارة فوق الطاولة. «المعلومة العسكرية الوحيدة التي استطعت الحصول عليها هذا الشهر: قافلة مؤلّفة من أربع مدرعات مصفحة. ستمر بالقرب من خطّ تينيسي عند *كهف راسل*. يُفترض أن تحمل على متنها نائبَ وزيرٍ ما من ديوان الحرب يقوم بجولة على جبهة القتال.» رمقت سارات السيجارة. أبصرت الكلمات الموجزة وخارطة بسيطة مرسومة في داخل الورقة الملفوفة. «شكرًا لك.»

«هل أسألكِ معروفًا؟»

«بالتأكيد.»

«تمهّلي قليلًا. ثمّة حديث عن نيتهم الثأر لِمَا جرى في هافواي. سيعيّنون ابن العجوز رئيسًا لديوان الحرب، الجميع يثقون في ذلك. وهو سيمزّق أوصال الجبهة. لا أدري كيف أو متى، لكنه سيفعل.»

لمست سارات كتف صديقها. أحسّت بالأشرطة فوق زيّه الرسمي، علامات مكانه في هرميّةٍ ما كانت يومًا القوّة الأضخم في العالم، جيش خصومها. «أنت صديق صالح.» ومرّة أخرى رمق الباب. سمعا برنس ويندل

يعود من المطبخ. دفع له ماركوس ثمن ما طلب وغادر دون أن ينطق بكلمة أخرى. وانتظرت سارات نصف ساعة بعد رحيله، تحتسي قهوتها وتنصت إلى ذكريات برنس ويندل عن زمن خروج منطقة جورج سالمةً من الحرب عام 57 ونجاة كامل الحافة الشرقية من المدينة معها.

بعدئذٍ غادرت إلى أحواض السفن. رأت جهة الشرق سفن الجمارك التابعة للشمال تنتظر، فعرفت أنّ صديقها سيقضي هناك يومين آخرين قبل عودته إلى القاعدة في هافواي برانش. تذكّرت أخر مرّة رأته فيها في بيشنس، وعبوره ذلك الحاجز الخرساني الرفيع إلى بلاد الغرباء. لكنها لم تستكثر عليه خيارًا واحدًا مما اختاره منذئذ.

مقتطف مِن:

أرشيفات لجنة مجلس الشيوخ الخاصّة بشأن أنشطة المتمردين والانفصاليين-

شهادة مدير ديوان الحرب جوزيف ويلاند الابن.

ربّما تكون أفضل طريقة لتفسير الأمر، سيّدتي رئيسة المجلس، هي القيام بقياس بسيط.

لدينا انتخابات في هذه البلاد. ولهذه الانتخابات قواعد صارمة، أدرك تمامًا أنّ كافة أعضاء هذه اللجنة يعرفونها. لكن تحت ظروفٍ معيّنة، لدينا أيضًا انتخابات استثنائيّة. فحين قُتل الرئيس دانيال كي على سبيل المثال، أجرينا انتخابات استثنائيّة لم تكن في الحقيقة انتخابات على الإطلاق، بل كانت اجراءً طارئًا أتخذ ردًا على أحداث فريدة وعنيفة. بعبارة أوضح، نحينا جانبًا المعايير العاديّة لأنّ الظروف نفسها كانت أبعد ما يكون عن العاديّة. وأعتقد أنّه من المنصف القول، سيّدتي رئيسة المجلس، أنّه ما مِن شخص عاقل يؤمن حقًّا أننا حين نحينا المراسم العادية جانبًا ونصّبنا رئيسًا حتّى موعد الانتخابات القادم، نكون بذلك قد فككنا بطريقة ما أساسات الديمقراطيّة الأمريكيّة إلى الأبد.

الآن، لنعد إلى سؤالك. لقد سألتني عن الأساليب التي نتبعها لاستخلاص المعلومات من المتمردين المُحتجزين، ويسعدني أن أجيب على تساؤلك.

لقد قلّت وتيرة هجمات المتمردين الإرهابيّة عبر ما يُعرف بخطّ تينيسي، وهي الهجمات التي راح أبي

ضحية واحدة منها، وذلك منذ عُينت مديرًا لديوان الحرب. لا ريب أنّ الفضل الرئيس في هذا يرجع للرجال والنساء الشجعان في قوّاتنا المسلّحة، غير أنّي أعتقد أيضًا أنّ ذلك الانخفاض الدراماتيكي الّذي شهدته أحداث العنف التي يقوم بها المتمرّدون هو نتيجة مباشرة لمبادرتنا الاستراتيجيّة في أسر واستجواب كافّة زعماء المتمردين المعروفين أو المشتبه بهم في تلك المناطق، حيث تفشت أغلب تلك الهجمات. لنكن واضحين، سيّدتي رئيسة المجلس: إنّ مَن نهاجمهم ليسوا ملائكة. وقد صببنا جهودنا كلّها عن قصد على مُجنّدي المتمردين، أولئك الوضعاء والوضيعات مِمَن ظلّوا طوال سنوات يغسلون أدمغة الشباب الجنوبيين ويقنعونهم بارتكاب الأعمال الانتحاريّة والعنف، لزيادة أسباب خيانة الاتفاق.

هؤلاء المُجنّدون، في أغلب الأحوال، لم تواتهم الشجاعة قط كي يحملوا هم أنفسهم السلاح. هكذا، صرنا أمام خيارين لا ثالث لهما يا سيّدتي رئيسة المجلس: إمّا أنْ نهدر سنوات في السّعي إلى ملاحقتهم على جرائم يكاد يكون إثباتها عليهم شيئًا مستحيلًا -رغم وضوح ذلك، لا سيّما بالنسبة لمعايير محاكمات عاديّة تجري في أوقات تشهد حربًا- أو أن نستخلص منهم كل ما يُمكننا استخلاصه من معلومات. وأنا أتكلّم عن معلومات أنقذت يا سيدتي الرئيسة أرواحًا أمريكيّة بعد ذلك.

نحنُ لا نتصرّف كوحوش يا سيدتي الرئيسة، رغم ما

نتعرّض له من تحريض ضدهم. وكما هو الحال في أي حرب، نستعين بالأدوات المتيسّر استخدامها وفقًا لقيود الزّمن والحاجة الملحّة التي تفرض نفسها علينا. ومن ثمّ لم يتأخّر ردّنا في الحالات التي ثبت فيها زيف المعلومات التي قدّمها مُجنّدو المتمردين أو عدم جدارتها بالثقة. ذلك أنّ مهمتنا في ديوان الحرب، قبل كل شيء، هي حماية بلادنا. وأنا أومن أنّنا حقّقنا ذلك يا سيدتي الرئيسة. أومن أنّ الإرهابيين المتمردين سيكفّون خلال الشهور القادمة عن مساعيهم المحكوم عليها بالفشل من أجل الانفصال، وأنّ هذه الحرب ستصل إلى نهاية. كما أنّني لا ريب أؤمن أنّنا، كما عدنا إلى القواعد العادية للانتخابات الرئاسيّة، سنعود كذلك إلى حياة السلم الطبيعيّة. وأثق أنّ لدى أعضاء هذه اللجنة الرّغبة نفسها في بلوغ تلك الحياة الطبيعيّة بأسرع ما يُمكن. إنني أومن، يا سيدتي الرئيسة، أنّنا أقرب إلى السّلام الآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

الفصل الحادي عشر

مشت سارات عبر أطلال *ليك سنكلير*، ومكثت بالقرب من خطام طريق *ميلدجفيل*. كانت الحفر التي يصل عمقها إلى عشرة أقدام تنتشر في مواضع كثيرة منه، وغطّته في مواضع أخرى أشجار مقطوعة وأسلاك كهرباء وأسوار متفحمة. في طريقها إلى البحيرة، انحرفت سارات عن الطريق الرئيس إلى مسارات أضيق تُفضي إلى طريق فرعيّ ونتوء جاف في قعر البحيرة. ها هنا كانت الأشجار السّاقطة أكثر كثافة، وقد تخلّلتها مرافئ وأرصفة منهارة. ومن حين لآخر، كانت القوارض تصدر حفيفًا عبر الأشجار المتشابكة، عدا ذلك خيّم السكون. فتابعت سيرها ببطء إلى مكان اللقاء.

تعرّضت ليك سنكلير إلى القصف في وقت مبكّر من الحرب، قبل أن يعرف الناس أنّ الشماليين فقدوا السيطرة على سفاحيهم المحمولين جوًا. دوى أزيز عند الفجر، مثل ذبابة محبوسة داخل كأس مقلوب. كان أهل الجنوب جميعًا قد اعتادوا رؤية الطائرات بدون طيار، لكن أحدًا منهم لم يشهد قطّ سربًا منها. كانوا يؤلفون حلقة، دزينة أو أكثر بأجنحة ممدودة، تلقي بظلالها التي تشبه رضوضًا ذابلة فوق صفحة الماء. لم يعرف أي جنوبي سبب اختيار الطائرات بدون طيار محو هذا المكان. قال البعض أنّ أحد طياري الاتحاد لابد أدخل إحداثيات غير صحيحة، أو ربّما وصلت إلى الجنرالات والساسة مِمّن بأيديهم سلطة اختيار أي الأماكن تُحرق

وأيها يعيش حتى النهاية، معلومات استخباريّة مغلوطة.

لم يستقر أحد على تفسير. لكن كان من الأفضل تصديق شيء، أي شيء، إلا تصديق أنّ ما جرى كان دون سبب؛ أنّ الطائرات الهائمة احتشدت فوق هذا المكان تحديدًا وفي تلك الساعة على وجه الخصوص وأمطرته بالنيران بموجب الصدفة وحدها ليس إلا.

أصاب الجفاف البحيرة خلال السنوات التي تلت القصف. لكن عاصفة قويّة كانت هبّت خلال الأسبوع الّذي سبق زيارة سارات، فكان القعر هذا اليوم ما يزال موحلًا بسبب ماء المطر، وقد غطت السطح طبقة سميكة كأنّها بساط من الطحالب الخضراء التي جعلت الماء بالغ الركود، فظهرَ قاع البحيرة كأنّه أرض ملوّنة بلون الزمرّد، أرض ثابتة بما يكفي للسير فوقها.

يعمّ الخراب كافّة البيوت الساحلية القريبة من حافّة البحيرة؛ الطرق الصغيرة ملتويّة؛ والأشجار محض رماد كجثث هامدة. حين بلغت قعر البحيرة، شقّت دربًا قصيرًا يفضي إلى كنيسة صغيرة أصابتها أضرار بالغة: كانت مُجرّد دار تحوّلت إلى مكان للعبادة، وقد تدلى صليب من خشب الأبنوس ثابتًا فوق الباب الأمامي. انشقت الدار من المنتصف أثناء القصف، وأوشكت الأرض أسفل النصف المواجه للبحيرة من الدار على الانهيار. أمّا الحجرات الخلفية -غرفتا نوم وحجرة مكتب- فقد مالت بدرجة خطيرة فوق قاع البحيرة،

واستوى النصف الأمامي في الأرض.

تسلّقت سارات فجوة إلى جانب الدار كانت تضمّ ذات يوم نافذة. كانت الكنيسة مظلمة باستثناء نور النهار الّذي سقط عبر السقف المهدّم كأنه ستار. كانت تفوح في الداخل رائحة أوراق قديمة. وطفت جسيمات دقيقة عبر أشعّة الضوء. إنها تأتي إلى هنا منتصف كلّ شهر للقاء جو. لكن هذا كان لقاؤهما الأول منذ أردت الجنرال قتيلًا في هافواي برانش قبل خمسة أشهر. خلال تلك الفترة ازدادت وتيرة توغّل الشماليين داخل الأقليم الجنوبي، عددًا وخطورة، إلى درجة أضطر معها جو لتعليق تدابيرهما بعض الوقت.

رأته داخل الدار، يجلس حيث يجلس دائمًا. فوق مقعد مطبخ خشبي وراء ستار ضوء الشمس مباشرة. ميزته من هيكله: نحيل؛ صاحب وضعية أنيقة؛ يشبك كفّيه ويضعهما فوق الطاولة. «طاب صباحك يا سارات. تسعدني رؤيتك مرّة أخرى.»

«طاب صباحك.»

«ادخلي، اجلسي. إنه يوم رائع، أليس كذلك؟»

ما تزال تحب نبرة صوته، ولكنته الغريبة. كان قد اعتاد نطق حرف الباء الثقيل خفيفًا، وحرف الهاء الهش خشنًا. أحيانًا، حين يتكلّم عن بيته كان ينطق كلماتٍ بلغته تعوّل على حروف غريبة، حروف صيغت من أنفاسٍ والتواءاتٍ دقيقة باللسان. جلست سارات إلى طاولة المطبخ، فأحسّت بدفء ضوء الشمس الغامر على

قفاها. خلف جو، كانت الأرض قد بدأت تميل إلى الأسفل بحدة، فرأت عبر النوافذ الخلفية سطح البحيرة شبه الخالي الأخضر الشاحب. استطرد جو: «أخيرًا، سنحت لي فرصة تهنئتك شخصيًا.»

«ليس بالعمل الكبير.»

«بل عمل رائع لا ريب. النصر الجنوبي الأبرز منذ بداية الحرب. وأنت من قام به يا سارات. إنه انتصارك.»

«ليس انتصارًا. بل رجلٌ واحد سقط قتيلًا. ما يزال لديهم كثيرون أحياء.»

هزّ جو رأسه، وقال: «كان ألبرت مُحقًّا في شأنك.»

«هل رأيته؟ ظللت طوال أشهر أحاول الوصول إليه، لكنه غاب واختفى.»

«كذلك أنا لم أره.»

«هل تظن أنهم ألقوا القبض عليه؟ فهو معروفٌ لديهم منذ زمن.»

«لا أظنّ ذلك. ربّما لو أنّ هذا كان منذ ثلاثين عامًا أو أربعين، لكنه صار عجوزًا الآن. مثلي. وهم لا يلقون بالًا كبيرًا للعجائز. لكن هذا دأبه دائمًا منذ كان جنديًا، إذ كان يغيب أيامًا على الجانب الآخر من الحدود في الرطبة[7] دون أن يُخبر أحدًا. حينها كان الطواف في العراق دون تخطيط أمرًا طائشًا. بل لقد اصطحبني معه عِدّة مرّات من أجل الترجمة وقيادة العربة. في البداية، اعتقدتُ أنّه يقوم بشئ بالغ الخطورة، كاللقاء مع العدو، أو ارتكاب خيانة. لكن جُل ما كان يُريده هو رؤية البلاد

ولقاء الناس. أعتقد أنهم ضجروا منه بسبب ذلك، فقد قضى عامًا داخل سجن عسكري. هل قال لك يومًا شيئًا من ذلك؟»

«قال لي أنك أنقذت حياته عِدّة مرّات.»

«لم أفعل شيئًا كهذا. بل كنت محض مساعد، ما يُمكن أن تسميه *مرافقًا*. يحب الأمريكيون أن يرافقهم محليون يستطيعون الحديث بالإنجليزية والعربية، مِمّن يعرفون الناس والمنطقة. والأفضل دومًا أن يرافقك شخص من أهل تلك البلاد.»

أوقف صوت تهشم بعض أغصان الأشجار في الخارج حديثهما القصير. فالتفتت سارات كي تُطلّ عبر الشقّ الموجود في الجدار. طفقت تراقب وتنتظر وقع الأقدام، لكن دون جدوى. فالتفتت من جديد إلى جو الّذي جلس بهدوء، وقد ألقى نور الشمس على قميصه الأخضر ظلّا أبيض.

«لو أنهم الشماليون، ما كان الوقت ليتوفّر لنا كي نقلق. على أيّ حال، هيا إلى العمل، ماذا تريدين؟»

«*لاجمات*.» أجابت سارات مستعينة بمفردة جو للحديث عن السلاح. «مثل التي أحضرتها في أبريل.»

أومأ جو موافقًا. «لا بأس. كبيرة أم صغيرة؟»

«كلاهما. مثل المرّة السابقة. ثمّة موكب سيمر بالقرب من *تينجا* الأسبوع القادم، يضمّ كولونيلًا. أعرف الطرق التي سيأخذونها. سأزرع الألغام هناك.»

«مثل المرّة السابقة، فهمت. أي شئ آخر؟ طلقات أخرى

لأجل تمبلستو؟ نقود؟»

«الألغام فقط.»

«اعتبريها معك.»

«ثقة شئ آخر.»

«قطعًا.»

«سمعت عن محادثات سريّة بشأن السلام، وأنّ مسؤولي دولة الجنوب قد أوفدوا بعضًا منهم إلى كولومبس منذ بضعة شهور. ما حقيقة ذلك؟»

«أظنّ هذا صحيحًا.»

«وما تزال المحادثات دائرة؟»

«حسب ما تقوله مصادري فإنّ مدير ديوان الحرب قد علّق المحادثات.»

ابتسمت سارات، فاستطرد جو: «قلت لك، إنّه انتصارك.»

* * *

حين عادت سارات إلى البيت من ليك سنكلير، وجدت سيارة غريبة تقف في الطريق. سيارة سيدان قديمة تعمل بالوقود الأحفوري، يقفُ إلى جانبها *أتيك*، أكبر أشقاء *السولت ليك بويز*. فهتفت: «ربّاه. تصوّرت أنهم قتلوك في *فايتفيل*.»

«يريد السيد براج الحديث معك.» كان طويلًا مثل سارات لكن أنحف، مهزولًا للحدّ الّذي يتراءى معه مريضًا. لديه عينان غائرتان ميتتان، مثل أخوته. «أيهما. الابن أم الأب؟»

«السيد براج الكبير. يريد أن يراك أنت وشقيقتك.»

«لن يرى أختي. هيا لننه هذا الأمر سريعًا.»

«لكنه يقول أنه يريد رؤيتك أنت وشقيقتك...»

«هل أصبت بالصمم أم هو الغباء فحسب؟» واقتربت من الصبي. كانت فيه طبيعةٌ آلية، أحاسيسه ممحوّة تمامًا. «سنمضي أنا وأنت. أو يمكنك الذهاب إلى أطلانطا وحدك. الخيار لك.»

اتجها غربًا صوب العاصمة الجنوبية. ثمّة مذياع قديم داخل السيارة أدارت سارات مؤشره. تناثرت أصوات مذيعين هواة بين رشقات من سكون: رواة روحيون للكتاب المقدّس؛ طائفيون ينبحون عن نهاية العالم من داخل كبائنهم؛ ومجانين يزعقون في الفراغ. استقرّت أخيرًا على رجلٍ كهل يقرأ قائمة أسماء. ترددت في الخلفيّة ترنيمة جنوبية وطنية تذكّرتها سارات من أيام الطفولة. كان الكهل يتحدث بنبرة واحدة، ونادرًا ما يتوقّف كي يلتقط أنفاسه، وكان تمييز ما إذا كان يقرأ أسماء شهداء أم خونة أم ببساطة يخترع الأسماء كيفما أتفق، أمرًا مستحيلًا. «ماذا جرى لك إذن في فايتفيل؟»

«سقطت في الأسر.»

«أسرك الشماليون؟ وتركوك؟ تبًا، لابد أنك وشيت بكل من تعرفهم. لابد أن براج يحبّك ما دام يمنع المتمردين من شنقك وحشر جيوبك داخل حلقك.»

«لم أنطق بحرف. كما أني لم أقع في أسر الشماليين. بل أسرني إرهابيون.»

استغرقت سارات بعض الوقت لتدرك أنه كان يعني المتمردين الآخرين، أولئك الّذين رفضوا أن ينصاعوا تحت مظلّة جماعة براج، فأطلقت قوقأة عالية. «هل سمحت لقومك بأسرك؟ يا الله! إنّ هذا أكثر إحراجًا ممّا لو كان الشماليون قد أردوك قتيلًا.»

«ليسوا قومي. بل إرهابيين. السيد براج هو قومي. وأنا خزٍ بسببه.»

«إرهابيون، تبًا. ستسري هذه الكلمة على الجميع، أليس كذلك؟»

لكنّ أتيك لم يكن يصغي لها، بل كرّر: «لم أنطق بحرف. لم أنطق بحرف.»

ثمّ ظهرت عاصمة الجنوب عند حافّة الأفق يُغطيها الشخام.

* * *

راح سورّ تشكّله الأحياء الفقيرة المتراكمة يعلو في السماء، يداعب الغمام. كانت المباني تحدّد تخوم أطلانطا الخارجية. المدينة المستحيلة حجمًا ونموًّا، دائمة التوغّل نحو الخارج، العامرة بالحياة. كان المشهد ذات يوم، منذ زمن بعيد، معكوسًا. إذ كانت ناطحات السحاب تُهيمن على قلب المدينة، وقد انتصبت خلفها المستشفيات والميادين والحُزم الجامعية مترامية الأطراف. بل وأفسحت المجال للضواحي التي اصطفّت فيها المراكز التجارية والحدائق العامّة وملاعب الغولف وحلقة من الطرق السريعة. الآن، أصبحت أسطح

المباني جزءًا من أحياء الفقراء المحيطة بتخوم المدينة الخارجية، واكتست الأبراج باللون الأسود المطفأ مثل أسنان ينخرها السوس. تحيا داخلها نفايات دولة الجنوب: نازحون من البلدان الحدوديَة ومن أماكن خربتها الطائرات بدون طيّار عشوائيًا؛ فقراء أقصى الساحل الجنوبي مِمَن فرّوا من العواصف والحرارة الحارقة؛ جنود ومتمردون وعاديون ولدوا هنا شأن آبائهم وأجدادهم، ولا يعرفون مكانًا آخر.

اصطفَت بالقرب من مساكن الفقراء التي لا تكفّ عن الازدياد ورش الكترونيات ومصانع قمصان ومزارع رأسية. ألِفت تلك المباني هياكل ضخمة يفوق عرضها طولها. شيدت ورش ومصانع من الطوب الأحمر وغُطيت المزارع بزجاج سميك لا يُمكن للعين اختراقه، وقد تكثف بخار الماء فوقه من الداخل. لا شئ سوى رائحة سماد كريهة أفلتت من الجدران وتشبثت بضواحي المدينة كمعطف دهان. عند كل شروق وغروب، يندفع موكب بائس من الشوارع الفقيرة إلى الورش مترامية الأطراف، ومن الورش إلى الشوارع الفقيرة.

اضطلعت بيروقراطية دولة الجنوب الحرّة -وهي سلسلة من المباني الكئيبة المتشابهة- بالقرب من قلب المدينة بدور الخندق حول النواة. في المنتصف يقف المبنى الرئيس لدولة الجنوب: مقرّات الرئيس كيرشاو وكبار الوزراء، إلى جانب قصور نبلاء الجنوب الجدد

المهيبة كثيرة الأبواب، مُلّاك الورش والمصانع والمزارع. تحرّك أتيك ببطء عبر الشوارع. فاحت في الهواء رائحة ضباب ودخان من عوادِمِ ألف مولّدٍ لا تكفّ عن الطنين. ركض أطفال بمحاذاة السيارة القديمة، وقد عرفوا بالغريزة وحدها أنّ سائق شئ كهذا لابد يحتل مكانة رفيعة في هرميّة حكومة الجنوب. دقّوا فوق النوافذ مطالبين ببعض القروش، وطفق رجل عجوز يعرج بين سيارة وأخرى يبيع علب المناديل الورقيّة مقابل خمسة دولارات للعلبة الواحدة. تدلّى علم تكساس مترهلًا من الشرفات العالية فيما تقترب السيارة عبر أزقّة *ليتل* هيوستن. استغرقا ساعتين لقطع المسافة بين منزل سارات في لينكولنتون وأطلانطا، وساعتين أخريين لعبور الضواحي إلى قلب المدينة. قبل أن تتوقّف السيارة عند طرف مجمّع مباني اتحاد المتمردين، أمام بوابة مسيجة بالسلك الشائك يحرسها صبيان ببزات تُشبه بزات حرب فيتنام. تفحّصا الراكبة إلى جوار أتيك بإزدراء ملتبس، ثمّ فتحا البوابة ملوحين للسيارة أن تمرّ.

كان مجمّع مبان بسيط، تألّف من ثلاثة مبانٍ قصيرة تحتشد أسفل جسر في الطريق السريع. لا وجود لأي لافتات على المباني، وفوق كل درجة جلس بضعة رجال وصبيان فوق كراسي بلاستيكيّة وإلى جانبهم البنادق. قاد رجلٌ منهم سارات وأتيك إلى الطابق الثاني في المبنى الأوسط. وهناك جلسا داخل حجرة واسعة تُشبه

قاعة معيشة. انتظرا نصف ساعة قبل أنْ يصل براج الأب فوق كرسي متحرّك يدفعه ابنه برفقة ثلاثة مساعدين. كانت الحرارة شديدة في أطلانطا، ورغم ذلك ارتدى العجوز قميصًا مُغلق الأزرار وسترة تحتيّة دون أن يفرز نقطة عرق واحدة، كأنّ مسامه تصلّبت وجفت بمرور الزمن.

دفعه ابنه بالقرب من أتيك وسارات، ثمّ جلس في ركن بالغرفة. أشار براج الأب بيده لأتيك فنهض الصبي وانصرف. ثمّ حدج سارات من رأسها حتّى أخمص قدميها بنظرة ملتبسة صفراء على وجهه. كأنّه يقرأ كتابًا كُتب بلغة غير لغته. أخيرًا، التفت إلى ابنه وقال: «أنت على حقّ. ربّما ليست هي.» ولم ينبس ابنه بحرف. فعاد يلتفت إلى ضيفته مستطردًا: «إذًا فأنت الفتاة التي تسببت بكل هذه الفوضى. ما اسمك مرّة أخرى؟»

«سارات شستنت.»

«سارات شستنت. هل أنتِ من شستنت مونتجمري؟ أناس طيبون. كان لديّ صبي اسمه بول، قاتل وقُتل في بومونت في وقت مبكّر من الحرب.»

«لا.»

تدخّل براج الابن قائلًا: «أهلها من لويزيانا. إلى جوار بحر المسيسيبي بالقرب من أورليانز القديمة.»

«يا الهي! إذًا فهي ليست جنوبيّة حتّى! ابنة سكّان المستنقعات تخرج لتطلق الرصاص على جبهة القتال.

هل هذا ما آل حالنا إليه؟» ثمّ اقترب من سارات، وأردف: «تعرفين، حين أخبرني ألبرت بأمرك أول مرّة، تصوّرت أنه يلهو. إذ كان هذا دأبه دائمًا، أنْ يثير قلق الآخرين بأشياء جديدة كتجنيد الفتيات أكثر من الصبيان. كل بضعة أسابيع مشروع حيوان مدلّل.»

أجفلت سارات. كانت تعرف أنّ هناك آخرين دائمًا. إذ كانت الأنباء تأتي بين حين وآخر عن انتحاري ما تسلّل إلى بلاد الشماليين وحوّل واحدة من ميادين مدنهم إلى أنقاض. لطالما كانت تتساءل هل حقًّا كان جينز هو المسؤول عن لفّ الحزام الناسف حول جسد الشهيد. لكنّها كانت تُخفي داخل مقصورة أخرى في عقلها فكرة مفادها أنّها ربّما كانت الوحيدة، ذلك أنّه وقد عثر عليها، لم يكن لديه ما يستوجب تجنيد أي شخص آخر لخدمة القضية. كانت تعلم أنّه فكرتها تلك غير حقيقيّة -بالطبع ليست حقيقيّة- لكن إنكارها للفكرة لا يمثّل عائقًا أمام التفكير فيها.

واصل براج الأب: «آه، على أنّي ما أزال أحمل ميلًا نحو جينز ذلك. إذ يبذل جهده كلّه من أجل القضية. لقد قاتل من أجل الشماليين ذات يوم أيام كانت البوعزيزي ما تزال حفنة قبائل بعضها يمزّق بعضًا إلى أشلاء. لكن هذا جرى قبل ذلك كلّه، ولا أعتبره نقيصة ضده...» أحسّت سارات بمنفضة سجائر براج تنفث الرماد في وجهها. لقد أدهشتها قدرة الرجل العجوز على الكلام دون توقّف. وتساءلت ما إذا كانت ليست الكلمات ما يبهجه، بل رنين

صوته. كانت له عينان بليدتان ضيقتان لا تلمعان إلا حين يتكلّم. توقّف بغتة، والتفت إلى أحد مساعديه وقال: «أحضر لنا بعض الماء يا نوح. وأخبر الأولاد أن يحضروا المراوح من المكتب. فالجو هنا أشدّ حرارة من الجحيم.»

غادر المساعد الحجرة، وسرعان ما دخل شابان يحملان مروحتين كهربيتين في أيديهما. وضعاهما في جهتين متقابلتين من الحجرة كي يتلاقى نسيمهما حيث جلست سارات والعجوز الّذي سألها: «وأين هي أختك على أي حال؟ قلت لهم أنني أرغب في رؤيتكما معًا.»

«ليست جزءًا من هذا.»

«يا عزيزتي كلنا جزء من هذا.»

عاد المساعد يحمل كوبين فوق صينية. فشرب العجوز وكأنه يرى الماء لأوّل مرّة. ثم استطرد وهو يمسح فمه: «إنّه جينز اللعين ذلك. هذا صنيعه بكل أولاده الصغار، إذ يجعلهم يتصورون أنّ كل شئ يتعلّق بهم، وأنّ الحرب كلّها ترتبط بمشاعرهم، ما خسروه وكيف يحسّون الألم. لكن الحقيقة خلاف ذلك. ثمّة عالم هائل في الخارج أيتها الفتاة الصغيرة...»

«لا تنادني بالفتاة الصغيرة.»

«عالم هائل، أوسع من أن تحتويه فوهتا صديقتك تمبلستو.» وابتسم حين انعقد حاجبا سارات عند ذكر اسم بندقيتها. «هذا صحيح. نحن نعرف الأسرار أيضًا هُنا. لكننا أصدقاؤك. على عكس كثيرين في الخارج.»

وأشار نحو نافذة نصف مفتوحة، انحشر داخلها قِطاعٌ من قلب أطلانطا في حرارة الجو والسخام. «هناك في قلب الشارع، سيسلمك رجال دولة الجنوب الحرّة إلى الشماليين غدًا لو ظنّوا أنّ تسليمك لهم يمنحهم مزيدًا من الحظوة لدى كولومبس، أو يرفع احتمال دفع تلك الراية البيضاء التي يسمونها خطّة سلام إلى الأمام. إنهم جبناء، ووشاة، وها أنت الآن أصبحت لقمة سائغة لهم.»

«وأنت من سينقذني، أليس كذلك؟ أنت وصبيتك الصغار هؤلاء؟ بذلك الصبي أتيك الّذي وقع أسيرًا لقومه؟ والآخر، الّذي فشل في تفجير حزامه الناسف قبل أن يسقط قتيلًا؟ انظر لهذا المكان، إنك تعيش داخل كهف لعين تحت الطريق السريع، لا تفعل إلا الثرثرة في حين يبيع جبناء دولة الجنوب الحرّة هؤلاء بلاد الجنوب كافّة. تبًا، عليك أن تطلب مني أن أساعدك، لا أن تساعدني.» ضحك براج فبانت لثته السوداء، ثمّ التفت إلى مساعديه وهتف: «إنها معتوهة مثلنا تمامًا. لم يتغير شيء، لم يتغير شيء.» وواجه سارات مُجددًا وأردف: «يا عزيزتي، ألا تفهمين؟ أنت هنا لأنك تروقين لي. لا أحد من رجالي لديه صلابتك، ولا أحد منهم نجح فيما نجحت فيه. جنرال! أرفع شخصية نصل إليها منذ الرئيس دانيال كي! لهذا أنت هنا. أودّ أن أبقيك إلى جواري، أن أمنع وقوعك بين أيديهم. لأنهم الآن، صدقيني، وقد كلّفوا ابن الرجل الّذي قتلتِه، بإدارة

الهجوم على الجنوب، سيحرقون المدن كافةً بحثًا عمّن فعل ذلك. وساعة أن يكتشف أنك من قتل أبيه، سيشنقك على الفور.»

«ليفعل إذًا. أنا لا أخاف الموت.»

«بسبب ذلك ولأنك شابة وتتخيلين أن الموت يقع سريعًا. لكن لديهم سُبلٌ لجعل الموت يطول كما تطول الحياة.»

«إذًا ماذا تريد أن أفعل؟ أن أزحف داخل جُحر وأنتظر؟»

«بلى، هذه فكرة جيدة. ارجعي إلى منزل البز والإحسان الصغير هذا إلى جانب النهر وابقي هناك. إياكِ أن تقتربي من هافواي، إيّاكِ والذهاب لإطلاق شهواتك الذاعرة مع ابنة صاحبة الحانة تلك في أوجستا.» توقّف وابتسم، ثم تابع: «بلى. نعرف هذا أيضًا! وتأكّدي من بقاء أختك إلى جوارك هناك، وأخيك، والأسرة اللعينة كلّها. تمهلي إلى أن تخمد النيران في عروق الصغير هناك في كولومبس، بعدئذ أعدك أننا سنساعدك كي ترديه قتيلًا هو الآخر. إذا كانت هذه رغبتك.»

«هل انتهيت؟»

«بلى يا عزيزتي. لقد انتهيت.»

وقفت سارات وقالت: «شكرًا على نُصحك.» ثمّ غادرت.

* * *

بقيت رواسب الحديث تدور في رأسها بينما أتيك يقود عربته إلى منزلها. شعرت بجرأتها الطاغية إذ تصدّت

للرجل الّذي قلبت نزواته مسار التمرّد الجنوبي. انتقلت إلى مقعد الراكب في السيارة السيدان القديمة، وأطلّت برأسها خارج النافذة. حتّى سخام أطلانطا المالح بدا كأنه نسيم جبال. «لنقف في *فلوريدلي* كي نحتسي شرابًا. أعرف أنهم لا يدفعون لك شيئًا، سأدفع أنا.»

«عليّ أنْ أقلّك إلى بيتك.»

«ماذا، هل استأجروك بالساعة أو ما شابه؟ إنّه مجرّد كأس واحد، ولن يستغرق وقتًا طويلًا.»

هزّ أتيك رأسه وغمغم: «لا أروق لهم هناك. ليست منطقتي.»

تصوّرت وهلة أنّه يتحدّث عن براج ورجاله، لكنها أدركت أنّه كان يقصد شيئًا مختلفًا تمامًا. «ربّاه، هل أنت جادّ؟ إذًا فأنت لا تخشى حمل سلاح والذهاب إلى خطّ تينيسي، في الوقت الّذي يصيبك فيه هلع شديد من دخول حيّ قومك لأنّ لهم توجّه آخر؟» بدا أنّ كلماتها أجبرته على الرضوخ بدافع الخجل، وسرعان ما اندفعا إلى قلب حي *النيوفورث*. كان عبارة عن كتلة مزدحمة من الأبراج في الجانب الشرقي من المدينة، متاخمة لأراضي مصانع الإلكترونيات مترامية الأطراف التي تصدر ضجيجًا عاليًا لا يتوقّف على مدار السّاعة. لم يكن يفصل بين المجمعات السكنيّة العالية الكئيبة إلا مسافة ذراع. هكذا، شكّلت المباني فيما بينها متاهة ضيقة من الأزقّة. اصطفّ باعة القمصان والأكشاك الممتلئة بالبضائع المهرّبة من المزارع الرأسية في

الشوارع الضيقة، فضلًا عن العاملين بتحويلات النقود وميكانيكيي التوكتوك ومحلات لا تقبل سوى الدولارات الجنوبية.

توقّفا على أطراف الحي ثم ترجّلا واجتازا مداخل الأسفلت الضيقة بين المباني. ثمّة أسلاك كهربائية تمتد بين الألواح الشمسية التي تغطّي كافّة الأسقف ومن مبنى لآخر، لتخلق سقيفة فوق الرؤوس. طفق بعض الرجال والنساء العجائز الجالسين في الشارع يراقبون سارات وأتيك أثناء مرورهما، لكن الفتاة الصلعاء سابغة الطول هي من استرعت انتباههم، لا الصبي النحيل ابن يوتا الّذي مشى مخفضًا رأسه خلفها.

كان الفلورديلي كوخًا من الطوب الأحمر انتصب عند حافّة شبه جزيرة ضيقة محاصرًا من ثلاثة جوانب بأبراج سكنية. تترامى أمامه ساحة مفتوحة تناثرت بها طاولات قديمة للعب الورق وكراسٍ قابلة للطي. في ساعات النهار والليل تكون تلك الطاولات مشغولة أو شبه مشغولة طوال الوقت. اشترت سارات وأتيك شرابين وجلسا إلى طاولة. شربت سارات بيرة *كينجواي* أمّا هو فاكتفى بكوكاكولا. «إذًا أنت مدين الآن بحياتك كلها للعجوز، لأنّه أنقذك من حبل المشنقة الّذي كاد يلتف حول رقبتك؟»

«بل كنت مدينًا له من قبل ذلك. إذ أنقذني أنا وأشقائي في يوتا. لولاه لكنّا موتى الآن.»

«وماذا جرى لكم في يوتا على أي حال؟ هل كنتم

تختبئون في تلك المزرعة طوال الوقت؟ سمعت أنهم عثروا على شقيقك وسط كومة من غائط الخنازير أو ما شابه.»

لم ينبس أتيك بحرف. حاولت دفعه للكلام عن حياته قبل وصوله إلى الجنوب، لكنه لم يتكلّم. نجحت بعد فترة في إحراجه لتناول كأس بيرة، فارتخت كتفاه. وفيما خيّم المساء على المدينة، صارا، هو وسارات، ثملين هانئين. قالت سارات بكلمات متداخلة لكن صلبة في حجّتها: «إن مشكلة الرّجال أمثال براج هي اعتقادهم أنّ من حقّهم إدارة الميدان. ولا يتخيلون أنفسهم إلا في موضع الزعامة. يعتقدون أنّ عليك أن تصغي لأوامرهم بمجرّد نطقها كأنّ ليس لديك ما تقوله. بلا أفكار، كأنّك لست حيًا في الأساس.» بدا أنّ أتيك ينظر خلفها ناحية جماعة من الأطفال الصغار يركضون حفاة عبر الزقاق يلعبون *المساكة*. «تمامًا كما قال لي جينز ذات مرّة. هل قابلت جينز يومًا؟»

«لا.»

«عليك أن تقابله. لقد عرف جوهر هذه الحرب بأكملها. إنّه لا يُشبه هؤلاء المعاتيه العجائز. لقد قال لي، قال، أنصت لأنني على وشك أن أفصح لك عن خلاصة آرائه.» ومالت إلى الأمام، كأنها ستشي إليه بسر عظيم. «كل هؤلاء العجائز يبغون أن تبقى الأحوال كما كانت في شبابهم. لكنها لن تدوم مطلقًا، ولن يعودوا شبابًا أبدًا. بغض النظر عمّا يفعلونه. ولا ينطبق هذا على

عجائزنا فقط، بل على *عجائزهم* أيضًا. تخيّل لو كان الشمال تركنا لحالنا. لو أنهم لم يقاتلوننا بشراسة، ويقتلون أولئك الأبرياء كلّهم، لا لشيء إلا لكي يحُولوا دون أن تكون لنا دولتنا وأن نقوم بما نريد كما نريد، ماذا يضيرهم حقًّا في ذلك؟ كلا، لا ضير. لكن الأوضاع كانت مختلفة تمامًا حين كان أولئك العجائز المسؤولون عن إدارة كلّ شيئ شبابًا، لذلك وقفوا عائقًا. لكن أنا وأنت.» وأشارت إلى الأطفال الذين يلعبون خلفها في الشارع. «وهؤلاء أيضًا: ما نزال في مقتبل العمر، وما يُلزمهم لا يُلزمنا. سننتزع السلطة من بين أيديهم، لأنهم ساعتئذ لن يكترثوا لأمر الجنوب. لأنّ الشئ الوحيد الّذي يعنيهم هو ذواتهم. أمّا بالنسبة لنا، فنحن *أبناء* هذا المكان، نحن...»

«أنا لا أنتمي لهذا المكان.»

«لكنك تهتم لأمره. تهتم بالقضية الجنوبية.»

«لا.»

تراجعت سارات في مقعدها، وقد باغتتها نبرة العدمية في صوته. «إذًا، لماذا تقاتل لأجلها؟ لماذا تحمل سلاحك وتُعرّض نفسك للتقطيع أشلاءً على يد الشماليين ما دمت لا تكترث للقضية؟»

فأجاب أتيك وهو ينظر وراء سارات حيث كان الأطفال الباسمون يلعبون: «أردت أن أصبح شيئًا. أردت أن أصبح شيئًا، ليس إلا.»

* * *

حين وصلا إلى بيتها كان الليل قد خيّم فعلًا. إنها المرّة الأولى التي يثمل فيها أتيك. وبعد نصف ساعة من السياقة المتأرجحة الخطِرة على الطرق السريعة، أجبرته سارات على الوقوف جانبًا وتسلّمت هي عجلة القيادة. لم تكن السيارة القديمة التي تعمل بالوقود الأحفوري في براعة المركبات الصغيرة التي تعمل بالطاقة الشمسيّة، لكنها كانت تحمل في داخلها محركًا يُشبه وحشًا ضاريًا. فكانت سارات بين الحين والآخر تدفع قدمها فوق الدوّاسة، لا لشيئ إلا لكي تسمع زئير ذلك المُحرّك القديم.

حين وصلت البيت، وجدت كارينا وسيمون في الباحة الخلفيّة. جلس سيمون فوق كرسي من كراسي المطبخ أمام النهر. اعتمر طاسةً فضيّة كأنّها قبعة، وجعلت كارينا تقصّ الشعر البارز من تحتها. كان تُعلّق فوانيس ورقيّة بين الأشجار، سكبت ضوءها الضعيف عبر الشقوق على هيئة رقاقات ثلجيّة. كان سيمون يضحك، ويراوغ في مكانه، فيما تتحسّس بمقبضَي مقصّها بشرة قفاه الغضّة.

قالت سارات: «أين أختي؟» باغتتهما سويًا. اختفت الابتسامة من وجه كارينا وحلّ مكانها تعبير أكثر حياديّة. «لا أدري. لقد رحلت برفقة صديقها المرشد النهريّ هذه الظهيرة. أظنّهما ذهبا إلى أوجستا.» فأشارت سارات إلى الخادمة إلى الداخل وقالت: «أعدّي له عشاءً.»

«لا بأس. بعد أن أفرغ من حلاقة شعره مباشرة.»

«كلا. الآن.»

وضعت كارينا المقص. ورأت سارات بعضًا من غِلّ في الطريقة التي حدجتها بها الخادمة، فبادلتها النظرة الحقود نفسها. غادرت كارينا فالتفت سيمون نحوها. عندئذٍ قالت: «لا تقلق يا صغيري. سأعود على الفور.»

حين لم يبق شيئ آخر يستطيع سيمون النظر إليه، التفت إلى شقيقته. تراءى لها سخيفًا بجلسته في الفناء واضعًا الطاسة الفضية فوق رأسه كأنه ما يزال طفلًا صغيرًا يلعب دور رجل فضاء. ألقتها عن رأسه جانبًا وهتفت: «إنها تحاول أن تجعلك تبدو مُجرّد طفل. تعاملك كأنك صبي صغير. لكنك لا تحب طريقتها، أليس كذلك؟» لم يقل سيمون شيئًا. فأدارت رأسه نحو النهر وبدأت تقص شعره. حاولت أن تُبطل أثر حلاقة الطاسة، لكن كارينا كانت قد تسببت بفوضى لا يُمكن إصلاحها، ولم يكن أمامها خيار آخر سوى إنهاء ما بدأته. همست في أذن أخيها: «إنها ليست من الأسرة. ربّما كانت تعاملك بلطف، لكنها ليست من الأسرة. إنها غريبة، وأنت تعلم جيدًا ما يُمكن أن يفعله الغرباء.»

شمت رائحته الجديدة أثناء ميلها للحديث معه. الرائحة التي علقت به منذ ما جرى في بيشنس. كانت بالنسبة لها رائحة كريهة مقرفة، رائحة حليب متخثّر. حاولت أن تتذكّر رائحته قبل هذا، هناك في المخيم. تذكّرت رجوعه ثملًا أحيانًا من إحدى رحلاته القصيرة مع

المتمردين وضبطها خمرًا منزليًا معه. لكنها كانت رائحة عابرة، محض قناع لأنفاسه. هل كانت ثمة رائحة أخرى؟ هل فاحت منه رائحتها، ورائحة دانا نفسها؟ عجزت عن التذكّر، لكن أثناء نضالها لتذكّر رائحة أخيها قبل أن يُجزد من نفسه، اكتشفت أنها كانت غاضبة منه. أغضبها أنه لم يمت في بيشنس. لو كان فعل ببساطة كل ما فعله رجال بيشنس الآخرون في طابور الإعدام، لعدّته بطلًا للأبد، لا مُجرّد دمية، محض دمية مصعوقة بين أيدي ربّات بيوت خرِفات وأرامل معتوهات. لم يبق منه الآن إلا شبح أجوف لشقيق كانت تعرفه ذات يوم، يدنّس وجوده ذكرياتها عنه، وجودٌ يدفِن ويستبدل الصبي الشجاع الذي كانه يومًا. كان لابد أن يموت.

انهمكت في تلك الأفكار، فلم تنتبه إلى بكاء سيمون. لم يكن يصدر صوتًا، وقد صوّب عينيه إلى الأمام، لكنها أبصرت الدموع في ضوء الفوانيس الثلجي الواهن. «ما هذا؟ ألا تكفيك شقيقتك؟ هل تثق بامرأة غريبة أكثر مما تثق فيّ؟ تحس أنك أسعد برفقة امرأة لا تدري شيئًا عنها؟» سمعت صوته يعلو أثناء حديثها، وعرفت أنه قد يصل إلى داخل المنزل، لكنها لم تعبأ. «إنها ليست جنوبية حتى. أمها وأبوها يعيشان هناك في الشمال. مع الشماليين أنفسهم الذين فعلوا هذا بك، الذين قتلوا أبينا وأمنا. الشماليون الذين يقتلون ويذلّون أهلنا كل يوم. وأنت تفضلها عليّ؟ تحبها أكثر مما تحب أهلك؟»

أدركت الآن فقط، حين اتضح بكاء أخيها مُدنيًا كفّيه من

وجهه، أنها رفعت يدها كي تصفعه بشكل غريزي. ألقت المقص على الأرض ودخلت. تجاوزت كارينا داخل المطبخ، ثمّ دخلت إلى حجرة شقيقتها وأوصدت الباب خلفها. تمدّدت في فراش أختها الخالي أسفل الملاءات التي سطعت بلون فضّي ورديّ أسفل الضوء. فاحت منها روائح ذكية، روائح كريم الليمون والياسمين. لكن كانت تفوح منها رائحة دانا أيضًا. رائحة شعرها وبشرتها وأنفاسها. الرائحة التي عرفتها سارات منذ الطفولة، رائحة آل شستنت.

* * *

استيقظت قبيل الفجر مباشرة على صوت دقّة على الباب. تصوّرت لحظة أنها دانا، لكنها أبصرت كارينا بدلًا منها. «ماذا تفعلين هنا إلى هذا الوقت؟ هل تقضين الليل هنا الآن؟» وأطلقت ضحكة مريرة، مردفة: «هل تنامين معه أيضًا؟»

«سارات، ثمّة رجل بالخارج. الأمر يتعلّق بأختك.»

انطلقت سارات تركض خارج الباب قبل أن تتبخّر آثار النوم من عينيها. وجدت أحد رجال براج الآخرين في ممرّ السيارات الخاص. كان يُخفض رأسه كأنه اقترف إثمًا. «تكلّم. ماذا جرى لها؟»

فغمغم الصبي: «الطائرات دون طيّار.»

* * *

قطعا أغلب الطريق إلى أوجستا، قبل أن يصلا إلى المستشفى. أبصرت الحطام على جانب الطريق،

فأدركت على الفور أنّ أختها ماتت. كانت جماعة من سكّان بلدة قريبة قد احتشدت حول بقايا المركبات الملتوية، تحدق في الأشلاء. كان حطام ثلاث سيارات وحافلة. تفحّمت الحافلة رغم تماسك هيكلها، لكن المركبات الصغيرة انشقت مثل كعكات الحظ، فلم تعد تشبه أي سيارة على الإطلاق. ومزّقت حفرة الطريق. تقدّما إلى أقرب مستشفى. كانت بالأحرى عيادة لا يتجاوز حجمها حجم حافلة طعام، وكانت في الماضي قبل الحرب مستشفى للحيوانات. تجمهر أقارب الموتى والمصابين عند المدخل وفي الردهة، وإلى جانبهم أعضاء من اتحاد المتمردين الّذين أوفدتهم أطلانطا لتوثيق المجزرة. شقّت سارات طريقها بينهم هاتفة باسم أختها، إلى أنّ جذبها آدم براج الابن من ذراعها وقادها إلى حجرة بالقرب من ظهر العيادة.

مرّا بمشهد صامت يضم الموتى والمحتضرين. كانت الحافلة تحمل عمّالًا جنوبيين مهاجرين عائدين من الحدود الشمالية لكارولينا الجنوبيّة. كانوا مستأجرين كجزء من اتفاق وُضِعَ على عجل بين أطلانطا وكولومبس يقضي بإرسال عمّال للمساعدة في ترميم الشقوق في جدار الحجْر الصّحي الشمالي. كان عملًا خطيرًا مقابل أجر زهيد، وما من عمالة اتحاديّة كانت لتقبل به. تمدد الرجال والنساء تحت أغطية بيضاء ملطّخة بالدماء، وتجمّع أقاربهم حولهم فيما يتنقّل أطباء وممرضون بأعداد كبيرة بين مريض وآخر

باستسلام بائس. وجدت الحجرة التي تتمدد في داخلها أختها. قبل أن تدخل، سمعت براج الابن يحاول أن يخبرها شيئًا ما «كان مُجرّد سوء حظ. لقد فقدوا السيطرة على تلك الأشياء منذُ سنوات.» لكن صوته بدا بعيدًا جدًا.

أوصدت الباب خلفها، فما عادت تسمع أصوات المتألمين والباكين. كان جسد الفتاة الممددة فوق السرير ينتهي عند الركبتين. وقد تلوّنت الملاءة التي ترقد فوقها والملاءة التي تغطي جزءًا منها باللون الأحمر الّذي اسودّ في بضعة مواضع. كانت ثيابها ممزّقة، واحترق الجلد أسفلها وامتلأ بالقروح. وقفت سارات أمام أختها. وتحسست بيدها فخذ أختها. أحسّت فجوة في الجلد حيث لابد حاول شخص ما أنْ يوقف نزيف الجرح. رأت وسم الفحم فوق جبين أختها «3:49» موعد توقّف النزيف. رأت الصدر يعلو ويهبط لآخر مرّة. رأت العينان تختلجان، والشفتان تتحركان. تمتمت: «ستكون الأمور على ما يُرام.» لكن لم تكن سارات من يتكلّم. غادرت الكلمات فمها لكنها كانت كلمات امرأة مُحتالة. «ستكون الأمور على ما يُرام. ابقي معي فحسب، ستكون الأمور على ما يُرام.» وكانت تفوح من الحجرة رائحة دهان كحول.

هوت سارات فوق ركبتيها ووضعت رأسها فوق صدر أختها، فالتفت أصابع دانا حول أصابعها، وهمست: «فتاة جميلة. سأشتاق إليك منذ الآن.»

* * *

لم تخطُ سارات داخل البيت طوال أسبوعٍ كامل، باستثناء لمّا أوصدت باب غرفة نوم دانا، وكي تحظُر على كارينا الاقتراب منها. نامت في الخارج، أحيانًا داخل السقيفة الخشبية، لكن أكثر الأحيان فوق الأرض الرطبة إلى جانب النهر، بالقرب من الرقعة التي كانت نباتات كارينا تناضل فيها كي تنمو. في الليل، حلمت أنها تغرق.

بعد شهر من تحرير رماد أختها في السافانا، جاء الشماليون أخيرًا بحثًا عن سارات. سمعت ذات ليلة موسيقى بين الأشجار، وهمس أيادٍ فوق لحاء الشجر، وخطىً فوق الأرض شديدة الوهن من بعيد. كانت الليلة هادئة، لكن الهدوء غلّف همهمة ما. بعدها بسنوات، ستذكر طعنة ضوء أحمرٍ تتحرّك على جدار السّقيفة. بعدها انفتح الباب مصدرًا صريرًا. ثمّ اندفع رجل يلبس قناع غازٍ متعثرًا داخل السقيفة، واندلعت أصوات وأضواء داخل الحجرة.

---

(7) مدينة عراقية تقع غرب العراق ضمن محافظة الأنبار.

(م)

مقتطف مِنْ:

مشروع أرشيف الحرب الأهليّة-

رسائل معتقل في شوجرلوف (منقّحة/ غير سريّة.)

عزيزتي ـــــــــ،

تلقّيت رسالتك في فبراير. أرسلتها لي ـــــــ، التي تعمل مع فريق ــــــــــــــالخيريّ. كالعادة، قامـــــــ بالاطّلاع على الرّسالة أوّلًا، لهذا أنا لست بواثقة من أنّي تلقّيتها كاملة كما أرسلتِها. لكني ممتنٌ لـــــــ، فقد بذلت ما في وسعها لمساعدتي، وبالطبع ممتنٌ لكِ لأنّكِ كتبتِ لي.

ما أزال في كامب ستِرداي. ثمّة ستة عشر معتقلًا مِنّا، حسب ظنّي، لكن يصعب تأكيد ذلك. ما نزال في الحبس الانفرادي، بينما فِرقةــــــــــــــــ تــ ـــ علىــــــ كلّ ــــــــ.

ما إنْ تولّى ـــــــــــ مقاليد الأمور، حتى ساءت الأحوال أكثر. لقد ـــــــــ، كما أعتقد، لكنني لم أرَ وجهه قط. أظن أنه هو مَنْ أعطاهم الأمر بأخذ كُتبنا وغمامات نومنا وعُلب معجون الأسنان، وكل شئ آخر يذكّرنا أنّنا ما زلنا بشرًا. أعرف أنّه، بعد أن بدأنا إضرابنا، كان مضطرًا لأن يأذن لهم بـــــ.

يقومون بذلك في أيّ ساعة شاؤوا. ليلًا ونهارًا. لا فرق. في البدء، سيأتون ليخبروك بأن تكفّ عن العناد، وأن تعود لتناول الطعام.

وحين ترفض، يصطحبونك إلى غرفة أخرى. وهناك

سوف [redacted].

[redacted].

[redacted].

[redacted]. [redacted].

[redacted]. [redacted]. [redacted].

[redacted]. [redacted].

[redacted].

[redacted]. [redacted].

[redacted].

[redacted].

[redacted]. [redacted].

[redacted]. [redacted].

[redacted].

[redacted].

[redacted].

[redacted].

[redacted]. [redacted] .

[redacted]. [redacted]

[redacted].

[redacted]. [redacted]

[redacted] .

[redacted].

سمعت أنّ [redacted] يعتقد أنّ والده قد قُتل على يد واحدٍ مِنّا. لكننا هنا منذ سنوات، قبل حادثة القتل بفترة طويلة. ولم أرَ حتى جوزيف [redacted]ذاك، ولا سمعت عنه قبل أن يُخبرنا أحد الـ[redacted] بما جرى.

ما عدا هذا، لا جديد. الأيام تمرّ. [redacted]، باستثناء [redacted]، حين نتمكّن من رؤية الشمس.

أعرف أنهم كفّوا عن إخبار الناس عن عددنا الحقيقي، نحن الذين ما زلنا [redacted]. [redacted]. لقد حاولوا بكلّ ما أوتوا من قوّة وذكاء لإجبارنا على كسر إضرابنا. ثمّة ممرضة هنا، وإنها لتفعل كل ما في يدها لـ[redacted]قدر الإمكان. ولست أعرف لماذا. قلت لـ[redacted] إنّ ما تفعله يُعتبر انتهاكًا للقَسَم، لكنها لم تكترث. رجوت الحارس، لكنه لم يكترث هو الآخر.

سمعت عن محادثات سلام تدور في الوطن. أرجو أن يكون ذلك صحيحًا، لمصلحتك. لكنّي لا أعتقد أنّ هذا يَعنينا كثيرًا هنا، فقد قضينا زمنًا طويلًا، وكل ما كان لنا

قبل هذا لم يعد له أيّ أثر. الناس هنا تكلّم نفسها، وترى أشباحًا. إنني أحلم بك وبـــــــ، وبـــــــ، وبالوطن.

أرجو أن تطلعيني على آخر أخبارك قريبًا.

المُخلص لك مع الحُب،

ــــــــــــ

الفصل الثاني عشر

جاءوا إلى معتقل شوجرلوف على متن وحوش طائرة هادرة، مكبلين بأغلال تقيدهم بالأرض وبعضهم ببعض. على عيونهم أقنعة، وفي آذانهم سدادات، ما يعزلهم تمامًا عمّا حولهم. وقد وَعَى الأسرى من خلال مسامِهم، والفتاح من معلومات هُنا وهناك، عن الشيء الّذي يحملهم: تجويف معدنيّ واسع يضخ حرارة شديدة بسبب وقوفه ساعات في مدرج الإقلاع في مطارٍ سرّيّ ما، ثم راحت تضخ برودةً قارسة عقب إقلاع الطائرة مباشرة. أحسّت الأجساد بأشياء أخرى حين انفتحت الأفواه تتوسّل الماء أو التخفّف من الأغلال؛ قسوة أعقاب البنادق وأطراف الأحذية الصلبة. أغلقوا أفواههم، وحلّقت الأجساد بُكمًا كأنها دمىً فوق بحر فلوريدا.

لم يبق من الولاية، شبه الجزيرة، سوى قِمّة تلّ تبرز من الماء، شُيِّدت فوقها جزيرة اصطناعية من الحجارة والأسمنت، أحيطت بسور عالٍ من الأسلاك الشائكة. امتد نتوءٌ من يابسة مقفرة يبلغ طوله حوالي خمسين قدمًا، من وراء السور وحتى الشاطئ. كان العشب ينمو جامحًا هنا كيفما شاء، عدا شريط سالكٍ أعِدّ لبناء مرفأ. أخفت الأعشاب الجزيرة، فكان سكّان ساحل جورجيا الجنوبيّ الّذين يتمكنون من رؤية بحر فلوريدا عندما تصفو غيوم العاصفة، يخطئون التقدير أحيانًا ويظنون شوجرلوف مُجرّد ظلالٍ تراه العيون، سرابٍ استوائيّ

يسكن البحر.

أعيد ترتيب المعسكرات، فاحتُجزت النساء داخل أقفاص، معزولات عن الأسرى الذكور. كانت الأقفاص أكثر ضيقًا، ولذلك يعجز المعتقلون الأطول عن الوقوف دون أن الانحناء. يخفُر الأقفاصَ حرّاس ملثّمون ذوو أقنعة سوداء تُخفي وجوههم، لكنّ شبابهم كان جليًا بالنّظر إلى بشرتهم حول أعينهم. ينادي الحرّاس على النساء داخل الأقفاص بالخانتين الأخيرتين من أرقامهن كمعتقلات، وينادي بعضهم على بعض بأسمائهم الأولى. لذلك، حين يأمر الضبّاط الأعلى مرتبة الحرّاس بنقل النساء إلى أقفاص أخرى، أو إلى منطقة الغصاة، تتراءى التعليمات كأنّها حركات في مباراة شطرنج. لكن يستخدم الحرّاس أحيانًا أسماءهم الحقيقية. هكذا عرفت النساء، اللائي لا شاغل لهن إلا الجلوس والإنصات، هُويّات الجنود الّذين يمشون بينهن على مدار السّاعة. الطويل ذو العينين الزرقاوين هو *ليليمان*: الطيّبُ ذو اللكنة، وأمّا الّذي كان يُهرّب زجاجات الماء عبر السّور فعُزِلَ من الخدمة سريعًا هو *ايزي*. وأمّا صاحب الرقبة العريضة -المتوحّش- فهو *باد بيكر*.

بمرور الوقت، عرفت النساء أشياء أخرى أيضًا: أسماء البلدان التي نشأ فيها الحرّاس؛ وأسماء أطفالهم وحيواناتهم الأليفة. عرفن جغرافيا المعسكرات الواهنة، وضاحية الضبّاط التي تمتدّ في الطرف الآخر من الجزيرة. ورغم خلوّ تلك الأشياء من أيّ فائدة لهن داخل

حظائرهن الواطئة المُقفرة، غير أنّ النساء أودعنها ذاكراتهن، واحتضنّ ما عرفنه مثل أدوات غير مسنونةٍ بعد. كن يتشكين بين الحين والآخر من الحرارة الشديدة أو من ضيق أقفاصهن أو من روائح ثيابهن غير المغسولة. آنئذٍ، حين تتكرر تلك الشكايات كثيرًا أو يصحبنها بصخب عالٍ، يهرع فريق صغير من الحرّاس المدججين بالسلاح إلى داخل الأقفاص ويجرجرون الأسيرة المتذمّرة إلى منطقة القصاة. بعدها بيوم واحد تعود المرأة إلى قفصها ولا تتشكّى مرّة أخرى أبدًا. وسرعان ما يكفُّ الأسرى الآخرون جميعًا عن التشكّي.

***

كان قفص سارات شستنت يواجه ما كانت تحسبه بحرًا. كانت تسمع أمواجًا تتكسّر فوق شاطئ خلف أبراج حراسة، وغابة من القصب المائل مباشرة. كانت الأمواج تعلو وتصطدم بالشطآن الحجريّة خلال فصل العواصف، حين تتكاثف السحب في السماء ويلمع البرق. لكنها كانت تهدأ في أوقات أخرى، فتصدر صوتًا يُشبه كلبًا يلعق وعاء طعامه بأناة. كانت تُجاهد كي ترى الماء، مكبّلة بالأغلال، عاجزة عن الوقوف مستقيمة داخل قفصها الصغير، لكن البحر كان بعيدًا عن مجال الرؤية.

لم تنطق حرفًا خلال أسابيع أسرها الأولى، لا لحرّاسها الذين يقومون بمراقبتها، ولا للنساء القريبات. اعتبر الحرّاس صمتها تحديًا سلبيًا، فتكرّرت تهديداتهم بزجّها

في منطقة الغُصاة. وبدأت النساء اللائي أحبطهن رفضها الكلام بالشك فيها واعتبرنها امرأة غريبة: ربّما جاسوسة، أو شمالية منفيّة إلى هذا المكان عقابًا على الخيانة. لكنها بدلًا من ذلك كانت تصغي إلى البحر. تعهّدت بالرعاية ضلعًا انكسر أثناء الليلة التي جاء فيها الجنود للقبض عليها في لينكولنتون. قلّ الألم في صدرها بمرور الوقت، وأصبح تنفسها أقل صعوبة. لكن الأسابيع التي قضتها محنيّة الظهر جالسة داخل القفص آذت ركبتيها ورقبتها. فكانت تجثو في وضعية الطفل إلى أن يأتي الحارس باد بيكر أو أيّ حارس آخر ويأمرها بالنهوض.

كانت تنتظر الموت. لم يخامرها شك في أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن تأتي مجموعة من الحرّاس الملثمين لتأخذها؛ لا إلى منطقة الغُصاة، بل إلى قاعة محكمة ما في قلب بلاد الشمال. تخيّلت نفسها هناك مكبّلة بالأصفاد أمام صفوف ودكّك تغصّ بشماليين ناقمين ساخرين. تخيّلت الوقوف أمام فرقة إطلاق النّار، طابور من جنود شباب لا يختلفون عمّن تأرجحوا في عين بندقيّتها تمبلستو. تخيّلت مواجهة أيديهم التي ترتجف بهدوء، وتخيّلت نفسها تبتسم في اللحظة نفسها. لأنّه بغضّ النظر عمّا يفعلونه بها بعدئذ، سواء دفنوها في قبرٍ غير مُحدّد، أو نثروا بقايا رمادها، فإنها لا ريب ستجد طريقها إلى النهر، إلى أختها. هكذا انتظرت داخل قفصها تُكابد أفكار الموت.

نُقلت النساء إلى المعسكرات في نهاية الشهر الثالث. اللائي لم يبدين مقاومة صُرفت لهن ثياب بيضاء ورُحّلن إلى معسكر *سارازداي*، وهناك أُتيحت لهم مزايا الحياة البسيطة. أمّا الأخريات فلبسن ثيابًا زرقاء ونُقلن إلى زنازين انفرادية في معسكر *فرايداي* أو معسكر *ساترداي*. بعض النساء كُنّ يتكلّمن عن مكان آخر هو معسكر *صنداي*. كانت الروايات التي قصَصْنها عن ذلك المكان تصدم سارات كأنّها فانتازيا فاسدة من القرون الوسطى. فلم تصدّق في بادئ الأمر وجودَ ذاك المعسكر. بعد ثلاثة أيام في معسكر سارازداي نقلوها إلى *زيارتها* الأولى. أُقتيدت إلى مجمّع صغير من المكاتب المُعدّة مسبقًا، لا تحمل علامات تميّزها باستثناء كاميرات تتدلّى من السقف. كانت الجدران خالية ومعزّزة لعزْل الصوت.

أمرها الحرّاس بالجلوس على كرسيّ معدنيّ صغير أمام طاولة معدنية. يداها مكبّلتان بالأصفاد إلى ذراعيْ الكرسي بينما كاحلاها مقيّدان بأغلال مثبّتة في الأرض. ثمّ أسرعوا بالمغادرة فخيّم الهدوء على الغرفة. جلست بمفردها ثلاث ساعات. فراح وجعٌ يشتعل في عمودها الفقري، وحاولت أن تعدّل وضعيتها لكن الكرسي كان مثبتًا في مكانه، وما من حركة تقوم بها رقبتُها قادرة على منع عضلاتها من التيبس. ثمّ انفتح أحد الأبواب، ودخلت منه امرأة قصيرة تَكْبُر سارات بحوالي عشر سنوات. كان ترتدي ثيابًا تُشبه ثياب النساء اللائي يعملن

لدى حكومة أطلانطا. نزعت سترتها ووضعتها برفق فوق الطاولة. ثمّ جلست وقالت: «نعرفُ تمامًا ما ارتكبتِه يا *سارا* شستنت.»

أدركت سارات آنئذ فقط أنّ آسريها لا فكرة عندهم عمّا فعلت، لا لأنّ المرأة نادت عليها باسمها الأوّل القديم فحسب، الاسم الّذي تخلّت عنه منذ سنوات طويلة، بل لأنّ الشماليين لو كانوا يعرفون جرائمها ما كانوا يحتاجون لاستجوابها، ولا كانوا يحتاجون لانتزاع اعترافٍ منها. إنّهم لا يعرفون شيئًا، ربّما قبضوا عليها بسبب اشتباه ما بعد أنْ شاهدوها تزور مُجمّع اتّحاد المتمردين. وربّما كانت جزءًا من تمشيطٍ عشوائيٍ ما، رحلة صَيد! «إذا تكلّمتِ الآن، لو أخبرتِنا عن كلّ شيء وأعطيتِنا أسماءَ من تعملين معهم، فربما أكون ما أزال قادرة على مساعدتك.» ثمّ مالت إلى الأمام قليلًا وقالت: «ما يزال هناك وقتٌ يا سارا. ما تزال أمامك فرصة لمغادرة هذا المكان، أن تعودي إلى سيمون وإلى دانا. أن تفعلي الصواب. كل ما عليك هو أن تكوني صادقة معي. هل يمكن أن تكوني صادقة معي؟»

«لم أفعل شيئًا.»

أغمضت المرأة عينيها لحظة ثمّ هزّت رأسها وقالت: «سارا، أعلم أنّك تعتقدين أنني عدوتك. لكنني هنا كي أساعدك. يريد رؤسائي في كولومبس احتجازك إلى الأبد، يريدون منعك من رؤية بيتك إلى الأبد. ينظرون إليك وكلّ ما يرونه هو...» ثمّ أبرزت من حقيبتها

مجموعة من صور فوتوغرافية برّاقة نثرتها فوق الطاولة. كانت صور حُطام، قشرة محترقة لسيارة مدمَّرة. تصوّرت سارات برهة أنها صور وفاة أختها. لكن الأمر كان خلاف ذلك، إذ كان المشهد مختلفًا، ولم يبدُ على المرأة أنها تعرف بموت دانا من الأساس. رأت أكياس رمال تناثرت أحشاؤها، وأطلال نقطة تفتيش. ولاح مركز العاصمة الشمالية المحصّن بعيدًا في أحد الصور. لابد أنّ الحيرة كانت جليّة على وجه سارات، لأنّ المرأة سارعت بتنحية الصور جانبًا. «أعرفُ بالطبع أنك لم ترتكبي هذا الجُرم يا سارا، لكن هذا ما يرونه. غير أني طلبتُ منهم منحي فرصة، كي أتكلّم معك. لقد قرأت ملفك يا سارا. أعلم أنك عانيتِ مأساة مريعة، وأعلم رغبتك في ألّا يُكابد أبرياء آخرون -سواء في الجنوب أو في الشمال- معاناتك نفسها.» والتفتت المرأة تنظر وراء كتفها، كأنها تتحقق من أنّ لا أحد يتنصّت عليهما. «هل تعرفين أنّ أجدادي جاؤوا من آلاباما؟ أفترض أنه يُمكنك القول أنني أحمل دماءً جنوبية في عروقي. أعرف أنّ هذه القيم تعني شيئًا لك يا سارا: حماية الضعفاء؛ قول الحقيقة؛ فعل الصواب. *فعل الصواب*. أريد العودة إلى رؤسائي في كولومبس يا سارا، وأريد أن أتمكّن من أن أقول لهم أنّ ما أعرفه حقيقي: أنك لستِ شخصًا سيئًا، وأنّ يديك لم تُلطَّخا بدماء الأبرياء. وإن قلت لهم ذلك، سينصتون لي ويعيدونك إلى ديارك. وهناك يجتمع شملك بسيمون

ودانا في لينكولنتون من جديد. أستطيع مساعدتك، لكن أحتاج أن تساعديني.»

«لم أفعل شيئًا.»

تبدّدت بعض النعومة من وجه المرأة، وعادت إلى صوتها، الّذي كان مُريحًا منذُ لحظات، خشونته. «أعرف بعض من تحمينهم، لقد قبضنا عليهم فعلًا. إنّهم هُنا، في هذا المكان. وقد وشوا بك بالفعل. لقد انقلبوا عليك لإنقاذ أرواحهم. هل ترغبين حقًّا أن تريهم ينعمون بالحريّة في حين تقضين باقي حياتك داخل زنزانة؟»

«لم أفعل شيئًا.»

«لقد وشى ألبرت جينز بك.» تسبّب ذكر الاسم برعشة لا إراديّة لسارات، لكنها لم تقل شيئًا. فاستطردت المرأة: «هذا صحيح. لقد تخلّى عنك ألبرت جينز. أخبرنا أنّك متمرّدة. هل تريدين أن نصدّقه يا سارا؟ هل ترغبين أن نعاملك بالطريقة التي نعامل بها المتمردين؟»

«لم أفعل شيئًا.»

هزّت المرأة رأسها من جديد، ثم نهضت عن كرسيها. «يمكن لهذا الأمر أن يكون سهلًا يا سارا، أو صعبًا. الخيار لك.»

«لم أفعل شيئًا.»

غادرت المرأة الغرفة. وسرعان ما برز حارس مُقنّع تعرّفت عليه قبل أن ينتزع قناعه حتى، من ضخامة جسده وعنقه العريض. بعض الحرّاس دائمًا ما يحرصون على عدم كشف وجوههم أبدًا أمام المعتقلين،

لكن لم يبدُ على هذا الحارس أنه يكترث بهذا الجانب. اقترب منها ورمقها بعينين ميتتين. صفعها على وجهها قبل أن تتمكن من أن تدير رأسها. أصدر رأسها فرقعة لكن باقي جسدها المكبَل بقيَ في مكانه لم يتحرك. هتف: «أيتها السحاقية الجنوبية الحمقاء. سنجبرك على الزقزقة.» ثم استدعى أربعة جنود آخرين ليدخلوا الغرفة. كانوا يرتدون قفازات زرقاء ويغطون وجوههم، وبدوا أضخم بسبب هياكل دروعهم. صاح: «خذوها إلى غرفة *النور*.»

نقلوها إلى غرفةٍ في قبو مبنىً آخر. كانت الغرفة مُشيدة بالأسمنت وخالية عدا مرساتين مثبتتين بالأرض. وغطَت مجموعة من الأضواء الكاشفة الضَخمة الجدار المقابل للمرساتين كلَه. قيد الحرّاس كاحلي سارات بمعصميها، ثم قيدوا أطرافها الأربعة بالمرساتين المثبتتين بالأرض. هكذا شلّوا حركتها وأجبروها على جلوس القرفصاء. غادروا الغرفة، ولم يجرِ شيء عدّة دقائق. ثمّ عادت الحياة إلى الأضواء الكاشفة مصحوبة بفرقعة كهربائية مدوية، وغرقت الغرفة في بياض يقتلع الأحشاء. أغمضت عينيها. تحوّل النور الأبيض الآن إلى لون أحمر ساخن فوق جفنيها. أخفضت رأسها فصار الهجوم مُحتملًا بعض الوقت. لكن سرعان ما ازدادت درجة حرارة الغرفة، وتساقط العرق منها، وصرخت ركبتاها من الألم تحت وطأة وزنها.

انفتح الباب في اليوم الثالث. وتقدّم حارس مُلثّم وضع

طاسة طعام وطاسة ماء فوق الأرض حيث جثت سارات مُقيدة. كانت الطاستان مصنوعتين من مطّاط ناعم وقد اندلق نصف ما فيهما حيث وُضعا. غادر الحارس وتأرجح الباب قبل أن ينغلق. الطّعام في الطاسة الأولى هو عصيدة سوداء خفيفة نُثرت فوقها رقاقات بيضاء. جاهدت سارات كي تصل إلى الطعام عاجزة عن تحريك ذراعيها. أمسكته بأصابعها ومالت إلى الأمام قدر ما تستطيع. ثمّ طوّحته بضعف ناحية فمها. بدت العصيدة كبريتيّة عفنة. لكنها أكلتها بنهم وقد شوّشها الجوع. وسرعان ما تلطّخت الأرض حولها ببقايا الطعام. وبدأت العصيدة تفسد بتأثير حرارة الأضواء الكاشفة الشديدة. وبين يوم وآخر، كان الحارس يعود ويضع طاستين فوق الأرض. في اليوم العاشر، استنفدها خفقان رأسها وركبتيها. ودوت الغرفة بصراخها. وبدت العتمة الحمراء الصّغيرة التي تعيش فيها أثناء إغماض عينيها مستمرّة حتّى حين تفتحهما. في اليوم العشرين، أخرجها الحرّاس.

في غرفة الاستجواب، سألتها المرأة ذات الحلة الأنيقة المحبوكة إنْ كانت قد غيّرت رأيها. لكنها قالت منهارة في كرسيها المُكبّل: «لم أفعل شيئًا.» فوقفت المرأة وغادرت الغرفة. عاد باد بيكر سريعًا. بدا خلال الضباب الّذي أسفرت عنه رؤيتها المعطوبة كأنه يتحرّك في مكانه، مشوشًا كأنّه حلم لا تتذكّره بوضوح. جرجرها من شعرها الّذي عاد ينمو خلال الوقت الّذي قضته في

الأسر، ثمّ سألها وأنفاسه الساخنة تلفح رقبتها: «كيف برأيك سينتهي هذا الأمر؟ هل تظنين أنه سينتهي بفوزك؟ واستسلامنا؟ ستزقزقين. أعدك.» وأفلتها ثمّ نادى على الحرّاس ليدخلوا، وهتف: «خذوها إلى غرفة *الصوت*.»

* * *

عاشت سارات خلال الشهور التي قضتها بين جلسات الاستجواب داخل زنزانة في معسكر *ساترداي*. كانت زنزانة مُربعة، تستطيع إذا وقفت في منتصفها مادّة ذراعيها، لمس جدرانها الأربعة بأصابعها. كانت الجدران مبنية من الخرسانة ومدهونة بلون السّمن الصناعي. شغل سرير معدني ومرحاض طرفي الزنزانة المتقابلين، عدا ذلك كانت خالية. عمل مصباح في السّقف طوال النهار والليل، مزيلًا الفارق بينهما. ما اضطرّ الدّماغ المحروم من دورة اليوم (وفي الوقت نفسه، الفصول) للعمل بالمؤشرات الوحيدة المتاحة لقياس الوقت: وقع خطوات الحرّاس في الخارج. كان الحرّاس يقطعون أروقة معسكر ساترداي باستمرار. كل ثلاث دقائق، كان الشقّ في باب زنزانة سارات ينفتح، ويتفحّص زوج عيون الغرفة، قبل أن يوصد الشقّ مرّة أخرى. بمرور الوقت صار صوت فتح وغلق الشقوق المعدنيّة الموجودة في الرواق كأنه بندول إيقاع، حددت سارات بناءً عليه فجر ونهاية اليوم. في النهاية، نجحت في معرفة أصحاب العيون التي تتفحصها بإحساسها فقط،

وأطلقت على أصحابها أسماء من عندها.

كانت تسمع أحيانًا صرخات صادرة من زنازين قريبة. إذ بين الحين والآخر كانت النساء تنتظر كي يفتح حارسٌ الشقّ في الباب ثم يحاولن قذفه بحفنة من غائط وبول في عينيه. بعد دقائق قليلة، تأتي جماعة صغيرة من الحرّاس الملثمين وتقتحم زنزانة المشاغبة ثم يقتادون المرأة ويحملونها وهي تركل وتصرخ إلى منطقة القصاة. تعود خلال أسبوع أو أسبوعين، لكن دون أن تصدر ضجة أخرى. كانت المرأة في الزنزانة المجاورة لزنزانة سارات تُدعى *إلينا*، من المسيسيبي. وأصيبت بالخرف. راحت تتحدث إلى سارات بهدوء خلال الخرسانة، بصوتٍ يعبر الجدار بوضوح شديد، إلى درجة تصوّرت معها سارات لشهور أنّ الصوت من تلفيق دماغها الّذي أصابه التعذيب بالعطب.

قالت إلينا أنها ولدت في هذا المكان. وأنها ظلّت حبيسة هذا القفص منذ مولدها لأنّ الشماليين كانوا يعرفون أنها ستصير إرهابية منذ اليوم الّذي دخلت فيه العالم. وقالت أنّ شوجرلوف كان مبنيًا ذات يوم فوق مساحة رحبة بارزة من الأرض وكان دون زنازين ولا أسوار. كانت تُردّد أغانٍ عن التماسيح والمستنقعات والقوارض التي تتكلّم. تصغي سارات لصوت جارتها، بين وقع خطوات الحرّاس الثقيل وصيحات النساء الذاهلات، بالطريقة نفسها التي كانت تصغي بها إلى صوت أنفاسها: بسلبيّة، ودون تفكير. لكن في أوقاتٍ أخرى،

كان صوت تلك المرأة هو الوحيد الّذي يُمكنها سماعه، يُذكّرها أنها ما تزال على قيد الحياة.

أحيانًا تُجيب سارات على الكلام الّذي ينزلق بنعومة عبر الحيطان، وكانت تكذب آنئذٍ. قالت إنّها من كارولينا الجنوبيّة لمّا سألتها إلينا من أين جاءت. واختلقت كذبة مدروسة عن هروبها من المرض الّذي اجتاح تلك الولاية. وجدت في الكذب على جارتها المجهولة مُتعة، واستمرأت تصديق الجارة ذلك الكذب. لقد وجدت بعض العزاء في العودة إلى وجودٍ مصطنعٍ كاملٍ بعد أسابيع من سوء المعاملة التي تلقّتها خلال جلسات الاستجواب الوحشيّة، والتي تعود بعدها إلى زنزانتها تهلوس من الألم.

مع ذلك، قاومت. كانت جلسات الاستجواب متتابعة مثل موجات. أحيانًا لا تأتي المرأة ذات الحلّة الأنيقة المحبوكة طوال شهور، فتظنّ سارات أنّ التحقيقات انتهت. وأحيانًا أخرى، تتراءى المرأة كأنّها نزيلة دائمة في الجزيرة حيث تقوم بزيارة سارات يوميًا. أصابت أسابيع من العزلة داخل غرف الصوت والضوء حواسها بالتبلّد، إلى أنّ أصبح العالم البعيد محض سحابة مشوّشة لم تعد قادرة على فك شفرتها. أصابت الأماكن التي كبّلوها فيها غضاريفها -بدءًا من ركبتيها- بالإنهاك، وأحاطت ظهرها بقوس من الألم. ومع ذلك، قاومت.

***

شاركت سارات خلال عامها الثالث على الجزيرة في

إضراب عن الطعام. قالت إلينا أنّ النساء في المعسكرات كلّها يشاركن فيه، ويرفضن الأكل أو شرب أي شيء عدا الماء. قالت إنّ بعضهن مضربات بالفعل منذ أسابيع، وأنّ امرأة منهن لقيت نحبها، منتحرة على ما يبدو، أمرٌ يصفه الحرّاس *بالإصابة بعدم التناسق*. قالت إنّ النساء لديهن قائمة مطالب على رأسها الحرّيّة. وحين أخفقن، طالبن بنقل أحبّائهن جوًا للزيارة؛ وطالبن بمحامين من الجنوب لتمثيلهن؛ وبالحقّ في شيء بدا وقْعُ اسمه على أذني سارات غريبًا (افترضت أنه مُخدِّر ما أو نصّ دينيّ). وطالبت النساء في الحبس الانفراديّ بوقتٍ يقضينه في السّاحة العامّة، بفرصة لرؤية الشّمس.

لم يكن لدى سارات مطالب. لم تتصوّر أنّ التفاوض مع آسريها من أجل معاملة أفضل يختلف كثيرًا عن التفاوض مع عقربٍ ألّا يلسع. كان الصمت سلاحها الّذي لا يُمكنهم انتزاعه منها، وبدا لها أنّ التنازل عنه في صورة التماسات بائسة صنيعٌ ينمّ عن جبن شديد، اعتراف ضمني بأنّ ممارسات شوجرلوف الوحشيّة تتمّ وفقًا لقانون. كانت قد رفضت للسبب نفسه لقاء من يصفون أنفسهم بالمبعوثين الإنسانيين، أولئك الّذين ينقضون على شوجرلوف كل بضعة أشهر راسمين على محياهم تعبيرات جصيّة من الرفض الصارم. للسبب نفسه كانت تبصق على وجه المرأة ذات الحلة الأنيقة المحبوكة، وكانت تمزّق صفحات الكتاب الوحيد الّذي سمحوا لها به وتلصقها بالغائط فوق الشقّ الموجود بباب

زنزانتها، للسبب نفسه لم تقدّم سارات أيّ مطالب.

بدلًا منذ ذلك، رفضت بكل بساطة أن تأكل. من خلال الجوع، كانت تنتزع أذرع التعذيب من يد معذبيها وتضعها في يديها. من خلال الجوع، وجدت قوّة، سيطرة. بعد أسبوعٍ من الإضراب، أصابها الجوع بالإغماء، فحملها الحرّاس إلى المنشأة الطبيّة. أدخلوها غرفة ذات سقف أبيض عالٍ. تغطّي نوافذها ملاءات سوداء تحجب نور الشمس. بدت رائحة الغرفة مألوفة بالنسبة لسارات، كانت رائحة دهان الكحول، فتذكّرت آخر مرّة رأت فيها أختها. انتصب في وسط الغرفة سرير وحيد ينحدر مثل كرسي طبيب أسنان. وُضِعت فوق طاولة معدنية قريبة مجموعة من إبر الحقن تحت الجلد؛ خرطوم مطّاط؛ صندوق قفازات للاستعمال لمرّة واحدة؛ وكيسين من سائل شفّاف.

حملها الحرّاس فوق السرير، وأحسّت بأشرطة تُلَفّ بإحكام حول معصميها وكاحليها وصدرها. وهناك مقابضُ أجبرتها على النظر إلى السقف الأبيض الفارغ. أبصرت بطرف عينيها جنديًا يقف أمام الطاولة. كان يلبس معطفًا أبيض ويُحيط عنقه بسمّاعة طبيب لكنها كانت تعرف أنه جنديّ. فك الخرطوم المطّاطي وثبّته بكيس سائل شفّاف علّقه فوق قائم معدني. وأبصرته بطرف عينها يحقن مادّة مخاطية لامعة في طرف الخرطوم قبل أن يوقفه الحارس باد، قائلًا: «لا حاجة لذلك. فهي امرأة قويّة.»

أطعموها خلال الفترات الفاصلة بين نوبات التشنّج التي أصابتها لاحقًا. بدأ السقف الأبيض الّذي كانت عيناها مثبتتان عليه يمتلئ بنجوم لامعة. كان السرير يهتزّ، فتحسّ بأيدي الحرّاس تحملها من مكانها. زحفَ طعمُ سائل التغذية الحمضيّ عبر حلقها وتسرّب خارج فمها المتراخي، وكان محمّلًا بطعم السوائل الرّاكدة في بطنها.

أطاحت رياح هبّت أثناء إطعامها بملاءة سوداء مسدلة فوق إحدى النوافذ. ودخل شعاع من نور الغرفة. أغمضت سارات عينيها وأحسّت بالدفء الّذي مسّ أطراف أصابعها، وسمعت صوت أطفال يلعبون يأتي من مكان سحيق.

***

لعلعت عاصفة بأرجاء الجزيرة طوال ثلاثة أيام من يناير/كانون الثاني، وصنعت الأمطار صوتًا يُشبه طقطقة حشرات ضخمة تزحف فوق جدران السجن. فتجمّعت النساء وصرخن داخل محابسهن الانفراديّة. حرمت العاصفة سارات من غذائها اليومي، فعاد الجوع هذه المرّة لكن كرحمة. في اليوم الرابع، انفتح باب الزنزانة ودخل باد بيكر برفقة الحاشية المعتادة من الحرّاس، لكنه جعلهم ينتظرون في الخارج، وأغلق باب الزنزانة خلفه.

عرفته سارات مِن وقع أقدامه، قبل أن يظهر في الرّواق. كانت تندهش أحيانًا من كمّ ما تعرفه عن رجل لا

يُفترض بها أن تعرف عنه شيئًا: الطريقة التي تحمرّ بها وجنتاه حين يسبّها كأنّ صوته يصيبه بالحنق؛ اقتراب شفته العليا من فتحتي أنفه في تعبير متكلّف عن الازدراء حين تكذب عليه. كانت تعرفه بالطريقة التي تعرف بها الحيواناتِ الطقسَ، وعبر شيء ما غير مُحدّد يحيا في ثنايا حضوره، تعلّمت كيف تتكهّن بقسوة العواصف الوشيكة. لكن اليوم، عجزت عن قراءة نواياه. ثمّة هدوء في عينيه الغائرتين، وفي أوردة عنقه غير النافرة. استبانت في وجهه الممتلئ تعبير طفل عشية عيد الميلاد، نافد الصبر متوتر بسبب الترقّب.

جلس عند طرف الفراش. تراجعت سارات في حركة لا إراديّة. شمّت فيه رائحة فوضى فطور الخيمة، رائحة زيت المقلاة. رمق المكان جوار السرير حيث جفّت بقايا قيء سارات وتحوّلت إلى قشرة بلون الرمال. وأطلق ضحكة مكتومة، وقال: «أخبريني، هل تؤمنين في أي من تلك السخافات الهندوسيّة؟ لديهم كتاب عنها في المكتبة، أصابني السأم ليلةً فشرعت في قراءته. هل تؤمنين بالعودة في هيئة علجوم أو نملة أو شيء ما بعد أن تموتي لو كنتِ حقًّا شريرة جدًّا في حياتك؟ أعني، لقد رأيتُ ما فعلتِه بالكتاب المقدّس الّذي أعطيناه لك، أعرف أنّك لستِ مسيحيّة، لذا ربّما تؤمنين بهذه الأمور.»

لم تقل سارات شيئًا. فرقع باد أصابعه. وانتظرت سارات أن تحمرّ وجنتاه، وتنفر عروقه، وجهّزت عقلها كي ينقلها

لمكان بعيد. لكنّه استطرد: «لقد قضيت وقتًا طويلًا أفكّر في ذلك؛ لأنني مضطر للتفكير في أنني لابد واقترفت آثامًا مريعة خلال حياتي الأخيرة. ربّما أكون أحرقت دار أيتام أو ما شابه. ربّما كان هذا هو السبب وراء زجّي إلى هُنا، كي أقوم بدور جليسة أطفال لحفنة من الحيوانات اللعينة.» انفتح الشقّ في المدخل، وأطلّ منه حارس. أشار إليه باد أن يبتعد. في تلك اللحظة تخيّلت سارات نفسها تندفع صوب عنقه اللامع الّذي يغمره العرق وتغرز أسنانها فيه. لكن ما تخيله عقلها لم يعد لجسدها طاقة على تنفيذه، وحين التفت مرّة أخرى نحوها ووضع كفّه فوق ركبتها، بصقت في اتجاهه لكن لم يخرج منها سوى رذاذ خفيف. «لكن، اضطررت بعدئذ للتفكير أنّه لا يُمكن أن أكون قد ارتكبت آثامًا لا نهائيّة، أليس كذلك؟ لا يُمكن أن أكون قد ارتكبت آثامًا لا نهائيّة، لأنني آنئذٍ سأعود في هيئتك.» وربت بهدوء فوق ركبتها قبل أن ينهض واقفًا ويتابع: «هل تذكرين حين وصلت إلى هُنا أول مرّة؟ هل تذكرين كيف كنت تكبسين وجهك بالقفص مثل كلب يحاول أن يلقي نظرة على الماء؟ حسنًا، خمّني يا سارات شستنت؟ سنحملك إلى الماء.»

* * *

حملها الحرّاس إلى مكان آخر، إلى مبنى صغير لم تره من قبل قط. مبنى أبيض دون علامات تميزه، نهض على حافّة مجمّع مُحاط بسور ومتاريس مثل معسكر

ساترداي، لكن أصغر. كان المجمّع يقوم على أطراف الجزيرة، فسمعت سارات الأمواج المتلاطمة البعيدة أثناء قيام الحرّاس بنقلها إلى داخله. أخذوها إلى حجرة دون نوافذ، تضيؤها هالة قويّة من نور ساطع قديم يعود لزمن ما قبل الحرب. تدلّى المصباح من سلك مثبت في سقف أبيض مُنخفض. انتصب سرير في منتصف الحجرة حيث قدموا لها الطعام. الأشخاص أنفسهم كانوا حاضرين: جنود في ثياب حرّاس، وجنود في معاطف بيضاء. لكن هذه المرّة، وقف الحرّاس بالقرب من السرير، وأصحاب المعاطف البيضاء على طرف الغرفة، وحين رمقتهم سارات أشاحوا وجوههم بعيدًا.

كبّلوها من جديد في مكانها، ورغم أنّها لم ترَ أيًا من التجهيزات المعتادة فوق الطاولة المجاورة، غير أنّها أغمضت عينيها وانتظرت أن يُطعموها. لكن بدلًا من ذلك أحسّت بقطعة قماش ناعمة تُوضع فوق وجهها، ثم سمعت صوت المرأة ذات الحلّة المحبوكة الأنيقة وقد همس: «إن كنتِ تريدين لهذا الأمر أن يتوقّف، فعليكِ أن تتعاوني معنا.» ثمّ غاب الصوت، وخيّم صمت على الغرفة. بعدئذٍ غرقت سارات.

تحرّك الماء دون توقّف. كانت توشك على الموت ثمّ تنجو، ولم يعد جسدها يخصّها. غمرتها دفعات من نور وحرارة فتوقّف عقلها من الخوف والفزع. غرقت ورغم ذلك لم تمت. لقد تمكّن منها آسروها أخيرًا.

في النهاية، اعترفت بالجرائم التي اتهموها بها كلّها: التورّط بالأشكال كلّها في أعمال عنف، وأشياء لم تسمع بها من قبل. اعترفت بقتل ثلاثة مُخبرين شماليين في *النيوفورث وارد* وفي تفجير سيارة على مشارف مدينة كولومبس. اعترفت بكل ما تعرفه عن المتمردين الّذين تعرفهم وسألوها عنهم، ولفقت حكايات معقولة عن أشخاص متهمين لا تعرفهم. قدّمت لها المرأة ذات الحلة الأنيقة المحبوكة رزمة اعترافات مكتوبة وقّعت كل صفحة منها. ما مِن احتمال واحد، أمام الخوف من الغرق، يجعل اعترافاتها غير صحيحة.

* * *

ذاقت بعض الراحة خلال الشهور التي تلت. وشيئًا فشيئًا أتاحوا لها بعض الأمور النفيسة التي كانت ممنوعة عليها في السابق: صابون وشامبو؛ كتب أخرى غير الكتاب المقدّس؛ صبغة سوداء لحجب الأضواء القائمة فوق رأسها؛ مُسكّن آلام زعاف العنكبوت لتخفيف أوجاع ركبتيها وظهرها. كانوا يتركونها ساعة يوميًا خلال فترة الترفيه حيث تتمدّد فوق خرسانة دافئة أمام السور لتحظى بنور الشمس، راضية مثل قِطّة منزلية. أحضروا لها طعامًا أكلته كله، وبشراهة. كان الطعام دسمًا فعادت تكتسب الوزن بسرعة إذ لم يكن لديها ما تفعله إلا البقاء داخل الزنزانة والأكل. لكنها أكلت كل شيء، ولم يضطروا أبدًا لإجبارها على الأكل مرّة أخرى.

كانت تكتفي بالجلوس ثابتة وتترك الحرّاس يقلّمون أظافرها ويقصّون شعرها كل أسبوعين. لكنها كانت تغرز أظافرها أيام الخميس التي تسبق مجيئهم، حين تطول أظافرها إلى أقصى حدّ، عميقًا في بطن فخذيها كي تشعر باندفاع الدماء. لابد أنّ الحرّاس الّذين كانوا يراقبونها كل بضع دقائق تخيلوا أنها تمارس العادة السريّة، فتركوها. تغيّر الحراس في الصيف التالي، وغادر باد بيكر إلى الأبد. لكن سارات لم تكترث بأي شكل حين همست إلينا لها بالأنباء عبر جدران الزنزانة؛ لأنّ المرأة التي خنق الحارس عريض الرقبة روحها ببطء كانت غادرت هي الأخرى. أدرك الليل النهار، وأدرك النهار الليل. وتتالت السنون.

* * *

ذات يوم، بعد فترة طويلة على آخر جلسة استجواب تعرّضت لها، جاء حارسان إلى زنزانة سارات وأعاداها إلى المبنى القديم الّذي اعترفت فيه. تبينت المكان أثناء اقتيادها في رواقه، لكنه بدا متهالكًا مقفرًا. ثمّة طبقة كثيفة الآن من الغبار تعلو المقاعد والطاولة، ويافطة قديمة مكتوبة بخطّ اليد مُعلّقة فوق جدار تقول: نظِّف آثارك. دفعاها للقعود مرّة أخرى، لكنهما لم يكبلا السجينة بالمسامير المثبتة في الأرض هذه المرّة. غادرا ثمّ دخلت امرأة لم ترها سارات من قبل قط. كانت شابّة وترتدي بلوزة رسميّة وتنورة.

تمكّن منها فزع بارد شلّ أطرافها حين رأت زائرتها

الجديدة. وحدّقت صامتة دون حركة في المرأة، وقررت بهدوء في صميم نفسها أنهم لو حاولوا اقتيادها من جديد إلى تلك الغرفة الصغيرة البيضاء، ستنشب أظافرها في حلقها قبل أن تسمح لهم بتقييدها مرّة أخرى بمقعد الإغراق هذا. لكن المرأة جلست ووضعت ملفًا بسيطًا فوق الطاولة.

«سارا شستنت؟» ولم تقل سارات شيئًا. فسألتها المرأة من جديد: «هل أنت سارا شستنت؟ هل هذا هو اسمك؟» أومأت سارات بنعم. فانتزعت المرأة ثلاث صفحات مدبّسة من الملفّ، وقالت: «اسمي جابرييل يا سارا. أنا اختصاصيّة ترحيل السجناء إلى الوطن لدى *ديوان السلام* في كولومبس. أريد أن تصغي جيدًا -هل تصغين لي؟- أصغي لِما سأقوله لك، لأنّه بالغ الأهمية. اتفقنا؟»

أومأت سارات موافقة. كان للمرأة صوت رخيم وإيقاع يصلح للشرح للأطفال. «سأطلب منك قراءة وتوقيع هذه الاستمارات الثلاث.» لكن سارات بدأت بتوقيع الأوراق بمجرّد أن أنهت المرأة عبارتها. «مهلًا. مهلًا. دعيني أقول لك ما بها أولًا. انتبهي الآن: الورقة الأولى تصريح من ديوان السلام يُعلن أنّ حكومة الولايات المتحدة التي تعتقلك الآن وتحتجزك بصفة مؤقّتة كمشتبه بها بتهمة العصيان، كانت تتصرّف بنية حسنة بناءً على معلومات من مصدر لم تعد الحكومة تعتبره الآن محل ثقة. بعبارات أكثر وضوحًا، بناءً على

مراجعات لحالتك، تغيّرت حالتك إلى شخص غير مُحارب. الورقة الثانية اتفاق على تعويض يُغطّي كافّة أفرع وجيوش حكومة الولايات المتحدة إلى الأبد. أمّا الورقة الأخيرة، فإعلان رسمي أنك لن تتورطي في أي عمل، ولن تقدمي أي مشورة لعمل، ضد أي فرع أو جيش لحكومة الولايات المتحدة، ولا ضد أي من أعضائها أو ممثليها.»

طفقت سارات تنقل عينيها بين المرأة وبين الأوراق، ثمّ سألتها: «ماذا تريدين أن أفعل؟» مالت المرأة عبر الطاولة، وأخذت كفي سارات بين كفيها. بدا لها ملمس جلد الغريبة العاري غريبًا. بدا لها ملمس القرب دون عنف غريبًا. «لقد انتهت الحرب يا سارا. ستعودين لديارك.» سمعت الكلمات دون أن يتمكّن عقلها من تسجيلها. كررت المرأة ما قالته ثلاث مرّات، إلى أنْ سحبت سارات كفيها أخيرًا وانسحبت إلى ركن بالغرفة بعيدًا عن كرسيها. هناك جثت في وضعية جنينيّة، ولم تنظر إلى المرأة ولا أصغت لأي شئ آخر اضطرت لقوله. سرعان ما أصاب الغضب جابرييل فغادرت الحجرة ودخل الحرّاس وجرجروها من جديد إلى الزنزانة.

بعد أيام قليلة عادوا واقتادوها مرّة ثانية. لكن هذه المرة ليس إلى أحد مبان الاستجواب، بل إلى مهبط الطائرات. هناك دفعوها إلى متن طائرة صغيرة برفقة أربع عشرة امرأة أخرى. بدت النساء شاحبات ذاهلات في ضوء الشمس الصباحيّة المتوهج. لم يتبادلن حرفًا

فيما بينهن أثناء نقلهن إلى متن الطائرة. طرن سريعًا. أطلّت سارات عبر كوة صغيرة إلى جانبها على الفضاء الواسع الأزرق المتألق الّذي يحيط المكان الّذي كان سجنها. كانت عيناها قد تأذتا بشدة، وصادفتها عقبات في تحديد المكان الّذي حلّقت فوقه الطائرة الصغيرة. لكنها كانت تعرف ماهيته بالضبط: بحر فلوريدا المتلاطم، في قاعه الّذي تغطيه طبقة كثيفة من الأعشاب البحرية وقطعان من أسود البحر. كان حقيقيًا رغم عجزها عن رؤيته بوضوح، وسيظل حقيقيًا حتى لو أصيب آخر زوج من العيون في العالم بالعمى.

عبرت الطائرة البحر، وهبطت فوق اليابسة. كانت سارات تعود إلى ديارها.

IV

يناير/كانون الثاني ٢٠٩٣

لينكولنتون، جورجيا

مقتطف مِن:

حالة مُكتشفة:

يوميّات مسؤول تجنيد جنوبيّ سابق

يُجرّب آخرون أنواع الصمت كلّها. أعرف مُجنّدًا يصطحبهم إلى مكانٍ بعيد في قلب الليل ويجعلهم يرقدون داخل قبورٍ مفتوحة. يقولون لهم: «سينتهي بكم الأمرُ هنا، مُحاصرين إلى الأبد، داخل حفرة مُعتمة في الأرض، ما لم تُقاتلوا من أجل قضية شعبكم. إنّ الله يرعى أولئك الذين يقاتلون من أجل قضايا شعوبهم.» وتلقى هذه الطريقة نجاحًا إذا كنتَ ترغب في تجنيد بعض المُنهكين من الساحل الجنوبيّ لارتداء حزام ناسف، لكن كثيرًا من الأذكياء كانوا يدركون الحقيقة بسهولة.

ما وجدتُ أنه يحقق نجاحًا أكبر، هو خلط الأكاذيب بالحقائق. كنت أحكي لهم عن كافّة الفظائع التي ارتكبها الشماليون. أعرض عليهم صورًا فوتوغرافية لضحايا القصف في بيرلسون؛ ومذبحة بيشنس؛ وأشياء كهذه. لكن إلى جانب تلك الصور، كنت أحكي لهم عن مجزرة بليزنت ريدج. المثير في الأمر الآن أنه ما من مرّة واحدة، خلال الأعوام التي قضيتها كلّها في ولايات الجنوب المتمرّدة، أزعج فيها متمرّدٌ واحد نفسه بالسؤال عمّا إذا كانت قد وقعت مجزرة حقًّا في بليزنت ريدج! يفترضون دائمًا أنّ ما أرويه حقيقيّ. لقد اقترف الشماليون آثامًا كُبرى بحقّ شعبنا، فما المانع إذن من

ارتكابهم هذه الجريمة أيضًا؟ وبعد فترة، أنسى أنا نفسي ما إذا كانت قد وقعت مجزرة حقًا في بليزنت ريدج.

هذا ما يجعل الاستمرار في الكذب لاحقًا أكثر سهولة. هكذا حين يأتي الشماليون ويُحيطون بنا من أجل إجراء تحقيقٍ ما رغبةً في الحصول على أسماء وجرائم ارتكبناها، نعطيهم ما يريدونه بالكامل. أعرف رجلًا أعطاهم لائحة كاملة بالعاملين في مربّعه السكني القديم جميعًا. وبعد أسبوع، أغارت قوّة وحاصرت مجموعة من المُحاسبين والجزّارين وموظّفي متاجر البقالة.

هكذا، يتوافر الشماليون على معلومات كثيرة جدًا لكنها ليست محلّ ثقة، فيضطرون لإطلاق سراح أولئك الأشخاص. لكنهم يصبحون آنذاك مثل الحية التي تأكل ذيلها. فبمرور الوقت، يوشكون على تفريغ معسكرات الاعتقال تلك، ويحوّلون أغلب المعتقلين الموجودين هناك إلى ما أراده لهم بالضبط المجنّدين في المقام الأول. لطالما كنتُ أقول إنّ معسكرات شوجرلوف هي أفضل المُجنّدين الّذين حازهم الجنوب على الإطلاق.

الفصل الثالث عشر

أذكر يوم قابلتها أوّل مرّة، اليوم الّذي اجتاحت فيه حياتي.

ثمّة بوّابة حديديّة على أطراف أرضنا، يقع مدخلها عند مفترق الطرق حيث يلتقي الطريق العام مع الدّرب الملتوي المُفضي إلى بيتنا. كانت أمّي قد شيّدت البوّابة بعد أن اكتشفت حملها بي. حينها دفعت للمقاولين أيضًا كي يُضيفوا قدمًا أخرى من الخرسانة إلى حاجز الأمواج البحريّة. جعلتهم أيضًا يُشيدون سياجًا خشبيًا أصغر حول البيت نفسه، وخندقًا يفصلنا عن مشاتل الزّراعة وبقيّة ممتلكاتنا. كان أبي يقول إنّها تبالغ في الحيطة، فالأطفال ليسوا من زجاجٍ ليهشّمهم أقلّ أذىً. لكن أمّي، التي كانت قد يئست من أن يصبح لها طفل من لحمها ذات يوم، أصرّت على ذلك. وكان أبي يقول إنّها كانت تسهر في بعض الليالي حتّى طلوع الشمس، تتخيّل الطّرق التي يتآمر بها القدر والشيطان كي ينتزعا منها طفلها الوحيد.

ذِراعا البوّابة مزيّنان بخطوطٍ مموّجة مجدولة، تؤلّف فيما بينها حين تُغلَق البوّابة ويلتقي الذراعان تصميمًا معدنيًا يُشبه ثمرة الأناناس. وقام بالقرب من المدخل صندوق بريدٍ عتيق الطراز، أثر بائد من أيّام البريد الحكومي، ويافطة خشبيّة مُزيّنة تعلو الصندوق كُتب عليها: *كارينا وسيمون شستنت*.

ذات يوم، وبينما كان أبي في غائب الذّهن في عالمه

الغائم، أقبلَ بعربته على البوّابة الحديديّة ناسيًا أن يكبس زرّ فتحها. لم يُسفر الحادث عن أضرار تُذكَر، إذ لم يكن يقود سيارته بسرعة كبيرة، ولم يتأذّ واحد مِنّا، لكن أمّي طلبت منه ألّا يخرج بالسيارة بعد ذلك. كان في حالٍ جيّدة أغلب الأيام، ولو دخلت معه في حديث عارض، لم تكن لتستطيع أن تخمّن ما أصابه في حياته من أذىً ودمار. لكن أمي كانت تقول إنّ الأمر لا يتعدّى الإخفاق في معرفة متى يُصيبه التشوّش فينسحب من الدّنيا. ذلك أنّه حتّى العقل الصّحيح قد يُسيطر عليه الضّباب، فما بالك بعقل تأذّى بتلك الدّرجة. لا يُمكن للمرء أن يعرف.

كان ثمّة جرس كهربيّ في الغرفة الكبيرة في الطابق السفليّ، ينفجر صاخبًا حين تنفتح البوّابة. أمرت أمي باستبداله في الآونة الأخيرة، وقد أزعجتها الأصوات الحادّة التي يُطلقها، بجرس يُطلق رنينًا أكثر عذوبة، دقّتان ناعمتان تتلوهما خشخشة هادئة مثل أوراق يُحرّكها النسيم. وقد سمعت الدقتين ليلة وصول الغريبة. فغادرت الفراش ونزلت إلى الطابق السفلي. كان أبي يقف فوق الدرجات الأماميّة. كان الدّرب الّذي يمتدّ من أمام المنزل ينتهي بدائرة تُحيط بحديقة زهور أمّي. للزهور لون وردي باهت. وقال زائرون كثيرون إنّ تلك الزّهور لا تنمو في مكان آخر في الجنوب، وأنّ السّحر الّذي يطوّق آل شستنت هو من يرعاها. وقفتُ إلى جانب أبي نراقب السيارة المقتربة. كُنّا منتصف الشتاء،

وما أزال في السادسة من عمري. لكنني ما زلت أذكر بوضوح.

قال أبي: «كان عليك البقاء في فراشك. ستصيب أمك بالقلق غدًا إن لم تنل حاجتك من النوم.» لكنني رجوته، وكان شديد الانشغال بالسيارة التي تلوح في الأفق وبالضيف الجديد الذي يوشك أن يُحادثه. اختبأت وراء ساقه ورحت أحدّق مبهوزًا بوصول هذه الغريبة التي ظلّ أبواي يتجادلان بشأنها طوال أسابيع. توقفت السيارة أمام المنزل. كان الدرب مسفلتًا حديثًا، فكان انسحاق العجلات به يُصدر جلبة. وحين خرجت أمي من السيارة، بدت مكدودة. كنت قد رأيتها على هذه الحالة مسبقًا، في الشتاء الماضي، حين هبّ إعصار زينيث وهدم مشاتل الزرع. كانت المشاتل عبارة عن بيوت مبنية من الطوب الأحمر القويّ وقد صمدت أمام العواصف، لكن شظايا من زجاج كانت تتناثر في الأرجاء إلى جانب ألواح شمسية الثوّث وتصدعت. ظلّت تعمل طيلة خمسة أيام متواصلة برفقة العُمّال لإصلاح الأضرار. أذكر مشهد هذه النظرة الكليلة على وجهها. آنئذٍ كنت أتخيلها تتمنى في سرّها لو كان أبي بصحة جيّدة كي يساعدها، لو كان عقله قد تعافى لا لكي يبادلها حديثًا يُدخل عليها السرور، بل كي يحفظ أشياء هامّة في ذاكرته ثقيه الهيام على وجهه في عالمه المشوّش. أحيانًا، حين كنت أرفض الذهاب إلى الفراش أو اللعب خارج الأماكن المباحة في الفناء، كانت أمي

تصيح بي. كان صياحها يبدو آنذاك كأنه يتكرّر مرّتين في اللحظة نفسها: واحدة لأجل ما فعلت، والأخرى لأنّ الغيظ يتملّكها بسبب كونها الوحيدة المضطرة للصياح دائمًا.

انفتح الباب الخلفي وهبط من السيّارة جسد ضخم متحذّب. حجبت ضخامته النور الّذي يلقيه مصباح الممرّ، ولوهلة لم أر منها إلا جدارًا مبتورًا من العتمة. هتفت أمّي: «مرحبًا بعودتك يا سارات.» تحرّكت الغريبة بتؤدة بعيدًا عن الضوء، وهبط أبي درجات الشرفة. بدا مضطربًا، عيناه نصف مغمضتين كأنه يحاول التركيز على شئ بعيد جِدًا. هتفت أمّي: «بالله عليك يا سيمون، ألا تتذكّر أختك؟ تعال وعانقها.» تقدّم أبي وعانقها، لكنها تيبّست حين أحسّت بذراعيه تحيطان بها، ولم تبادله العناق. كانت الدموع تذرف من عينيّ أبي حين ابتعد عنها، لكنّ الغريبة كانت ترمقه بطريقة لم أرها من قبل قط. ثمّة اشتياق وحشيّ أطلّ من عينيها؛ ذِكرى شيء كان عذبًا ذات يوم وصار الآن مسمومًا. رمقته كأنّه قناع جصّي لها، صُبّ قبل إصابتها بتشوّه هائل. هتفت أمّي وهي تشدّني من ورائها: «بنيامين، هذه سارات. هذه عمّتك.»

حملقتُ مصدومًا في المرأة الشاهقة. كنت قد رأيت صورة لها من قبل. لابد كانت لا تني مراهقة في الصّورة، مهزولة وصلعاء، وقد ارتسمت ابتسامة متوعّدة على وجهها. لكن تلك التي كانت تقف في ممرّنا لم تكن

تمتُّ بصلة لتلك التي كانت في الصورة. هذه المرأة كانت سمينة، وقد برزت بطنها مِن قميصها الرماديّ المتسخ. لكن الأمر كان يتجاوز ذلك. فكلّ ما فيها بدا أكبر من المُعتاد: أطرافها تُشبه جذوع أشجار؛ وأنفها مسطح وعريض. بدت عجوزًا، وكان ما قالوه لي أنَّها شقيقة أبي الصغرى -لم تكن قد بلغت الثلاثين بعد- لكنها لاحت أكبر منه، ومن أمّي هي الأخرى. لم أكن أتصور في طفولتي، إلا ثلاثة أعمار: صغير مثلي؛ كبير مثل أبويّ؛ أو بالغ الكِبر مثل أجدادي في الشمال أو النساء ذات الثياب السوداء اللائي يجئن لزيارة أبي. غير أنَّ هذه المرأة لم تكن تنتمي لأي من ذلك.

دفعتني أمّي نحو ضيفتنا. انتظرتُ أن تحملني، أن تعانقني وتقرص وجنتي كما تفعل كل زائراتنا اللائي نادرًا ما يجئن لزيارتنا دون هدية لي. وغالبًا ما كانت النساء الطاعنات في السِنّ اللائي يرتدين السواد -اللاتي يطلقن عليّ المعجزة بن المعجزة- يأخذنني جانبًا ويعطونني أوراقًا جديدة بمئات الدولارات. لكن هذه الزائرة لم تفعل شيئًا. ولأنّني كنت أجهل التصرّف اللائق، عانقت ساقها.

وقفت دون حراك. وأحسست بأمي تحملني. «لقد فات موعد نومه. سأحمله للطابق العلوي. تعالي يا سارات. تعالي.» رمقت ضيفتنا المنزل كأنه مصنوع من أشواك، وقالت: «لمن هذا المنزل؟»

«إنّه بيتنا يا سارات. بيتك. لقد هدمنا المنزل القديم منذ

سنوات حين تحسّنت الأحوال...» وتوقّفت عن الكلام برهة قبل أن تتابع: «هيّا ادخلي.» لكنها كانت تنظر في اتجاه آخر، صوب الطرف الشرقي من المكان، حيث تعرّج حاجز الأمواج جنوبًا بمحاذاة ثلاثة مشاتل والسقيفة القديمة المهدّمة. «ما سبب وجود هذا الحاجز؟»

«السدّ؟ لقد بنيناه حوالي عام 91 حين كان النهر يفيض ويُتلِف مشاتل الزّرع، ثلاث مرّات في السنة أو أربع.»

«لكن النهر لم يكن يجري في ذلك الاتجاه. وكان ثمّة يابسة تمتد حوالي عشرة أميالٍ أخرى. كنتُ قد تعوّدت السير هناك.»

«النهر يتّسع يا سارات. لقد التهم تلك اليابسة كلّها منذ زمن طويل.»

تصوّرت أنني لمحت وخزة ألم عابرة مرقت بوجهها، لكن سرعان ما اختفت. بدا أنها تطرح منزلنا برمّته جانبًا. دائمًا ما كان يُقال أنه ما من منزل أجمل في أرجاء جورجيا الشمالية كلها من منزل آل شستنت، غير أنها لم توله انتباهًا على الإطلاق.

قال أبي: «لدينا غرفة جاهزة لك. إنها غرفة لطيفة.» ونظر إلى أمي التي أومأت موافقة، قائلة: «هذا صحيح، إنّها غرفة لطيفة. أعتقد أنك ستحبينها يا سارات. إنّها تطل على النهر تمامًا مثل غرفتك القديمة.»

بدا أنّ ضيفتنا انكمشت قليلًا على ذِكر النهر، كأنّ ميكانيزمًا أوليًا للدفاع يرقد عميقًا داخلها قد نشط. لم

أكن أدري ساعتها ما فعله الماء بها.
أشارت إلى السقيفة القديمة، وقالت: «سأمكثُ هُنا.» لكن أمّي قالت ترجوها: «لا شئ هناك يا سارات إلا ألواح زجاجية قديمة وبقايا أخشاب. هيّا ادخلي.»
«بل سأكون على راحتي هناك.»
رأيت أمي تنظر إلى أبي الّذي بدا كأنّه لا يجد في طلب زائرتنا شيئًا غير معقول على الإطلاق. وتساءلت إن كان قد سمع ما قالته في الأساس، أم أنّه انجرف إلى عالمه المشوّش.
قالت أمّي: «لا بأس يا سارات. على راحتك. سنحضر السرير الإضافي من القبو، وبعض الملاءات.»
«لا. لا بأس بها كما هي.» ثمّ مشت بمحاذاة شجيرات الورد صوب السقيفة التي لم أر إلا البستاني يستخدمها كمخزن لأدوات جزّ العشب. راقبتها تبتعد. سارت بخطى ثقيلة معتمدة على ركبتين متيبستين وأصابع قدمين بالكاد ترتفع. ذكّرتني بسلحفاتي التي تباشر كل خطوة بتمهّل وألم. أردت أن أقضي الليل كلّه ساهرًا كي أرى إن كانت حقًا ستنام داخل تلك السقيفة الجانحة البالية، لكن أمّي أمرتني بالعودة إلى الفراش.
كانت غرفة نومي تُطلّ على بستان الزهور والممرّ. وكان الجانب الشرقيّ من المنزل يعرقل رؤيتي للسقيفة. وكانت النافذة التي تُغلقها أمي دائمًا تحجب أزيز الألواح الشمسيّة وخرير النهر. لكنني تمدّدت صاحيًا في الظلام، أصغي. لم يمض وقت طويل بعد غياب ضيفتنا

داخل السقيفة حتى لعلعت ضجة صاخبة في المكان، كأنّ البناء نفسه ينهار. في النهاية، سمعت نقاش أبويّ الهامس بشأن ما جرى. لم أتبين ما قالاه، لكنني دائمًا ما كنت أعرف حين يتجادلان: شئ ما في حدّة الأصوات، لا سيما صوت أمي. لم أعرف أبي إلا هادئ البال، رابط الجأش مهما كان الموقف. كانت الطريقة التي يعامله بها البالغون الآخرون -التناوب بين إيماءات الشفقة العلنية ونفاد الصبر النادر كبته- تجعل الأمر يبدو وكأنه لم يكن يُفترض به أن يؤول إلى هذا المآل، أنّ ثمة خطأ ما، خلل غائر أصابه. لكنّه في عيني، لم يكن غير أبي طيب القلب.

سمعت أمي تنزل إلى الطابق السفلي. وسمعت الباب الأمامي يُفتح ثم يُغلق.

***

بعدها بسنوات، حين قادتني رسالتها إلى المكان الّذي دفنت فيه مذكّراتها، وقرأت الصفحات التي تركتْها، عرفت كل شئ عن اللحظات التي كانت تملأ الفراغات بين تلك الأشياء التي شهدتُها بعينيّ. وبمرور الزمن، حين أنهيت القراءة، عرفت كافّة أسرار عقتي التي باحت بها. بعض الناس يولدون مثقلين بعقوبة إرْثٍ مروّع؛ أمراضٍ ترقد ساكنة في الدمّ منذ الميلاد. وعقوبتي كانت المعرفة، الوعي.

***

ذهبت أمي إلى السقيفة، لتجد زائرتنا تنزع ألواح

الأرضيّة. سألتها: «ماذا تفعلين يا سارات؟»
«أريد أنْ أنام فوق التراب. ارجعي يا كارينا.»
«لا بأس. لا بأس. هل ترغبين بمساعدة؟ أظنّ أن لدينا عتلة أو شيئًا كهذا داخل أحد المشاتل.»
«أنا على ما يُرام. ارجعي لبيتك.»
مرّرت أمّي أصابعها أسفل الألواح المقلوبة التي تستند إلى الجدار. كان الخشبُ قذرًا تكسوه خُضرة خفيفة جرّاء سنوات قضاها مكبوسًا بالتراب. «هل تذكرين حين استأجرتني أوّل مرّة كي أعتني بالمنزل القديم؟ آنذاك، جعلتِني أجلس ورحتِ تقرأين لائحة واجباتي الطويلة هذه التي كتبتِها بنفسك: 'إيّاكِ والاقتراب من السّقيفة. إيّاكِ والاقتراب من القبو. إيّاكِ أن تفتحي الصناديق التي يجلبها أولئك الصبيان على متن الزوارق. إيّاكِ أن توقظي الآنسة دانا من نومها...'» وتوقّفت أمّي برهة، ثم تابعت: «على أيّ حال، أذكر أنّني حين انتهيتِ أنت من قراءة اللائحة أخيرًا، لم أكن أعرف إذا كان قد تبقّى لي ما أفعله. الشيء الوحيد الّذي لم تحذريني منه كان رعاية أخيك. وأظنّ أنّ ذلك ما قمت به منذئذ.»
رفعت ضيفتنا عينيها عن المكان الّذي جثت فيه فوق الأرض وقالت: «وكم بقي منه؟»
«لست مضطرّة لقول ذلك بهذه الطريقة يا سارات.»
«كم بقي منه؟»
«لقد شهدَ أيامًا رائعة. لقد شهد أيامًا رائعة حقًّا، في حين ما كنت تعرفين بذلك من الأساس. ينغمز قليلًا

داخل نفسه أحيانًا، وتنتابه نوبات مريعة أحيانًا أخرى حين يتذكّر أشياء جديدة، وينسى أشياء قديمة بعض المرّات. لكنه ليس... لكنه بخير.» حملقت ضيفتنا في أمّي بصرامة. ثمّ عادت إلى انتزاع الألواح من الأرض.

* * *

حين صحوتُ في الصباح التالي كانت ما تزال داخل السقيفة. جلست فوق درجات باب المطبخ في انتظار أن تخرج، يراودني شك أنّ صورتها داخل عقلي من الليلة السابقة ليست إلا صنيعة حلم غريب. في الداخل، جلس أبي وأمّي في المطبخ. «لقد أوشكنا على الظهر.»

«اتركيها تنام يا كارينا. إنّها ليلتها الأولى خارج ذلك المكان منذُ سبع سنوات.»

«ليس النوم ما يُقلقني.» توقّفت أمّي برهة ألقت خلالها نظرة عليّ فوق درجات السلّم. «وكيف تعرفين أنّها لم تنم؟»

نهض أبي وقبّل أمي فوق جبينها. كنتُ أعرف كم كانت تكره أن يقبّلها أثناء انخراطهما في نقاش، كأنّ هذه القبلة لحن ممزوج بما كان عليها أن تقوله. استطرد: «سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا.»

«لا بأس. لكنني لن أطهو فطورًا ثانيًا. تصحو الآن، تصحو عند منتصف الليل، لن تحصل إلا على هذا.»

وكان هذا/ طبقًا موضوعًا فوق لوح المطبخ يمتلئ ببيض مقليّ طازج من قفص الدجاج الّذي ترعاه أمّي بالقرب من صفّ المشاتل المرقّمة، إلى جانب الهليون من

المشتل رقم ستة وشرائح من لحم خنزير فرجينيا المُقدَّد. أجاب أبي: «هذا يفي وزيادة. لن أطلب منك انتظارها. تعاملي معها كأنها فرد من أسرتك.»، «هذا ليس إنصافًا.» رأيتُ أمي تستشيط غضبًا. كانت لديها عادة غرز ظفر إبهامها في جلد إصبعها الأوسط حين يطول صبرها. «لقد تزوّجتك، أليس كذلك؟ إذًا فقد صارت عائلتي.» نفرَ أبي قليلًا، وقد أدهشه إحساس أمي بالإهانة. كان أقلّ تشوشًا في بداية اليوم، أقل عُرضة لنسيان أو تكرار نفسه، لكنه كان يُعاني في معظم الأحيان عجزًا عن التنبؤ بالطريقة التي تبدو بها كلماته في آذان الآخرين.

قلتُ، وأنا أخطو داخل المطبخ: «سأحمل لها الفطور.» نظر أبواي لي، ثم تبادلا النظرات فيما بينهما، وقال أبي: «بالتأكيد، لِم لا؟ إنها عمتك. هيا.» حملت الطبق يملؤني شعور بالانتصار. كان لوح المطبخ مصنوعًا من رخام بلون كريمة الزبدة مُجزّعًا باللون الأسود، وكان طولي قد زاد هذا العام بما يكفي لبلوغه وحسب. في طريقي للخارج أخذت كعكة من دقيق الشوفان من إناء موجود فوق الطاولة، ووضعتها فوق الطبق. لم يبدُ مفهومًا لي كيف يُمكن لذلك القدر الضئيل من الطعام أن يسد رمق جسد بمثل تلك الضخامة.

وجدتُ باب السّقيفة مواربًا قليلًا، فأقحمتُ فخذيّ بين درفتيه ودفعتهما كي ينفتحا. كان المصباح القديم ما يزال مشتعلًا في الداخل -أحسستُ بحرارته- رغم

تسرّب نور الشمس من بين آلاف الشقوق في الخشب. فاحت من الهواء رائحة غبار ونفتالين ورطوبة أرض خرثت مؤخرًا. ثمّة رائحتها أيضًا. كانت ما تزال نائمة، وقد تكوّرت على هيئة علامة استفهام فوق مساحة من الأرضيّة حيث لا أرضيّة، كأنّ أساسات السّقيفة تراجعت بهدوء أثناء الليل بعيدًا عنها. كانت تغطّ في النوم وإبهام يدها اليُمنى يرتجف.

وضعتُ الطبقَ فوق منضدة العمل بهدوء وبطء قدر الإمكان. كان صندوق عُدَةٍ أسودٍ قديم قد أنزل من فوق الأرفف، ثمّة إطار من غبار ما يزال واضحًا حيث بقيَ دون استعمال سنوات طويلة. وجدتُ محتوياته متناثرة: مفك براغٍ؛ زرّاديّات؛ ومدية تطوى. للمدية مقبض أسود من الألمونيوم حُفر عليه حروف أولى لم أتبيّنها. ثمّة خصلات قليلة من شعر فوق النّصل. كنت مأخوذًا بالمدية. كانت أمي لا تسمح لي أن أقترب داخل البيت من أي شئ له نصل، ولا حتّى سكاكين الزبدة ذات الحواف البليدة مثل الصابون. سوى أنّ شيئًا في تخوم السقيفة القديمة العفنة جعلني أعتقد أنّها مكان مستقل جامح غير خاضع لنفوذ أمّي. كنت مفتونًا جِدًا بالنصل المبقّع بالصدأ الموضوع فوق منضدة العمل، فلم أنتبه حين توقّف الغطيط.

سمعت شيئًا يُشبه شهيقًا حادًا، فألقيت المدية والتفتُّ لأجدها واقفة على قدميها، تتحرّك أسرع ممّا تصوّرت يومًا أنّه في إمكان شخص بمثل حجمها أن يفعل.

كطعنة خاطفة. لكن ليس في اتجاهي. بل انقضت مثل فريسة محمومة على أبعد ركن من حيث وقفت. ارتطمت بالجدران بقوة هزت السقيفة، وتخيلت أن المكان الذي نخره السوس سيتهاوي فوقنا بكامله. دفعني الخوف منها إلى الباب، لكن شيئًا استبقاني حيث كنت أقف. أبصرت صعود صدرها وهبوطه، ورمقتني كأني كنت أحمل واخزات للأطراف. هتفت دون تفكير: «الفطور! لقد أحضرت لكِ الفطور. انظري. انظري!» وأشرت إلى الطبق فوق منضدة العمل، لكنها لم ترفع عينيها عني أبدًا، بل راحت تقترب مني شيئًا فشيئًا. وحين دنت مني جثت، ثم مالت حتى أوشك وجهها يلامس وجهي وأحسست بأنفاسها الضاحية للتو، الحليبية الرائحة، فوق وجنتي. قالت: «نسيت اسمك.»، «بنيامين. اسمي بنيامين شستنت.»

أخذت ذقني في كفها وتفحصت وجهي. «تشبه أبيك حين كان صغيرًا. لا تحمل ملامحًا من أمك.» انتبهت إلى أنها حلقت رأسها، وأن ثمة جروح جديدة في فروة رأسها. سألتها: «لمَ تريدين النوم هنا؟ يبدو هذا مضحكًا. لدينا غرف نوم كثيرة في بيتنا. أبواي يقولان أنه يُمكنك البقاء هناك كما تشائين.» أفلتت ذقني. عيناها كانتا محمرتين وأحد جانبي وجهها ملطخ بالتراب. كانت ما تزال تلبس الثياب نفسها التي وصلت بها البارحة. وخطر لي آنذاك أنه ما من قطعة ثياب واحدة في بيتنا تناسبها. «أصغ لما سأقوله لك جيدًا.» قالت، فهززت

رأسي. «إياك أن تأتي إلى هنا مرّة أخرى.»

* * *

لم تغادر السقيفة إلا وقت العشاء. كانت أمي في تلك الأيام، حين لا يكون الطقس شديد الحرارة، تحبّ تناول العشاء في الفناء الخلفي بجانب حاجز الأمواج. كانت لنا طاولة جميلة فوق السطح مصنوعة من خشب الكاسكاديا الحقيقي الأحمر. ورغم أنّ الحاجز كان يحجب رؤية النهر، إلا أننا كنا لا نزال قادرين على الاستمتاع بالنسيم.

أبصرتها أمّي في الفناء، فهتفت: «تعالي تناولي العشاء يا سارات. إنها ليلة رائعة لا تتكرّر كثيرًا.» رمقت الرقعة القديمة حيث غرست أمّي ذات يوم بذورها الأولى، في الماضي حين كانت ما تزال خادمة، مجرّد دخيلة. «تبدو مألوفة لك، أليس كذلك؟ إنها أثر من المنزل القديم. هل تذكرين كيف كنت تجلبين لي تلك التربة الأجنبيّة الخصبة؟ إنها ما نستعين بها الآن داخل كافّة المشاتل. التربة نفسها.»

* * *

استسلمنا لروتين يومي خلال الشهور التي تلت. كانت ضيفتنا تقضي أغلب نهاراتها ولياليها داخل السقيفة. تخرج أحيانًا وتتمشى بين المشاتل، بينما أبقى ساهرًا بعض الليالي، إلى وقت متأخر من الليل حين ينام أبواي، أفتّش عنها من نافذتي. كنتُ أختلس النظر عبر درفتي الباب حين أحمل إليها وجبات الطعام إلى

السقيفة وأضعها على الأرض في الخارج. وكنتُ دائمًا ما أراها محنية فوق طاولة مصنوعة من لوحٍ من الخشب الرقائقي يستند على قوائم من عُلَب الدهان المرصوصة. تناثرت في السقيفة أوراق يوميات رخيصة لا يُمكنك الحصول عليها إلا من آخر متجر ورق في لينكولنتون. كانت تكتب بالطريقة القديمة.

قالت أمي إنها ما دامت لا ترغب في أن تكون جزءًا من هذه الأسرة، فالأفضل هو تجاهلها. لكنني عجزت. كنتُ أنتهز فرصة مجيء الأرامل العجائز محملات بالدمى لأجلي، فألعب بها في الفناء الخلفي في ركن أستطيع منه أن أراها عبر درفتي باب السقيفة المواربتين. لكن شيئًا لم يغرها كي تنتبه لي. بدت كأنها تعيش داخل حيّزها الجامح، مُحرّرة من قيود ولياقة الحياة التي علّمنيها أهلي. أدهشتني رؤيتها تنام على الأرض وأنها تأكل حيث تقف وأنها قضت سبع سنوات كاملة في رحلة لمكان ما خفيّ. اهتزّ عالمي المسقوف حين أدركت أنه من الممكن أن أعيش بطريقة أخرى. لقد نشأتُ في ظلال الجدران، في حين تربّت هي على ضفّة النهر.

لم نستقبل غير عددٍ قليلٍ من الضيوف بعد وصولها. وكفّ الساسة الذين يزوروننا من لينكولنتون وأطلانطا عن المجيء. لكن الأرامل العجائز كن ما يزلن يجئن بانتظام كل أسبوع. بعضهن أرَدن رؤيتها، لكنها لم تدخل المنزل قط. كنتُ أسمع أحيانًا أثناء لعبي في الممرات بين المشاتل، العمّال يثرثرون عنها خلال تشدقهم

الجنوبي الغريب. كانوا يسمونها *بلونوز وبوكيتماوث* ولم تكن لديّ فكرة عمّا كانت تعنيه تلك الكلمات. لكنها بدت مدهشة، نائية، معبأة بالمغامرة.

***

جاءنا زائر جديد أواخر هذا الشتاء. رأيت موكبه الصغير عند بوابة الممر البعيدة عبر نافذة غرفة نومي: ثلاث سيارات سيدان بالية من النوع العتيق الّذي يدور بالوقود المحظور. سمعتُ أمّي حين نزلت إلى الطابق السفلي، تقول أنّه لا يجب أن نسمح لرجلٍ كهذا أن يقترب من منزلنا، وأنّ علينا أن نأمره بالعودة إلى حيث أتى. لكن أبي قال إنّ ذلك يجعل منّا مُضيفين بخلاء.

تسلّقت السيارات الممر وبلغت المنزل. وأجبر ت بقبقات محركاتها ضيفتنا على مغادرة السقيفة. برزت من السيارات حاشية من شباب وشابات متجهمي الوجوه، أحاطوا جميعًا بزعيمهم آدم براج الابن. كان هذا، مع بلوغ الحرب محطّة أخيرة واقتراب لمّ الشمل أخيرًا، كل ما تبقّى من اتحاد المتمردين. هتف براج: «سيمون شستنت، أنتِ قدّيش حيّ. الرجل الوحيد في كلّ أرجاء الجنوب اللعين الّذي يستحق حظّه السعيد.»

أجاب أبي غير واثق: «مرحبًا.»

«ماذا، ألا تتذكرني؟ أتذكّر يوم جئت لزيارة أبي آنذاك حين حصلت على ذلك المبلغ الضئيل من صندوق الشهداء؟»

قالت أمّي: «ماذا تريد يا آدم؟» لكن الرجل تجاهلها حين

أبصر الهيئة العريضة الهائلة قادمة من السقيفة الخشبية، وهتف: «ربّاه، سارات. إنّ رؤيتك حزة يفرح الروح.»

«لا شئ لديّ أقوله لك. هيّا، ارحل.»

«لن أغضب من كلامك. تبًا، لن أغضب منك لأي سبب مع ما لاقيته من متاعب. كل ما أطلبه هو بضع دقائق من وقتك. هل ثمة مكان مناسب نذهب إليه كي نتكلّم؟»

«قل ما جئت لقوله.» فنظر براج إلى أبويّ واستطرد:

«هل يمكنني الحديث معها على انفراد؟»

«ادخلا. سيغادرنا في غضون لحظات.» قالت سارات لأبي وأمي. فاصطحبني أبي إلى داخل المنزل، بينما وقفت أمي إلى جانب نافذة الحجرة الكبيرة تراقب. استوعب براج المكان. كُنا وقت الظهيرة وقد جعل نور الشمس المشاتل تتوهج. فيما انهمك بعض العمّال في الطرف البعيد من المزرعة في العمل، خلا ذلك، كل شئ كان هادئًا. «هل تعرفين أنك تأكلين البطاطا نفسها والخسّ نفسه الّذي تأكل منه الحكومة؟ لقد قام أخيك بعملٍ رائع يا سارات. لابد أنك تشعرين بالزهو.»

«ماذا تريد؟»

«بالمناسبة، هل كاشفوكِ كيف آلت ممتلكات شستنت لما آلت إليه من عزّ؟ ستصدمين إذا عرفت. لقد تبين أنّ كل أولئك الّذين تصوّروا أنّ الربّ يرعى أخيك، كانوا يدعُون من صميم قلوبهم أن يرعى أموالهم هي الأخرى. هكذا،

سحبوا كل نقودهم من المصارف واحتفظوا بها هُنا. من ثمَ، في الليلة التي جاء فيها الشماليون من أجلك، ظنّ الجميع أنهم قلبوا المنزل رأسًا على عقب واستولوا على الأموال. لكن حين تبيّن العكس، أنهم لم يقبضوا إلا عليك قبل أن يرحلوا، آنذاك شرع الناس فعلًا في شراء فكرة أنّ الله يرعى ما لآل شستنت. وسرعان ما كانت زوجة أخيك الواقفة هناك تدير مصرفًا ضخمًا يُماثل مصرف *فرست ساوزرن* تقريبًا. ناهيك عمَن أرسلوا أموالهم، متبرعين بها، دون أن ينتظروا سنتًا واحدًا بالمقابل.» وقهقه مردفًا: «عليك أن تتجهي مباشرة إلى ذلك المنزل المهيب لتطلبي منهم حصّتك. يعلم الله أنك تستحقينها.»

«سألتك ماذا تريد.»

«كنتُ أريد، أولًا وقبل كل شيء، أن أراكِ. حين أخبروني أنك خرجت، لم أصدّق. أظن أنّ الحرب لابد تضع أوزارها، ما داموا يُخلون معتقل شوجرلوف.» وأشار إلى الشباب والشابات الواقفين والواقفات إلى جانب السيارات، ثم استطرد: «هل ترين هؤلاء؟ من تنظرين إليهم هم كل ما تبقّى من تمرّد الجنوب العظيم. لقد باع الذين قاتلوا على خط تينيسي وفي شرق تكساس منذ عشر سنوات خلت سيوفهم كلّها لقاء خطابات انتخابية. إنهم يهدرون وقتهم في أطلانطا الآن، ويُديرون حملات انتخابية ويتكلّمون عن 'سلامٍ بكرامة'.»

«ربّما كان مرجع احساسك بالمرارة أنهم لم يعودوا

يحتفظون لك بطاولة في أوجستا؟»

«ها! أوجستا كما تعرفينها لم تعد حتى موجودة. السّفن تأتي الآن عبر مرافئ الشمال، والشماليون هم من يقررون ما هو المسموح لنا. مُجرّد تنازل آخر وافق عليه مواطنو دولة الجنوب الحرّة ذوي الإباء مقابل السلام. إنها الوحدة الجديدة العظيمة، كما يُطلقون عليها. لقد باعوا بلادهم نظير مقعد على طاولة الأطفال في كولومبس.»

«الفتاة التي جئت إلى هنا كي تجنّدها لم يعد لها وجود. امش، وإياك أن تعود إلى هنا مرّة أخرى.»

«يا عزيزتي، كلانا، أنا وأنت، يعرف تمامًا أنك غير صالحة للتجنيد. لقد رأيتك تعرجين إلى هُنا قادمة من تلك السقيفة، وقد سمعنا جميعًا ما يفعلونه بالمحتجزين في شوجرلوف. لقد ماتت ثلاث نساء ممن أطلقوا سراحهن معك بالفعل، دون أن يضطر شمالي واحد للنزول وقتلهن، بل انتحرن. تبًا، حتى إن أردت تجنيدك، نصف ما تبقى من المتمردين على يقين مطلق أنك وشيت بالقضية في مقابل حريتك.» وأشار لصبي يقف بجوار السيارة، مردفًا: «كلا يا سارات. لم آت لتجنيدك. بل جئت لأعطيك هدية.» أحضر الصبي صورة فوتوغرافية. كان غريب المظهر، بشرته شديدة البياض وشعره محلوق حتى فروة رأسه. بذلت حاشية براج الأخرى جهدًا كبيرًا لتحاشي التحديق في سارات، باستثناء هذا الصبي الّذي حملق فيها بنظرات ميتة،

ملؤها حقد. سألها براج: «ألا تذكرينه؟» حاولت أن تتذكر لماذا يبدو الصبي معروفًا لها، لكنها فشلت. «هذا تروف. آخر عضو على قيد الحياة من السولت ليك بويز، لقد مات كل أشقائه أو لقي ما هو أسوأ من الموت. يحاول دائمًا اللحاق بهم، لكنني أعتقد أنهم يعتنون به من حيث هم في العالم الآخر، يبقونه هنا معي ضد رغبته. أليس هذا صحيحًا؟»

لم يقل تروف شيئًا. عرض براج الصورة على سارات التي ألقت نظرة عليها وتجمدت. انتزعتها منه وقرّبتها منها إلى أنْ فارقت عينيها أي شكوك بشأن هوية الرجل الّذي كان يُحدّق بها. حتى وهو معصوب العينين وتغطيه الدماء تراءى وجهه لعينيها أكثر ألفة من وجهها هي نفسها. كان وجه الحارس عريض الرقبة في شوجرلوف. باد بيكر، الرجل الّذي أغرقها. سألته: «كيف عثرت عليه؟»، «حاول هذا المأفون اللعين أن يصطحب زوجته وأطفاله في رحلة بالسيارة إلى زيون، وتجوّل بالمحمية المكسيكيّة. حين اكتشف المكسيكيون هويته عرضوه للبيع، وخمّنت أنّ مصائركما لابد تشابكت في هذا المكان، وأنك ربما ترغبين في الترحيب به.» قالت دون أن ترفع عينيها عن الصورة: «أين هو؟»، «نحتفظ به في مكان آمن في الجنوب. أخبرينا ما نفعله به، أو تعال بنفسك وافعلي ما تشائين به.»

* * *

وغادرت برفقة براج، رغم اعتراضات أبي وأمي.

استقلوا السيارة خمس ساعات نحو الجنوب الغربي إلى كوخ مخفي بين الأشجار العارية المُعرّضة للشمس بالقرب من بحيرة سيمينول. انتصب الكوخ على طرف نبع مُغطى بالطحالب. يُفضي دربٌ ترابيٌ رفيع إلى بابه. بعيدًا جهة الجنوب، أفسح ساحل جورجيا متسعًا لبحر فلوريدا الوحشي.

وجدت أربعة رجال مقيدين معصوبي الأعين داخل الكوخ: الحارس باد بيكر؛ وامرأة لابد أنها زوجته؛ وطفليهما المراهقين. كانوا جميعًا مكبّلين بالأغلال إلى كراسيهم، وعيونهم مغطّاة بعصابات سوداء. كسَت وجوهم الدماء والكدمات جزاء المعاملة التي لاقوا مؤخّرًا، سوى أنها لم تأت إلا لرؤية الرجل. انتظر براج وحاشيته في الخارج، فدخلت بمفردها. بمجرّد سماعها صوت الباب يُفتح، انخرطت المرأة معصوبة العينين بأنين ضارع، لكن سارات تجاهلتها. جثت بالقرب من باد. رأت عن قرب الحلقات الخارجية لكدمات غائرة سوداء تُحيط بعينيه المعصوبتين. كان غارقًا في عرقه، تهزّه ضربات قلبه. وضعت كفيها فوق ركبتيه، فارتدّ كأنه لمس سلكًا مكهربًا. قال: «أطلقوا سراح أسرتي.» كان صوته مُغايرًا للصوت الّذي كان مطبوعًا في ذاكرتها: أرفع قليلًا، وخالٍ من العزيمة. «أطلقوا سراحهم فقط، لم يقترفوا ذنبًا.»

رفعت العصابة عن عينيه. رمقها لحظة، بدا خلالها كأنه يُحاول ألا يتعرّف على وجهها، كأنه حين يطمر ذكراها

يستطيع أن يطمر وجودها هو الآخر. أغمض عينه السليمة وحين فتحها من جديد ورأى أنها ما تزال أمامه، استقام في كرسيه وحاول أن يبدو صلبًا أمام ما أدرك أنه قادم لا محالة. أخرجت من جيبها مديتها الصدئة القابلة للطي، وأحاطت ذقن باد بيدها وضربت وجنته قائلة: «حبيبي، يا حبيبي. سأجعلك تزقزق.»

***

تبخّر العالم حولها سريعًا، وتبخّرت معه الصرخات التي ملأت الغرفة. غضبها وحده ما بقي، ورغبتها التي لا تخمد. أرادت الدماء التي تجري في عروقه. بدا مختلفًا الآن عمّا رأته آخر مرّة: بالظلال الأولى للحية تنمو فوق وجهه، وشعره الطويل. لكن الدماء التي تجري في عروقه كانت ما تزال كما هي. أراقتها كلها. رمقت بقايا الحارس المجوّفة وهي تنهض وأحسّت بالخواء، كإطلاق السراح الفارغ لمنبوذ، أصابه العطش بالسعار، ففزع ليشرب من المحيط.

حين فرغت من ثأرها، التفتت وهمّت بشق حلوق أسراها الآخرين.اتجهت إلى الطفلين أولًا. كانا في السادسة عشرة من عمرهما أو السابعة عشرة: شعرهما أحمر مجعّد، ولهما ذقن أبيهما نفسه. بال أصغرهما على نفسه وكان يرتعد ويتشنّج. أمّا الآخر فبقي ثابتًا، ينظر إلى الأمام صوب آسِرَته رغم أنه لا يرى. حين اقتربت كي تقتلهما، أبصرت لأول مرّة ملامحهما المتطابقة. قالت: «أنتما توأمان.» لم يقُل القصير شيئًا، لكن الطويل

أومأ علامة الموافقة.

لابد أنهما تساءلا لماذا لم تقتلهما، لماذا، وقد أدنت السّكين من حلقيهما، وقفت ودقّت الطاولة وأطلقت صرخة ثم تركتهما. في الخارج، كان براج وجماعته ينتظرون. وحين أبصروا لون يديها وثيابها، أشاح بعضهم بوجهه، وابتسم آخرون. قال براج: «سنحرق الكوخ وهم فيه. ولن يعرف أحد شيئًا.»

«لا. ما يزال الصبيان وأمهما أحياء. أطلقوا سراحهم.»

«أطلق سراحهم إلى أين؟»

«لا يهمّني. هرّبهم وراء الخطّ الغربي إلى بلاد الشمال. أعدهم لديارهم.»

«سارات، ربّما رأوا أشياء. ربّما تعرّفوا على أصواتنا، سيشون بنا...»

«أعدهم لديارهم.»

* * *

أثناء رحلة العودة الطويلة رأت أطلانطا من بعيد. كانت قد اتسعت أثناء السنوات التي قضتها داخل شوجرلوف. «سمعت أنّ ألبرت جينز انتحر منذ بضع سنوات. أين دُفن؟»، «أوه، لم يمت، على الأقل لا زال يتنفس. بعد أن أطلق الشماليون سراحه اتجه إلى كوخه هذا في الغابة. لم يتكلّم مع أحد ولا خرج لأي مكان. تعفّن في مكانه بعيدًا لا يرافقه إلا احساسه بالذنب تجاه شركائه. دَعي اليرقات تدفنه حين يأتي موعد موته، هذا الواشي اللعين.»

«إذًا فقد تأكّد أنه هو من أخبرهم؟»
«بل أحد الوشاة. ما إن جمعوهم، حتى انطلق بغتة أولئك الوطنيون الجنوبيون ذوو الأنفة في الوشاية بكل ما يعرفونه. لم يسلمك فحسب، بل لابد أنه وشى بمئات الأسماء. الحقيقة أنني كنت لأقتله بيدي لولا أنّ أبي جعلني أعِده ألّا أفعل. هذا الوعد يقيدني، لكنه لا ريب لا يقيدك.»
كانوا يتحرّكون ببطء على الطرق السريعة التي كانت تحيط بالعاصمة الجنوبية؛ إذ كانت سيارتهما هي السيارة القديمة الوحيدة على الطريق التي تعمل بالوقود الأحفوري. انتبهت الآن إلى أنّ كافّة المركبات حولهما كانت فروعًا بعيدة لمركبات التوكتوك القديمة، تعمل بالطاقة الشمسية بشكل كامل. تذكّرت المشاهد القديمة للجنوبيين الصاخبين على متن الشاحنات العملاقة التي تعمل بالوقود الأحفوري، يزيدون من سرعات محركاتهم على سبيل التحدّي. كل ذلك لم يعد له أثر الآن، وإذا نظرت إلى الطرق ستظن أنه ما من جنوبيٍ واحد على قيد الحياة أراد يومًا استعمال الوقود القديم الّذي نشبت لأجله الحرب. رمق السائقون بالسيارات القريبة سيارة السيدان البطيئة التي تستقلّها. بعضهم يتملّكه الفضول لمرأى الشئ القديم، والبعض الآخر ينظر إليها بازدراء. لكن ما من أحد منهم حاول إيقافهم، ما من أحد منهم نطق بحرف.
تذكّرت شيئًا قاله ألبرت جينز ذات يوم لها في بيشنس

قبل سنوات. قال إنّ الجنوبي حين يفصح لك عمّا يقاتل لأجله، ساعتئذ يمكنك أن تتفق أو تختلف معه، لكنك لا تستطيع مطلقًا أن تصف ما يقوله بالكذب. سواء كان صحيحًا أو خاطئًا، لا يقول الرجل من بلادنا إلا ما يعنيه دائمًا بالضبط، وهو يُدافع عنه حتى الرمق الأخير.

حتى ذلك، تبيّن في النهاية أنه كان مجرّد كذبة.

* * *

عادت إلى المنزل قبيل الفجر، تتسلّل عبر حاجز الأمواج الشرقي. واربتُ شباك غرفة نومي، وبرزتُ بهدوء شديد خارجها كي أراقبها. تجرّدت من ثيابها إلى جانب السقيفة وغسلتها واغتسلت بماء من خرطوم البستان.

كان جسدها العاري أوّل جسد يُطبع في ذاكرتي. دقّقت النظر، أحفر تفاصيله بكل ندباته وتشوّهاته الغريبة التي تصوّرتُ أنها من خصائص أجساد البالغين كلّهم.

مقتطف مِنْ:

مُرْضٍ ومُشجِّع إلى حدٍ معقول بالنسبة للجميع:
تاريخ شفهي لمحادثات الوحدة الجديدة

ديفد كاسترو (كبير مفاوضي ديوان السلام، 2089-2093): أذكر يوم جاء وفدهم من أطلانطا. كنا قد قضينا ستة أشهر في التحضير للمحادثات، لذلك بدأنا المفاوضات على الفور. كانت لدينا آلاف الصفحات من الملاحظات على كل موضوع يُمكن تصوّره. السيطرة على الحدود؛ التعويضات؛ تبادل السجناء؛ وكل ما قد يرد إلى خيالك. كُنا نعرف بالضبط قبل أن نصل إلى الطاولة المدى الّذي كان الرئيس مستعدًا لبلوغه، ومدى استعداده للتنازل. كُنا نتصوّر أننا غطّينا كافّة النقاط الأساسيّة.

ثمّ جاءت أولى أيام المباحثات. أذكر أنّا كنا نلتقي داخل غرفة اجتماعات واسعة في قبو ديوان السّلام. كنّا خمسة نمثّل الاتحاد، وفدٌ صغير لأنّ لا سلطة حقيقيّة لنا، ذلك أنّ كل شيء لابد من التصديق عليه لاحقًا في المبنى التنفيذي. لكن حين وصل فريق التفاوض الجنوبي، تبيّن أنهم لا يقلّون عن دزّينتين. ولكل واحد فيهم منصب؛ مدير كذا الثوري؛ سكرتير الكذا الوطني. أعطاني واحد منهم بطاقته وكان مكتوبًا عليها أنه مسؤول الدفاع الدستوري.

تخيّلنا أنهم سيرغبون في البدء بمناقشة قيود السّفر، أو العفو عن كل هؤلاء المتمردين الّذين نحتجزهم داخل

معسكرات الاعتقال. أو ربّما أصابهم اليأس ويريدون التفاوض بشأن النقود. لقد تحمّلوا طويلًا باعتمادهم المتصلّب على الوقود الأحفوريّ في حين تقدّمت الدنيا من حولهم. كانت مُدنهم تتداعى، وتصوّرنا أننا نستطيع إجبارهم على القيام بكل أشكال التنازلات مقابل أموال البنية التحتيّة.

كان لدينا برنامج محدود جهزناه لهم يضم بعض نقاط بداية مقترحة لإطلاق المحادثات.غير أنّي ما زلت أتذكّر أول يوم، حين جلس رئيس الوفد أمام الطاولة وأبعد جدول الأعمال جانبًا دون أن يقرأه حتى، ووجّه كلامه لنا قائلًا: «أولًا وقبل كل شيء: لا أريد سماع أحدٍ منكم ينطق أبدًا كلمة استسلام.»

لقد تبيّن أنهم لا يكترثون بقيود السّفر ولا مقايضة السجناء أو أيّ من تلك الأمور. كان كل ما أرادوه طوال ثلاثة أيام متوالية هو المساومة بشأن صياغة خطاب يوم الوحدة الجديدة، وديباجة اتفاق السّلام. كانوا يُطلّون علينا كل يوم برغبات جديدة مُدرجة في السجل العام: هُراءٌ ما عن البسالة في وجه العدوان مرّة، ومرّة أخرى عن حتميّة الدفاع عن النّفس وحماية أساليب الحياة المُقدّرة. تبًا، أذكر أننا أمضينا ساعات طوال في أحد الأيام نخطّط لطريقة سَير يوم التقاط الصور التذكاريّة. كانوا يريدون أن يكون رئيسهم أوّل من يمدّ يده، ومن ثمّ يصافحه رئيسنا. في اليوم التالي، غيّروا رأيهم، وصاروا يرغبون أن يكون رئيسنا هو من يمدّ يده

أولًا.

بالطبع، راق هذا للمفاوضين الآخرين من فريق الاتحاد، لأنهم كانوا يفرضون رؤاهم الاستراتيجية أثناء ذلك. كما أسعد المسؤولين في المبنى التنفيذي مجاراة تلك الرغبات لأنهم كانوا ينظرون إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى حين يتعين عليهم تدشين حملة لجمع كافَّة تلك الأصوات الجنوبيَّة. كنتُ الوحيد الَّذي شنَّ حربًا حين قُلتُ لموظفي الرئيس إنَّنا لو استمرَّينا على هذا النحو، نهزُّ رؤوسنا ونتبادل الابتسامات في حين يستعرضون أوهامهم بشأن أنَّ ما يجري ليس إلا خلافًا نبيلًا بين أنداد، وليس قتالًا لعينًا حول موقفهم المتزمِّت بشأن التمسّك بوقود مُدمِر، فإنَّ الحرب لن تنتهي بأي حال من الأحوال.

لكن في النهاية، سايرتهم كولومبس. وحتى اليوم، بعد كل تلك السنوات، ما نزال نحيا تبعات ذلك. لم يفهموا، لم يفهموا أنك أثناء الحرب تقاتل بالبنادق، لكن أثناء السَّلام تقاتل بالحكايات.

الفصل الرابع عشر

في ربيع 93 كسرتُ ذراعي. كان شرخًا بسيطًا فالتأم العظم سريعًا، لكنها كانت أولى ذكرياتي عن الألم.
جرى هذا في مايو/أيار، في نهاية بضعة أشهرٍ سيئة بدأ خلالها التوتر الناجم عن ترتيبات عيشنا الجديد ينخُر حتى في سكينة أبي، أعني تمترس سارات وراء درفتي سقيفتنا الخشبية. كنتُ أتمدّد في ليالٍ كثيرة قبالة منفذ التبريد في غرفة نومي وأصغي إليه وإلى أمّي يتجادلان في الطابق السفلي. كنت أسمع أمّي تقول: «لم تقل كلمة واحدة لنا خلال أربعة أشهر. ولا حتى صباح الخير، وكأننا لا نستحق.» فيجيبها أبي: «ستستغرق وقتًا. تحتاج إلى وقت.»، «كفّ عن ترديد هذا. فما تحتاج إليه هو طبيب؛ مُعالج، شخص مُدرّب على التعامل مع أولئك الذين كابدوا ما كابدته. تحتاج إلى مساعدةٍ نعجز عن تقديمها لها.»، «يقول موظّف الهلال الأحمر أنها تحتاج أن تتعلّم معنى أن تكون خرِة.»، «وهل تبدو كمن يتعلّم؟»
حين ينهكهما الجدل، كانا يقرران التنزّه في لينكولنتون وتناول العشاء. لم تكن أمي ترغب في تركي وحيدًا في المنزل لكنها حسبت أنني كنت نائمًا فقررت أن تنتهز الفرصة السانحة بضع ساعات. لذلك حين سمعتها تصعد الدَرَج كي تطمئن عليّ، وثبت عائدًا إلى الفراش وأغمضت عينيّ. انتظرت إلى أن خبت الأضواء الخلفية بعد البوابة الحديدية. غادرت الفراش بعد أن رحلا

وأشعلت النور.
غادرت حجرتي ومشيت في الرواق ثمّ نزلت الدَرَج بمحاذاة صفٍّ من صور فوتوغرافيّة باهتة جدًا معلّقة فوق الجدار. كانت صور أجدادي، والمرأة التي قالا لي إنّها عمّتي الأخرى. إحدى الصور كانت لجدّي لأبي، الرجل الّذي سُمّيت على اسمه. كانت ممسوحة، لا شيء واضح من ملامحه غير هيئة باهتة، ووجه غائم. كان يحتضن شيئين فوق ذراعيه، لكنهما كانا مطلسمين أيضًا. لفترة طويلة كنت أظنّ أنّ تلك الصورة التقطت له بعد وفاته، صورة لشبحه. وكنت بدأت أعتقد أنّ ثمّة فئة عمريّة أخرى، أكبر من أكبر الأحياء، فئة فقد أصحابها القدرة على الكلام حتّى مع أنفسهم، فصاروا حبيسي صمتٍ تامٍ منيع.
نزلت الدَرَج وأنا أنوي حلّ لغزٍ شغل تفكيري طوال أشهر. لغز مُخبأ داخل أحد المشاتل. دخلت. كان الهواء دافئًا في البستان وذو ملمس رطب على الجلد. اشتعلت المصابيح المُعلّقة على جانبي البيت القرميديّ حين استشعرَت حركاتي، ثم انطفأت بعد أن ابتعدت. اتجهت جنوبًا حيثُ تتراصُ مشاتلنا في صفوف. كانت مصنوعة من زجاج نصف شفّاف. في داخل كل لوح عروق نحاسية دقيقة تمثّل جزءًا من دوائر كهربية تمتص الطاقة من الشمس. آنذاك، كانت الألواح نصف الشفّافة ما تزال جديدة وغير متاحة على نطاق واسع جنوب خطّ تينيسي. استغرقت أمّي شهورًا قضتها في

مشاحنات واتصالات للوساطة قبل أن تنجح في نقلها عبر الحدود. كانت تصدر أزيزًا وتتألق أثناء النهار، أمّا أثناء الليل فتركن إلى الصمت. ودائمًا، حتى أثناء عملها، كانت رؤية النباتات تنمو داخل تلك البيوت ممكنة باستمرار.

بالقرب من الطرف الجنوبي الشرقي من أرضنا، وقف البيت رقم ستة وثلاثين غير مستعمل. وبدلًا من الزجاج كسته ألواح من الخشب الرقائقي. بعد أن عصف بنا إعصار زينيث وخرّب كثيرًا من البيوت الزجاجية، حاولت أمّي مرّة أخرى الحصول على ألواح جديدة من الشمال، لكنها لم تفلح إلا في تأمين ألواحِ أحد عشر بيتًا من اثني عشر بيت أصابهم الدمار. وكان البيت رقم ستة وثلاثين هو المستثنى من الإصلاح. كنت أرى زائرتنا تأتي إلى هنا ليلًا بين الحين والآخر. حينئذ، كانت تحمل معها دفترًا أو اثنين من دفاتر يومياتها. لكن حين تخرج من البيت الزجاجي، تكون الدفاتر قد اختفت.

وصلت إلى البيت رقم ستة وثلاثين لأجد بابه موصدًا بلوح خشبي وقفل صغير. لكن كان ثمّة فتحة بسبب غياب لوح خشبي في السقف، ظننت أنّه بإمكاني اختلاس النظر من خلالها. كان السقف عاليًا جدًا بالنسبة لي كي أتسلّقه. فأبصرت سلمًا يستند على جانب البيت الزجاجي رقم خمسة وثلاثين، حيث غرست أمّي بامية مزأبرة وباذنجانًا ضخمًا كأنه أغصان أشجار. تمكّنتُ

مستخدمًا طاقتي كلّها من إمالة السلّم بعيدًا عن جانب البيت الزجاجي. طفا عديم الوزن في الهواء برهة من الوقت، ثمّ هوى فوق جانب البيت رقم ستة وثلاثين مصدرًا فرقعة عنيفة. نظرت خلفي ناحية المنزل والسقيفة الخشبيّة كي أرى إن كانت تسمع، لكن لم يكن ثمّة أثر لأيّ حركة.

تسلّقت السلّم. كان يتأرجح مع كل خطوة يمينًا ويسارًا. غير أنّي كنت قد رأيت العمّال يستخدمونه عدّة مرّات، وكانوا أضخم حجمًا منّي، فواصلت التسلّق. حين بلغت قمّة السلّم أحسست بالبهجة. كانت أرضنا تمتدّ واضحة أمامي وراء السقف المكسوّ بالألواح الخشبيّة. لا أرضنا فحسب، بل الأراضي المحيطة بها كلها: منعطف النهر؛ وحيث نمت الأشجار مضفورة الأغصان خارج الماء. نظرت إلى الجنوب ورأيت أضواء المدن البعيدة.

لكن داخل البيت الزجاجي، لم أر شيئًا تقريبًا. ليس ثمّة إلا آثار الأقدام الباهتة فوق التربة القاحلة تحت ضوء القمر الفضّي. مددت عنقي إلى الأمام كي أرى أبعد من البقعة الترابية التي أضاءها القمر، لكن لم يكن هناك آثار تدل على ما كانت تأتي إلى هنا لفعله. كدتُ أستسلم. لكن رشقة من نور أحمر تسلّطت على عينيّ. أتت من نقطة بعيدة شمالًا، من وراء النهر. التفتُّ كي أبحث عن مصدرها لكنها اختفت في غضون لحظات. وقفتُ ثابتًا فوق السّلم. أراقب حدود أرضنا. كان النهر وراء حاجز الموج يُصدر هسهسة ناعمة أثناء جريانه. لكن ثمّة شيء

آخر، صوت أشياء تتكسر في العتمة على الضفة البعيدة. كانت الرؤية مستحيلة، لكن ثمة خط في الأفق، تجانست أسفله العتمة بصورة غير طبيعية، أما فوقه فقد تشوشت ظلمة السماء وانتشرت فيها سحب ونجوم.

حدقت في الخط الفاصل في الأفق أمامي، محاولًا فهمه. لكن بغتة سطع النور الأحمر نفسه فوقي مباشرة، قويًا يعمي الأبصار. سقطت. وأثناء سقوطي تخيلت أنني رأيت هيئة حارس في أحد الأبراج. ثم جاءت السماء. رأيتها والسلم يميل، فمددت ذراعي اليسرى في العتمة كي أمنع سقوطي.

اندلع رمح من نار لا يشبه شيئًا خبرته من قبل قط في ذراعي. رقدت فوق التراب وصرخت. أبعدت عيني عن ذراعي ونظرت في اتجاه البوابة عند نهاية الممر. صرخت أنادي على أمي رغم معرفتي أنها لن تسمعني. كنت وحيدًا. حينئذ سمعت وقع خطوات تقترب من الشقيقة. لوهلة لم أصدق أنها هي، لكن حين رأيت هذا الهيكل الشاهق يطل من فوقي، عرفت أنها هي.

كنت ما أزال أصرخ من الألم. طلبت منها أن تساعدني دون أن تكون لديّ أدنى فكرة عما أريد أن تفعله. كل ما أردته هو أن تخمد النيران المشتعلة في ذراعي. جثت إلى جانبي وقالت: «لقد كسرتَ ذراعك.» أفزعتني الكلمات. لم أكن أعرف آنذاك أن الأشياء المكسورة يمكن أن إصلاحها. لم يكن أبواي يصلحان شيئًا ينكسر أبدًا

في المزرعة -مزهرية أو مصباح أو أحد ألواح بيت زجاجي- بل يلقونه بعيدًا ويشترون واحدًا جديدًا بدلًا منه. قالت: «انظر إليه.» رفضت، فكرّرت: «انظر إليه.» فالتفتُ لأرى المكان الّذي اندلعت منه النيران. وحين رأيت كيف انطوت ذراعي اليمنى بطريقة غير عاديَة، فقدت الوعي.

* * *

أفقت لأجد نفسي في الفراش. وكانت تجلس إلى جانبي.

قالت: «خذ هذا.» وناولتني قرصين أبيضين. «سيخففان آلامك.» ابتلعتُ القرصين، وأحسست خلال دقائق قليلة بمسرّة تغمر جسدي بالكامل ودفءٍ يُشعّ من بطني إلى أطرافي كلّها. سألتني: «هل ما زلت تحسّ ألمًا؟» هززت رأسي نافيًا. كانت الدنيا حولي غائمة وغير واضحة، لكن آلام ذراعي كانت قد اختفت. «تُرى ماذا كنت تفعل هناك؟»

«كنت أحاول النظر داخل البيت الزجاجي.»

«لماذا؟»

«كنت أراكِ تذهبين إلى هناك أحيانًا، وأردت أن أعرف ما كنت تفعلينه.»

كنت أعرف أنّ كلامي قد يجعلها تستشيط غضبًا مِنّي، لكنني أدركت في الوقت ذاته أنّ غضبها كان سيزداد إن كذبت عليها. وكنتُ واثقًا من قدرتها على اكتشاف كذبي إن كذبت. لكنها لم تبد غاضبة، ولا قالت شيئًا أيضًا. بل

تخيلت أنني رأيت ومضة إعجاب عابرة في نظرتها لي. ثم غابت. «هل سقطت من فوق ذلك السلَّم؟»

«بلى.»

ضحكت وقالت: «أنت ابن أبيك حقًا.»

التفتُّ إلى ذراعي المكسور ورأيت أنه استقام على حرف لوح خشبي. كان اللوح والذراع مربوطين معًا بأشرطة من قماش، فلاحا مثل طرفٍ صناعيٍّ فجّ. بدأت أتساءل إن كنت سأتمكّن يومًا من استخدام ذراعي مرّة أخرى. كان أبواي يصطحباني دائمًا كي أسبح وألعب كرة السّلة مع أطفال آخرين في لينكولنتون. ولم أر أبدًا طفلًا بذراع خشبية. سألتني: «هل سبق أن كُسرت لك عظمة من قبل؟» أدهشتني سخافة السؤال. إذ كان من الواضح أن الإجابة هي النفي؛ فلا ألواح خشبية أخرى مربوطة حولي. قلت: «لا.» وحاولت أنْ أرفع ذراعي، لكن بدا أنّ الأعصاب التي تصل الدماغ بالذراع قد تمزّقت. فهتفت: «لا أستطيع تحريكه.»

«مع الوقت. ما دام اللوح موجودًا فالعظام في مكانها الصحيح. لا يهم مدى الضرر الّذي لحق بالعظمة، بل كيف تُجبر.»

«آسف لأنني كنت أتلصّص على أشياءك يا سيدتي.»

هزّت رأسها وقالت: «لا تناديني هكذا. اسمي سارات.»،

«آسف يا سارات.»

«لماذا تفعل ذلك؟»

«أردت أن أعرف فحسب.»

«لا تعتذر إذًا، فهذا هو جوهر الحياة، الرغبة في المعرفة.»

سمعنا صوت رنين جرس الباب، ثمّ انفتحت البوابة الأمامية. عرفت أنّ أبي وأمي قد عادا، ورغم فزعي من ردّ فعلهما حين يعرفان بما فعلته، إلا أنني لم أهتم. ذلك أنّ المسرّة الغريبة التي غمرتني كانت ما تزال باقية. صعدت أمي إلى الطابق العلوي وحين رأتني اتسعت عيناها مثل بئرين، وجعلت تكرر مرة تلو الأخرى: «ماذا فعلت؟» تجاهلت وجود شقيقة زوجها تمامًا بعض الوقت، فتخيّلت أنها كانت تسألني. بعدئذٍ، لابد أنّ اتهامًا ما تجلّى داخل عقلها، فاستدارت وهتفت: «ماذا فعلتِ به؟»

«لقد سقط وكسر ذراعه، فصنعت له جبيرة وأعطيته جابرًا للعظام. سيتحسّن.»

«ولم تتصلي بالإسعاف؟ ولا اتصلت بطبيب؟ ولا اتصلت بنا؟» كانت أمي تدنو منها الآن. «ماذا بك بالله عليك؟ صبي يكسر ذراعه ولا تفعلين شيئًا؟» التزمت سارات الصمت. وتساءلت بسبب الطريقة التي كانت تقف بها أمي أمامها، ما إذا كانت ستصفعها. لكنها بدلًا من ذلك، دفعت الشباك وأوصدته هاتفة: «بالله عليكِ، ألا تفهمين؟ لقد انتهت الحرب. هذا ليس بيشنس، ولا هذه جبهة القتال أو السجن الّذي احتجزوك فيه. إذا كنت ترغبين في العيش داخل ذلك العالم، ارجعي إلى كوخك القذر هذا. وإياكِ أن تجرؤي على محاولة جرجرتنا إليها، هل

تسمعيني؟ إياكِ.»
تابعت سارات تبتعد. مرّت بجانب أبي الّذي دفعه صوت أمي المرتفع إلى الصعود للطابق العلوي. مرّت بجانبه كأنه غير موجود. آنئذ بدا تصوّر أنهما شقيقان، قادمان من ماض واحد متشابك، أمرًا مستحيلًا. أبصر ذراعي فجاء إلى جانبي وهتف: «أوه، كلا.»
«هل هذا كل ما لديك؟ تكسر ذراع ابنك فلا تنطق إلا بما قلت؟»
قلت مُحتجًا: «لم تكسر ذراعي.»
«لقد تلف عقلها يا سيمون. إنّها خطر علينا، خطر على ابنك. لا أدري كم ستستغرق حتّى تدرك هذا.»
هذه المرّة، لم يكلفا نفسيهما عناء النقاش بنبرات منخفضة. تابعتهما يتشاجران هنا داخل غرفتي. اضطرب أبي وكافح بحثًا عمّا يريد قوله من كلمات، لكن صبر أمّي هذه المرة كان قد نفد. غير أنّي لم أرتبك. لم أكن أدرك آنذاك أنّ ما أحسّ به ما هو إلا سراب كيميائي بسبب سريان جابر العظام في دمائي. وحتّى فيما بعد، حين آل الدفء في معدتي إلى مرارة وتقيأت كل ما فيها على الأرض، كنتُ ما أزال أحسّ بالشعور الرائع ذاته.
قال طبيب في عيادة بلينكولنتون أنّ الكسر يبدو أسوأ من الحقيقة. ضحك حين أدخلني أبواي إليه وما يزال ذراعي مربوطًا باللوح الخشبي. وسألني إن كانوا قد عثروا عليَ داخل قبو ما على خطّ تينيسي أقاتل

الشماليين. وضع جبيرة مناسبة وقال أن ذراعي ستصبح كالجديدة في غضون شهر. آنئذٍ كنتُ أفيق من جابر العظام، وكانت الجذوات تستعرّ من جديد في ذراعي. غير أني ما أزال أذكر إحساس الارتياح الطاغي الذي غمرني حين سمعت تلك الكلمات: تصبح كالجديدة.

انطلقنا عائدين إلى المنزل وقت الفجر تقريبًا. وكانت أمي، التي قضت المسافة إلى العيادة تحفر جلدها بظفر وسطاها، قد هدأت بما يكفي كي تستجوبني كيف كسرت ذراعي. على أني صمدت أمام الضغط. لسببٍ ما، كان مشهد دخول أبويَ البيت رقم ستة وثلاثين واكتشاف ماهية ما كان يعيش في داخله هي المحصلة التي تصيبني بأشد الفزع. وهكذا، حين وضعاني داخل فراشي أخيرًا، نمتُ على الفور بابتسامة تملأ وجهي.

* * *

أحد أكثر الأمور التي أتذكّرها بشأن أمي وضوحًا، هو قدرتها على الثبات. أحيانًا كانت تقفُ بغتة دون حراك أثناء وجودها في الخارج تغرس زهورًا غريبة جديدة في الفناء الخلفي، أو أثناء رسم مشاهد رعوية ساذجة فوق الحاجز الموجود على ضفّة النهر. كنتُ قد ضبطتها مرّة أو مرّتين بتلك الهيئة: جامِدة، كأنها تحاول ألا تُلفت انتباه وحش عابر. جثوت ذات مرّة أمام الحاجز وحاولت تقليدها بعد أن دخلت المنزل، وطفقت أحدّق بكل تركيز في الخرسانة. لكن أفكارًا معاندة بدأت

تتكدّس داخل عقلي، وأصبحت خلال دقيقة أو دقيقتين جاهزًا للانفجار. كنتُ صغيرًا وما من فائدة للثبات بالنسبة لي.

ذهبت أمّي لزيارة سارات في الصباح الذي تلا كسر ذراعي. كان باب السقيفة مواربًا والضوء مشتعلًا دائمًا. اختلست أمّي النظر فرأتها تجلس فوق مقعد منحنية على طاولة، تخيط بالطريقة القديمة باستخدام إبرة وخيط. قالت سارات، عيناها ما تزالان منصرفتين إلى عملها، مولية ظهرها إلى الباب: «إذا كنت ترغبين أن أرحل، سأرحل.» دخلت أمّي. كانت السقيفة ساخنة، حتى في برودة الفجر، بسبب ضوء المصباح السّاطع. «لقد احتجزونا هُنا، ليلة جاءوا من أجلك. بعد أن أخذوك وفتّشوا الكوخ، أوصدوا بابه علي أنا وسيمون والبنادق مصوّبة إلى رؤوسنا ثمّ قلبوا المنزل رأسًا على عقب. لم أكن قد سبق لي أن رأيت سيمون على هذه الحالة قط، حين صرخ لمرأى تلك البنادق.» وجلست فوق مقعد إلى جانب دكّة على الجانب الآخر من السقيفة. تفحصت علبة دهان قديمة أصبحت مقلمة الآن. «لطالما كرهت هذا الكوخ اللعين.»

رمقت أمي ما تخيطه سارات، قميصًا رماديًا واسعًا وفضفاضًا يُشبه كيس بطاطا. كانت الغُرز واسعة وغير مُنتظمة، وقد اختفت الإبرة داخل الكفّ الضّخمة التي حملتها. «الإضاءة سيئة بالنسبة لعمل كهذا. يعلم الله وحده كيف تنامين ومثل هذا المصباح مشتعل.»

«نسيت كيف أنام في الظلام.»

كشّرت أمّي. كانت تفوح من السقيفة رائحة لحم نتن كأنها دكّان ملحمة. ثمّة صندوق صيد قديم فوق أحد أرفف المنضدة، أصاب الصدأ أدواته التي لم تستعمل قط. «لقد أخطأت بصياحي عليك بتلك الطريقة. قال الطبيب أنّ الجبيرة التي صنعتِها كانت رائعة، وأنّ بنيامين كان سيقضي الليل كله يصرخ لولا أنك أعطيتِه مسكّن الألم هذا.»

«إنّه رخو.»

«يا إلهي يا سارات. إنّه ما يزال في السادسة من عمره.»

«لم أقصد سوءًا.»

«قال لنا أنّه سقط أثناء طرد ذئب بعيدًا عن بيوت المشاتل. يعلم الله وحده أنّ ذئبًا واحدًا لم يقترب من تلك النواحي منذ سنوات. أظنّ أنّها أوّل مرّة يكذب فيها علينا.» رفعت سارات عينيها عن الخياطة، وقالت: «إنّه صبي طيب. لم يقترف خطأً.»، «لست غاضبة منه. لكنه يكذب لأنّه يُحبّك، وهو يرغب ألا يتقاسم ما جرى إلا معك. هكذا يُفترض أن يكون شعور الصبيان الصغار تجاه عمّاتهم. إنّه يُحبّك يا سارات. رغم كل ما تفعلينه كي تبقين نائية عنّا، ما يزال يُحبّك.»، «كنتُ أتصوّرهم ارتكبوا خطأً حين أخبروني عنه.»، «ومن أخبرك عنه، ومتى؟»، «لفترة من الزمن، حين كانوا ما يزالون يحاولون إجباري على الكلام، كانوا يقولون لي بين الحين والآخر أنهم ألقوا القبض على سيمون أو دانا أو

ماما. كان ما يعرفونه بالغ الضآلة، لم تكن لديهم فكرة من مِنّا لقي حتفه ومن مِنا ما يزال حيًا. لكنهم داخلوا عليّ يومًا وقالوا أنهم سيأخذون بنيامين إذا لم أتكلَم. فكّرت، ها هم كما يجهلون أنّ ماما وأختي قد لقيا نحبهما، يجهلون كذلك أنّ بنيامين قد مات منذ ما يزيد عن عشرين عامًا.»

ابتسمت أمّي. كانت بشائر طلوع الشمس تتسلل عبر الشقوق وتضيء ذرّات الغبار العالقة في الهواء. «أخوك رجل صالح. قد يتفاهم بشأن أي شيء. لكنه حين علم أنه صبي، لم يتزحزح قيد أنملة عن اسم بنيامين. إنها المرّة الوحيدة التي أصرّ فيها على شيء منذ عرفته. هل تصدقين ذلك؟»، «هل كان ما يزال طفلًا حين تزوجتِه؟» تنهّدت أمّي وأجابت: «لنفترض ذلك، وماذا بعد؟ هل تلك هي الضغينة التي قرّرتِ حملها؟ لا بأس، لنزعم أنه كان ما يزال طفلًا. لنقل أنّني قمت باستغلال ذلك الصبيّ الصغير الساذج المصاب برصاصة في دماغه، الصبيّ الّذي كنت أتلقّى أجرًا لقاء رعايته. لنقل أنّني قمت باغتصابه أيضًا، وأنّني أنجبت منه طفلي في حين كان مصابًا بتلف بالغ في دماغه يعيقه عن إدراك ما كان يجري. لنقل أنّ كل ذلك حقيقي؛ ألقِ وِزْرَ ذلك عليّ. عامليني ببرود، اضربيني، إن كان هذا كل ما لديك. لكن سيمون لا يُلام على ما جرى، كما أنّ هذا الصبي الصغير لا يُلام هو الآخر دون ريب.»

طوت سارات الثوب ونحته جانبًا فوق الدّكّة، ثمّ

أخرجت من تحتها جرّة زجاجيّة مليئة بالخمر المنزلي المصنوع من بقايا مانجو وخوخ وبرتقال مسروقة من بيوت المشاتل. فكّت الغطاء فاندفعت رائحة سكريات متخمّرة إلى الهواء. تابعت أمّي: «بعض أرامل الحرب العجائز هؤلاء ما زلن يجئن لزيارتنا بين وقتٍ وآخر. قليلات منهن من لا يزلن على قيد الحياة، لكنهن ما زلن يجئن كي يلمسن جبين سيمون ومباشرة خزعبلاتهن. ما زلن يُطلقن عليه صبي بيشنس المعجزة، كأنّه لم يقم بشيء آخر طوال حياته. ما زلن يتصوّرن أنّ المعجزة هي بقائه على قيد الحياة. لكن الأشرار يظلون أحياءً أيضًا، وسعداء الحظ. ليست المعجزة أنه نجا، بل المعجزة أنه يبرأ من مرضه.»

نهضت عن مقعدها وأفرغت قدحين يحملان علامة *رابطة حرية الجنوب* كانا ملآنين بمسامير منتزعة من ألواح الأرضيّة، وتقدّمت من سارات ثمّ مدت يدها بواحد منهما قائلة: «هيا. إنها فاكهتي التي تسرقينها.» شربتا حتى بلغت الشمس كبد السماء واكتست الجدران باللون البرتقالي. انتبهت أمّي لوجود مذياع قديم فوق أحد الأرفف فأدارت لاقطه حتى أصدر طنينًا. بحثت بين المحطّات حتى عثرت على عزْفٍ هادئ وغير واضح من موسيقى الجاز. وخشخشت أغنية عبر الآلة العتيقة. سألتها أمّي: «ألم يكونوا يسمحون لك بسماع الموسيقى هناك؟»، «ليست هذه الموسيقى.»، «أريدُ أن تعرفي أننا حاولنا يا سارات. لقد كتبنا التماسات، ووكلنا محاميًا.

رشونا الحاكم والحكّام الّذين سبقوه إلى أن جلسوا معنا. تكلّمنا مع أعضاء من مجلس الشيوخ حول قضيتك. لكن ما من أحد منهم فعل شيئًا. أصابهم فزع هائل من زج أسمائهم في عبارة واحدة تضمّ ذلك المكان. لكن أقسم بالله أنّنا حاولنا.»، «لم تكونوا مضطرين.»

لاحظت أمي خطًا رفيعًا في وجنة سارات اليُسرى، ندبة أصيبت بها جرّاء صمتها في شوجرلوف. كانت الندبة تنتهي بمحاذاة الفك في مكان من عنقها قريب من بداية ندبة أخرى. فهتفت: «ربّاه، أعجز عن تصوّر ما فعلوه بك.»، «لم أطلب منك ذلك قط.»، «لكن هذه رغبتك. أقصد، كان بإمكانك الرحيل. أن تغادري وتعودي إلى أيّما مكان تعتقدين أنّ القتال ما يزال مشتعلًا فيه، وتقتلين جنديًا أو جنديين بيديك. أو تنتحرين حتى. لكنك ما تزالين هنا. لقد رأيت هذا مسبقًا، حين كنت ما أزال صبية صغيرة تراقب أبويها يعالجان الجرحى في حفر الجحيم تلك التي كُنّا نعيش فيها. لقد عانيت بما يفوق قدرتك على الكتمان. وتتصرفين كأنّنا غير مرئيين. لكنك ترغبين أن نعرف ما فعلوه بك. أعتقد أنّك تحتاجين إلى أن نعرف.»

ألقت سارات جرّة الخمر إلى الجانب الآخر من الغرفة، فاصطدمت بالجدار وتحوّلت إلى شظايا. «ماذا تنتظرين مني؟ هل ترغبين أن أقول أنهم كسروني؟ لا بأس: لقد كسروني. لقد كسروني. لقد كسروني. هل يسعدك سماع

هذا؟ أنت على حقّ، أعجز عن نسيان ذلك. ماذا تنتظرين مني الآن، وقد جرى ما جرى، أنْ أنطفئ مثل شمعة؟ ليلة أمس حين تصوّرتِ أنني آذيتُ ابنكِ كنت على استعداد لشقّ حلقي ثأرًا. مع ذلك عليّ أن أنسى ما جرى لي، كل ما كان يجري لي يوميًا منذ كنت في عمر ابنك. حسنًا، اسمحي لي أن أوضح لك: أيًا كان الجزء القادر فيّ على الغفران، هو ميت الآن.»

«رغم ذلك، باقيك ما يزال حيًا. رغم ذلك، ما زلت تخيطين القمصان من القماش وتصنعين الخمر من الفاكهة وتكتبين أيّما تكتبينه في دفاترك القديمة تلك. رغم ذلك، ما زلت تهرعين ليلًا لتصنعي جبيرة لذراع ابني الصغير. أنت تبرأين يا سارات. ربّما تناضل مراراتك لمنع ذلك، لكنك تبرأين.» ونهضت أمي عن مقعدها وتابعت: «أنت على حق إذا كنت تتصورين أنني لا أرى سببًا يجعلك تستحقين لأجله الحُبّ. كان الله في عوني، أعرف أنك جزء من العائلة وأعرف أنني تزوجت أخيك وأعرف أنّ عليّ أن أعتقد أنك تستحقين المحبّة، رغم ذلك أظن العكس. لقد جعلتك مصائب كثيرة على هذه الحال، غير أني لست مضطرة للعيش مع تلك المصائب، بل عليّ أن أعيش معك كما أنت. وأنا أعرف أنك ترين أنني أنا الأخرى لا أستحق الحبّ. مع ذلك سأحبّك على أي حال. وسيحبك أخوك على أي حال. وسيحبك ابن أخيك على أي حال. هكذا الأسرة الواحدة. لك ما تحتاجينه من وقت يا سارات. وتعافي كيفما شئتِ

التعافي.»

* * *

خرجنا إلى سوق السبت في لينكولنتون نهاية الأسبوع التالية. لم أتوقّع أن تأتي معنا، لكن حين خرجتُ رأيتها داخل السيارة، وظلّ مقعد الركّاب مدفوعًا للخلف طول الطريق. أتذكّر كيف كنت أتصوّر هذا شيئًا هامًا: أبرز شخصيّات عائلةٍ ما تقوم برحلات معًا.

حين وصلنا السّوق كان مكتظًّا بالناس؛ حشود متسوّقين من أرجاء شمال جورجيا كافّة ينزل إلى البلدة كل أسبوع لشراء منتجات طازجة، إنه اكتظاظٌ إلى درجة كادوا معها أخيرًا أن يغلقوا نحو ربع ميل من شارع بيتشتري القريب من كنيسةٍ معمدانيّة قديمة، وتحويله إلى ما يُشبه سوقًا مفتوحة للمشاة. كنتُ أحبّ السّير في السوق برفقة أبويّ، أشاهد الباعة يركضون لإلقاء التحية عليهما. في أيّ بقعة من الجنوب، كنّا محض أثرياء. لكن هنا فقط، كنّا أسرة ملكيّة استثنائيّة. واحدة من بين خمس أسَر أو ست في الولاية كلّها ما تزال تقوم بالزراعات الصغيرة، وهو ما أصبح أمرًا بالغ المشقّة في ظلّ العواصف ودرجات الحرارة العالية. كنت أحبّ رؤية الباعة يُغادرون أكشاكهم بينما طلبات زبائنهم لم توفَ بعد، كي يهرعوا إلى السيّدة كارينا لسؤالها عمّا تزرع تلك الأيام، وأيّ المحاصيل الغريبة التي تسعى لبعثها إلى الحياة. رغم ذلك، لم يأتِ أحد تقريبًا لرؤيتنا هذا اليوم. عرفت في الحال أنّ سارات

هي السبب. بعض الباعة كانوا وثيقي الصلة بأسرة شستنت منذ فترة طويلة فكانوا يعلمون من هي، رغم ذلك أصابهم حجمها ومشيتها المتثاقلة البطيئة كأنها حجر بالخوف.

بعد فترة، اقترب بائع فاكهة كي يُرحّب بنا. كان أحد أكبر زبائن أبويّ. مُشترٍ حَضريّ لكل ما تنتجه مزارع شستنت من ملفوف كان يُروّج له باعتباره يتمتع بكافة الآثار المقوية. التفتت أمي ناحية أبي، حين رأت البائع يقترب منهما، وهمست: «اسمه سام.» جاء البائع وصافح أبويّ، قائلًا: «حسنًا، لولا أنكم أقرب الناس إليّ في كل جورجيا، لما أتيت!»

قال أبي مبتسمًا: «مرحبًا يا سام.»

«كيف حالك يا سيد سيمون؟ تبدو بصحة جيدة.»

«أنا بخير. أنا بخير.»

التفت سام إلى أمي وتابع: «لقد سمعت أنّ لديك شيئًا جديدًا.»

«ومنذ متى كنت أخذلك يا سام؟ لديّ دائمًا شيء جديد.»

«أخبريني إذن! ما هو؟ يقول تايلر من مزارع الوحدة الجديدة أنك اكتشفت طريقة ما تجعل البرتقال غير ظمآن جدًا. أهذا صحيح؟» بدأ النقاش يصيبني بالضجر. فتلفّت حولي بحثًا عن أحد أكشاك الأطفال، حيث كان المهرّجون يربطون بالوناتٍ بعضها ببعض على هيئة حيوانات، ويقومون بحِيَل استخدام أوراق اللعب،

في حين تُذيب الحرارة الشديدة مساحيق التبرّج على وجوههم. آنئذ فقط انتبهت إلى أنّ سارات قد ابتعدت عنّا. كانت تقف إلى جانب كشك لحوم مصنّعة في المعامل، تُحدّق باهتمام شديد في شيء ما في الشارع. لم أدرك ماهيته آنذاك، وكذلك هي. لم يكن من الممكن أن تعرف أنه كان أحد الشروط، أحد الأشياء التي وافق عليها الجنوبيون الأحرار توطئةً للسلام. لم تكن تعرف أنّ الجنوبيين في المقابل كانوا يحظون بإمكانية الدخول شهريًا إلى بضع مستشفيات شمالية، ووعدٍ بمزيد من النعوت الإيجابيّة لقضية الجنوب في خطب يوم الوحدة الجديدة. لم تكن سارات تعلم ذلك. بل كان جُلّ ما رأته جنديًا شماليًا بزيّه الرسمي وكامل عُدّته يتجوّل في السوق، يتجوّل فوق أرض جنوبيّة.

رأيتها تمدّ يدها صوب سكين قصّاب فوق طاولة الكشك، ثمّ تتجه صوب الجندي. لم أرها تتحرّك بمثل هذه السرعة من قبل قط سوى في الصباح الّذي اندفعت فيه بعيدًا عنّي إلى داخل السقيفة. كان الجنديّ الشمالي يتحدّث مع بعض صنّاع الثياب في كشك على الطرف البعيد من السوق، فلم يرها تقترب. كان جزءٌ ما في أعماقي يعرف ما سيجري. فبدأت أركض، وذراعي المعطوبة تتأرجح إلى جانبي. لم يكن يفصلها عن ظهر الجندي حين وصلت إليها إلا بضعة أقدام. وكانت قد رفعت سكين الجزّار عاليًا. اعترضتها بالمسافة التي تفصلها عن الجندي، وهتفت بها أن تتوقف.

أصاب صياحي الجندي بالهلع، فالتفت. كنت أوليه ظهري لكنني كنت أعرف أنه أشهر سلاحه لأنّ سارات تجمّدت حيث تقف، وسقطت السّكين من يدها. بدأت أتخيّل ما سيجري بعدئذ. هذه المرّة سيعتقلونها إلى الأبد. وكان كل ما أرجوه ألا يرديها الجنديّ ورائي قتيلة في مكانها. خيّم صمت. فارقها غضبها وحل مكانه نوع من عدم التصديق. وسمعت الجندي خلفي يهتف اسمها.

«سارات؟»

ثم سمعتها تهتف اسمه. «ماركوس.»

* * *

ركض أحد الباعة إلى الجانب الآخر من الشارع واستدعى جنديًا شماليًا يتمركز هناك. فجاء يجري مشهرًا سلاحه. هتف بسارات: «انبطحي أرضًا!» لكن سارات لم تتحرّك، ولا رفعت عينيها عن الرجل الذي كانت على وشك قتله منذ لحظات. هتف ماركوس بزميله: «لا بأس. إنها صديقة قديمة.» أخفض الجنديّ الآخر سلاحه. بدا غير مقتنع، لكن ماركوس أشار إليه أن يبتعد، ثمّ رمق الّذين باتوا يحدّقون فيهما الآن. «هل ثمّة مزاد صامت يجري الآن أو ما شابه؟» أطلق بعضهم ضحكة مكتومة، تعبيرًا عن الارتياح أكثر من أيّ شيء آخر. أشار ماركوس إلى كنيسة قريبة أثناء عودة الناس إلى أكشاكهم. والتفت متّجهًا إليها.

رمقتني سارات وقالت: «عُد إلى أبويك.»

«هل ستؤذينه؟»

«كلا. لن أؤذِه.»

كان يقف بين المقاعد الخشبية حين دخلت، وقد نزع بندقيته وخوذته. حينئذ أبصرت كامل وجهه. كان الوجه نفسه، البشرة نفسها، الصبيّ نفسه. كان قد كبر بضع بوصات خلال السنوات السبع التي تلت آخر مرّة رأته فيها. لكنه كان ما يزال قصيرًا. فبدا بالطريقة التي ضُفِّفت بها أمتعةُ الجنديّ لتعظُم صدره وتجعل كتفيه أكثر عرضًا، أكثرَ اضطرابًا، وأشدَّ اكتنازًا بالنسبة لطوله. كان يُشبه طفلًا بالطريقة التي كان يرمقها بها. وقد استطرد: «لست. سارات، لست...» لكنها لم تره. بل رأت شوكهولو. رأت قفص شيرلين ومقطورة الاستحمام الضيقة القذرة الممتلئة بالضباب والمكان الّذي تستطيع منه رؤية كل شئ فوق الأشجار. اقتربت منه وعانقته.

همس: «أنت حيّة.» صار يكرر عبارته فلم تدرِ أيهما كان يحاول إقناعه. «أنت حيّة. أنت حيّة.» جلسا معًا فوق مقعد خشبيّ. كانت الكنيسة بسيطة يملؤها التراب، تُشبه محكمة حوشية في حكايات الجنوب القديمة. ثمّة مقاعد بالشرفة فوقهما، لكنها كانت تخلو من الجالسين. كانا بمفردهما.

قالت سارات: «نقلوكم إذًا من سفُن الجمارك.»

«بلى. إنّهم يقومون بكل شئ في الشمال الآن، السفن كلّها لابدّ أن تعبر دولة الشمال أولًا قبل أن تصل إلى هنا. يستهدفون تقليص التهريب.»، «وماذا عنك؟ هل تقطع الطريق أنت الآخر على التهريب؟» فضحك ماركوس.

«لفترة من الوقت، كنت أتصوّر أنهم عينوني هنا لأنهم كانوا يعرفون في سرّهم طوال هذا الفترة أنني جنوبيّ. لكنني أعتقد الآن أنهم عينوني هنا بسبب حجمي الضئيل. يعتقدون أنّ جنود الاتحاد الّذين يطوفون المكان لو كانوا غير مفتولي العضلات مثل مَن ترينهم في إعلانات التجنيد، فإنّ هذا يجعل الناس هنا أقلّ عدائيّة.»، «هذا غير حقيقي بالمرّة. تبًا، لم أرك إلا عشرة ثوانٍ وأردت أن أطعنك.» كان يبتسم، ولمّا ابتسم راودها شعور أنها قد تمشي إلى أبواب الكنيسة وتفتحها لتجد عالمًا مُغايرًا في إنتظارها.

رفع أصابعه وأشار إلى حيث تبدأ ندبة وردية رفيعة فوق عنقها. وتعقّبها نزولًا إلى كتفها. «أنا من أصابك بتلك الندبة.»، «لا.»

«لا يمكنك أن تلبسي هذا الزيّ الرسمي دون أن تعلمي ما يرتكبونه في شوجرلوف يا سارات. لقد بقيتُ فترة طويلة أشيح بوجهي بعيدًا، أصطنعُ الجهل. والحقيقة أنني لم أعبأ يومًا بما يرتكبه كل جانب في حقّ الآخر، لأننا في حالة حرب وربّما كانت هذه هي طبيعة أيّ حرب، تمزيق القواعد. سوى أني أعجز عن الاستمرار في هذا ما دام الأمر يتعلّق بك.» أمسكت يده، وأزاحتها من حيث وضعها فوق كتفها. حاولت أن تتذكّر كيف أصيبت بتلك الندبة، لكن في تلك اللحظة بدت ذاكرتها بعيدة المنال.

«لم تجن عليّ أبدًا. أنت الوحيد على قيد الحياة الّذي لم

يجن عليّ يومًا قط.»

* * *

بدأ ذراعي يتعافى خلال الأسابيع التالية. وسرعان ما أصبحت قادرًا على تحريكها، رغم أنّ الجبيرة كانت يابسة ويكسوها السخام. كنتُ أشمّ على طرف الجبيرة رائحة جلد غير مغسول. كانت رائحة مميزة إلى درجة وجدتها، لأسباب لا أفهمها، جديرة بالإدمان بشكلٍ غريب.

بعد أسبوعين، سمحت لي أمّي باللعب في الخارج. لكن دون رحلات للعب كرة السلّة أو حضور تمارين السباحة في لينكولنتون إلى حين نزْع الجبيرة تمامًا وإعلان الطبيب أن عظامي قد تعافت. كنتُ ألعب ذات صباح في الفناء الخلفي، وأبواي على الجانب الآخر من أرضنا مشغولان بمساومة مقاول جاء كي يستبدل مُحرّك بوابتنا الأماميّة المعطوب. ثمّة مَتالِفُ وأعطالٌ تُصيب آلاتنا الصغيرة التي تدير عالمنا الفحاذي للنهر دائمًا: عواصف تهبّ وتخرّب الألواح الشمسيّة؛ درجات حرارة عالية تتلف دوائر جزّازات العشب ومولدات الكهرباء. لم يخطر ببالي قط، وإلى وقت قريب جِدًا، مدى الإنهاك الّذي لابد يلقاه والداي بسبب حربهما المستمرّة مع الأرض التي تحملهما.

سارات داخل المطبخ تقشّر الذُرة للعشاء. كانت وتيرة إطلالاتها داخل المنزل قد بدأت تزداد شيئًا فشيئًا، وقد تجلس حينًا بيننا في غرفة المعيشة تشاهد التلفاز.

مكثت إلى وقت العشاء بعض المرّات. كان أبواي خلالها يتحفظّان في الكلام سعيًا للتظاهر بأنّ حضورها ليس بالأمر الغريب. لكنني كنت أرى أبي يُجاهد لكبح ابتسامة صغيرة متهوّرة. لابد أنها ظلّت غريبةً عنه -بالنسبة له- لفترة طويلة حتى تذكّر اسمها والعلاقة التي تربطهما. غير أني أظن الآن أنه كان قد بدأ يربط بين المرأة الماثلة أمامه والبنت التي كان يعرفها من قبل. وخلال ذلك أظنّه كان قادرًا، بعض الشيء، على عقد صلة مع الصبيّ الّذي كانَهُ ذات يوم.

رأيتها عبر نافذة المطبخ: الخباء الضخم للهيكل المُقشّر. كانت تعمل بطريقة آلية وعيناها شاردتان، تائهة في فضائها الخاص. لكنها رفعت عينيها بعدئذ، ورأتني، وخرجت. غالبًا ما كانت تتجوّل في أرجاء أرضنا، وتتمشى بين بيوت المشاتل الزجاجيّة. لكن هذه كانت المرّة الأولى التي أراها تقترب فيها من حاجز الأمواج في وضح النهار. كانت تبدو كأنّ النهر يصدّها بطريقة ما غير مرئيّة- لا مرآه، إذ كان يتوارى خلف سور النهر، لكن من خلال صوته، صوت جريان الماء. سألتني: «كيف حال ذراعك؟»، «بخير. ستتعافى خلال أسبوعين وتعود كالجديدة.»، «بل ستتفوّق على الجديدة. العظام التي تُجبر بطريقة صحيحة تعود أقوى.» كان سماع ذلك شيئًا مدهشًا. وسواء كان ما قالته صحيحًا أم لا، فقد صدّقته على الفور. نهضت وسألتها: «هل تريدين رؤية شئ طريف؟»، «بالتأكيد.»، «تعالي إذن.»

أمسكت يدها دون تفكير واصطحبتها إلى مكان قريب من حاجز الأمواج تظلّله شجرة صفصاف دانية. هناك، داخل قفص صغير، كنت أحتفظ بحيواني الأليف. قلت وأنا أشير إلى حيوان جامد متمترس: «هذه سلحفاتي.» بدا أنها نسيتني وهلة من الزمن. ورأيتها تجثو حتى كاد وجهها يلتصق بالقفص، تتفحص العلامات المتناسقة الصفراء فوق صدفتها. قلت وقد أصابتني بالحرج مُمانعةُ حيواني الأليف للقيام بأيّة حركة في حضورها، ولو إظهار رأسه: «إنّه شديد البطء. بعض الأيام لا يتحرّك على الإطلاق.»

«بل هي أنثى.»

سألتها كيف عرفت، لكنها لم تُجب. في النهاية، خرجت عن شرودها ونهضت. فجعلت أنفض التراب عن ركبتي بنطالها. سألتها: «هل كنت سجينة حقًّا؟»، «بلى.»، «لِماذا؟»، «لم يخبروني.»، «كم أمضيت هناك؟»، «سبع سنوات.» كان الرقم مبهمًا بالنسبة لي، كأنّه حياة بأكملها.

سألتني: «ماذا ستفعل حين ينزعون تلك الجبيرة؟»، «سألعب كرة السلّة.» لم أفكر في شيء سواها خلال أسابيع تقريبًا. «فريقي هو الأول، ولو ربحنا باقي مباراياتنا سنتأهل للبطولة في أطلانطا، حيث قرية الألعاب المائيّة وأضخم بركة سباحة في البلاد كلّها.»، «أنت تحبّ السباحة؟» أومأت موافقًا. «أذهب مرتين في الأسبوع لبركة السباحة في لينكولنتون. كنت لأكون

هناك اليوم لولا الجبيرة.»، «وماذا تفعل في بركة سباحة في لينكولنتون والنهر أمامك هنا؟» ضحكتُ. «لا يُمكن السباحة في النهر. هذه سخافة.»

رمقتني كأني قادم من عالم آخر. ثم تحوّلت تلك الحيرة المبهمة إلى شفقة. تجاوزتني متجهة إلى الحاجز النهري، تمشي بخطاها الثقيلة. محنية الجسد تهدّدها ركبتاها بالاستسلام. كانت أمي قد رسمت جداريّة فجّة تُشبه ما يرسمونه في روضات الأطفال، في المكان الّذي كان السدّ يتجاوز فيه فنائنا الخلفي. كان مشهدًا لأطفال على هيئة عِصِيّ يلعبون في الحقل بين أشجار التفّاح تغمرهم شمسٌ مبتسمة. منحت الأطفال أسماء وكانت تتكلّم عنهم معي بين الحين والآخر كأنهم أحياء. ولم أكن أفهم السبب أبدًا.

وقفت سارات بالقرب من الحاجز. كانت سابغة الطول بما يكفي لترى ما وراء الجدار وخلال أشجار الصفصاف. تأمّلت النهر. لم أعِ إلا بعد سنوات عديدة قَدر الجُرأة التي كانت تحاول جمعها، الشيطان الّذي كان عليها دفنه قبل أن تتقدّم خطوة أخرى داخل ماء يجري. التفتت نحوي وقالت: «هيا إذًا. هيا نسبح.»
استدرتُ بشكلٍ غريزي كي أتحقق ما إذا كان أبواي قريبين. كان عبور الحاجز هو أكبر المحاذير المفروضة عليّ. كان الغرقُ، والموتُ مرضًا، وكافّة الوحوش التي تسكن تحذيرات أمّي الصارمة، تنتظر كلّها وراء الجدار. فتجمّدت ساقاي في الأرض. قلت: «لا أستطيع السباحة

في وجود تلك الجبيرة.» لكن لم تكن الجبيرة ما أصابني بالهلع. «بل تستطيع. هيا، لن أدع مكروهًا يُصيبك.»

نزلتْ من فوق الجانب الآخر من الحاجز بتأنٍّ، وسرعان ما انطلقت بين أشجار الصفصاف القريبة من ضفة النهر. ملأتني رؤيتها تبتعد بغتةً وراء الأوراق المتشابكة بالفزع. تصورتها تُلقي بنفسها داخل النهر ولا تعود أبدًا. إذ تبتلعها تلك الأفعى الخضراء حتى نهاية العالم. زال التجمُّد عن ساقيَّ، وغمرتني جُرأة طازجة، فجعلت أسعى خلفها.

رأيتها من فوق الحاجز تخوض داخل الماء. كانت تمشي حافية القدمين بكامل ثيابها. نزلت من فوق الجدار وجريت أسلّط عينيَّ على الأرض أتتبع آثار قدميها فوق تراب الضفة الناعم. ثمّ رفعت عينيَّ لأجد الوحش أمامي. لأول مرّة في حياتي أتواجد أمام النهر مباشرة. أذهلني صوته وحجمه. ضفتاه جامحتان وعريضتان. سرعة التيار واضحة من خلال الغصون والأوراق التي تركض فوق سطحه. لم أرَ من قبل أبدًا ماءً يجري بتلك السرعة.

وقفت في قلب النهر، يصل الماء إلى خصرها، وكان يصنع حلقات حولها. أذكر منظرها آنذاك. تلك النشوة العنيفة التي تجاهد للارتسام على شفتيها. صنع النهر حلقات حول الجسد المصاب، وأثناء جريانه لم يكن يداوي جراحها، بل يكويها. وقفت دون حراك. لوّحتْ لها

كي تقترب من الضفة، لكن لم يبد عليها أنها رأتني على الإطلاق. كانت تتنفس بصعوبة رغم أنها لم تجرِ. لاحت في تلك اللحظة مثل طفلة، عيناها مفتوحتان على اتساعهما، غير مصدقة. ثمّ انتبهت إلى وجودي: كانت مذعورة.

بعدها غابت. غمرت نفسها كليًا داخل النهر كأنّ سندانًا يشدها. وحين طلعت للسطح كان قميصها الفضفاض يلتصق بجلدها وتألقت حبّات من نور فوق رأسها الحليق. قالت: «تعال إلى هنا.» هززت رأسي. «أنا خائف.»، «رائع. لديك الآن ما تستطيع قتله. تعال إلى هنا.»

طأطأت رأسي فوق النهر. كل ما كنت أعرفه عن العالم أحسست به يبتعد بغتة. أبصرت وراء النهر جدارًا عاليًا تحيطه أسلاك شائكة تمتد بعيدًا إلى الغرب والشرق، وثمّة جنود يحرسونه. ورغم عجزي عن تبيّن ماهية شعوري حتى وقت قريب، غير أني كنت أعرف آنذاك أنّ الجزء الأكبر من العالم كان على هذه الشاكلة: جامحًا؛ غاشمًا؛ بِكرًا. تقدمت داخل النهر. بعد بضع خطوات أحسست بالأرضية المصقولة الناعمة تبتعد عن قدميّ، وحملني التيار. صرخت، لكن سرعان ما أحسست بيديها فوقي. جعلتني أطفو وحملتني إلى الداخل أكثر. كان صوت جريان الماء يُشبه مليون فم غير مرئي تهمس في نفس الوقت. كان الماء نابضًا بالحياة، عرفت ذلك من جريانه. آنذاك نظرت إليها، وأبصرت شيئًا لم أره من

قبل قط. كانت عمتي تضحك.

مقتطف مِن:

مشروع أرشيف الحرب الأهلية-

حفل يوم الوحدة الجديدة

رسالة دعوة

(منقّحة/ غير سريّة)

الحاكم تيموثي كومبس.

391 وست بيسيز فيري روود.

أطلانطا. ولاية جورجيا 30305.

عزيزي الحاكم كومبس،

بناءً على توجيهات الرئيس جوزيف ويلاند الابن، يسرّني أن أقدّم لك بشكلٍ رسميّ دعوة لحضور قِمّة الوحدة القوميّة الجديدة في كولومبس بولاية أوهايو، يوم الجمعة الموافق الثالث من يوليو/تموز 2093.

وكما أعلن الرئيس من قبل، ستطوي القِمّة صفحة فصل أسود من تاريخ أمّتنا العظيمة. حيث يجتمع زعماء مدنيّون، أنت من بينهم، من كافّة أرجاء الاتحاد في كولومبس لإعلان ما كان بدهِيًا منذ نشأة هذه البلاد، وهو أنّها لن تكون قابلة للتقسيم أبدًا.

لأسباب أمنيّة ولوجستية، سيتم حظر السفر إلى كولومبس من ولايات عِدّة، بما فيهم جورجيا، خلال الشهور التي تسبق القمة مباشرة وتليها. كما يُرجى الردّ في أقرب وقتٍ ممكن بشأن تفاصيل فريقك المرافق (أربعة أفراد كحدّ أقصى) وذلك كي يتوفّر لديوان السلام الوقت الكافي للقيام بالإجراءات الأمنية وإصدار

تصاريح السفر المطلوبة.

أيها الحاكم، إنه يومٌ مشهود في اتحادنا. يوم للاحتفال ببسالة الأمريكيين الّذين حاربوا بشجاعة دفاعًا عمّا آمنوا به. لكنه أيضًا يوم نضع فيه سنوات حزينة وراء ظهورنا ونبدأ فيه العمل الصعب والحتمي من أجل التعافي. يوم البهجة وإعادة البناء. إنني أتطلّع للقائك وكل أفراد الوفد الآخرين من ولاية جورجيا العظيمة خلال الاحتفال الرسمي بالوحدة الجديدة والعرض العسكري المهيب الذي يليه.

المُخلص،

مالكولم كيزين.

نائب سكرتير مدير شئون الجنوب

ديوان السلام. وزارة الدفاع.

وان كولومبس كومونز

كولومبس، ولاية أوهايو 43215.

الفصل الخامس عشر

هبّ إعصارُ سكُوث أواخر مايو/أيار فدمّر لينكولنتون. كان إعصارًا محدودًا لكنه قوي. ورغم أنه فوّتَ بيتنا، غير أنه أخلّ بروتيننا اليومي. أصيب المركز الاجتماعي والمدرسة الإبتدائية بأضرار جمّة، فوجدتُ نفسي مُحاصرًا داخل المزرعة. وقد راعني حظّي الحَسَن، إذْ توافر لي مزيد من الوقت برفقة سارات.

صادفتها يومًا داخل السقيفة تُثبت الألواح بمسامير. كان أبواي قد رحلا في الليلة السابقة لحضور حفل يُقيمه الذّراعُ الوليدُ لأنصار الوحدة الجديدة الجُدُد، الذين كانوا في تلك الأيام في صدارة من يتحدثون عن السّلام، كأنّ السلام يعني النصر. قرّر أبواي قضاء الليلة في أطلانطا، وانفردتُ أنا وعمتي بالمزرعة. كانت جاثية إلى جوار المكان الّذي انتزعت منه الألواح ذات يوم كي تكشف الأرضيّة. وقد وضعت إلى جانبها كومة حديثة من ألواح خشب الأرز المقلّدة. سألتها: «ماذا تفعلين؟»، «أعيد الألواح كما كانت. فلو نزعت مزيدًا من الخشب من تلك السقيفة، ستنهار على الفور.»، «هل أستطيع المساعدة.»، «بالتأكيد.» وأشارت لي أن أقترب. جلستُ بين ركبتيها فوضعت المطرقة في يدي وثبّتتْ المسمار في مكانه. «دقّة خفيفة لتثبيته. ودقّة قوية لكبسه.»

حاولت. لكن فشلت في الهبوط بالمطرقة بالقوة الكافية؛ ذلك أنني كنتُ أخشى أن أفلت المسمار وأهوي فوق أصابعها. أخيرًا، ضربت المسمار بقوة تكفي لكبسه، لكنه

كان مائلًا فانفلق لوح الخشب. هتفت عمتي: «رائع، رائع. على الأقل نجحت في كبسه.» جعلتني أتمرّن على لوح تالف إلى أن أتقنت الطَّرق. وخلال نصف ساعة ثبَّتُّ اللوح في الأرضيّة بمسامير كثيرة، وصار ما من قوة في الدنيا تستطيع تحريكه. وأشرق وجهي بعمل يدي.

غطّينا نصف فراغ الأرضية قبل أن تستنفد حرارة الظَّهيرة العالية قِواي. اقترحت أن ننزل النهر لنتخفّف قليلًا. وحملتني بسهولة ثم وضعتني فوق كتفيها. خرجنا ناحية طرف أرضنا الشرقي ثم مشينا فوق السدّ حتى بلغنا مكان مواجهة أشجار الصفصاف النهر. توقّفنا حيث باعد شاطئ ناعم من التراب بين الأشجار. جلسنا بعض الوقت حتى تلتقط عمتي أنفاسها من المسافة الطويلة. دفعت يدي عميقًا داخل الأرض. كنتُ قد عرفت، خلال المرات الأولى التي خرجنا فيها إلى النهر، أنها تحب السباحة عارية. أوّل مرّة، خلعت ثيابها داخل الماء؛ إذ كانت تخشى أن يصيبني مرأى ندباتها بالفزع. لكن ندباتها لم تزعجني، فقد رأيتها من قبل حين تلصّصت عليها تلك الليلة بعد وصولها إلى منزلنا بوقت قصير. لذلك تجرّدتُ من ثيابي أنا الآخر، وبدءًا من ذلك اليوم وحتى الآن بدا لي اضطرار أيّ شخص لنزول الماء بثيابه كاملة أمرًا غير معقول.

سبحنا تحت ظل أشجار الصفصاف وجدار الحَجْر الصحي. كنتُ قد سألتها خلال واحدة من مرّاتنا الأولى التي خرجنا فيها عن سبب وجود الجدار. وقالت أنّ

الناس على الجانب الآخر مصابون بعدوى مرض ما، وأنّ الجدار مُشيد لوقاية الآخرين من هذا المرض. سألتها عن ماهية المرض. فقالت أنه من النوع الّذي لا تبرأ منه أبدًا. النوع الّذي لا حيلة لك معه إلا تمريره إلى أطفالك، وأطفال أطفالك. كان حارس في الجانب الشرقيّ يراقبنا من برج حراسة. لوّحت له لكنه لم يرد التحيّة. كان الحُرّاس يخيفونني بادئ الأمر، لكن عمّتي قالت لي إنهم ليسوا بشرًا، بل زوج من العيون العاجزة عن الإيذاء أو تقديم المساعدة لأيّ شخص أو أيّ شيء. كنتُ أفكّر فيهم الآن بالطريقة نفسها التي كنت أفكّر بها في الأطفال العِصيّ الذين كانت ترسمهم أمّي فوق حاجز الأمواج، وما عدت أخاف منهم قطّ.

تجفّفنا أسفل الشمس، عاريين إلى جانب الضفّة. كان جسدها إلى الآن يصيبني بالذهول: تلك الغُدران الغريبة التي تغطي الجسد المليء بالندوب المنتشرة فوق ذراعيها وكتفيها، مطفأة وأكثر شحوبًا من باقي جسدها؛ تهدّل ثدياها وبطنها؛ ونعومة رأسها المحلوقة. كنتُ أفكّر أنه ما من قوة قادرة على إيذائنا ما دامت موجودة. لا النهر، ولا الجدار، ولا ما وراء الجدار. سألتها: «هل دانا أختك؟» كان السؤال يُثقلُ دواخلي طوال أسابيع، منذ سمعتها تنطق اسم دانا أثناء حديثها مع أبي ذات ليلة. كنتُ أعرف أنّ المرأة التي تظهر في واحدة من الصور المعلّقة فوق جدار الدّرَج كانت عمّتي الأخرى، لكن لا أبي ولا أمّي قالا لي شيئًا يومًا عنها.

بدا أنّ السؤال قد باغتها.

«هذا صحيح. أختي وأخت أبيك.»، «هل تعيش في أطلانطا؟»، «كلا. لقد ماتت.»، «وكيف ماتت؟»، «هل تعرف الطائرات بدون طيّار التي تحلّق هنا بين الحين والآخر؟»، «بالتأكيد.»، «حسنًا، لم تعد محمّلة بالقذائف الآن. لا تفعل شيئًا سوى التحليق حتى تتلف ألواحها الشمسية أو تتحطّم أجنحتها فتسقط في أحد الحقول. لكن قبل أن تولد، كانت محمّلةً بالقذائف وتُلقي القنابل من بطونها.»

بدا شيئًا سخيفًا، طيورٌ تلقي قنابل من بطونها؟ لكن ذلك شأن الدّيدان في باطن الأرض؛ أو السّمك ذي السوالف؛ أو المُدن الساحليّة القديمة التي باتت مطمورة الآن أسفل البحر؛ صدّقتُ ذلك كما صدّقتُ كُلّ شيء مضى. صدّقته لأنها هي من قالت أنه كان موجودًا. «تعرف، إنّها تعيش هنا الآن، أختي.» وأشارت سارات صوب الماء، وأردفت: «بعد أن ماتت، بدلًا من دفنها في الأرض، دفنتُها في النهر.»، «لماذا؟»، «أردتُ ألّا تكفّ عن الحركة.»، «وحين أموت، هل ستدفنيني في النهر؟»

أطلقت عمّتي ضحكة مكتومة، وقالت: «لن تموت قبل فترة طويلة. سأكون قد لقيت حتفي قبلئذ.»، «وماذا إن متّ أنتِ؟ هل ترغبين أن أدفنك في النهر؟» أخرسها كلامي، كأنّها لم تفكّر في ذلك قط. ثم ابتسمت قائلة: «بلى. سأكون ممتنة لك إن فعلت.»

مِلْتُ على ذراعها وأحطته بذراعي. كانت مِلكي وكنت

أحبها.

* * *

كان ثمّة رجل عند البوابة حين عدنا من النهر. كان غريبًا بالنسبة لي، يلبس حلّة أنيقة وربطة عنق خضراء يعودان لأيام ما قبل الحرب، واقفًا خارج البوابة مباشرة، وقد ركن سيارته في الممرّ وراح يتفحص المنزل. صعدنا الطريق كي نلقاه. لم تتبين عينا عمّتي التالفتان الرجل الغريب إلا بعد أن اقتربنا جدًا من البوابة. وقفت مدّة طويلة تحملق فيه بوجه خال من التعبير. ثم قالت: «ادخل يا بنيامين. وسأتبعك على الفور.»

سألتها عن هويّة الرجل، لكنها أمرتني بالدخول مرّة أخرى بنبرة عرفت منها أنه من الأفضل ألا أطرح مزيدًا من الأسئلة. فتحت البوابة، وراحت تتفحص الرجل الواقف أمامها، الرجل الّذي لم تره منذ سنوات عديدة. كان العمر قد تقدم به، لكنه كان ما يزال يحافظ على صحته. لم يتبدّل الشعر الفضيّ ولا الشارب الكثّ الأسود الّذي زحف عليه الشيب الآن أيضًا عن آخر مرّة رأته فيها بين أطلال ليك سنكلير قبل سنوات طويلة، إلا قليلًا. قالت: «مرحبًا يا جو. كنت أعتقد أنه قد مضى على موتك فترة طويلة.»

«مرحبًا يا سارات.» قال جو، فتذكّرت على الفور لكنته البعيدة. «أعتذر لأنني لم أقم بزيارتك قبل الآن. لم أكن أعلم أنهم أطلقوا سراحك.» دفعته إلى السقيفة. كنت

أراقبهما من نافذة غرفة نومي على أمل أن ألتقط أي شيء مما يقولانه. لكنهما سارا في صمت وأغلقا الباب خلفهما.

لم أعرف ما قاله لها إلا لاحقًا حين قرأته في مذكراتها. لكن الأوان كان قد فات آنئذٍ.

***

جلسا فوق مقعدين إلى جانب طاولة العمل. أدركَت أنه لم يتغيَر، الهالة السَاحرة نفسها التي كانت تحيطه خلال لقاءاتهما السريّة القديمة. قال جو مُشيرًا صوب المنزل:

«صَبيٌ ظريف. هل هو...»

«إنّه ابن أخي.»

«فهمت. كيف حالك يا سارات؟»

«ما زلت حيّة.»

«أودّ أن أقول، في المقام الأول، أنني لم أكن أعرف ما فعله ألبرت جينز. كان قد أرسل ابنته وأمّها كي تعيشا في امبراطوريّة البوعزيزي، هكذا تظلان آمنتين خلال الحرب، وقد علمت أنّ الذين حققوا معه قالوا له أنّهم عرفوا مكان تواجدها، واستغلوا ذلك للتأثير عليه. لم يكن جبانًا حين عرفته يا سارات، وأنا...»

«إيّاك. لم أعد أعبأ.»

هزّ جو رأسه موافقًا. رأت أنه كان يقوم الآن بما يقوم به كل من عرفتهم قبل سجنها. كان يحملق سعيًا للتوفيق بين هيئتها وحجمها ومصابها الآن وبين صورة المراهقة الطويلة الضامرة التي عرفها ذات يوم. لكنه قال أخيرًا:

«أعرف ما لابد أنهم فعلوه بك في ذلك المكان يا سارات. وأنا آسف حقًا لذلك.»، «لم تأت إلى هنا كي تخبرني هذا فقط.»، «هذا صحيح. أعرف أنك تمكّنت من لقاء أحد ساجنيك القدامى. كما أعرف أنك تمكّنت من اتخاذ بعض التدابير الانتقامية.» ضحكت سارات وردّدت: «انتقام. انتقام. انتقام. لقد آذيت رجلًا واحدًا. هل تظن أنّ رجلًا واحدًا آذاني؟»، «لو تشائي أستطيع أن أطلب من معارفي البحث عن آخرين. كثير من الحرّاس الّذين كانوا متمركزين في شوجرلوف أثناء احتجازك هناك عادوا الآن إلى البرّ. ربّما...»

«ولماذ السّعي وراءهم هكذا ؟ لماذا لا توقفهم في في طابور من أجلي -هل تستطيع ذلك يا جو؟- أن ترّض كل من جعلني على ما أنا عليه الآن في طابور: مَن قتلوا أبي؛ من قتلوا أختي؛ من قتلوا أمّي؛ من آذوا أخي بطريقة لا يمكن التعافي منها؛ من أخرجونا من ديارنا؛ من ذبحوا كل هؤلاء الناس في بيشنس. ضعهم أمامي جميعًا في طابور يا جو. وسآخذ ثأري.»

«وعلى فرض أنّني أستطيع؟»

أشرق شعاع من نور خافت من بين الشقوق في الألواح.

«قل ما ترمي إليه.»

«على مدى سنوات عديدة وثّقت علاقة مع شابٍ في الشمال. رجل يُدعى تاسك، وهو عالمٌ كرّس حياته للعثور على علاجٍ للمرض الّذي استعملته حكومة الشمال ذات يوم لإسكات الناس في كارولينا الجنوبيّة. ورغم

أنه قضى سنوات طويلة في محاولة الاكتشاف، إلا أنه فشل، لكن أثناء هذا اختلق شيئًا أسوأ بكثير، اختلق مرضًا آخر يقدر على محو مدنٍ وأممٍ بأكملها. إنه رجل مُحطَّم يا سارات، وقد نجحتُ في عقد اتفاق معه، مقابل الشيء الّذي اختلقه، عرضتُ عليه ملاذًا في بلادي، بعيدًا عن الحرب وكل ما كان مضطرًا للمعاناة منه.»

«سيُقام حفل الوحدة الجديدة خلال شهور. ستنتهي الحرب، وبصرف النظر عمّا سيقوله سياسيو الجنوب الجُدد، فإنّ الشمال هو من ربح. لكن إن تسلّل شخص إلى كولومبس وأطلق هذا المرض، فإنّ موازين الحرب ستتغيّر. سيتغيّر الفائز، ويتغيّر كل شيء. أريد أن أعرف ما إذا كنت ترغبين في أن تكوني هذا الشخص يا سارات.» خيّم صمتٌ على الغرفة، وتحوّل الضوء ليرفع درجة حرارة الأرض التي لا تني مكشوفة. كان ينتظر ردّها. «لست في حاجة لي لتنفيذ تلك المهمّة.»، «هذا صحيح. أستطيع أن أجعل أحد معارفي في الشمال يقوم بها. وأظنّ أنّ تنفيذها سيكون أسهل هكذا. ذلك أنّ للشماليين آلافًا من الحرّاس الجدد الّذين يخفرون المعابر الحدوديّة، وأولئك الّذين كنت على علاقة بهم رحلوا. على أنّي أرغب في عرض هذه المهمّة عليك أولًا، لأني أدرك كم قاتلت وكم عانيت. أنت ترغبين في شيء بحجم ثأرك يا سارات؟ هذا هو، في ظنّي، ما في حجم ما لك من ثأر.»

سمعا صوتًا عابرًا يتردد في الخارج. كان عاملًا ينقل تربة طازجة إلى المشاتل. ثم عاد الصمت من جديد.

سألته عمّتي: «قل لي اسمك الحقيقي.»، «اسمي الحقيقي هو يوسف بن راشد. أنا ابن أحد المهاجرين من بلادٍ كانت ذات يوم تُسمّى سوريا. فرّ أبواي إلى مصر بعد نهب دمشق في نهاية حرب سوريا الأهليّة. أبلغ من العمر الآن سبعة وستين عامًا، وأعمل لدى حكومة امبراطوريّة البوعزيزي.»

«يوسف.» راحت سارات تكرر الاسم، مفسحة للسانها مجالًا كي يخطف كل مقطع منه. «يو-سف.» سألته: «أنت لا تعبأ حقًّا بهوية من يفوز بالحرب؟»، «لا. لا يهمّني.»، «لماذا إذًا؟ لماذا تتورّط في حرب كهذه؟»، «لقد جئت من مكان جديد يا سارات. لقد أقام شعبي امبراطوريّة. وهي ما تزال ناشئة الآن، لكننا نعتزم أن نصير الامبراطوريّة الأقوى في العالم. وكي يتمّ هذا، لابد أن تنهار الامبراطوريات الأخرى كافّة. أعتقد أنك تعين الآن أنّ الأوضاع لو كانت مقلوبة، أي لو كان الجنوب هو من يوشك على النصر، ربّما لكنت أجري هذا النقاش في بيتسبرج أو كولومبس. لا أريد أن أكذب عليك يا سارات: هذه مسألة مصالح، لا شيء أكثر.»

ابتسمت سارات للفكرة. «لا يُمكنك أن تكتفي بتركنا يقتل كل مِنا الآخر أثناء السلام، أليس كذلك؟»، «هوّني عليك. كلٌّ يخوض حربًا أمريكيّة.» سكتا، وخلال الصمت تذكّرت سارات شيئًا قاله ألبرت جينز. كان سألها

ذات مرّة عمّ إذا كانت تعرف كيف صارت كلمة أحمر اختزالًا للجنوب. قالت يومها إنها السياسة، شيء يتعلّق بأولئك الذين يصوّتون للحزب الجمهوري أيام كانت البلاد كلّها دولة واحدة. لكن جينز قال إنّ التاريخ أبعد من ذلك بكثير، بل أبعد من تاريخ البلاد نفسها. قال إنّه شيء يتعلّق بالتراب: ثمّة معدن في أرض الجنوب يجعل التراب أحمر. وقال إننا حين نقطّر كل ما بالأرض من منافع، كل المغذيات التي تحتاجها النبتة كي تنمو، فإنّ آخر ما يتبقّى في الأرض هو ذلك المعدن الّذي يجعل التراب أحمر.

تساءلت الآن ما إذا كان ذلك هو الشيء الصادق الوحيد الّذي قاله يومًا لها. سألت يوسف: «هذا المرض سيقتل كل من يلمسه، أليس كذلك؟»، «أعدك.»، «لن أعود إلى ذلك السجن أبدًا. بصرف النظر عمّا سيجري، لن أعود أبدًا.»، «أعدك.» نهضت من فوق المقعد واتجهت إلى درفتي الباب وفتحتهما. تدفّق ضوء النهار كحبات ماء إلى داخل السقيفة. رمقت المنزل الجديد الّذي قام مكان المنزل القديم، والأشجار الذابلة والنهر حبيس الجدران. كان العالم من حولها يهتز جزاء السخونة. «هل أصابك الضجر يومًا من هذه البلاد يا يوسف؟ هل تمنيت أن تُنهي مهمتك هنا وتعود إلى ديارك، إلى أسرتك، إلى دنياك التي تعرفها؟»، «بالطبع. أرجو أن أعود إلى دياري في أقرب وقت.»، «كذلك أنا.»

* * *

عادت تنعزل عنّا منذ ذلك الحين. من جديد، راحت تبني الحواجز حول نفسها داخل تلك السقيفة، تمامًا كما كانت حين جاءت أوّل الأمر. لكن هذه المرة كان الباب موصدًا ومقفلًا، فلم أعد أستطيع أن أرى ما في الداخل. كنتُ أستميتُ سعيًا للوصول إليها، فجعلت أقضي الساعات جاثيًا أمام جدار السقيفة الخلفي ألصق أذني بالألواح منصتًا. لكن كل ما سمعته كان خربشات قلم قديم فوق أوراق.

كنتُ أتمدّد ساهرًا طوال الليل أتساءل عمّ فعلته فتسبّب في نفورها مِني. هل خيبتُ رجاءها؟ هل لأنّي أخفقت في هزيمة التيار مرّات كثيرة؟ أم لأني كنت أضايقها بأسئلتي التي لا تنتهي؟ هل أصيبها بالضجر؟ خربشتُ يائسًا كلمة *آسف* فوق صفحة بيضاء ودفعتها من تحت الباب. لكنها لم تُجب.

* * *

في يوم سبت من منتصف يونيو/حزيران، أثناء حضور أبويّ معرضًا تجاريًا للمزارعين في مونتجمري، تركت سارات المنزل طوال النهار. كنا نحتفظ بمركبة قديمة مستعملة أمام المنزل من أجل الطوارئ، فأخذتها.

اتجهت إلى السوق في لينكولنتون. لم يكن مزدحمًا كالعادة؛ إذ كانت البلدة ما تزال تتجاوز آخر ما خلّفه إعصار سكوت من خسائر. مشت بمحاذاة الأكشاك نصف الفارغة حتى آخر الطريق، حيث وقف ماركوس يراقب. دخلا كنيسة قريبة دون تبادل حرفٍ واحد. لكن هذه

المرّة كانت هي في المقدمة، ثم تبعها هو. هتف ماركوس: «كم أنا سعيد أنك جئت اليوم. هل تعرفين ما سمعته للتوّ من أحد رجال الجنوب الحرّ؟ هل تذكرين ذلك الرجل العجوز برنس وندل، الّذي كان يدير مقهى هناك في قلب المحيط؟ سيطلقون اسمه على أحد شوارع أطلانطا. أظنّ أنّ واحدة من لجان الوحدة الجديدة التحضيريّة تلك قد سمعت عنه، فأصدروا هذا القرار. أعتقد أنه من الرائع تكريم رجل عمل مع كلا الطرفين. أعتقد أنك ستتحمسين...»

«اجلس. أريد الحديث معك.» جلس ماركوس إلى جوارها فوق مقعد خشبي، وقال: «بالتأكيد.» ناولت عمّتي صديقها ورقة صغيرة مطوية كُتب فيها اسم ومعلومات الاتصال برجلٍ ما. «ثمّة رجل أعرفه. أريد أن تتكلّم معه. يُمكنه ترتيب طريقة تغادر بها هذا المكان، تترك بها كل هذا، كي تبدأ حياة جديدة على الجانب الآخر من العالم.» كان ماركوس يُحدّق في الورقة تتملّكه الحيرة. «لكن كل هذا في طريقه إلى أن ينتهي يا سارات. خلال بضعة شهور ستضع الحرب أوزارها، وسنعود دولة واحدة من جديد. آنئذ أقسمُ لك أنك لن تصدقي مدى السرعة التي سينسى بها الناس كل ما جرى.»

هزّت عمّتي رأسها قائلة: «أرجوك يا ماركوس. اذهب وتكلّم معه.» التقط ماركوس الورقة منها. «لقد انتهت الحرب يا سارات.» لكن هذه المرّة لم يبد أنه يحاول

طمأنتها. «أعرف يا ماركوس.» قالت وهي تقبله، ثم نهضت. «أعرف.»

* * *

غادرت لينكولنتون واتجهت غربًا صوب ضواحي أطلانطا الخارجية في ظلال المصانع والمزارع الرأسية. ذهبت إلى *ستونماونتين* في ضاحية المدينة الشرقية. بالقرب من عشش القرية القديمة الواطئة المتداعية، انتصبت واجهة مخزن عادية مبنية بالطوب الأحمر. ها هُنا في هذا العقار المتواضع مقر اتحاد المتمردين. لم تجد في المكتب حين وصلت إلا آدم براج الابن وتروف. دخلت مساحة ضيقة، كانت من قبل مطعمًا أو مخبزًا، لكنها أوسع بعض الشيء. المقاعد مقلوبة رأسًا على عقب فوق الطاولات، عدا حيث جلس براج يُعدّ قدحًا من قهوة.

نهض حين رآها، هاتفًا: «مرحبًا بك. تُرى من كان يخطر بباله أنّ سارات شستنت العظيمة قد تأتي لزيارتنا في دارنا الجديدة.» ودعاها للجلوس فوق الكرسي المقابل له على الطاولة. بدا المكانُ خانقًا رغم نزع ماكينة النّقد القديمة ولوح الاستقبال. كانت الجدران مبطّنة بألواح خشبية قاتمة رخيصة ومزيّنة بملصقات عتيقة تحثّ القُرّاء أن: «اشرب كوكاكولا.»

وقف تروف في آخر الغرفة، بالقرب من المكان الّذي ثُفسح فيه المقاعد والطاولات متسعًا لأكوام من الصناديق المنقولة المغلقة. لم تتعرّف عليه خلال المدّة

الأولى التي رأته فيها عقب إطلاق سراحها من شوجرلوف، يوم أخذوها للقاء سجّانها القديم. لكنه بدا مألوفًا بالنسبة لها الآن، نحيلًا مثل أخيه الأكبر. عيناه ميتتان وتحملان اتهامًا. قال براج: «هل تصدقين أن ينتهي بنا الحال إلى هنا؟ مطرودين إلى القفار، وقد تبرّأ أهلنا منّا. هل تعرفين ماذا وضعوا داخل المبنى الّذي كُنّا فيه، المبنى الموجود في وسط المدينة تحت الطريق السريع، بعد أن أجبرونا على الرحيل؟ المكتب الجديد للجنة الاحتفال بالوحدة الجديدة.» ضحك وهزّ رأسه ثم أردف: «لديهم مبنى كامل يكتظ بالبشر المسؤولين عن تحديد أين تُعلّق البالونات وأين يتم التلويح بالأيدي احتفالًا بيوم استسلامنا. ربّاه! ليت أبي كان حيًا ليرى ذلك. لكان ما يراه يقتل ذلك اللقيط العجوز مرّتين.»

قالت عفتي: «أنا في حاجة إليك.» أشار براج لتروف أن يُعدّ مزيدًا من القهوة. وأطاعه الشاب وعيناه ما تزالان مسلطتين على عفتي. «اذكري ما تريدين. لا نملك الكثير، لكن كل ما لدينا أقدمه لك.»، «إن قلت لك أنني أستطيع أن أغير مجريات الأحداث، أن أقتل كل من تبقّى من أولئك الّذين يديرون دولة الشمال، أن أمحوهم، أن أجعلهم لا يرون الشمس لمائة عام، هل تصدقني؟»، «بالتأكيد أصدقك. ما كنت لأصدق أي شخص آخر يقول ذلك غيرك، أصدقك.» وضع تروف قدح قهوة فوق الطاولة ثم عاد إلى مكانه يراقب. «أريد أن توفّر لي وسيلة أعبر بها الحدود. أريد أن أكون في

كولومبس أثناء الاحتفال بالوحدة الجديدة.»
صاح براج: «ربّاه يا سارات، هذا مُحال. لقد عيّنوا رجالًا لحراسة خطّ تينيسي قبل هذا الحفل اللعين يفوق عددهم عددَ ما عيّنوه خلال ذروة الحرب. صار كل معبر حصنًا، وهم لا يسمحون لأي جنوبي بالمرور، وقد يستمر هذا حتى نهاية العام.»، «وماذا عن الأنفاق؟ تلك التي كنّا نزحف خلالها كي نقترب من هافواي برانش؟»، «لقد هدموا تلك الأنفاق منذ زمن بعيد يا سارات. لم يعد لهذا العالم وجود. اللعنة، عدا تروف الموجود هنا، ليس معي إلا ثلاثة رجال، أو ربّما أربعة. لقد أضعفوا شعبنا، الجميع منهكون وجائعون وقد فقدوا إرادة الحرب. شاهدي بنفسك ما أقول أثناء رجوعك للبيت، امشِ في شوارع أطلانطا وانظري إلى كل اليافطات التي علّقها الجنوب الحزّ: 'سلام وكرامة'، 'نحترمُ ماضينا، ونضمن أمن مستقبلنا'. كل ذلك الخراء يلوكه الناس. هل تعرفين أنهم لم يعودوا يطلقوا على أنفسهم دولة الجنوب الحرّة؟ لا يستعملون إلا الحروف الأولى، ولا يتهجّون العبارة كاملة أبدًا. كأنّ الحروف لا تعني شيئًا. جُبنهم يرفرف حولهم مثل راية لعينة...»
هنا قال تروف: «أعرف طريقًا. أعرف كيف تصلين إلى كولومبس.» التزم براج الصمت، فتوجّهت سارات إلى تروف بالسؤال: «كيف؟» اقترب تروف من الطاولة، واستطرد: «ثمّة سيارة طبيّة تسافر إلى الشمال بناءً على اتفاق عقدته مصحّة القديس يوسف مع مستشفى

في ليكسنجتون. ينقلون عددًا من المرضى لا يتعدّى الاثني عشر مريضًا في الأيّام الأولى من كل بضعة أشهر، ويُبقون على ذلك طيّ الكتمان. على أنّي أعرف المسؤول عن هذه العملية؛ إذ قضى هو وأخي بعض الوقت معًا على خطّ تينيسي. وهو يدين لأخي بمعروف منذ ذلك الحين، ولم يبق أحد سواي كي يرده له. سأقول له أنّ لديّ صديقة ستموت إذا لم تتلق علاجها في الشمال. سيستبعد مريضًا ويضعك مكانه، من ثمّ تعبرين الحدود، ومن هناك تشقين طريقك إلى كولومبس.»

كان براج يُحدّق في مساعده مصعوقًا. ثم التفت إلى عقتي قائلًا: «لكن إذا كنت ستقتلين حقًّا كل هذا العدد الّذي تزعمينه، فهذا يعني أنّك ستحملين شيئًا معك: سلاحًا؛ أو قنبلة؛ أو ما شابه. وكونها سيارة طبيّة لا يعني أنّ الشماليين لن يفتشوها.»، «لن يعثروا على ما سأحمله معي. يُمكنهم تفتيشي قدر ما يشاءون، لن يعثروا على شيء.»

قال تروف: «لديّ شرطٌ واحد.»

سألته عقتي: «ما هو؟»

«أن أذهب معك.»

«لكن ما سأستخدمه لا يُمكنك تسديده. إنّه مرض، مرض سيصيب كل الموجودين في كولومبس. لن يعود أحد من هذه الرحلة.»، «سأذهب معك.»، «لا.»

فقال براج: «دعيه يا سارات. لقد ظل هنا ينخره

السوس طوال عشر سنوات يدعو الله أن يلحق بأسرته. امنحيه ما يريد. لديك دَينٌ لأخيه، مثل ما لدى ذلك الرجل من القديس يوسف.»، «لا أدين لأحد بشيء.» تنهد براج وحك صدغه: «اسمحي لي أن أطرح عليك بعض الأسئلة يا سارات. خلال تلك الفترة التي كانوا يستجوبونك فيها في شوجرلوف، هل سألوكِ يومًا عن أي علاقة تربطك بمقتل ذلك الجنرال الشمالي، ويلاند؟»

«لا.»

«لكن هذا هو الشئ الوحيد الّذي فعلتِه حقًا. كل تلك الاتهامات التي لابد وجهوها إليكِ، ربما لم يكن لديك أدنى ما يُفيدهم عنها. رغم ذلك لم يسألوكِ عن الرجل الّذي قتلتِه تحديدًا. لِم برأيك كان هذا؟»، «لا أدري.»، «سأقولك لك السبب. لم يسألوكِ عن ذلك لأنهم بعدما ألقوا القبض عليك بيومين، اتجه ذلك الصبي أتيك مباشرة إلى حرّاس الحدود الشماليين في *هاروجيت* وسلّم نفسه. قال لهم أنه هو من قتل الجنرال، وجعلهم يصدقونه. روا لهم كل التفاصيل التي كان يعرفها من خلال الإنصات إلى أحاديثنا، باستثناء تقديم نفسه بوصفه القاتل. هكذا احتجزوه في شوجرلوف هو الآخر، في مكان اسمه معسكر *صانداي* حيث يعتقلون مَن لا يرغبون أن ينالوا حتى رحمة القتل. لذلك لم يسألوكِ عن الشيء الوحيد الّذي فعلتِه يا سارات. لهذا السبب أنت حرّة.»

قالت عمتي: «كان هذا خياره. لم أطلب منه أن يفعله

أبدًا.»، «لا أحد طلب منه القيام بما فعل. لكن هذا لا يغيّر الحقيقة. كما لا يُغيّر حقيقة أنك على قيد الحياة وتجلسين هنا الآن بسبب ما فعله.» وأشار براج إلى تروف: «أعرف أنك واجهت جحيمًا يا سارات. وأعرف أنك قاسيت أهوالًا كما أعرف أنك كنت امرأة مختلفة من *قبل*. لكن هؤلاء الأولاد لم يكن لديهم من *قبل*. بل كانوا موتى حتى قبل أن يحصلوا على لقمة عيش واحدة. أعطه ما يرغب. دعيه يلحق بأخوته.»

وقف تروف أمام الطاولة. عيناه زرقاوان وثابتتان، ووجهه جامد.

قالت عمتي: «نفّذ ما قلت. وستأتي معي.» فغادر آخر السولت ليك بويز المتجرَ المبنيّ بالطوب الأحمر. ووقف براج. اتجه إلى آخر الغرفة حيث تتكدّس الصناديق المنقولة المقفلة، ثمّ راح يفتّش فيها عن شيء ما قائلًا: «تعرفين، لطالما كنت أتساءل أيّ الطُرق استخدَمَها معك.»

«تقصد من؟»

«جينز، حين كان يحاول تجنيدك. كانت لديه كل تلك الخطط المختلفة للهجوم، كما تعرفين، حين كان يسعى للزج بأحدٍ ما إلى قطيع خرافه. بمعنى، لو كان المستهدف متدينًا، كان يبدأ بالكلام عن كيف أنها إرادة الله أن يخرج الجنوب منتصرًا. ولو كان المستهدف يشعر بالتردد، كان يتكلّم معه عن أسرة المتمردين التي لا تصد أبناءها أبدًا. لكنه دائمًا ما كان يقول لأبي أنك

شديدة الذكاء ولن تنطلي عليك مثل تلك الحيل. كما أنك شديدة الفضول -ماذا كانت الكلمة التي استخدمها؟- شديدة الشراسة. كان عليَ أن استشرف ذلك. قال إنَ مساق الحياة إن لم يُجنِدها لصالح القضية، فلن يستطيع أحد تجنيدها.»

عاد براج إلى الطاولة يحملُ نجمة برونزيّة صغيرة في يده، وتابع: «حسنًا يا سارات شستنت. أحمد الله أنَ مساق الحياة قد جنَدك.» ووضع النجمة فوق الطاولة ثمَ مررها إليها. كانت دبّوسًا صدئًا ومثنيًا بعض الشيء. «لقد صنعها أبي منذ زمن بعيد. كان يسبكها في قالب راية دولة الجنوب القديمة. هل كنت تعرفين أنهم رسموا كل تلك النجمات الموجودة في الراية بشكلٍ خاطئ؟ لقد رسموا الحافة اليُمنى أطول من باقي الأطراف، ولم يتجشموا عناء إصلاحها. كانت لدى أبي كل تلك الرؤى العظيمة بشأن جيش متمردين جنوبي لائق، لذلك أعدّ كل أنواط الشجاعة هذه كي يوزعها لقاء 'الخدمة العسكرية الجديرة بالتقدير خلال الحرب ضد العدو الشمالي.'» وأطلق ضحكة مكتومة، مردفًا: «لم يتمكّن ذلك اللقيط المسكين من توزيع نوط واحد.»

أمسكت عفتي نجمة التمرّد في يدها. كان الدبوس في الخلف صدئًا وعالقًا بالماسك، وما كان لينفتح. سألها براج: «هل سيفلح حقًا، الشئ الَذي معك؟ حين تطلقينه في كولومبس، هل سيكفي لقتل الجميع: الشماليين؛ والجنوبيين الخونة؛ جميعهم كافّة؟»، «الجميع.» مدّ

براج يده والتقط يد عفتي بين يديه قائلًا: «ستبقين في ذاكرتنا جميعًا يا سارات. ستصبحين بطلة القضية الجنوبيّة ما دام الجنوب موجودًا. وحين تنتهي الحرب سيشيدون مُدنًا تحمل اسمك.» سحبت عفتي يدها بعيدًا، وألقت النجمة المعطوبة على الأرض. ثم وقفت هاتفة: «تبًا للجنوب. تبًا للجنوب ولكل ما يُمثله.»

* * *

غادرت ستونماونتن واتجهت غربًا عبر العاصمة وعبر الولاية إلى قلب آلاباما. ذهبت إلى الغابات. كانت ذاهبة لزيارة ألبرت جينز لآخر مرّة. كانت غابة تالاديجا أقل كثافة مما تتذكّر، وبدت الأشجار أكثر تباعدًا. لكن الدرب المؤدّي إلى الكوخ كان كما هو. حفرت المرّات الكثيرة التي كانت فيها هنا، تطوفُ المكان وتلتقط العلب وتصيد الفئران، تفاصيلَ المكان في ذاكرتها. كانت تعتزم تمزيق أحشاء الرجل العجوز كما مزقت أحشاء الحارس الّذي كان يُغرقها. فتحت الباب ووجدته يجلس في الداخل نائمًا فوق مقعده.

كان براج قد أخبرها أنه عانى سكتة دماغيّة في معسكر الاعتقال، عقب احتجازه هو والمجنّدين الآخرين مباشرة. أبصرت آثار السكتة على جانب وجهه الأيمن. كان يجلس فوق مقعد متحرّك قديم صدِئ يلبس بيجامة متسخة بليت غُرزها. أمّا شعره فكان خفيفًا وأبيض. بدا عجوزًا، عتيقًا. أنفاسه كصفير ناعم، يتسرّب الزفير من فمه. أدركت آنذاك السبب وراء عدم مجيء

أي من المتمرّدين الباقين إلى هنا لرمي دماغه برصاصة وحشو فمه ببطانة جيوبه. لكان هذا ترفّقًا به.

أيقظه صوت خطواتها. فزع إلى الخلف وتسارعت أنفاسه حين رآها. فتح فمه لكنه لم يقل شيئًا. رمقت عينيه. كانتا تتواثبان مثل ذؤابات لهب مصباح غاز. تأملها برهة غير واثق، لكنها كانت تعرف أنه تعرّف عليها. تمامًا كما كانت تعرف أنه ما من شيء يمنعها من التعرّف عليه. حتى لو كان ما صادفته حين دخلت ذلك الكوخ كومة من عظام، كانت لتعرف أنه هو. تفحصت الغرفة. اصطفّت أطباق متسخة فوق الطاولة وملأت الحوض. ثمّة ثياب ملقاة فوق الأرض، لا الحلل الأنيقة التي تتذكّرها، بل فانلات وبناطيل رخيصة من المحال الشعبيّة بالجنوب. ثمّة رفّ كتب في أحد أركان الغرفة، لكنه كان فارغًا.

رأت فوق طاولة بالقرب من الفراش المسجّلة القديمة الّتي كان جينز يحتفظ بها في مكتبه في بيشنس. من بين كل الأشياء الموجودة داخل الكوخ، كانت المسجّلة هي القطعة الوحيدة التي لم يغطّها التراب. أدارتها، فملأت الأغنية الكلاسيكيّة القديمة الغرفة. أغنية الحاج المُتعب. جثت إلى جواره، واقتربت منه. كان هذا العجوز المريض الضاري غريبًا بالنسبة لها الآن. لكن ما في داخله، كان ما يزال كما هو. نظر إليها، وردّد بين أصوات أنفاسه الخفيفة: ابنتي. راح يكرّرها مرّة تلو الأخرى: ابنتي، ابنتي. وفي كل مرّة كانت تبدو كأنها

عبارة مبتورة، كأنّ ثمة ما سيأتي بعدها، لكن ما من كلمات أخرى. ثمّ توقّفت أنفاسه، فتصوّرت لوهلة أنّه مات، وأنّ استغلاله الأخير لها سيكون هكذا: الموت أمامها. ثمّ أرسل زفرة، ومع زفيره خرج منه كل ما كان يحاول أن يقوله. «لقد قالوا أنهم سيؤذون ابنتي.»
أخرجت السكين من جيبها. السكين التي أعطاها لها قبل سنوات طويلة. وفتحت أصابعه المتيبسة لتكشف عن راحته المصفرة. ثمّ أعادت السكين إليه.

* * *

هدأت العواصف في أواخر يونيو ونمت محاصيل جديدة. كانت أمّي قد حاولت سرًّا خلال الشهور الماضية زراعة الفراولة في البيوت الزجاجية، وبدأت النباتات تثمر بغتة. تدلّت الثمار من الأوراق كثيفة كأنّها قبضات قاتمة اللون تكاد تنفجر من العصارة. دعت أمّي كل صديقاتها لتجربة منتج المزرعة الجديد، واتفقن جميعًا أنّ الفراولة كانت الأشهى من بين كل ما أكلنه يومًا.
وذات ليلة في آخر يوم من شهر يونيو، انخرط أبواي في نقاش. خرج أبي بعده يتمشى في الخارج. كان حين يرغب أحيانًا في البقاء بمفرده، يجلس فوق حاجز الموج يتأمّل النهر وجدار الحجر الصحي. خلال لحظات برزت أخته من الكوخ وانضمّت إليه. جلسا تحت نور قمرٍ نُحاسي. وجعلت رياح غربية أوراق الصفصاف تتراقص كأنّها أفاعٍ مسحورة. وجرى النهر. قال أبي:

«إنها تريد أن نسافر إلى الشمال، بعد أن يوقّعوا على الاتفاقية. إلى بيتسبرج أو شمال نيويورك. تريد بيع المزرعة والمنزل والانتقال إلى هناك.» حاولت سارات تقدير مدى وضوح أفكار شقيقها، وهل هو غرضة لتركها والهيام في عالمه الضبابي. سألته: «وما رأيك أنت؟»، «لا أريد ذلك.»

انبعث طنين الماكينات من ضفة النهر الأخرى. وطفقت سفينة تكريك تتوارى خلف أستار الليل بمكانٍ ما، تُغيّر شكل الماء. «أذكر حين كنّا أطفالًا هناك في لويزيانا، يوم قال أبي أوّل مرّة أنّه سيسافر إلى الشمال حيث مكتب تصاريح العمل في باتون روج كي ننتقل إلى هناك. ما أزال أتذكّر كم كرهته على ذلك. لقد بقيت تخبرنا أنا ودانا كيف أنّ المرء الّذي يرغب في السفر إلى الشمال ليس إلا خائنًا، بل لقد رأيتك ذات مرّة تحشو حقيبة صغيرة وتدفنها تحت التراب بالقرب من طوفك، كأنك ستأخذ كل ما لك وتبحر في بحر المسيسيبي وتعيش فوق واحدة من تلك الجزر الاصطناعية الموجودة في الخليج، إذا حاول أبي فعلًا إجبارنا على السفر إلى الشمال.» أطلقت ضحكة مكتومة، والتفتت لترمق شقيقها وترى إن كان يبتسم، لكنه كان يصوّب عينيه على قدميه. «لا تذكر أيًا من ذلك؟» هزّ أبي رأسه وقال: «بعض الذكريات تُفلت مِني أحيانًا. أستطيع...» وحك صدغه مستطردًا: «الحقيقة أنني سأكون أسعد إن لم أتذكّر شيئًا، هذا إن كان قد بقي شيء للذكرى.»

راقبت عقتي الحرّاس داخل أبراجهم على الجانب الآخر من النهر، وتساءلت إن كانوا الرّجال أنفسهم الّذين كانت تراهم في شبابها هم من يحرسون جدار الحجر الصحي. كانت الإشارات الوحيدة على وجودهم الآن مُجرّد نبضات صغيرة من نور أحمر تشق العتمة. قالت: «إنّه أمرٌ غريب. ما يبقى معك وما لا يبقى، والأشياء التي تقرر الاحتفاظ بها. أذكر أنني في الليلة التي تلت المجزرة في بيشنس أرسلت دانا بعيدًا، وأنّ الجنود اقتادوك إلى المشرحة معتقدين أنك قد لقيت حتفك، غير أني لم أشأ أن أغادر. كانت بعض الجثث ما تزال هناك، وكنت تستطيع شمّ رائحة الأجساد المُحترقة التي فاحت في الهواء منذ طرحوا أجساد الموتى في النار، لكنني أردت البقاء. أردت العثور على أمي، العثور على أي شئ تبقّى منها، وإن يكن رمادها. في النهاية أخبرني الجنود أنّ أمامي عشر دقائق أحمل خلالها ما لي قبل أن يقيدوني ويلقوا بي على متن آخر حافلة مغادرة. هكذا عدت، هل تعلم ماذا أخذت؟ أخذت تمثال أبي القديم، تمثال العذراء مريم؛ والسلحفاة التي كنت أرعاها أنا وماركوس؛ وبضع صور قديمة من سرير أمي. لم أحمل أي ثياب، ولا أي نقود من التي ادّخرتها أمي طوال حياتها. لم أحمل شيئًا مفيدًا واحدًا. بل مُجرّد خردة.»، «لم تكن خردة، بل ماضينا.»، «هذا ما أعنيه تمامًا. ثمّة هذه الفقرة في إحدى الكُتب التي كان ألبرت جينز قد أعطاها لي. تقول الفقرة أنّه ما من مستقبل في الجنوب،

بل ثلاثة أنواع من الماضي: ماضي الإرث السحيق؛ ماضي التجربة القريبة؛ والماضي الّذي ينتظرنا. لكن ما أقاموه هناك في الشمال، ما تريده زوجتك، وما أراده أهلنا، هو مستقبل.»

سألها أبي: «إن سافرنا إلى الشمال، هل ستجيئين معنا؟»

«إياك أن تسألني ذلك السؤال.»

حلّقت طائرة واهنة دون طيّار فوق رأسيهما، غير مرئية في السماء المظلمة. تذكّرت أول مرّة سمعت فيها طائرة منهم بعد إطلاق سراحها من شوجرلوف. كيف انكفأت بشكل غريزي فوق الأرض وغطّت أذنيها وهي تلتقط أنفاسها لئلا تتسبب موجة الضغط المتولدة عن انفجار قريب في تمزيق رئتيها. واندهاشها بعد ذلك، إذ تنهض من فوق الأرض، كيف يُعقل أنها لم تشعر بأدنى إرادة للحياة خلال كل ساعات صحوها تلك منذ اليوم الّذي أغرقوها فيه، ورغم ذلك حين أحسّت بخطر يداهمها سارعت على الفور كي تقي نفسها منه، كي تتجنّب الموت. لماذا لا ترعبها فكرة البطش بها إلا حين تكون على يد آخرين، أمّا هي فلا؟ لم تكن تعرف. قالت لأخيها: «هل أطلبُ منك صَنيعًا؟»، «لا بأس.»، «أريد أن تسامحني.»، «أسامحك على ماذا؟»، «على أني اقترفت جرمًا كبيرًا؛ إذ انتزعت منك الكثير.»، «لم تنتزعي مني شيئًا يا سارات. بل اعتنيت بي بعد بيشنس. كانت كارينا تخبرني كيف جئت لأجلي، وكيف تصوّر الجميع

أنني مت لكنك لم تستسلمي لا أنت ولا دانا...»، «هذا كذب. بل أردت أن تموت. أول مرّة أراك فيها بعد أن أعادوك إلى المنزل، رأيت كيف آذوك بشدة، وتمنيت ساعتها لو كنت قضيت نحبك. هذا أنا يا سيمون. هذا أنا بصرف النظر عن الطريقة التي صرت بها هكذا. لا أريد منك أن تحبني، ولا أن تقول لي أنني لم أقترف ذنبًا. بل أريد أن تعرف أنني اقترفت ذنبًا، وأنني أريد أن تسامحني. أرجوك، أتوسّل إليك، قل فقط أنك ستسامحني.»، «أسامحك. أسامحك.»

غاصت حينئذ بين ذراعي أخيها، ولأول مرّة منذ كانت بنتًا صغيرة في بيشنس، ملطخة بدماء أوّل رجل تقتله في حياتها، بكت.

ولم تر أخيها مرّة أخرى، أبدًا.

* * *

صحوت في الصباح التالي قبيل الفجر مباشرة، مروّعًا بصوت سيارتنا أثناء تسلقها الممر. عند المغيب رأيت عمّتي تقف بالقرب من البيت الزجاجي غير المستعمل الّذي تخبئ داخله أغراضها السريّة. واربتُ نافذة غرفة النوم ورحت أراقبها. فتحت صندوق السيارة، ثم غابت داخل البيت الزجاجي تحمل جاروفًا في يدها. لم أرَ شيئًا بعض الوقت، لكن سرعان ما عادت تظهر وقد اتسخت يداها بالتراب. رأيتها تحمل عشرات من الدفاتر الملطخة بالأتربة من داخل البيت الزجاجي وتضعها داخل صندوق السيارة. ثم ابتعدت عن المنزل. انفتحت

البوّابة الأمامية لكن جرس الباب لم يُصدر صوتًا.

غابت طوال النهار. ثمّ عادت في الساعات الأولى من الصباح التالي. سمعت في العتمة صوت خطواتها الخفيض فوق الدرَج. ثمّ أصدر باب حجرتي صريرًا أثناء فتحه. لم يكن ثمّة نور لكن كنت أعرف أنها هي. اقتربت مني حيثُ أرقد ثم جثت إلى جوار فراشي. أشعلت النور. كان قد مضى وقت طويل منذ رأيت وجهها عن قرب. أحسست بحرارة جسمها. وحدّقت بها بعينين فاغرتين. قالت: «أنت! هل ترغب بالخروج في مغامرة؟» بمجرّد أن سمعت تلك الكلمة، غادرني كل بخار النوم على الفور، وهززت رأسي موافقًا. قالت: «اتبعني. والتزم الهدوء الشديد.» رأيتها تفتح أدراج خزانة ثيابي وتحزم بعض الغيارات داخل حقيبة ظهر صغيرة. ثم قالت وهي تناولني الحقيبة: «خُذ. ستحتاج هذه الثياب.» تبعتها إلى السيارة التي تقف في الخارج وأنا ما أزال في ثياب النوم. تحرّكت ببطء فوق الممر، ورأيت الأسلاك تتدلى من اللوح الّذي كسرْته، اللوح الّذي كان يجعل جرس الباب يطلق رنينًا. فانزلقنا في هدوء عبر البوابة. سألتها عن وجهتنا، لكنها قالت إنها مفاجأة. بدا أنّنا سنتحرّك إلى الأبد بعيدًا عن الشمس. وكانت السماء زرقاء من فوقنا لكن مُظلمة أمامنا.

عدت إلى النوم في نهاية المطاف. وحين صحوت كنّا في ساعات الظهيرة الأولى في بلاد غريبة. كان الطريق السريع الّذي كانت السيارة تنهبه نهبًا مُحاطًا بما لا

يُحصي من الحقول السمراء. رأيت يافطات محطّمة لفنادق رخيصة ومطاعم لم يتبق منها سوى الأطلال. كنّا نقترب من ماء. رأيته من بعيد، نهر أسمر عريض، سميك كالعسل. سألتها عن وجهتنا من جديد، لكنها لم تجب. قبل أن نصل إلى الماء، تسلّقت طريقًا ترابيًا صغيرًا يشق سبيلًا بين أشجار الآس. كانت الأشجار قد فقدت لونها لكن التربة كانت مغطاة ببقايا الصبغ النيلي القرنفلي. توقّفنا بالقرب من إحدى الأشجار، حيث رُبط شريط قماش أبيض. خرجت من السيارة، وتبعتها. لم تفعل خلال عدة دقائق سوى الوقوف هناك صامتة. رجوتها أن تخبرني عمّا نفعل. وقالت لي أن أنتظر. كان انفعال المغامرة ما زال يغمرني.

تدحرجت سيارة سيدان داكنة فوق الطريق كي تقابلنا. هبط منها رجلان. أحدهما طويل قوي البنية، والآخر قصير. كلاهما له لحية. اقترب القصير من مكان وقوفنا ثم رمقني. سألها: «أهذا هو؟» فأجابت عمتي: «بلى. هل تعرف ما يجب عليك فعله؟»، أجاب القصير: «ما من مشكلة. أمامنا شهرٌ تقريبًا كي نخرج إلى الساحل، بعدها يستغرق المهرّبون ما يستغرقونه، لكننا سنعتني به، لا تقلقي.» رأيتها تعطي الرجل مظروفين. فتح واحدًا منهما وعدّ النقود في داخله. أمّا المظروف الآخر فكان اسمي مكتوبًا فوقه، وكان مغلقًا. «لا تعطه له إلا حين يصبح رجلًا.» قالت عمتي، فسألتُها عمّا يجري. جثت لتواجهني وقالت: «عليك أن تذهب برفقة هذين

الرجلين بعض الوقت. سيأخذونك إلى بقعة آمنة. لا تقلق، كل شئ سيكون على ما يُرام.»، «لا أريد أنا أن أذهب معهما. بل أريد البقاء معك.»، «آسفة يا بنيامين. لكن الأمر لابد أن يجري على هذا النحو.»

حملني الرجل القصير فصرخت وركلته. غاصت كعباي في بطنه. ورحت أتوسّل إليها ألا تتركني. لكنني رأيت الرجل يصافح سارات فيما حملني الرجل القصير إلى السيارة المنتظرة. قال الطويل: «أردت القول فقط أنه لشرف لي أن أقابلك أخيرًا يا آنسة شستنت. لقد سمعت عمّا فعلته في هافواي برانش. أنت وطنية جنوبية بحقّ.»، «تأكّد من حصوله على حياة هانئة هناك.»، «حاضر يا سيدتي.» ثمّ عاد إلى السيارة. بدأنا نتحرّك فطفقتُ أضرب الزجاج الخلفي بيديّ. كان هيكل عمّتي الضخم يتضاءل، ثم اختفى نهائيًا.

اتجه الرجلان إلى نهر المسيسيبي. رحت أصرخ وأنادي على أمي. لكن بمجرّد أنْ ابتعدنا عن مكان اللقاء التفت الرجل القصير ناحيتي وصفعني على وجهي وهتف: «لست أعبأ بابن أخ من أنت. إن واصلت النحيب هكذا سأحطّم وجهك.» جثوتُ مكاني مصعوقًا، وذقت طعم الدماء المعدني الباهت في فمي. كانت أول مرّة يضربني فيها أحد.

انتظر الرجلان إلى أن خيّم الليل كي نعبر النهر. عبرنا على متن قارب قديم يخصّ المتمردين، في ليلة دون قمر. هتف القصير: «مرحبًا بك في أرض الحياد يا

صبي. لا شيء هنا إلا الجبناء والخونة بقدر ما تستطيع العيون أن ترى.» بقينا نتحرّك شمالًا طوال أسابيع. كان الرجلان يرفضان السّفر خلال ساعات النهار، أو السفر على الطرق الرئيسيّة. صارت المناظر غريبة، مساحات رملية شاسعة تتخللها هضاب بلون البرتقال والسكّر المحروق. كانت الصحاري دون نهاية وقد تناثر فيها حطام صهاريج وطائرات ومخيمات مؤقّتة منذ أيام الحرب الأولى. لم يقدّموا لي طعامًا سوى علب تموينيّة قديمة: لحم على هيئة مسحوق وهلام مشمش بائس الحلاوة مُعدّ كي لا يفْسد أبدًا.

كنا نتوقّف بين الحين والآخر في قُرىً صغيرة بسيطة يحرسها جنود لم يسبق لي أن رأيت ثيابهم الرسمية أبدًا. كان أهلها يتكلمون لغة مختلفة وعجزت عن قراءة يافطات الشوارع. أحيانًا، كان الجنود يشهرون أسلحتهم في وجهَي خاطفيَ ويسألونهما عمّا يفعلونه في *بروتكترادو*. كنت أفكّر في الصياح آنذاك، لكن القصير هددني بالقتل إن فتحتُ فمي.

انتهت الصحراء ذات يوم وحلت مكانها غابة ظمأى مقفرة. بدت الغابة هي الأخرى كأنها تمتد إلى ما لا نهاية. لكنها كانت تخلو من أي حياة. وكنت مُحاطًا من كل الجهات بآثار نار.

كنتُ قد فقدت قدرتي على التمييز بين الأيام والأسابيع يوم وصلنا إلى المحيط الهادئ. خيّم الرجلان داخل أطلال محطة تحلية مياه أسمنتية نصف بارزة داخل

المحيط. صار صوت ارتطام الأمواج بجانب المبنى مثيرًا للحنق مع مرور الأسابيع. عرفت من أحاديث الرجلين أنّ مركب المهربين التي كانت ستأخذنا من هذا المكان قد انقلبت، وأنّ علينا الانتظار شهرًا آخر قبل مجيء مركب آخر. وقد انتظرنا.

كان الرجلان يسمعان الأنباء كل ليلة من مذياع صغير. لم يقع شيء طوال أسابيع، ثم توالت تقارير عن مرض غامض ينتشر بدءًا من كولومبس. ثمّ لا شيء.

وصلت مركب في أواخر أكتوبر. كانت مركبًا صغيرة من الألياف الزجاجية، بالية ولا تناسب الإبحار في المحيط بأي حال. ومنذُ اللحظة الأولى التي جرجرني فيها الرجلان للصعود على متنها، تحوّلت إلى كائن أخضر جرّاء دوار البحر.

كانت الرحلة إلى الشمال بطيئة وقاسية. ظل القبطان خلالها قريبًا من الساحل، وكثيرًا ما كان الرجلان يسبانه ويقولان إنّه سيفضح أمرنا.

* * *

ثمّ نظرت ذات يوم خارج نافذة القُمرة لأرى مدينة غريبة يضيئها بريق عائم. ورأيت أثناء اقترابنا من المرفأ أماكن في الماء حيث كانت السفن السابقة تدخل الحيد المرجاني المغمور.

حينئذ قال القصير: «لقد فعلتها أيها الصبي. هذه نيوأنكوريج، الولاية المحايدة. أهلًا بك في الوطن.»

مقتطف مِن:

جلسة استماع أمام لجنة الحقيقة وإعادة الوحدة،

اجتماع الكونغرس

الثالث والستين بعد المائة

(الأول من ديسمبر/كانون الأول، 2123)

الأعضاء الحاضرون:

سناتور ايلي طومبسون (وخدوي جديد -أركنساس) رئيسًا.

سناتور باربارا آيكنز (ديمقراطية -كاسكاديا/أوريجون) نائبًا للرئيس.

سناتور بيتر جندال (وحدوي جديد-ميسوري)

سناتور كلاي نورمان (ديمقراطي -إلينوي)

سناتور برنارد ويليس (ديمقراطي -انديانا)

الشهود:

كولونيل باريت سنجر(متقاعد)

سناتور طومبسون: طاب صباحكم جميعًا. إذا أمكننا رفع الشاشة وتشغيلها، أعتقد يا سناتور آيكنز أننا سنخلص إلى معرفة أين توقفنا البارحة؟

سناتور آيكنز: شكرًا لك سيدي الرئيس. كولونيل، قبل أن نعود إلى لقطات المراقبة. أريد فقط أن أسألك عن أمر ذكرته بالأمس. عن جنديين كانا يحرسان **نقطة تفتيش روزفيل:** الجندي مارتن بيكر و، ما كان اسم الآخر مرّة أخرى؟

كولونيل سنجر: باد بيكر الابن.

سناتور آيكنز: هذا صحيح، شكرًا لك. قلت بالأمس أنهما كانا، دعني أرى... حسب **تعبيرك:** 'أحمقان لا يهدآن' أكثر منهما حارسين على الحدود. هل هذا صحيح؟

كولونيل سنجر: نعم يا سيدتي.

سناتور آيكنز: وماذا قصدت بذلك تحديدًا، كولونيل؟

كولونيل سنجر: حسنًا، بعض الشباب، بمجزد وصولهم إدارة الفجئدين، تتدركين ... ما أقصده أننا لو كنّا ما نزال في خضم حرب عنيفة، ما كنت لأكلّف أولئك الأولاد بالحراسة.

سناتور ويليس: أعتقد أنّ ما يقوله الكولونيل بالغ الوضوح، سناتور. هذان الرجلان كانا سافلين حقيرين.

كولونيل سنجر: لكان ذلك وصفًا دقيقًا لهما.

سناتور ويليس: لا أستطيع لومهما في ضوء ما عانياه.

سناتور آيكنز: شكرًا كولونيل. لِنعُد إلى الفيديو. الآن، ما أعيه أنّ هذه هي اللقطات المتبقية الوحيدة للمعبر في ذلك اليوم؟

كولونيل سنجر: هذا كل ما تبقّى لدينا. وهي لقطات علوية. لا لقطات أرضية. لا صوت.

سناتور آيكنز: إذًا، في نهاية اليوم لن نخرج إلا بماذا تحديدًا؟ حدس؟ تخمين؟

كولونيل سنجر: حسنًا يا سيدتي. ما نعرفه يقينًا أنه قبيل ظهور الحالات الأولى في كولومبس بفترة وجيزة، لوحظ المرض نفسه داخل المستشفى التي كانت هذه الحافلة بالتحديد متجهة إليها. لذلك، ثمّة ما يدعو

للاعتقاد أنّ الشخص المسؤول عن الفيروس ربّما عبر الحدود على متن تلك الحافلة.

سناتور آيكنز: لكننا لا نمتلك بيانًا بأسماء الركّاب، ولا سجلات للمستشفى أيها الكولونيل. نحنُ لا نعرف أسماء أحد في هذا الفيديو عدا جنديّاك.

كولونيل سنجر: هذا صحيح يا سيدتي. من الواضح أنّ سنوات الطاعون العشر التي شهدها الاتحاد الجديد قد أهلكت الجزء الأكبر من هذه البلاد، وأننا فقدنا ما لا يُحصى من التسجيلات. لهذا لم يبق لدينا إلا هذا.

سناتور آيكنز: عظيم جِدًا. لنشغّل الفيديو. إذًا، تصل حافلة النقل الطبي إلى نقطة التفتيش حوالي ظهر ذلك اليوم، هل هذا صحيح؟

كولونيل سنجر: نعم يا سيدتي.

سناتور آيكنز: ولم يؤذَن لأيّ مركبات أو قوافل أخرى من أي نوع بالعبور إلى الشمال ذلك اليوم.

كولونيل سنجر: هذا صحيح. كان هذا قبل يومين من الاحتفال بالوحدة الجديدة. كل الحدود الجنوبيّة كانت مُغلقة.

سناتور آيكنز: بالتالي لابد أنّ هذين الجنديّين عند نقطة تفتيش روزفيل كانا يعرفان مسبقًا أنّ هذه الحافلة كانت تحمل إذنًا بالعبور؟

كولونيل سنجر: لابد أنهما كانا يعرفان أنها مركبة مُعتمدة، لكننا ما كنا لنقول لجنودنا أن يسمحوا لأي مركبة بالعبور بكل بساطة. كانوا يعرفون أننا نتوقّع

منهم تفتيش المركبة والتحقق من أوراق كل راكب. تمامًا كما يفعلون مع كل من يسعى للسفر إلى الشمال من الجنوب.

سناتور سنجر: إذًا لو أمكننا أن نتابع وننتقل إلى النقطة التي يترجّل فيها الركّاب... نعم، شكرًا لك. الآن عند هذه النقطة، أحد الشابين، أظنّه الجندي مارتن بيكر، ما يزال داخل مبنى الحراسة. بالتالي ما لدينا هنا هو أخيه، باد بيكر الابن، الّذي يأمر الركّاب بشكل أساسي أن يصطفّوا كي يتحقّق من كل منهم فُرادى. هل هذا صحيح، كولونيل؟

كولونيل سنجر: نعم يا سيدتي. مرّة أخرى، هذا إجراءات معتادة.

سناتور آيكنز: أرى الآن أنّ الجندي باد بيكر الابن ربّما كان يتعامل مع أول مريضين في الطابور ببعض الغلظة. لكن تلك المعاملات لا تستغرق سوى دقيقة أو دقيقتين. لكنه حين يرى المريضة الثالثة، على أي حال، أعتقد أنه من الواضح تمامًا أنّ سلوكه يتبدّل، ألا تتفق معي؟

كولونيل سنجر: أعتقد ذلك.

سناتور آيكنز: هل لديك أية فكرة عن السبب؟

كولونيل سنجر: ربّما بسبب ضخامة المرأة. كما ترين فهي تبدو امرأة مخيفة جدًا، بالنظر إلى ضخامة جسدها. وربّما لأنّها تتراءى أصغر بكثير من أوّل مريضين في الطابور. وربّما لأنّها ذكّرته بشخص ما، أو لأنّه تصوّر أنّه سبق له أن رآها. وربّما تسرّبت إليه منها

مشاعر سلبيّة، أعني على نحو غريزي.

سناتور آيكنز: ثمّ يُناول الشاب الّذي يدفع كرسيَها المتحرّك تصاريح السّفر إلى الجنديّ كي يفحصها. والآن، إن كان بإمكاننا التوقّف هنا، أيّها الكولونيل، هل تستطيع أن تخبرني ماذا يقول الجنديّ هُنا؟

كولونيل سنجر: يسألها عن طبيعة مرضها.

سناتور آيكنز: لكنه لم يفعل ذلك مع المريضين السابقين.

كولونيل سنجر: لا يا سيدتي.

سناتور آيكنز: وماذا كان ردّها؟

كولونيل آيكنز: لم تلتقط الكاميرا العلوية وجهها؛ إذ كانت توليه الجانب الآخر.

سناتور آيكنز: لكنه تقييم عادل أيّها الكولونيل، القول أنّ الجندي لم يصدقها؟

كولونيل سنجر: لا يُمكنني الجزم. من الواضح أنّه لم يسمح لها بالمرور.

سناتور آيكنز: هذا صحيح، فهو يأمرها بالوقوف.

كولونيل سنجر: هذا ما يقوله قارئ الشفاه.

سناتور آيكنز: وحين يتدخّل الشاب الّذي يدفع كرسيها المتحرّك، لا يتردد الجندي في أن يُشهر بندقيته في وجهه ويأمره أن يجثو على ركبتيه.

كولونيل سنجر: سناتور، أنت تتكلمين عن صبيين كانا مكتوفي الأيدي ومعصوبي العينين ومجبرين على البقاء هناك في حين عذّب متمرّد جنوبي -شخص لم يقع في

الأسر أبدًا- والدهما وقتله. أنت تتكلمين عن صبيين كذبا بشأن عمريهما في استمارة التجنيد كي يتمكّنا من القتال على الجبهة. صبيان لم يمض على تمركزهما في ذلك المعبر إلا بضعة أسابيع. من الواضح أنّ هذه ليست الطريقة التي ندرّب بها حرس حدودنا على القيام بإجراءات التفتيش. ربّما كان يمر بيوم سيء. لن نعرف أبدًا لسوء الحظّ، إذ سيلقى كل من ترونهم على تلك الشاشة حتفهم في نهاية الأسبوع.

سناتور آيكنز: ليس هذا ما يُربكني أيها الكولونيل. إذا أمكننا أن نتقدّم قليلًا...ها هو يلتفت إلى هذه المرأة المقعدة فوق الكرسي المتحرّك. ومن الآمن القول أنه يأمرها بالوقوف مرّة أخرى، وحين ترفض، يركل كرسيها ويلقيها على الأرض بالقرب من المكان الّذي يجثو فيه ذلك الشاب. الآن كان يُشهر بندقيته نحوهما، وما أتوقّعه عند هذا الحدّ، أنه يعتزم احتجازهما على الأقل، هذا ما لم يحتجز المرضى العشرة جميعًا. إن أوقفت الفيديو هنا وسألتني ماذا سيجري تاليًا، سأجيبك بكل يقين أنه ما من أحد سيعبر الحدود ذلك اليوم.

كولونيل سنجر: أعتقد هذا.

سناتور آيكنز: لكن حينئذ يخرج الجنديّ الآخر مارتن بيكر من مبنى الحراسة، وعلى الفور يُخفض بندقية أخيه، محاولًا نزع فتيل الموقف. هل هذا صحيح؟

كولونيل سنجر: يبدو ذلك.

سناتور آيكنز: ثم يلقي نظرة على التصريح الطّبي

-التصريح نفسه الّذي تحقّق منه أخيه للتوّ- ويرمق المرأة الشابّة فوق الأرض والشاب الجاثي إلى جوارها على ركبتيه. لكنه لا يعتقلهما، ولا يستجوبهما. بل...حسنًا، سأتمادى بالقول أنّه يحسّ بالشفقة تجاههما، ويقول لأخيه أنْ يسمح لهما بالعبور. بل أن يسمح للقافلة كلها بالعبور.

كولونيل سنجر: بلى يا سيدتي.

سناتور آيكنز: في الحقيقة، لو أنّ مذكرات الإحاطة التي لديّ دقيقة، فإنني أعتقد أنه ما من أحدٍ آخر في الطابور قد تم التحقّق من أوراقه بعد ذلك. ذلك أنّ الحارسين أمرا الجميع بالعودة إلى الحافلة وسمحا لها بالعبور. بالتالي، لو كان ترتيب المسؤول عن الوباء الّذي أصاب الاتحاد الجديد في الطابور أكثر من الرابع، ما كان/أو كانت ليمرّ ولو بفحص سريع، هل هذا صحيح؟

كولونيل سنجر: نعم يا سيدتي.

سناتور آيكنز: وهذا ما يُذهلني أيّها الكولونيل. لديك هنا جنديان شابان. كلاهما كابد تجربة مروعة شهدا خلالها مقتل أبيهما على أيدي متمردين. كلاهما حسب تعبيرك «أحمقان لا يهدآن» ورغم ذلك يبدو أحدهما مستعدًا لإطلاق الرصاص على مريضين، أمّا الآخر فيساعدهما على النهوض ويُشير للجميع لعبور الحدود. ألا تجد ذلك على الأقل مُحيّرًا بعض الشيء؟

كولونيل سنجر: لست واثقًا يا سيدتي.

سناتور آيكنز: أقصد أنّني قرأت السجلات العسكرية

الباقية أيها الكولونيل: هذان الجنديان كلاهما، خلال بضعة أسابيع فحسب أمضياها في العمل، تعرّضا للتوبيخ عدة مرّات بسبب إساءة معاملة الجنوبيين على ذلك المعبر، وكان ذلك في وقت يصعب أن يمرّ فيه أيّ شخص خلال المعبر على الإطلاق. من الواضح أنهما التحقا بالجيش بسبب عزمهما الأكيد على الثأر مِمّن يُلقون على عاتقهم بمسؤولية قتل أبيهما. رغم ذلك، يقرّر الجنديّ مارتن بيكر في هذا اليوم، من بين كل الأيام، أن يُظهر رحمة. لو أنّ حدسك صحيح حقًا، وأننا حين نشاهد هذا الفيديو نشاهد في الحقيقة الشخص الّذي أطلق ذلك المرض الرهيب في بلادنا، هل يمكنك أن تتصوّر ملايين الأرواح التي كان من الممكن إنقاذها لو لم يُظهر تلك الرحمة؟

كولونيل سنجر: ما من أحدٍ منهما كان يعرف أنّ ملايين الأرواح كانت على المحك، سناتور. آنذاك كان خطّ تينيسي هادئًا أغلب السنة. ولم يكن يفصلهم عن حفل الوحدة الجديدة إلا بضعة أيام. وكل ما رآه هذان الصبيان في ذلك اليوم هو حافلة تمتلئ بالمرض متجهة للشمال لتلقي العلاج.

سناتور آيكنز: حافلة تمتلئ بالجنوبيين.

كولونيل سنجر: ربّما كان هذا صحيحًا. غير أني لا أعتقد أنّ توقّع ذلك أمرٌ غير معقول، في بعض الظروف، إذ قد يجدُ حتى الشخص العازم عزمًا أكيدًا على الثأر في نفسه قدرة مؤقّتة على إظهار الرحمة.

سناتور آيكنز: لا يا كولونيل. لا أحسب ذلك أمرًا معقولًا.

الفصل السادس عشر

حاولت الهرب خمس مرّات خلال السنوات الأربع الأولى. حاولت رشوة المهرّب نفسه الّذي أحضرني إلى هنا كي يُعيدني، أو أن يتركني في بقعة على الساحل الغربي. وحين أخفقت، حاولت السّفر برًا، وحين أعادني حرس الحدود إلى دار الأيتام للمرّة الثالثة، قالوا سواء كنت طفلًا أم لا، فإنّهم سيطلقون عليّ الرصاص في المرّة القادمة. كنت أعرف أنّ أبويّ قد ماتا. لكن هذا لم يردعني عن اختلاق أوهام مهدئة، فربّما ما يزالان على قيد الحياة، وربّما لم يصب الوباء منزلنا أبدًا. ربّما أنقذتُهما كما أنقذتني. حاولتُ أن أصدّق تلك الأوهام، رغم إدراكي أنّها غير صحيحة.

***

مع بلوغي الستة عشر عامًا من عمري، كنتُ اشتغلُ عاملَ تفريغ بميناء نيوأنكوريج. كان من الممكن ربح أموال كثيرة لا سيما من خلال العمل إلى جانب القباطنة الطائشين في رحلات الإنقاذ بالحيد المرجاني. كنتُ أقف أحيانًا أثناء إجازاتي فوق الأرصفة نفسها بجانب الدهماء، أسبّ النازحين الجدد. كان الوباء آنذاك قد بدأ ينحسر فوق البرّ، وأغلب المهربين يرفضون نقل مزيد من الناجين إلى الشمال؛ إذْ كانوا يخشون الإصابة بالمرض. لكن بعضًا منهم كان ما يزال يُدير بيوتًا للحجْر الصحي بالقُرب من ساحل كاليفورنيا، فكان الشخص الّذي يعيش معزولًا لمدة أسبوع دون أن تبدو عليه

أعراض المرض يُعدّ آمنًا للسفر.

ولأنّ العداء للمهاجرين كان مخططًا هرميًا، فقد وجدت نفسي أزدري حضور اللاجئين في مدينة مثقلة بساكنيها بالفعل. كنّا نهتف بهم أمام أرصفة الميناء كي يعودوا إلى ديارهم، رغم علمنا أنّ ديارهم صارت مرتعًا للطاعون. كنّا نحمل لافتات تقول أنّهم إرهابيون ومجرمون وأنّنا سنخرّب البيوت التي ستؤويهم. كان ذلك يجعلني أشعر بالتحسّن، أشعر بعراقة جذوري. نفيهم كان دليلًا على انتمائي.

* * *

في عيد ميلادي الثامن عشر عدت إلى مسكن عمّال الميناء لأجد مظروفًا مرره شخص ما من تحت عقب الباب. كان يحمل ورقة قديمة مصفرّة. إنها رسالة.

عزيزي بنيامين.

ثمّة أشياء أريد أن تعرفها، أشياء من حقّك معرفتها.

حين جئت إلى بيتكم أوّل مرّة، كنتُ خاوية.

لم أكن أعتقد أنّ ثمّة خير في الدنيا. ثم قابلتك، وعرفت أنّي كنتُ خاطئة. لقد جعلني الوقت الذي أمضيناه معًا في النهر أتذكّر معنى الشعور بالفرح.

لقد قلت لك ذات يوم إنّ العظام إذا جُبرت بطريقة صحيحة تصبح أقوى. والعكس صحيح كذلك.

ليتنا تقابلنا ولم نزل بعد أطفالًا. أعتقد أننا كنا لنصبح صديقين حميمين. ليتك رأيت منزلي القديم، وبحرنا الأسمر الواسع، وزورق القراصنة الّذي شيده والدك من ألواح الخشب. ليتك قابلت جدك وجدتك اللذان كانا طيبين وشريفين وكانا ليحبانك كثيرًا. لقد انحدرت من سلالة طويلة من أصحاب القلوب الطيبة.

أشد ما آمله أن تنعم بحياة هانئة في وطنك الجديد، وأن تعثر على السعادة، بصرف النظر عن مدى الأذى الّذي ألحقته بك. لقد أحببتك.

سارات

30727-83161

ألقيث الرسالة داخل صندوق أحذية قديم. ولم أنظر إليها مرّة أخرى طوال ما يقرب من أربعين عامًا.

* * *

ومضى الزمن. ذهبت إلى المدرسة وحصلت على درجة علمية في التاريخ. بدا محتومًا أن أقضي حياتي المهنية في دراسة الحرب الأهلية. لكن مع انتهاء الوباء كانت البلاد قد أصبحت في حالة خراب، وكثير جدًا من المصادر التي قد يعتمد عليه المؤرّخ لجمع الماضي ضاعت للأبد. سوى أنّ ذلك لم يثنيني، فرحت أقتفي بإصرار شديد أثر كل وثيقة، أو أرشيف ابتلعه النسيان،

أو شهادة أذلي بها ناجٍ. لم يجد زملائي، الذين يجهلون ماضي، تشبثي في البحث أمرًا شاذًا؛ إذ بدت مطاردة المسائل التي لا توجد لها حقًا إجابات شافية جزءًا عاديًا من الحياة البحثية.

كنتُ عائدًا ذات يوم من لقاء علمي في جورجيا. صعد الركّاب على متن الطائرة وجلسنا ننتظر في مقاعدنا على مدرج الإقلاع أثناء تشرّب الألواح الشمسية بأجنحة الطائرة مزيدًا من الطاقة الشمسيّة. كنتُ أتأمل شاشة مراقبة مثبتة في المقعد أمامي، وكانت تعرض خارطةً للقارة ارتسم فوقها مسار تحليق الطائرة والإحداثيات التي تُحدّد مكاننا فوق الأرض. انتبهت بغتة إلى معنى الأرقام في نهاية رسالتها. وبمجرّد رجوعي للمنزل، رحت أفتش في صناديقي داخل المرأب حتى عثرت عليها. في اليوم التالي حلّقت عائدًا إلى الجنوب وذهبت إلى المكان المحدّد.

كانت أرضًا معوزةً في أقصى الجنوب بالقرب من ساحل بحر فلوريدا. كانت الحرارة طاغية رغم عمل مُكيف السيارة بأقصى طاقته. عبرتُ مزارع مقفرة وأكواخ منهارة وأماكن مزّقها فقر ما بعد الحرب. كانت الرايات ذات النجمات الثلاث تتدلى مرتخية بين الحين والآخر فوق الأعمدة على جانب المقطورات كرسائل تذكير أنّ الحرب التي توقّفت في كثيرٍ من بقاع الجنوب، لم تنته أبدًا هنا.

وصلت إلى بيت ريفي بلا أدنى أثر للريف، بل كومة

تراب عالية في الخارج وبحيرة قاحلة في الخلف. ثمّة رجل في الشرفة الأماميّة ينظّف المزاريب من الرمال. كان أصغر مِنّي، كنتُ واثقًا من ذلك، لكن السنوات التي قضاها تحت شمس لا ترحم جعلت بشرته تشيخ لدرجة بعيدة. سألني وأنا أتسلّق الممر: «هل أستطيع مساعدتك؟»، «لست متأكّدًا صدقًا. لديّ...لديّ تلك التعليمات. غير أنّي أجهل- إن لم تمانع سؤالي، هل كنت تعيش هنا منذ فترة طويلة؟ أقصد منذ ما قبل الوباء؟» استحال مرحه الخفيف ريبة بغتة، وندمت على ذكر الوباء الّذي حل بالاتحاد الجديد في بقعة من البلاد ما يزال شبابها الطائشون يلبسون قمصانًا مُزيّنة بصور مطموسة لرأس جوليا تمبلستو. سألني: «ما اسمك؟»، «بنيامين شستنت.»، «تبًا. لطالما اعتقدتُ كل تلك السنوات أنّ ماما فقدت عقلها. تعال، تعال.»

أرشدني إلى داخل المنزل. كانت امرأة عجوز تجلس فوق أريكة متداعية في حجرة المعيشة، تنصت إلى أغان حبٍّ قديمة. كانت ضعيفة ونحيلة، وإلى جانبها كرسي متحرّك. هتف الرجل: «ماما، لديك زائر. إنّه الشخص الّذي كنت تتكلمين عنه طيلة تلك السنوات. إنّه بنيامين شستنت.» ظلّت ترمقني بعض الوقت كأنّي شبح. ثمّ غطّت وجهها بكفيها. قالت: «كنت على يقين أنّني سأموت قبل أن تأتي.» أرسلت المرأة العجوز ابنها ليجلب لنا ما نشربه ودعتني للجلوس إلى جانبها فوق الأريكة. تحسّست وجهي كأنّها تعرفني. غير أنّي لم

أتعرّف عليها على الإطلاق. «ها هو ذاك. أراه. إنّه أثر باهت، لكنك تحمل بعضًا منها في داخلك.»، «لن أكذب عليكِ. لست أعرف من أنت، ولا أدري سببًا لوجودي هنا.» ضحكت وقالت: «أعتقد أنها أرادت للأمور أن تجري هكذا.» وصافحتني مستطردة: «اسمي ليلى دينوم الابنة. كنتُ أعرف عمّتك سارات منذ زمن بعيد جدًا. كانت تأتي إلى الحانة التي كانت تديرها أمّي في مرفأ أوجستا القديم، قبل أن تولد أنت.»

عاد ابنها يحملُ إبريق ليموناده مفرط الحلاوة. «أعتذر عمّا كنت أقوله كل تلك السنوات يا ماما. أعتقد أنك كنت مُحقّة.» أشارت له أن يبتعد، ثمّ التفتت ناحيتي قائلة: «تعال. ربما أكشف لك سبب وجودك هنا.» حاول ابنها أن يساعدها في النهوض لكنها قالت لها أن يعود للخارج كي ينظّف المزاريب. التقطت عصًا للسّير من كرسيها المتحرّك وأشارت لي أن أتبعها خارج باب المطبخ. بلغنا ملجأ عواصفٍ مشيّدٍ تحت الأرض. كانت أخشاب الباب مدهونة ذات يوم باللون الأحمر، لكن الدهان كان قد تقشر الآن ولم يبق منه شيء تقريبًا. أوصد قفل درفتي الباب، وكانت المرأة العجوز تلبس قلادة تدلّى منها المفتاح، فناولته لي قائلة: «هيا. الآن صارت ملكك. لقد أوصت لك بها.» فتحت الباب، فتدفّق نور الشمس إلى داخل الملجأ. رأيت دفاتر يوميات عمّتي الورقية القديمة مُرتبة فوق الأرض. «ثمّة عشرون دفترًا. لقد وعدتها ألا أضيعها، وألا أقرأها. وفي كلتا

الحالتين، حافظت على عهدي.»

حدّقت في الدفاتر. بزغت ذكراها إذ تغطيها الأتربة داخل أحد بيوت أمّي الزجاجية بغتة مثل غثيان. وخفت أن يصيبني الدوار حيث أقف. قلت: «ظللت محتفظة بتلك الدفاتر طيلة تلك السنوات.»، «هذا صحيح.»، «لماذا؟ لماذا تساعدينها هكذا، وكل تلك الفدّة؟» كررت المرأة سؤالي مندهشة: «لماذا؟ لأنّ ما فعلته كان الصواب.» وأطلقت ضحكة مكتومة مردفة: «قالت لي سارات أنك كنت صبيًا ساحرًا يا بنيامين. لكن لابد أن تفهم أنه في هذا الجزء من العالم، لا يتعلّق الصواب والخطأ بهوية الرابح، أو بمن يقتل من. في هذا الجزء من العالم، لا يتعلّق الصواب والخطأ بالصواب والخطأ حتى، بل يتعلّق بما تفعله لمن هم منك.» وأشارت ناحية الغرب، إلى ما وراء أرضها حيث غطّت بعض الأكواخ والزرائب المحطّمة أرضًا مقفرة أخرى. كانت الأتربة تدور مثل كتابة مُتصلة تحت الشمس. استطردت: «تعرف، إن ثلاثةً من موفدِي جورجيا لحضور حفل الوحدة الجديدة كانوا من تلك الأنحاء. وبعد أن عادوا للديار بأيام قليلة، أصاب المرض البلدة. لذلك لا ترى كثيرًا منهم حولنا هنا تلك الأيام: أجهز علينا الوباء وقتل هنا أكثر ممّا قتل في أيّ مكان آخر في الجنوب خارج أطلانطا.» ثمّ قرعت باب الملجأ بعصاها: «لقد عشنا داخل تلك الحفرة، والد بيلي وأنا، طوال ثمانية عشر شهرًا. نقتات على الأطعمة المعلبة ونقضي

حاجتنا داخل دلاء مؤقتة كنّا نحملها إلى الخارج مرّة كل أسبوع تحت جنح الليل. عامان تقريبًا على هذا الحال، حتى تجاوز عدد الموتى طاقة المرض على الانتشار.»، «ربّاه. لابد أنه كان جحيمًا.»، «هذا صحيح. وكنّا الوحيدين هنا الّذين نجوا من الموت، لأنّنا كنّا الوحيدين الّذين ارتادوا كافّة المتاجر هنا وفي ثلاث بلدات أخرى لشراء كل علبة حبوب وزجاجة ماء نصادفها استعدادًا لذلك.»

استغرقتْ برهة من وقت كي استوعب ما كانت تعنيه. «حتى المعروف القاسي يظل معروفًا. وأنا أسدّد ما أدين به. لكن الآن عليك أن تحمل هذا العبء عنّي. لا يُمكن لامرأة أن تموت في سلام وهي تحمل سرًا بتلك الضخامة.»

* * *

استأجرتُ كوخًا صغيرًا في ذلك الشتاء يُطلُّ على بحيرة *تلكينا*. هناك قرأت الدفاتر، وهناك كتبت تلك الأوراق.

عرفت ذلك الشتاء البقعة التي عاشت فيها أسرة شستنت أوّل الأمر. وكيف فرّت جدتي وأبي وعمّتاي من بيتهم. عرفت ما كانت تعنيه النساء اللائي يلبسن الأسود حين قلن إنّ أبي قد أبتلي في بيشنس.

عرفت ما فعلوه بها وما فعلته بهم. في بيشنس، في هافواي برانش، وفي ذلك السجن العائم فوق بحر فلوريدا. عرفت بأمر اليوم الّذي أغرقوها فيه، وبأمر اليوم الّذي جاء فيه رجل غريب إلى مزرعتنا ليعرض

عليها طريقة تغرقهم بها.

حين انتهيت من القراءة، لم يعد هناك مفرّ، ولا مزيد من الأوهام. كانت الحقيقة تتمدد عارية فوق الصفحات: لم تكن شخصًا ثانويًا ولا مُجرّد شريك. بل كانت هي من فعل ذلك. كان هذا آخر فعالها الجبانة التي ظلّت طوال تلك العقود اللاحقة ترغمني على فهمها، وتحديد ما يتعيّن عليّ عمله بذلك السرّ.

هكذا اخترت.

في اليوم الّذي حملت فيه أخيرًا كل ما يُمكن حمله من دفاتر، كومتها في محرقة وأشعلت فيها النار. لو شئت، كنت بعتها لقاء مبلغ فاحش لأحد هواة التاريخ الأثرياء المهتمين بجمع مخلفات الحرب الأهلية التذكارية. أو كنت تبرّعت بها لأحد المتاحف، أو إلى مشروع أرشيف الحرب الأهلية، أو إلى لجنة الحقيقة والوحدة الجديدة، دون ذكر اسمي. غير أني عجزت عن منع نفسي من حرقها. كانت آخر وسيلة لدي كي أؤذيها.

* * *

لم أعد أتذكّر ملامحها الآن تقريبًا. لقد عشت أكثر مما عاشت هي، بل وأكثر مما عاش أبواي. لكنني ما زلت أفكّر بين الحين والآخر فيما لابد أنها شهدته خلال الأيام التي أعقبت تخلّيها عني، حين وطئت بقدميها بلاد الشمال.

لابد أنها سافرت في طريقها إلى كولومبس بمحاذاة طريق *صنبيلت* السريع الكبير. يتألّق الطريق كأنه لوحة

ماسية أثناء مروره بحواضر تكتظ بأبناء وأحفاد الحجّاج الأصليين. لابد أنها رأت اللافتات الضخمة المتلاحقة التي تحتفل بالوحدة الجديدة، وقد أفسدت رسوم الغرافيتي بعضها، إذ كُتبت فوقها عبارة *اقتلوا كل الجنوبيين* ضخمة وزرقاء، والتي نقشها شماليون غاضبون ما يزالون يؤمنون أنّ الجنوب يُفلت بسهولة بكل ما ارتكب من جرائم دون عقاب.

تخيلتها بين الحشود في يوم الاحتفال بالوحدة الجديدة. تدفع بنفسها في هدوء كرسيها المتحرّك صوب الموكب الكبير، والسمّ يُشعّ من هيكلها الضخم. لابد أنّ الحشود قد أفسحت لها كي تمرّ، ذلك أنهم لابد رأوا ندباتها الناجمة عن التعذيب ورأسها الحليق وجسدها الأحدب، فأحسوا بالإشفاق عليها.

أتذكّر أنها حاولت ذات مرّة، أثناء سباحتنا في السافانا، أن تكتم أنفاسها تحت سطح الماء. آنئذ جلست على الضفّة أحسب لها الزمن، أعدّ الثواني قدر ما أستطيع. كنتُ أتخيل بالنظر إلى حجمها الهائل أنها قد تبقى مغمورة بالماء إلى الأبد. لكن رئتاها كانتا ضعيفتين وسرعان ما برزت إلى السطح. حين ارتشفت ما يكفيها من الهواء، أبصرت على وجهها نظرة لم أرها من قبل أبدًا. كانت نظرة ارتياح. كأنّ ما قضته مكتومة الأنفاس لا بضع ثوان، بل حياة بأكملها. وها هي الآن قد صارت حرّة.

أتساءل أحيانًا، إن كان هذا هو إحساسها حين سمعت

نفسها واستعدّت للزّجّ بنفسها داخل ميدان الوحدة الجديدة: ارتياح غامر، نقيض الغرق.

* * *

ثمّة صفحة واحدة لم أحرقها من مذكرات سارات شستنت. كانت الصفحة الأولى من الدفتر الأوّل. أحملها داخل محفظتي كي أقرأ سطورها الافتتاحية بين الحين والآخر:

في شبابي، كنتُ أعيش مع أبويّ وأخي وشقيقتي داخل منزلٍ صغير يُطلّ على بحر المسيسيبي.

آنذاك، كنتُ سعيدة.

شكر وعرفان المؤلِف

أدين لآنا ميلر بيبرني، وآنا ماكدرمد، وسَني مِهتا بدَين لن أفي به أبدًا. إذ بسببهم خرج هذا الكتاب إلى النور.

كما أشكر دونالد ريتشاردسون، وويزلي فوك، وكارولين سمارت، ودانيال داجريس، ومارتن لندالز، وميسي ليديجو، واسحاق بندرجراس على مساندتهم لي خلال عامين كاملين لإنهاء تلك الرواية. كما أدين بمزيد من الامتنان لهم على صداقتهم.

لقد رافق إدوارد كيسنماير، وتيم أوكونيل، وآندرو ريدكير من دار كنابف، هذا المشروع خلال عملية التحرير بصبر وحرص. لقد أصبحت كاتبًا أفضل بفضل العمل معهم. كما أدين لسوزان سميث، وليزلي ليفين، ونيكولاس لاتيمر لقاء عطفهم، ومهارتهم، وحماسهم.

ولأمي، نيفين، المرأة الأكثر بسالة وعطفًا بين كل من عرفتهم. إنّ كل ما لديّ من جرأة أو طيبة قلب، يعود إليها في الأساس.

ولتيريزا، دائمًا، فقد منحتني الكثير، الكثير جِدًا.

دليل القارئ إلى تحليل الرواية

1. استوحيت الفقرات الأولى المقتبسة في الرواية من فقرات كلاسيكية، مأخوذة من كتاب شعري عربي قديم والكتاب المقدس، ما الذي أوحت به الاقتباسات ومصادرها بشأن الصراع الذي كشفت عنه صفحات الرواية؟
2. هل فوجئت بالطريقة التي تغيرت بها خريطة الولايات المتحدة - حدود الولايات والأراضي اليابسة نفسها- حسب توقعات عام 2075؟ في رأيك، ما سبب هذا التغير؟ هل كانت السياسة وحدها؟ أو أن هناك عوامل أخرى أيضًا؟
3. ما الذي شرحه ولم يشرحه الرّاوي المتكلّم الذي ظهر في الاستهلال، بشأن الطريقة التي تغيرت بها الدولة، والوقت الذي حدثت فيه الحرب الأهلية الأمريكية الثانية، والفتاة التي لم يُكشف عن اسمها وكان يناديها بـالضمير "هي"، والتي ما يزال يتذكّرها منذ صِغره؟
4. ما أهمية تغيير سارات اسمها عندما كانت فتاة صغيرة؟ وكيف تطوّر إحساسها بالقوّة وشعورها بهويتها مع تقدمها في العمر؟ وإلى أي مدى كان تأثير وجود شقيقتها التوأم على استقلاليتها والأفعال التي كانت تقوم بها؟
5. ذكرت الرواية عددًا من القوانين والوكالات والكيانات الحكومية الأخرى التي ستظهر في أمريكا

في المستقبل، أيّها كان أكثر معقولية بالنسبة لك، بما في ذلك مصادر الصّراع السياسي التي ستكون سببًا في اندلاع الحرب؟ وبما أنك تقرأ الرواية في وقتنا الحاضر، هل تجد بين صفحات الرواية أي سياسات مشابهة لتلك الموجودة في واقعنا؟

6. صِف حركيّة عائلة شستنت وحركيّة الآباء والأمهات والأطفال. وما أوجه الاختلاف والتشابه بين حياتهم الأسريّة في زمانهم، مقارنة بزماننا اليوم، ومقارنة بفترة الحرب الأهليّة الأولى؟
7. إلى أي مدى انتشر الولاء للدولة الجنوبيّة الحرة التي تعيش فيها عائلة شستنت؟ وإلى أي مدى انتشر هذا الولاء في جميع المناطق المجاورة؟ وما التهديدات التي يواجهها أولئك الذين يعارضون الدولة الجنوبية؟
8. ما مدى ارتباط أحداث وتفاصيل الحرب الأهلية الأمريكية الثانية بأحداث الحرب الأهلية الأولى، أو الأحداث التاريخية الأخرى التي حدثت في التاريخ الأمريكي؟ بعد أن انتهيت من الرواية، هل كنت تتخيل أن يحدث مثل هذا الصراع مرة أخرى فيما بعد على الصعيد الوطني أو العالمي؟
9. كيف يمكن أن تؤدي الفواصل الموجودة بين نصوص الأجزاء الأولى (مقتطفات الكتب المدرسية، والتقارير الحكومية، والمذكرات، والرسائل، وما إلى ذلك) في إثراء قصة سارات وعائلتها، من حيث

دوافع الحرب وتوقيتها على المستويين الجزئي والكلي؟

10. ما القوالب النمطية الجنسانية التي ستبقى قائمة في المستقبل بين الفتية والفتيات، خاصة عندما تصل الأسرة إلى مخيم بيشنس؟ كيف كانت سارات تفكر، على النقيض من شقيقتها وشقيقها، في التوقعات الخاصة بما تستطيع فعله وما لا تستطيع فعله؟

11. كيف تسهم الرواية في تعقيد معنى كلمة "الوطن" على الصعيد الشخصي والوطني؟ هل المكان والطريقة التي يعيش بها الشخص في أي مكان يرتبط بمدى إحساسه بالأمن أو الانتماء؟ أم أن هذا الشعور يأتي نتيجة لشيء آخر؟

12. لقد رأت سارات على خريطة ألبرت جينز، أحد سكان الشمال، أنواعًا مختلفة من الحدود، ولاحظت أنه: "عرفت من خرائط ألبرت جينز الكثيرة وجود نوعين من الحدود: طبيعية وسياسية. كانت اليابسة تبدو متشابهة في الشمال لكنها كانت تعلم بوجود صدع غير مرئي في الأرض تنتهي عنده بلاد أهلها، وتبدأ منه أرض الأعداء"، كيف تشكّلت تلك الصدوع؟ وما نتائج الحرب؟ وما الذي تقترحه الرواية حول قدرتهم على استعادة هويتهم؟

13. كيف عبّر المأزق الذي تعرّضت له سارات عن

عبارة جينز بأنّ " أوّل ما يحاولون انتزاعه منك هو تاريخك "؟

14. ما الذي يحدد "اعتقاد" الفرد في الرواية؟ هل الناس يكونون أكثر اندفاعًا بسبب المعتقدات الشخصية؟ أم بسبب المعتقدات المؤسسية مثل الدين أو السياسة؟
15. هناك بعض الشخصيات الأسطورية في الرواية، لماذا؟ وما علاقة ذلك بما يفعلونه في حياتهم اليومية وحياتهم فيما بعد؟ ما أوجه التشابه بين الشخصيات الأسطورية والشخصيات التاريخية في طريقة حديثنا عنهم؟
16. ناقِش تسلسل الأحداث ونتائج مرض الطاعون. كيف يعكس هذا النوع من الحروب مستوى التقدم في المجتمع، فضلًا عن الإحساس بقيمة الإنسانية؟
17. ما دور الحب َفي الرواية؟ وفي نهاية القصة، هل سادت فكرة الحب على جميع الأمور حينئذٍ؟ أو حلّ الانتقام محل الحب؟
18. لقد تناول كثير من المؤرخين الحرب الأهلية الأولى على أنها كانت معركة بين الماضي (الجنوب) والمستقبل (الشمال)، هل ينطبق ذلك على الحرب الأهلية الأمريكية الثانية؟ وما دلالة ذلك بشأن مستقبل البلد وحاضره وأولئك الذين يحكمونه؟

نبذة عن المؤلِف

ولد عمر العقّاد في القاهرة، ونشأ في الدّوحة قبل أن ينتقل إلى كندا. عمل صحافيًا في *جلوب آند ميل* (The Globe and Mail). نال عن تغطيته لمخطّط إرهابي عام 2006 على إحدى جوائز *ناشونال نيوزبيبر* للصحافة الاستقصائية (National Newspaper Award for Investigative Reporting). تتناول أعماله الصحافية الآخرى تقارير عن الحرب التي قادها حلف الناتو على أفغانستان؛ والمحاكمات العسكرية في خليج غوانتانامو؛ وثورة الربيع العربي في مصر؛ وحركة Black Lives Matter في فيرغسون بولاية ميسوري. يعيش الآن مع زوجته جنوبيّ بورتلاند، في ولاية أوريغون الأمريكيّة.

نبذة عن المترجم

كاتب ومترجم من مصر. وُلِدَ في الاسكندرية عام 1976. سافر إلى المملكة المتحدة في بعثة تدريبيّة بجامعة أدنبرا عام 2004. ترجم لترومان كابوتي ونورمان ميلر وجور فيدال وارنست جينز وآخرين. نُشرت ترجماته في المركز القومي للترجمة بالقاهرة والهيئة المصرية العامة للكتاب ودار أزمنة في الأردن، إلى جانب عديدٍ من الصحف والمجلات المصريّة والعربيّة.